

فَبَسِّ وَضَاءٍ مِنْ وَحْيِ السَّمَاءِ

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ وَأَحْكَامٌ مِنْ بَعْضِ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الدَّكْتُورُ
السَّيِّدُ عَبْدِ الْحَكِيمِ مُحَمَّدٌ دُحَسَيْنُ

قَبَسٌ وَضَاءٌ مِنْ وَجْهِ السَّمَاءِ

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ وَأَحْكَامٌ مِنْ بَعْضِ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الدُّكْتُورُ
السَّيِّدُ عَبْدِ الْحَكِيمِ مُحَمَّدٌ حَسَيْنٌ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد: فإنه لقبس وضاء من وحي السماء. فما أجمل أن نقتبس من نور القرآن ونعقب من عرفه، ونستأنس بهداه، ونعترف من فيضه، ونستضيء بسناه، لأنه حجة الله على خلقه، وحجة النبي في رسالته، وسجل الشريعة المحكم في بيانه. وهو المرجع عند الاختلاف، والحكم العدل عند الافتراق، وهو المرشد عند الاعوجاج، من سلكه وصل، ومن لجأ إليه اهتدى «إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن هو حبل الله، والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة من تمسك به، ونجاة من اتبعه لا يُعَوِّجُ فَيُقَوِّمُ، ولا يزيغ فيستعيب، ولا تنقضي عجائبه، فاتلوه، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات».

فالقرآن عصمة من الزيغ. ففيه حكم الأمور كلها، وكل ما فيه حق. وفيه أخبار النبيين، وعبر الماضين، استوعب كل الكتب المنزلة على الرسل السابقين، وفيه المثالات المرشدة، والعظات البالغة الموجهة، بما اشتمل على الآداب الإنسانية الرائعة التي تقوم السلوك، وتوجه الفرد تجاه الكون وخالقه.

خاطب الله به أوليائه فعرفوه، وأصحاب العقول المستقيمة فأدركوه. حتى شهد العرب في نفوسهم بعظيم أثره. وكم من معاند وخصم لدود لمحمد ولدينه تسلل سحر القرآن إلى قلبه فاستل سخيته،



وأذهب لده، وكان برداً وسلاماً على فؤاده، فأمن، وما كان قومه يظنون أنه سيكون من المؤمنين.

بلغ العرب الذين تحداهم القرآن من رفاهة الحس، ودقة الذوق اللغوي، والقدرة على التمييز بين ألوان الكلام البليغ درجة لم يدركها أحد قبلهم من الأمم، فلقد رُبُّوا تربية لغوية رفيعة انتهت بمعجزة لغوية، لم يكن لهم قبل بتحديها، ولولا أنهم بلغوا الغاية الإنسانية في الكمال اللغوي ما تحداهم القرآن.. لأن المعجزة تأتي من جنس ما مهر فيه القوم. ولقد كنت ترى أحدهم وقد امتلأ صدره بغضاً للإسلام وحنقاً عليه، ويود بجذع الأنف أن ينكل به ورسوله، فما هو إلا أن يسمع بعض آيات من القرآن حتى تنهار نفسه الجامحة، ويذهب لده، وتتبخر البغضاء من قلبه، ويدرك أن هذا القرآن من لدن عزيز حميد، ثم إذا هو أحسن الناس إسلاماً... وأشدهم حماساً له وتمسكاً به ودفاعاً عنه.

وفي إسلام عمر بن الخطاب لدليل عظيم على ما فعله القرآن بنفوس هؤلاء القوم. ولم يكن القرآن يلاينهم، أو يتملقهم، وإنما كان ينزل عليهم كالسياط الملتهبة.. يسفُّه أحلامهم ويزري بآلهم، وبآبائهم الأولين، ويهددهم ويتوعددهم بأفزع ألوان العقاب وهم أهل الحمية والحفاظ. ومع ذلك لم يسعهم إزاء روعته وجلاله وقوة أسرته، إلا أن تلين قلوبهم له، ويؤمنوا به، فخلقهم خلقاً آخر وجعلهم مصابيح الدنيا، وجيلاً من الناس لم يشهد له التاريخ ضرباً، في عدله، ورحمته، وقوته، وتمثله لكل تعاليم الكتاب الحكيم في جميع أقواله وأفعاله.

وقد ينظر إلى أن الأدب الرفيع الذي يصدر عن نفس سليمة إنما همه الأول الارتفاع بالنفس البشرية إلى سماوات المجد وأن يبعث فيها القوة والعزة، والإيمان بالمثل العليا وأن تعيش في سعادة وبُلَهنية في مجتمع مثالي تسوده مكارم الأخلاق، ويعيش الناس فيه إخوة متحابين، ترفرف عليهم ألوية الخير والسعادة.

ويرى أن القرآن الكريم يعد النموذج الأسمى في هذا الفن، وأنه رسالة الله الخالدة التي أتت لهداية الإنسانية كلها، وأنه كان عميق الأثر، بعيد الغور، في تاريخ البشرية، حين حوّل العرب من أمة تهيم بالضلالات، وتؤمن بالخرافات، وتعبد الأوثان، وتستجيب لنداء العصبية القبلية، وصوت الدم البغيض، إلى أمة مثالية، تعبد الله وحده وتتحدى بمكارم الأخلاق قولاً وعملاً، وتمجد العقل والدين، فخرجوا من جزيرتهم القاحلة، وصاروا في مدى وجيز سادة العالم، وأفاء عليهم خيرات الأرض.

فهذا الكتاب آية من آيات الله ومعجزة من معجزاته، وهو وحده يكفي في الدلالة على إثبات رسالة الرسول ﷺ، ويقوم مقام معجزات سواه من الرسل. أوحى الله به إلى نبيه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه، ليكون معجزته الخالدة أبد الدهر، تتحدى الأجيال إلى يوم القيامة تنير السبيل للسالكين.

وفي هذا الكتاب قبسات من الفيوضات الربانية التي أودعها الله كتابه المكنون، أردت بها الوقوف على بعض الحكم والأحكام في السور الأربع لتكون نبزاً وهاجاً، وأنواراً كاشفة، في دياجير الظلمة المادية الطاغية.

وتبعاً لتحقيق المنهج التطبيقي في الموازنة بين أغراض السور المكية والمدنية، كان لا بد من إيراد سورتين مكيتين من قصار السور وهما (عبس) و(الغاشية) عقب سورتي (النساء) و(النور) لتتجلى سمات وخصائص هذا المنهج الرباني الذي أخرج الله به جيلاً فريداً، وبعثه بعثاً جديداً أصيلاً.

وفي السور الأربع تعددت الأغراض والأهداف والخصائص، وذلك يدل تدليلاً كاملاً على أن القرآن الكريم نزل من لدن حكيم خبير، وهو المنهج المتفرد بالكمال، المقتلع لجذور الشر والفساد من النفوس والطباع، والغارس فيها بذور الخير والإصلاح.



فسورة (النساء) تشتمل على كثير من الأحكام التي تسعى إلى إنهاء المجتمع الجاهلي، وترسم السلوك السوي الذي يقيم العدل ويتحرى السداد.

وسورة (النور) تقاوم تيار الفاحشة البغيضة بالنور الذي تبدو فيه للبيوت حرمتها، وللعيون وظيفتها، وللزينة كلفتها، ويضيء للأزواج الطريق إذا رأوا خيانة زوجاتهم، ويسلط شعاعه على الحد الفاصل بين الطيبين والخبيثين، ويرى فيه المؤمن وعد الله تعالى بالاستخلاف في الأرض ماثلاً للعيان.

وسورة (عبس) تشتمل على لمسات تتسم بقوة الوقع، وشدة التأثير، وقمة الإعجاز.

وسورة (الغاشية) ترتاد بالنفس البشرية عالم الغيب الذي سبق عالم الشهادة، وطواه حرفاً في سجله، واحتواه نقطة في كتابه، وضمّنه قطرة في محيطه، وسيبقى بإذن ربنا بعد فنائه... وتجوب بالقلب الإنساني عالم الشهادة، الذي يشهده الحس، ويبهز النفس، ويأسر الوجدان، بما ينبعث في سمائه وأرضه من دلائل القدرة، وما يموج فيه من آيات الوجدانية.

وتخلص من رحلتها في هاذين العالمين إلى تقرير مهمة الرسول ﷺ في التذكير والتبليغ، وتؤكد البعث والأوبة إلى الله، وحتمية الحساب. ذلك هو كتاب الله بما يحمل من معان وتكاليف، وما كساه الله به من روعة وتشريف.

آنسنا الله بأنواره، وفتح لنا مغاليق حكمه وأسراره، إن ربي على ما يشاء قدير.

السيد عبدالحكيم محمد حسين

تقديم بقلم فضيلة الدكتور محمد عبد العزيز داود الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين والدعوة بالقازيق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۖ فَيَمَنَّا
لِتُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ
أَجْرًا حَسَنًا ۖ مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له بفضلته تتم الصالحات وبتوفيقه تزكى الأعمال وبفضله ترفع
الدرجات. قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ﴾. ونشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله.

أما بعد؛

فالقرآن الكريم هو الصراط المستقيم والنور المبين الذي أضاء
معالم الطريق لهذه الأمة وأخذ بيدها من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان
فأزال غشاوة العقول وأذاب صداً القلوب وجعل من هذه الأمة التي لم
تكن تدري ما الكتاب ولا الإيمان جعلها خير أمة أخرجت للناس. ولقد
تكفل الله بحفظه قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ومن عوامل هذا الحفظ أن قيض الله في كل عصر العلماء الذين
ينهلون من ينابيعه الصافية ويرتشفون من وحي أسرار المعجزة



يستخرجون من آياته الكريمة درراً من التفسير وقلائد من التشريع .
وجواهر من الحكم وكلما تعمق العلماء في فهم كلماته المحكمة وآياته
المفصلة استخرجوا المعاني السامية والدروس الرائدة التي تأخذ بيد
المسلمين إلى آفاق السعادة في الدنيا والفوز في الآخرة .

والكتاب الذي بين أيدينا «قبس وضاء من وحي السماء» خطه يراع
عالم فاضل نشأ وترعرع على وحي السماء وخلق الأنبياء وسلوك
الأتقياء، منذ نعومة أظفاره وهو يحمل بين حنايا قلبه حباً لكتاب الله
وسنة رسول الله ﷺ هذا الحب العميق برّ به أقرانه وتفوق به على إخوانه
وترجم حبه للكتاب والسنة جهاداً في ميادين الدعوة منذ بداية التعليم
بالأزهر خطيباً مفوهاً ومحاضراً سهل العبارة قوي الحجة ومجادلاً يقرع
الدليل بالدليل شجاعاً في الحق . هذه الشجاعة عرضته منذ صدر شبابه
لبعض المحن كانت وساماً على صدره . وها هو الآن يقدم إلى المكتبة
الإسلامية هذا التفسير في ثوب قشيب . ولون جديد، من خلال تفسير
سور النساء - النور - عبس - الغاشية ولقد جمع بينهما من اختلاف
موقعهن في المصحف ليوازن بين أغراض السور المكية والمدنية وليبرز
إعجاز القرآن الكريم في سورة الطوال والقصار، وهو - بارك الله فيه -
خلال حسن العرض ورقة التفسير وسهولة الأسلوب ووضوح العبارة
يتناول قضايا :

العقيدة السليمة والإيمان الصحيح ثم يجلي أساليب إصلاح
المجتمع ووسائل النهوض بالأسرة ويركز على ذروة سنام الإسلام وهو
الجهاد الذي غفل الناس عنه، ثم يستعرض جرائم أهل الكتاب التي لا
يخلو منها عصر من العصور وهي الآن أشد قداً وأقوى فتكاً يسانداهم
في هذا بعض المنافقين الذين تربوا على موائدهم . وإلى غير ذلك من
الموضوعات التي تناولتها هذه السور الكريمة .

والكتاب بهذا النمط المتميز تجربة عالم مجاهد ويراع أديب فاهم
وعقل مفسر يجمع بين الأصالة والتجديد وهو بهذا يثري المكتبة
الإسلامية ويساهم في الصحوة الإسلامية المعاصرة.

والله أسأل أن ينفع به كل مطلع عليه .

والله ولي التوفيق .

الدكتور محمد عبد العزيز داود



تَقْدِيمُ بِقَامِ فَضِيلَةِ الدُّكْتُورِ عَلِيِّ مُحَمَّدٍ الشَّرِيفِ وَكَيْلِ كَلِيَّةِ أُصُولِ الدِّينِ وَالِدَعْوَةِ بِالزَّقَازِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه ورسوله محمد ابن عبد الله الصادق الأمين الذي بلغ رسالة ربه كما أمره سبحانه، والذي جاهد في سبيله حتى أتاه اليقين، ورضي الله تبارك وتعالى عن آل بيته وعن خلفائه وسائر أصحابه أجمعين. (وبعد):

فإن كتاب الله تبارك وتعالى هو كلامه وبلاغه الأخير إلى عباده، وحجته البالغة عليهم! أنزله الله سبحانه تبياناً لكل شيء، وهدى ونوراً ورحمة وشفاء، وجعله المنهج والشرعة للناس كافة، وجعله المعيار المهيمن على ما تقدمه من الكتب، أمرنا الله تعالى بقراءته، وتدبر آياته، وأمرنا باتباع ما جاء فيه من تشريعات وأحكام. ومن ثم فقد عني به المسلمون من لدن رسول الله ﷺ إلى عصرنا هذا. وسيبقى ذلك إلى أن تقوم الساعة.

عني به المسلمون تلاوة وحفظاً، ونذيراً وبياناً عبر القرون والأجيال المتعاقبة، وكثر المفسرون لكتاب الله تعالى، واشتهروا في عهد الرسول ﷺ، وعصر خلفائه، وسائر أصحابه، كما كثروا واشتهروا في كل عصر ومصر، منهم من فسره كله، ومنهم من فسّر بعضه.

ومن الذين اهتموا وعنوا بكتاب الله تعالى الأخ الفاضل الشيخ



الجليل الشيخ سيد عبد الحليم وهو من خيرة علماء الأزهر علماً وخلقاً، أحسبه كذلك والله حسيبه ولا أزيد على الله تعالى. كما أنه من المهتمين بالدعوة إلى الله على هدى وبينة وبصيرة، ومن المعتصمين بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، المنافحين عنهما، والداعين للاعتصام بهما جهد الطاقة، ومن الذين لهم جهود مشكورة لا تنكر في إحياء سنة رسول الله ﷺ ومجابهة البدع بكل أشكالها وصورها.

ومواصلة للسير على طريق الدعوة إلى الله تعالى باللسان والقلم قام مشكوراً بتفسير سور النساء والنور، وعبس والغاشية. تحت عنوان «قبس وضاء من وحي السماء».

ولقد نهج في تفسيره هذا نهجاً طيباً وحيداً، دلّ على غزارة علمه وسعة أفقه، وحسن وسهولة عبارته.

وأوجز المنهج فيما يلي:

١ - يعرض المؤلف أولاً لبيان معاني مفردات الألفاظ التي يحتاج القارئ إلى بيان معناها.

٢ - يتناول المؤلف بعد ذلك الآيات القرآنية بالدراسة التحليلية مبيناً فيها:

أ - الأوجه اللغوية التي يتضح بذكرها المعنى من النحو والبلاغة.

ب - أوجه الإعجاز التي اشتملت عليها الآيات الكريمة.

ج - المعاني التركيبية للآيات الكريمة.

د - أثناء ذلك يذكر المؤلف سبب النزول: للآيات إن وجد ذلك ثم أوجه الربط بينها.

٣ - ثم يختم المؤلف رحلته مع الآيات عبر منهجه ذلك بالحق عما يستخلص من الآيات من الدروس والعبر.

هذا . . وإني أرى أن هذا الكتاب بهذا المنهج يصلح للطباعة والنشر حتى تتسم به الفائدة، وتثرى به المكتبة الإسلامية، فيكون إسهاماً من مؤلفه في حدود العلم والدعوة.

والله تعالى يوفق المؤلف ويجزيه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وينفع بكتابه هذا من يقرأه. آمين يا رب العالمين، وهو سبحانه من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الدكتور علي محمد الشريف



القرآن الكريم

١ - مفهومه:

القرآن هو: كلام الله المعجز، المنزل على «محمد» ﷺ والمكتوب في المصاحف، والمنقول إلينا بالتواتر، والمتعبد بتلاوته.

وإذا كانت الكتابة في المصاحف، والنقل إلينا بالتواتر لا يدخلان في حقيقة القرآن فقد كان القرآن قبل أن يكتب، وقبل أن ينقل إلينا بالتواتر، فإن هذا التعريف للقرآن إنما يقدم لأمثالنا ممن لم يشاهدوا الوحي.

وللقرآن أسماء كثيرة أشهرها على الترتيب: القرآن - الفرقان - الكتاب - الذكر - التنزيل.

ويبلغ عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة.

وقد قرئ القرآن بترتيب سوره كما هو الآن في عهد الرسول الكريم والصحابة ومن التابعين، وهو ترتيب يجب احترامه درءاً للفتنة والفساد.

وترتيب آيات القرآن على النحو الذي نراه الآن في المصاحف كان بتوقيف من النبي ﷺ من ربه: فقد كان جبريل ينزل بالآيات، ويرشد إلى موضع كل آية من سورتها.

٢ - القرآن والكتب السماوية السابقة:

نزلت هذه الكتب السماوية توقيتاً لا تأبيداً: فهي موقوتة بزمن



محدد، ونطاق محدد. أما القرآن فقد نزل مصدقاً لما تقدم عليه من الكتب ومهيماً عليها، فكان جامعاً لما فيها من حقائق، زائداً عليها ما اكتملت به الإنسانية ديناً ودنيا. ولم يكن منها ما يسد مسده وبهذا بقي القرآن حجة أبدية عامة، بقي محفوظاً إنجازاً لوعده الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ولم يصبه ما أصاب الكتب السابقة من التحريف والتبديل، وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى أصحابها: ﴿وَالرَّازِئِينَوْنَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

٣ - كيفية نزول القرآن:

نزل القرآن على محمد ﷺ وحياً منجماً، ولم يكن محمد ﷺ بدعاً من المرسلين، ولا كان أول نبي خاطب الناس باسم الوحي، وحدثهم بحديث السماء، فمن لدن نوح تتابع أفراد اصطفاهم الله واختارهم، ينطقون عنه ولا ينطقون عن الهوى، ولم يكن الوحي الذي أيدهم به الله مخالفاً للوحي الذي أيد به محمد؛ لأن مصدرها واحد، وغايتها واحدة ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾. ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١، ٤].

وقد صورت السيدة عائشة بدء الوحي فقالت:

«أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاء الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك (جبريل)، فقال: اقرأ، قال: ما

أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني - أي ضمني وعصرني - حتى بلغ بي الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ [العلق: ١، ٤] فكانت هذه الآيات أول ما نزل من القرآن الكريم.

ثم تتابع نزول القرآن مفزاً حسب الوقائع والأحداث ومقتضيات الأحوال، ويسمي العلماء القطعة التي نزلت دفعة واحدة نجماً، كأنهم ينزهون القرآن عن التفريق والتقطيع، ويشبهون أجزاءه بالنجوم، فكل نجم له إضاءته واستقلاله، ولكنه جزء لا ينفصل عن مجموعة الكواكب.

وهذا التنجيم خاص بالقرآن من بين الكتب السماوية، فقد روي عن ابن عباس، قال: قالت اليهود: يا أبا القاسم، لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة، كما أنزلت التوراة على موسى، فنزلت الآية: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ ولو كانت الكتب السماوية السابقة نزلت مفرقة لكان يكفي في الرد عليهم، هذه سنة الله في كتبه المنزلة على رسله. وقد استمر نزول القرآن منجماً نحو ثلاثة وعشرين عاماً.

٤ - لماذا نزل القرآن منجماً؟

نزل القرآن منجماً لحكم إلهية كثيرة أهمها:

أ - تثبت فؤاد النبي ﷺ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ فإن تجدد الوحي وتتابعه يدخل الأمن والاطمئنان والعزاء والسلوى على قلب الرسول ﷺ حيث يشعر بأنه في كنف الله ورعايته ورضاه.

فإذا اشتد أذى المشركين به سلاه ربه تارة بقصص الأنبياء والمرسلين ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.



وتارة بوعد الله له بالصبر والنصر ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾
وتارة بوعد الله لأعدائه ﴿سَيَهَيِّئُكَ لِجَمْعِ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾.

ب - تيسير حفظ القرآن على النبي ﷺ وعلى أمته؛ ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ الْفُرْقَانُ لِقَاءِ
عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّهِ وَزَلَّزْنَاهُ نَزِيلًا﴾.

وقد كانت الأمة العربية لا تقرأ ولا تكتب، وكانت مشغولة
بمعاشها وجهلها فكان نزول القرآن مفرقاً أدعى لحفظه وفهمه
وتبليغه ونشره.

ج - التدرج في التخلي عن الرذائل، والتحلي بالفضائل، والترقي في
التشريعات؛ فلو أن الناس أمروا بكل الواجبات ونهوا عن
المنكرات دفعة واحدة لشق عليهم، ولضعفت الهمم الصغيرة عن
الاستجابة بل وعجزت عن النهوض، تماماً كالطبيب الذي يعطي
المريض دواءه على جرعات، ولو أعطاه له مرة واحدة لتحقق
واحد من أمرين، إما رفض الدواء وإما القضاء عليه.

د - كانت العرب قبل الإسلام من الناحية العقلية والاجتماعية في حال
لا تهيئهم كثيراً لتلقي كتاب كامل، وصحف تامة، فكانت الحكمة
في أن ينزل القرآن منجماً مفرقاً، يتلقونه شيئاً فشيئاً، وقد حفت به
مناسبات النزول، وتوجهت النفوس إلى تلقيه.

هـ - مسايرة الحوادث وهي متجددة، فكلما جد جديد جاء حكمه
فيرسخ في النفوس وتتجاوب معه:

فقد كانت الآيات تنزل أحياناً من سؤال صريح: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي
الْقُرْبَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا
جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وأحياناً كانت تنزل في واقعة معينة
كآيات الإفك، وليس من الحكمة تصحيح الخطأ قبل وقوعه.

وأحياناً كانت تصحح الأخطاء، وتوجه إلى ما ينبغي أن يكون كما

حدث في أسرى بدر: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ تَرْيُوتٌ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

وأحياناً تكشف المنافقين، وترى أحقادهم وضغائنهم ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ - ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

د - الإشارة إلى مصدر القرآن، وأنه كلام الله وحده، فالقرآن إن نزل مفرقاً فإنه مترابط أقوى ترابط، محكم أشد إحكام على نمط يفوق قوى البشر فلم يؤثر الانفصال الزمني انفصلاً في الأسلوب أو المعاني كما هو شأن كلام الناس ﴿كَتَبْتُ أُحْكِمْتُ أَيْنُهُ ثُمَّ فَضِلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١].

ي - التمكين للنسخ: فقد شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى أن ينسخ من كتابه التلاوة أو الحكم أو هما معاً تدرجاً من السهل إلى الصعب، للترقي بالأمة في مدارج الكمال، أو انتقالاً من الصعب إلى السهل - وهو الكثير - تخفيفاً على الأمة وتيسيراً عليها، ولا يتحقق ذلك إلا فيما نزل مفرقاً على مدى الأزمان.

عناية النبي والمسلمين بالقرآن

إن مهمة الرسول ﷺ لا تخرج عن أمرين:

١ - تبليغ ما أنزل الله عليه إلى الناس.

٢ - بيان ما خفي عليهم من أحكام الإسلام.

فأما التبليغ فقد أمره الله تعالى به: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ١]. فكان رسول الله ﷺ



يقرأ ما أوحى إليه على من حضر. ويبعث من حفظه من يعلمه لمن يرغب، وقد أقبل الصحابة رضي الله عنهم جادين على حفظ القرآن، فكان منهم من يحفظ كل ما نزل، ومنهم من يحفظ بعضه، وكانت عنايتهم بالحفظ والتلقي أكثر من عنايتهم بالكتابة، فقد كان يسمع لهم في مسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوته، لقد كان الجميع في شوق بالغ لسماع ما ينزل به الوحي، وكان من شهد منهم قراءة رسول الله ﷺ يبلغ من غاب، بل أن منهم من كان يتناوب مع غيره في النزول إلى المدينة لتتبع أخبار الوحي، حتى لا يفوته منها شيء. وكان الصحابة يتدارسون القرآن ويستظهرونه، ليتمكنوا من قراءته في صلواتهم. وكان رسول الله ﷺ يساعدهم على هذا التدارس، ويرغبهم فيه، ويشجعهم عليه بل كان عليه السلام يختار أعلمهم بكتاب الله ليبلغ إخوانه، فكان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل من الصحابة يعلمه القرآن.

وأما البيان فقد أمر الله نبيه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ - ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي أَخْلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٦٤].

وقد بين الرسول ﷺ بسنته - بمفهومها الشامل - ما يحتاج من أحكام القرآن ومعانيه إلى بيان، ومن ثم أمر الله الناس بطاعة رسوله وجعل طاعته طاعة له ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] - ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء].

وعلى هذا فلا سبيل للعمل بالقرآن إلا بالمنهج الذي انتهج الرسول ﷺ وبينه للناس.

ومن هنا كانت السنة النبوية مع القرآن أشبه ما تكون بالذاكرة التفسيرية للقانون توضح قواعده ومقاصده، وتعين على تطبيق أصوله ومبادئه.

القرآن بين مكة والمدينة

من شواهد اهتمام المسلمين بالقرآن الكريم ذلك التتبع الدقيق لمراحل الوحي ومعرفة مواطن نزول الآيات وأوقاتها، وقد أداها ذلك إلى تمييز ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالنهار وما نزل بالليل، وما نزل في الحضر، وما نزل في السفر، وما نزل في البرد وما نزل في الحر، إلى غير ذلك من الدقة في الاستقراء والاستقصاء، وهذا يؤكد الثقة المطلقة بوصول القرآن إلينا كما أنزله الله لم يلحقه تغيير أو تحريف، لأن هذا الاهتمام البالغ بمعرفة أماكن نزول الآيات أو زمنها يدل على أن الصحابة كانوا حماة متحمسين لهذا الكتاب الخالد، فليس معقولاً أن يغفلوا عن بعضه، أو أن يدعوا أحداً يحاول أن يعبث به.

والمصطلح الذي اشتهر بين العلماء والباحثين في تتبع مراحل الوحي هو مصطلح:

«المكي والمدني».

ولهذا المصطلح إطلاقات ثلاثة:

الأول: إن المكي ما نزل بمكة قبل الهجرة أو بعدها، والمدني ما نزل بالمدينة، ويدخل في مكة ضواحيها كمنى وعرفات والحديبية، كما يدخل في المدينة ضواحيها كبدر وأحد.

وهذا التقسيم لوحظ فيه مكان النزول.

الثاني: إن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة دون اعتبار لمكان النزول أو زمانه.

وهذا التقسيم لوحظ فيه المخاطبون.

وأخذ على هذين الإطالقين أنهما غير ضابطين ولا حاصرين فبعض الآيات لم ينزل في مكة أو المدينة أو ضواحيها،



كالذي نزل في تبوك مثلاً، كما أن هناك آيات لم تقع خطاباً لأهل مكة أو أهل المدينة أو هما معاً كآيات التي خوطب بها النبي - ﷺ - في صدر سورة الأحزاب والمنافقين.

الثالث: إن المكي ما نزل قبل هجرة الرسول - ﷺ - إلى المدينة وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة.

وهذا الإطلاق الثالث هو المعول عليه في دراسة المكي والمدني من القرآن، فقد لوحظ في زمن النزول - وإن كان لم يغفل المكان والأشخاص والموضوع - وهو تقسيم صحيح سليم لأنه ضابط حاصر، ومطرّد لا يختلف.

وهناك سور نزلت كل آياتها بمكة كسورة «هود» و «يوسف» وسور نزلت كل آياتها بالمدينة كسورة «آل عمران» وسور اجتمع فيها المكي والمدني، فما غلب عليها المكي سميت مكية كسورة «الأنعام»، فقد نزلت بمكة إلا بضع آيات نزلت بعد الهجرة، وما غلب عليها المدني سميت مدنية كسورة «التوبة» فقد نزلت بالمدينة إلا بعض آيات منها نزلت بمكة. على أن معرفة المكي والمدني طريقة النقل الصحيح من الصحابة الذين عاينوا الوحي، وكانوا ينتظرون نزول الآيات في شوق، ويتسابقون في حفظ ما ينزل وفهمه والعمل به. وقد نقل عن بعضهم أنه كان يعلم كل سور القرآن من حيث أماكن النزول وأسبابه.

فهذا عبد الله بن مسعود يقول: والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.

ولا جدال في أن الصحابة لم يكونوا جميعاً كابن مسعود في إحاطته بتاريخ القرآن وأسباب نزوله، فمنهم من لم يتوفر على ذلك، ولكن الذين اشتهروا بقراءة القرآن وحفظه ونقله من فم الرسول ﷺ - وهم كثيرون - كانوا يحفظون مع نطق الآية وتلقيها وكتابتها تاريخ نزولها.

وبعد فهل يمكن أن تكون هناك خصائص ينفرد بها ما نزل من القرآن في مكة قبل الهجرة وخصائص أخرى ينفرد بها ما نزل من القرآن بعد الهجرة؟

حديث العلماء والباحثين لا يعطي هذا، اللهم إلا إشارتهم لكلمة «كلا» - وهي للزجر والتهديد - وأنها لم ترد في سورة مدنية، وإنما وردت في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها مكية. وما عدا ذلك فهذه الخصائص غالبية.

وهذه الخصائص في مجموعها تنقسم قسمين:

١ - خصائص في المضمون.

٢ - خصائص في الأسلوب.

١ - إن ما نزل في مكة كان يخاطب مجتمعاً وثنياً شاعت فيه المنكرات والموبقات ووقف من الدعوة المحمدية موقف العداء، اضطهد من آمنوا، وحاول أن يمنع محمداً ﷺ من تبليغ رسالة ربه، ولما يئس من نجاحه في ذلك قرر قتل الرسول - ﷺ - في صورة تجعل الدم الذكي الطاهر مفرقاً بين القبائل، وينتهي أمر هذا الداعية الذي سفه الأحلام، وعاب الآلهة وأفسد على الطغاة والسادة الأرقاء والعبيد. وواجه المسلمون في مكة المكاره والشدائد في يقين ثابت وإيمان راسخ، حتى أذن الله لهم بالهجرة إلى يثرب فكان لهم فيها الأمن والحرية.



هذا المجتمع غلب على القرآن الذي خاطبه - وهو أكثر من نصف القرآن بقليل - معالجة قضية الوجدانية، وتحرير عقل الإنسان من عبودية غير الله، والدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، وجنة ونار، وبيان أن هذه الأصنام التي يعفوا لها الإنسان، ويتخذها زلفى إلى الله لا تملك له نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأن تلك المنكرات التي يأتيها لا تليق به وبمكانته في هذا الكون، وأن عليه أن يثوب إلى رشده، ويقلع عن غيه وشركه، ويؤمن بخالقه ورازقه، ويستمر بخلال الخير والبر.

وكان للقرآن منهجه الفريد في معالجة تلك القضايا التي عرض لها في المرحلة المكية وكان قوام هذا المنهج الأمر بالتدبر والتفكير في النفس الإنسانية والكائنات كلها من أرض وسماء وكواكب وحيوانات وجمادات وبحار وأنهار وأشجار وثمار. كما كان ضرب الأمثال وأخبار السالفين وما جرى لهم مع أنبيائهم من دعائم هذا المنهج أيضاً.

أما القرآن الذي نزل في المدينة بعد الهجرة فهو يخاطب مجتمعاً آخر، مجتمعاً ارتضى الإسلام ديناً، وتوافرت له كل أسباب قيام الدولة، لذا غلب على القرآن المدني تقرير التشريعات والفرائض التي تنظم المجتمع، وتحمي الأمة، وتدفع عنها أطماع الطامعين وكيد الحاقدين.

لقد نزلت كل التشريعات تقريباً في المرحلة المدنية: فتشريعات الحدود والفرائض والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية كلها مدنية، وتشريعات العبادات سوى الصلاة مدنية كذلك، والإذن بالجهاد المسلح وبيان أحكامه مدنية، كما سجل القرآن المدني طبائع النفاق والمنافقين ومدى خطورتهم على المجتمع الإنساني والإسلامي بوجه خاص فقد

كان النفاق في المدينة شديد الخطر على الإسلام والمسلمين، وكانت له وسائله المتنوعة من الكيد والطعن من الظهر، فقد تحدثت سورة «البقرة» عن المؤمنين والكافرين والمنافقين، غير أن حديثها عن المؤمنين لم يتجاوز ثلاث آيات وكذلك حديثها عن الكافرين لم يتجاوز آيتين.

أما الحديث عن المنافقين فقد استغرق ثلاث عشرة آية، ذلك لأن النفاق حلاوة في اللسان ومرض في القلب، إنه خداع وفساد وضلال، لذلك احتاج الحديث عنه إلى تلك الآيات؛ لتعريته وإظهار حقيقته.

كما سجل القرآن المدني خصال اليهود وموقفهم الذي لا يتغير على مر العصور من المؤمنين إنهم دائماً يمكرون مكرّاً سيئاً، ويكيدون كيداً خبيثاً، ويحملون للمسلمين في كل زمان ومكان حقداً دفيناً، وعداوة ليس بعدها عداوة، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة].

إن حديث القرآن عن المنافقين واليهود لم يكن تسجيلاً لأحداث تاريخية مضت وإنما هو تسجيل لخصائص نفسية وصفات ذاتية لا تنفك ملازمة لهؤلاء وأولئك فإذا لم يكن لنا في حديث القرآن عن المنافقين واليهود تذكرة وعظة فويل لنا منهم جميعاً بأنهم يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم، إنهم لن يرضوا عنا حتى نتبع ملتهم ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء].

خصائص الأسلوب المكي والمدني في القرآن

أتت الخصائص الأسلوبية للقرآن المكي والمدني انعكاساً للخصائص الموضوعية للقرآن المكي والمدني:

فالحديث عن الشرك وطغيانه وأوثانه وفساده غير الحديث عن الإيمان وقيمه وتشريعاته.



الأول حديث يحتاج إلى كلمات وعبارات زاجرة، وخطاب يقرع الألباب والأفئدة ويهز المشاعر والضمائر ليبدد ما راق عليها من ظلمات الجهالة والضلالة، وتصوير جريمة الشرك وفداحة آثارها ومصير أهلها.

والثاني حديث ثلاثه الكلمات التي ترفرف بالنور، وتنجلي القلوب مناجاة تحن إليها وتهنأ بها، وتأتي بالقواعد والمبادئ في شمول وإيجاز.

ومن هنا غلب على القرآن المكي قصر الآيات والسور وإيجازها وحرارة تعبيرها وتجانسها الصوتي، وكثرة السجع والفواصل وضرب الأمثال، وأسلوب القسم والتكرار، وعرض مشاهد يوم القيامة عرضاً يمجج بالحياة والحركة، كأن ما سيقع في هذا اليوم مشاهد محسوس للقوم، علمهم يخافون يوماً يفر فيه المرء من أحب الناس إليه في دنياه، فيدعون ما هم عليه من شرك في العقيدة، وفساد في الأخلاق.

على حين غلب على القرآن المدني قلة الفواصل، وطول الآيات والسور، والأسلوب التشريعي الهادئ، ولا يعرض ليوم القيامة، كما يعرض له القرآن المكي. ثم إن تنوع موضوعات القرآن المكي والمدني هو الباعث الأهم على تنوع الأسلوب القرآني، فما هما بالأسلوبين المتعارضين اللذين لا تربط بينهما صلة، وإنما هو أسلوب واحد يشتد أو يلين، ويفصل أو يجمع، تبعاً لحال المخاطبين، وهذا سر من أسرار إعجاز القرآن الكريم.

ثم إن دراسة المكي والمدني - فضلاً عن ذلك - توقفنا على معرفة تطور الدعوة والمشكلات التي اعترضت طريقها، وكيف كان التغلب عليها، حتى زالت دولة الشرك، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

كما تفيد هذه الدراسة في معرفة مراحل التشريع وتدرجه، وأثر هذا في توضيح المفاهيم القرآنية بين المؤمنين، ومن هنا كان منهج القرآن في التدرج التشريعي من أنجح المناهج في تكوين النفوس

المستنيرة المشبعة بالحكمة والخلق المتين، فهو منهج لا يعامل الناس في مرحلة الانتقال بنفس الطريقة التي يتعامل بها بعد أن وصل نضجهم إلى مرحلته الأخيرة، إنه منهج يتدرج بالأحكام حسب تقدم القدرة على الفهم والاستجابة حتى يكون الإنسان رقيباً على نفسه، يحترم التشريع بوازع داخلي قبل الوازع الخارجي، وهذا هو الفرق بين التشريعات الإلهية، والتشريعات الوضعية.



الأحرف السبعة

في الأحاديث الصحيحة المروية عن طرق مختلفة ما يفيد أن الرسول ﷺ صرح بنزول القرآن على سبعة أحرف، ومن أوضح هذه الأحاديث ما رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة «الفرقان» في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرت حتى سلم، ثم لببته بردائه أو بردائي، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرأها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة «الفرقان»؟ فقال رسول الله ﷺ: أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرأها، قال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت». ثم قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه» وقد اختلف العلماء في تفسير معنى الأحرف في الحديث اختلافاً امتد وتشعب فمن قائل إن الأحرف السبعة هي القراءات السبع المعروفة.

ومن قائل إن الأحرف معناها المعاني والجهات، إلى غير ذلك من الآراء التي لا تستند على نص متواتر..

ثم إن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمد رسول الله ﷺ للبيان والإعجاز.



والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابتها أو
كيفية من تخفيف أو تثقيل أو غيرهما.

فإذا صح أنه عليه السلام وسع على المسلمين في أول الأمر:
على المسن والعجوز والشيخ وأذن لكل منهم أن يقرأ على حرفه أي
على طريقته في اللغة، لما يجده من المشقة في النطق بغير لغته، فليس
معنى هذا أنه كان يأذن لهم بإثبات هذه القراءات وكتابتها على أنها
حروف نزل عليها القرآن.

ثم إن تفسير الأحرف السبعة بالمعاني يسلم النص القرآني إلى
هوى كل شخص يثبت على ما يهواه.

والصواب أن هذه الأحرف السبعة المراد بها الأوجه السبعة التي
وسع بها على الأمة، فبأي وجه منها قرأ القارئ أصاب.

ولقد كان النبي ﷺ يصرح بهذا كل التصريح حين قال:

«أقرأني جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل أستعيده حتى انتهى
إلى سبعة أحرف» (صحيح البخاري).

فاللفظ القرآني الواحد مهما يتعدد أدائه، وتتنوع قراءته لا يخرج
التغاير فيه عن الوجوه السبعة الآتية:

الأول: الاختلاف في وجوه الإعراب، سواء تغير المعنى أم لم يتغير.
فمما تغير فيه المعنى مثل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ
كَلِمَاتٍ﴾ فقد قرئ ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾. ومما لم
يتغير فيه المعنى مثل قوله: ﴿وَلَا يَضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ فقد
قرئ: ﴿وَلَا يَضَارُّ﴾.

الثاني: الاختلاف في الحروف إما بتغير المعنى دون الصورة، وهو ما
يعبر عنه أحياناً بالاختلاف في النقط، مثل «يعلمون»
وتعلمون»، وإما بتغير الصورة دون المعنى، مثل «الصراط

والسراط» و«المصيطرون والمسيطرون» وقد رسم في المصاحف بالصاد المبدلة من السين التي هي الأصل، فوافقت قراءة الصاد رسم المصحف تحقيقاً، وقراءة السين رسم المصحف تقديراً.

الثالث: اختلاف الأسماء في أفرادها وتثنيها وجمعها وتذكيرها وتأنيتها. مثل: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ فقد قرئ ﴿لأمانتهم﴾ ومؤدى الوجهين واحد، لأن في الأفراد قصداً للجنس وفيه معنى الكثرة، ولأن في الجمع استغراقاً للأفراد، وفي الاستغراق معنى الجنسية فرعاية «الأمانة» ك رعاية «الأمانات» تشمل الكل والجزئيات.

الرابع: الاختلاف بإبدال كلمة بكلمة يغلب أن تكون إحداهما مرادفة للأخرى وإنما تتفاوتان بجريان اللسان بإحداهما لدى قبيلة دون أخرى كقوله تعالى: «كالعهن المنفوش» قرئ «كالصوف المنفوش». أو يكون بين الكلمتين المبدلتين تقارب في المخارج يسمح بالتناوب بينهما، ويكاد يشعر بالتطابق بينهما معنى ولفظاً كقوله «طلع منضود» فقد قرئ «طلع» ومخرج العين والحاء واحد هو الحلق، فهما أختان تتعاقبان.

الخامس: الاختلاف بالتقديم والتأخير فيما يعرف وجه تقديمه أو تأخيره في لسان العرب العام، أو في نسق التعبير الخاص، مثل قوله تعالى في شأن المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله «فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ» قرئ «فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ». فعنى الحرف الأول يسرع المؤمنون إلى قتل الأعداء، وفي الحرف الثاني كأنما يتلهفون إلى ساحة المعركة تلهفاً على الشهادة. وفي الحاليين مؤدى الحرفين واحد لم ينله شيء من التغيير.



السادس: الاختلاف بشيء يسير من الزيادة والنقصان جرياً على عادة العرب في حذف أدوات الجر والعطف تارة وإثباتها تارة أخرى في حروف قليلة محدودة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعَدُّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قرئ ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهما قراءتان متواترتان.

السابع: اختلاف اللهجات في الفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والهمز والتسهيل، وكسر حروف المضارعة، وقلب بعض الحروف، وإشباع ميم الذكور وإشمام بعض الحركات. من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ وقوله: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُويَ بَنَانَهُ﴾ قرئ بإمالة ﴿أَتَى﴾ و﴿مُوسَى﴾ و﴿بَلَى﴾ نحو الكسر، وقوله تعالى: ﴿خَبيراً بَصِيراً﴾ بترقيق الرايين و﴿الصَّلَاةِ﴾ و﴿الطَّلَاقِ﴾ بتفخيم اللامين. وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بترك الهمزة ونقل حركتها من أول الكلمة الثانية إلى آخر الكلمة الأولى. وهو ما يسمى تسهيل الهمزة. وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ نحن نعلم، وتِسْوَدُ وجوه، أَلَمْ إِعْهَدْ بِكسر حروف المضارعة في جميع هذه الأفعال. وقوله تعالى: ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ فالهذليون يقرؤون: ﴿عَتَى عَيْنٍ﴾ بقلب حاء حتى وحين عينا. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ ومنهمو من يلزمك في الصدقات ﴿بِإِشْبَاعِ مِيمِ جَمْعِ الذَّكَورِ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَغِيضِ الْمَاءِ﴾ بِإِشْمَامِ ضَمَّةِ الْغَيْنِ مَعَ الْكَسْرِ.

رسم المصحف

أطلقت كلمة المصحف على هذه الصحف التي جمعها زيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب بأمر من الخليفة أبي بكر بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد موقعة اليمامة التي استشهد فيها الكثيرون من حفظة القرآن الكريم.

ولم يكن هذا المصحف معجماً، كما كان خالياً من أسماء السور والفواصل، كذلك لم يكن مرجعاً للقراءة أو المراجعة، بل هو أصل محفوظ بقي النص الديني من أن ينقص منه شيء، أو يثبت في بعض لفظه حافظ.

وقد حفظ هذا المصحف لدى أبي بكر حياته، ثم صار إلى عمر، ثم بعد وفاته صار إلى حفصة ابنته وزوج رسول الله ﷺ، وقد كانت تقرأ وتكتب، فهي أهل لحفظ هذا الكتاب.

وإذا كان القرآن الكريم نزل بلغة قريش، فإن ظروف المسلمين في نشر الدعوة اقتضت إباحة تلاوته بأحرف متعددة تذكر الروايات أنها سبعة، وأن الله تعالى قد رخص للمسلمين بهذا؛ تخفيفاً وتيسيراً ورحمة بهم، فهم أمة أمية تعددت قبائلها، فاختلفت بذلك لهجاتها، وتباين أداؤها لبعض الألفاظ، فكان يشق عليهم أن يقرأوا جميعاً بحرف واحد.

ويبدو مما تذكر بعض الروايات أن بعض المسلمين على عهد رسول الله ﷺ لم يكونوا يعلمون أن الله قد رخص لهم في قراءة القرآن طبقاً للأحرف السبعة فكانوا يختلفون ويتجادلون، ويلجأون في النهاية إلى الرسول ﷺ للفصل بينهم، فيصوب قراءة كل منهم.



ومنذ وفاة الرسول ﷺ إلى كتابة القرآن في عهد عثمان لم يكن لدى المسلمين مصحف إمام، وما دون في عهد الصديق لم يكن مرجعاً للقراءة، وإنما لحماية النص المقدس من التحريف أو الضياع.

ثم كثرت الفتوحات، ودخل في الإسلام أمم مختلفة اللغات والثقافات. كذلك تفرق بعض الصحابة في الأمصار التي فتحتها المسلمون، ولم يكن كلهم من قريش وكان لبعضهم لهجة أو لغة في قراءة القرآن، وكان كل منهم يقرئ أهل إقليمه بلغته أو بما يعرف من الحروف السبعة.

ولم يقف الخلاف بين المسلمين حول القراءة على المناطق النائية، فقد شمل البلاد الإسلامية كلها، وفزع من هذا الخلاف أمير المؤمنين عثمان بن عفان وبعض المسلمين ورأوا فيه إرهاباً بخطر يهدد الأمة وكتابها المبين، ويروي البخاري أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان بن عفان، وكان يغازي في أرمينية وأذربيجان فأفزع حذيفة اختلاف المسلمين في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالمصحف، ثم نردها إليك، فأرسلتها، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القريشيين الثلاثة (زيد مدني والثلاثة الآخرون مكيون) إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش فقبلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة. وأرسل إلى كل جهة بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق وقد التزم هؤلاء الأربعة في كتابة المصحف بلسان قريش، لأن القرآن نزل بها وأن مصحف أبي بكر كان الأصل الذي اعتمدوا عليه، وقد كان مطابقاً تمام المطابقة للنص المنزل وفقاً للعرضة الأخيرة التي شهدها زيد بن ثابت.

ومن هنا قطع كافة العلماء والباحثين بأن ما كتب في عهد عثمان، ووزع على الأمصار كان من الصورة المحققة الدقيقة للقرآن الذي نزل على رسول الله ﷺ وكما كان مصحف أبي بكر رضي الله عنه غير معجم ولا مشكل، وخلا من أسماء السور والفواصل، وما ليس بقرآن كالشروح والتفاسير كانت المصاحف التي كتبت في عهد عثمان، وكان هذا الرسم موافقاً لقواعد الإملاء والكتابة في ذلك العهد. على أن الرسم العثماني الذي كتب به القرآن - وإن كان يختلف عن الرسم الإملائي الذي نكتب به اليوم فليس بدعاً؛ إذ لا تكاد تخلو لغة من اللغات الحية في العصر الحاضر من حروف تكتب ولا تلفظ، أو من حروف تكتب على وجه وتلفظ في بعض الكلمات على وجه آخر، وهذا يعني أن محافظة المسلمين على الرسم العثماني ليس محافظة على صورة عتيقة في الكتابة لا تعرف الضوابط أو القواعد. فضلاً عن القداسة التي يجب أن يظل القرآن محاطاً بها؛ حماية له من كل أسباب للتغيير والتبديل، ومن ثم كانت دعوى الذين ينادون بكتابة القرآن بالرسم الحديث لا مسوغ لها، ولا حاجة إليها، بل قد تكون ذريعة لخطر يلحق بالقرآن من جراء عدم استقرار رسم الكتابة، وتعرضه للتطوير والتغيير، وأيضاً لعدم الإجماع بين البلاد العربية على نمط واحد في الكتابة.

وكانت هذه المصاحف التي استنسخها عثمان مشتملة على القرآن كله بالترتيب الذي تقرأ به اليوم، وتجردت مما ليس بقرآن كالشروح والتفاسير، وكانت غير معجمة، وخالية من الفواصل وأسماء السور، اقتداء بأبي بكر في صحفه. وحسماً للنزاع فقد أمر عثمان بتحريق كل الصحف والصحف الخاصة، وأقبل المسلمون على استنساخ المصاحف من هذه الأصول الوثيقة، وهي المصاحف التي وزعها عثمان في الأمصار، إلى جانب دراستها وتلقيها مشافهة من كبار القراء الذين كان يبعثهم عثمان إلى الأمصار ليتلقى الناس عنهم كتاب الله عز وجل.



ثم إن خلو المصاحف العثمانية من الإعجام والشكل جعل رسم بعض الألفاظ القرآنية صالحاً لأن يقرأ بأكثر من وجه، كقوله تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ فقد قرئ ﴿فتبينوا﴾، وإنما صلح الرسم للوجهين في هذه الآية لورود دليل قاطع على صحة القراءة بهما، لأن رسول الله ﷺ قرأ بهما، أو قرئ بهما في حضوره فأقره.

وقد مكث المسلمون نحو أربعين عاماً يقرأون القرآن من مصحف عثمان مهتدين إلى النطق السليم عن طريق التلقي والمشاهدة، والسليقة العربية الأصيلة ثم كان اختلاط العرب بالعجم وما نجم عنه من ضعف السليقة اللغوية وطروء اللحن، وخاف المسلمون على كتاب الله من الخطأ في قراءته أو التحريف فيه إذا ظلت المصاحف غير معجمة وغير مشكولة، فكانت محاولات العلماء لإحداث أشكال معينة تساعد على القراءة الصحيحة، وتدرجت هذه المحاولات حتى بلغت الغاية من الدقة والإتقان في نهاية القرن الثالث الهجري.

وكان أبو الأسود الدؤلي أول من نقط القرآن؛ أي وضع على حروفه نقطاً تقوم مقام الحركات كالكسرة والضمة والفتحة إلا أنه ميز الحروف المتشابهة بالنقط كما كان أول من سبق إلى وضع مسائل في العربية، أو بعض أصول النحو وقواعده وكان الباعث على ذلك ما أفرغه من سماع اللحن في تلاوة القرآن.

ثم كان يحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم وهما تلميذان لأبي الأسود الدؤلي - وقد سلكا منهج أستاذهما في إعجام القرآن مما كان له أثره في ضبط النص المقدس، ثم تابعت جهود العلماء في ضبط النص القرآني، وتحسين رسمه، وتجاوزت الشكل والإعجام إلى تقسيم القرآن أعشاراً، وأخماساً وأجزاء وأحزاباً وكتابة عناوين السور والرموز الفاصلة بين الآيات.

وما كاد القرن الثالث ينتهي حتى كانت جهود العلماء في ضبط القرآن قد بلغت ذروتها، وحقت غايتها، وأصبح رسم القرآن في صورة تمنع من اللحن أو التحريف.

ثم تبارى الخطاطون في تجديد هذا الرسم، فظلوا يكتبون المصاحف بالخط الذي كتب به القرآن في عهد عثمان حتى أواخر القرن الرابع الهجري، ثم حل محله خط النسخ الجميل في أوائل القرن الخامس، وفيه جميع النقط والحركات التي ما نزال نستخدمها في الكتابة إلى يومنا هذا، وهؤلاء كانوا حفاظاً مجودين، يعرفون مواضع الوقف والوصل قوضعوا علامات على رؤوس الكلمات، وعلموا مواضع الغنة والمد والإظهار والإدغام، ثم وضعوا فواصل الأخماس والأعشار والأرباع والأحزاب والأجزاء بين الآيات، وعلاماتها على هوامش الصفحات.

وكان عملهم هذا امتداداً لما دون في عهد عثمان من حيث الدقة والإتقان وبانتشار الطباعة في العالم الإسلامي تعددت طبعات القرآن الكريم، وأشرف الأزهر على بعضها، وكانت كلها امتداداً للرسم العثماني في المصحف.



إعجاز القرآن الكريم

معنى إعجاز القرآن الكريم أنه أعجز العرب، وأثبت عدم قدرتهم على أن يأتوا بمثله، فقد تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بمثله فعجزوا، أو بعشر سور من مثله أو بسورة فعجزوا مع عدم وجود المانع عندهم. إذاً وجد المقتضى، وانتفى المانع، وثبت العجز.

والقرآن الكريم هو معجزة محمد عليه السلام الخالدة التي أيده الله بها في دعواه الرسالة.

والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي ليس في متناول البشر، يظهره الله على يد مدعي الرسالة، مثل معجزة موسى عليه السلام.

فقد كانت من جنس ما تفوق فيه قومه، ومشاكلة له، فقد برع قومه في السحر براعة مدهشة، فكانت معجزته العصا، جعلها الله حية تبطل ما صنعوه ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِهِ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَفَى﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فكانها قائمة مقام قوله تعالى: (صدق عبدي في كل ما بلغ عني)، لأن ما جاء به موسى ليس في مقدور البشر، ولا في تناولهم، فدل ذلك على أنه من عند الله جل شأنه كذلك عيسى عليه السلام نجد معجزته من جنس ما تفوق فيه قومه.

فقد نبغوا في الطب وتفوقوا فيه، فكانت معجزته أن يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، وذلك ليس في مقدور البشر، وثبت عجزهم، وثبت أنه من عند الله، ودل ذلك على أنه من عند الله.



وكانت معجزات الرسل السابقين كموسى وعيسى أموراً حسية، يشاهدها من كان موجوداً في زمنها، فيتأثر بها، ويعلمها من جاء بعدهم بطريق الخبر فلا يتأثر بها تأثر من شاهدها.

والسبب في ذلك أنها كانت رسالات محدودة بزمان معين، أما معجزة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام فهي «القرآن الكريم» أيده الله بها، وهي من جنس ما تفوق فيه قومه، فقد نبغوا وتفوقوا في بلاغة القول، وكان منهم الخطباء والشعراء، ولهم من القول البليغ ما يبهز اللب، ويستولي على النفوس، وهي معجزة كلامية.

وصدق الله العظيم ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقوله إعجازه لهم بالتحدي، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّنَّ اجْتَمَعَتْ آلَاسُ وَالْجُنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهذا صريح في أن العجز عن الإتيان بمثله عام للعرب وغيرهم، فمن يجيء بعدهم حتى لو كان معهم الجن المعروف عنهم أنهم يأتون بأعمال يعجز عنها البشر. حاولوا فرادى ومجتمعين أن يأتوا بشيء، يغلبون به النبي فعجزوا وعاندوا، وزادوا في عنادهم، واتهموا الرسول بالافتراء على الله فتحادهم، وطال زمن التحدي، وتدبر معهم في الطلب، وزاد عجزهم:

فمن طلب للإتيان بمثله ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

ثم كان التحدي أن يأتوا بعشر سور من مثله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨] وتكرر العجز ثم تحادهم أن يأتوا بسورة ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا

يُسَوِّرَ مِثْلَهُ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَقْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٣﴾ فكان العجز أشد ولم يجدوا أمامهم إلا أسلوب النوفاء، أسلوب العجزة مثل قولهم عن القرآن ﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا﴾، ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾.

وعجز أهل الفصاحة والبلاغة في أزهى عصورهما دليل على أنه ليس من كلام البشر بل إنه من كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، بلسان عربي مبين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولم يكن إعجازه حسيّاً فقط حتى يقتصر على من كان في زمن الرسول، بل جاء إعجازه من جهة العقل، والعقل باقٍ ومستمر، فتكون معجزة محمد ﷺ - باقية ومستمرة ما بقي القرآن الكريم، وفي بقاء الرسالة بقاء للشريعة التي فيها سعادة الإنسان.

ولقد شهد عقلاؤهم ممن شرح الله صدورهم للإسلام حتى من ظل على الكفر منهم أن هذا القرآن فوق مستوى البشر، فثبت بذلك أنه من عند الله الواحد القهار.



وجوه إعجاز القرآن

١ - منها أنه معجز بلفظه ومعناه، بفصاحة نظمه، وبلاغة عبارته،

ومجيئه على نسق لم يسبق إليه :

فليس فيه لفظ يثقل على السمع، ولا يتفق مع ما قبله وما بعده، ولا كلمة غيرها أحسن منها، ولا حرف خال من الدلالة على المعنى. وتعبيراته في الذروة العليا من البلاغة، والمطابقة لمقتضى الحال. فلكل غرض أسلوبه المناسب له، بلا اختلاف أو تناقض، وصدق الله العظيم ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْ يَقُولُوا إِنْ هَذَا إِلَّا نَجْمٌ كَذِبٌ﴾ [النساء: ٨٠].

ولهذا بهر الأسماع، واستولى على القلوب، حتى على قلوب من عاندوا ولم يسلموا، مثل الوليد بن المغيرة الذي قال عند سماعه القرآن: «والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر».

٢ - ومنها إخباره عن الأمم السابقة والرسل السابقين من آدم إلى

عيسى، مما لم يكن عند محمد - ﷺ - علم به من قبل، فهي من أخبار الغيب التي يوحى بها الله إلى نبيه ورسوله محمد عليه السلام: كقصص عاد وثمود مما لم يعلمها محمد - ﷺ - ولا قومه من قبل.

٣ - وكذلك إخباره عن المستقبل في حوادث حدثت بعد نزوله مثل

البشارة بفتح مكة ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِنِينَ رِءُوسِكُمْ خَائِفِينَ لَهُ لَا تَمَسُّوهُمُ﴾ [الفتح: ٢٤].



تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿[الفتح: ٢٧].

- ٤ - ومنها بيانه لحقائق علمية كشف عنها العلم الحديث، وصدق الله العظيم ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].
- ٥ - ومنها تشريعه المحكم الذي بلغ غاية السمو والعدالة والشمول لجميع جوانب الحياة الإنسانية، فهو إعجاز علمي وتشريعي كافيان في إلزام غير العرب بالتسليم بأنه كلام الله، وأن مبلغه رسول الله ﷺ وأنه كلام عربي، جاء على أساليب الكلام عند العرب، ميسر الفهم يصل إلى الإفهام فتعقل معانيه.

القرآن الكريم بين مزاعم المستشرقين والرد عليهم

زعم بعض المستشرقين المتعصبين أن محمداً - ﷺ - قد انتهز فرصة خلوته في غار حراء، فوضع في أثنائها القرآن الكريم.

وهي دعوى باطلة لأكثر من دليل:

١ - أن محمداً - ﷺ - كان أمياً، لم يقرأ كتاباً قديماً، ولا عهداً جديداً.

٢ - لم يجلس في صباه إلى معلم يتلو عليه أساطير الأولين.

٣ - لم يعرف عنه حتى الأربعين أنه ادعى شيئاً من العلم، أو ناقش أحداً من اليهود، وأصحاب الديانات القديمة، ومعروف أنه قابل في الشام في صغره وفي شببته بعض الرهبان، ورجال الأديرة في (حوران) ولم ينقل لنا راو من الرواة، أو متحدث من الإخباريين أنه تعرض لمناقشة هؤلاء في دينهم، كما حدث من غيره ممن كانت لهم معرفة وصلة بالديانات القديمة - كأمية بن الصلت - وورقة بن نوفل.

٤ - لم يعرف عن محمد - ﷺ - أنه فاخر أحداً من قومه بالفصاحة والبيان، فإذا جاء بعد ذلك بالقرآن الكريم فليس من الممكن أن يكون واضعه، وهو ذلك الأمي الذي لا يكتب ولا يقرأ، ولا صلة له بأساطير الأولين.



- ٥ - إذا كان العرب قد بلغوا القمة في الفصاحة والبيان، وكان محمد - ﷺ - واحداً منهم، وقد تحدى العرب جميعاً فعجزوا، فهل يمكن بعد ذلك أن يقال إن القرآن من صنعه كما يزعم هؤلاء المستشرقون.
- ٦ - وهناك إيمان أئمة الفصاحة وسحر البيان بأن القرآن ليس من صنع البشر، وقد طال تحديه لهم جميعاً - وكان محمد - ﷺ - قائماً بين ظهرائهم، ومع ذلك لم يجرؤ مدع على أن يأتي بسورة منه، اللهم إلا كلام تافه، وأسلوب ساقط، كان حجة للقرآن، وليس حجة عليه.
- ٧ - لو كان القرآن من صنع محمد - ﷺ - كما يتوهم الزاعمون من رجال الاستشراق لما وجدنا لمحمد - ﷺ - أسلوباً آخر غيره.
- لكننا وجدنا السنة التي وردت بلفظها ومعناها، وأجمعت الأئمة على نسبتها إليه - عليه السلام - وأسلوبها يختلف تمام الاختلاف عن أسلوب القرآن الكريم.
- فلو صح أن القرآن من صنع محمد - ﷺ - لكان لمحمد - ﷺ - أسلوبان أو بيانان يختلفان تمام الاختلاف، وهذا مستحيل، فما عهدنا إنساناً مهما كانت منزلته من الفصاحة والبلاغة، والمقدرة على اللعب بالألفاظ أن يكتب ويتحدث من الفصاحة والبلاغة، والمقدرة على اللعب بالألفاظ أن يكتب ويتحدث إلى الناس بأسلوبين يختلف كل منهما عن الآخر، كالذي تلاحظه بين أسلوب القرآن وأسلوب السنة.
- ٨ - كذلك ما ورد فيه من إخبار عن الماضي وعن المستقبل مما لم يكن عند محمد - ﷺ - علم به، ولا يعلمه إلا العليم الخبير، وهو الله جل شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وهو إلى الآن محفوظ، وإلى يوم الدين سيبقى

محفوظاً كما وعد الله أصدق الصادقين وأحكم الحاكمين .

ومع ذلك فإننا نوجه إلى هؤلاء المتعصبين - ممن أعماهم الحقد، وطمس على قلوبهم فحجب عنهم نور اليقين - نوجه إليهم القول: إن القرآن الكريم إما أن يكون من عند الله .

وإما أن يكون من أساطير الأولين .

وإما أن يكون من صنع محمد - ﷺ - نفسه .

فإن كان من عند الله فهذا هو الحق المبين الذي يؤكد العقل والمنطق وتثبت الأدلة مما ذكرنا، وما سيكشفه المستقبل .

وإذا كان من أساطير الأولين فكيف استطاع محمد - ﷺ - أن يسجلها وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب! ولا يمكن أن يستخدم من يكتب له، لأن قومه له بالمرصاد، ولو فعل لما خفى على أحد، ولا دعاه من كتبه لنفسه ولظهرت هذه الأساطير ومصادرها ففضحت ما تم .

ثم ما عهدناه من أخلاق محمد - ﷺ - قبل النبوة وبعدها، وأنه الأمين يبعده عن قصة الادعاء من أساسها .

وإذا كان من صنع محمد - ﷺ - فكيف استطاع ذلك - وقد سبق أن أثبتنا أنه أمي لم يقرأ في كتاب، ولم يكتب، ولم يناقش أحداً من رجال الدين السابقين، ولم يكذب قط في حياته، وأن أسلوبه في السنة مختلف تماماً عن أسلوب القرآن الكريم .

فلم يبق إلا أنه من كلام رب العالمين .

إذاً

فزعّمهم هذا يدل على أنهم إنما تدفعهم إليه أغراض يبرأ منها العلم ولا تخفى على أحد .



فلماذا يفرقون بين القرآن الكريم وبين ما سبقه من الكتب السابقة كالطورا والإنجيل .

على أن هناك من المستشرقين المنصفين من يقر بأن القرآن الذي نتلوه اليوم إنما هو بعينه القرآن الذي نزل على محمد - ﷺ - ، وتلاه على المسلمين ، وحفظه المسلمون ، ولا يزالون يحفظونه إلى اليوم ، وسيظلون حافظين له إلى يوم الدين ، ولم يتناوله تحريف أو تبديل ، ومنهم (سير وليم موير) في كتابه (حياة محمد) يقول :

«كان الوحي القدسي أساس أركان الإسلام ، فكانت تلاوة ما تيسر منه جزءاً جوهرياً من الصلوات اليومية عامة وخاصة ، وكان القيام بهذه التلاوة - فرضاً وسنة - يجزى من يقرأ بهما جزء دينياً صالحاً . . . » .

وكانت ملكة الذاكرة قد نمت عند العرب غاية النمو ، ثم استقبلت القرآن بكل ما أدت إليه يقظة الروح إذ ذاك من حرص وإقبال . وعلى الرغم من هذه القوة التي امتازت بها الذاكرة العربية فإننا نعتقد مؤكداً أن أصحاب النبي دونوا أثناء حياته نسخاً شتى لأجزاء من القرآن وأن هذه النسخ سجلت القرآن كله ، لأن الكتابة كانت معروفة قبل النبي عليه السلام بزمان غير قليل . وكانت رسل النبي عليه السلام في حياتهم تبعث إلى القبائل المسلمة فتعلمها القرآن ، وتفقهها فيه . زد على ذلك أن حب المسلمين لنبيهم وقرآنهم ، وإيمانهم بربهم يحول بينهم وبين التفريط في القرآن الكريم . إذاً فما ذهبوا إليه يكشف عن تعصب لئيم ، وسوء رأي ، وحقد يسقط حجتهم ، ويحول دون الاستماع لهم . وصدق الله العظيم ﴿إِنَّا هُنَّ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النساء

سبب التسمية:

سميت هذه السورة الكريمة سورة النساء؛ لأنها ردت إلى النساء حريتهن، وحفظت لهن كرامتهن، ورفعت عنهن الجور، وقررت بعض حقوقهن، وتناولت كثيراً من الأحكام التي تتعلق بهن.

ترتيب نزولها:

وهي إحدى السور المدنية الثمانية والعشرين، وقد سبقها في النزول خمس سور هي: البقرة، والأنفال، وآل عمران، والأحزاب، والممتحنة وآياتها ست وسبعون ومائة آية.

وقت نزولها:

ونزل آيات الميراث فيها يدلّ على أن بدء نزولها كان بعد غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة؛ فقد نزلت آيتا الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ...﴾ الآيةان. بشأن بنتي سعد بن الربيع الذي استشهد في غزوة أحد لما جاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتل أبوهما معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، ولا تنكحان إلا ولهما مال. فقال: «يقضي الله في ذلك»، فنزلت الآيةان، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما، وقال له: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك».



ويؤيد نزولها في هذا التاريخ ويؤكد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ...﴾ الآية، لأن هذه الآية تتعلق بغزوة أحد.

ونزل سورة النساء بعد سورة الممتحنة يدل على أنها ظلت تنزل على مدى خمس سنوات، إلى ما بعد فتح مكة في العام الثامن للهجرة الشريفة؛ لأن سورة الممتحنة ذكرت بعض الأحكام المترتبة على الفتح؛ كبيعة النساء التي ورد ذكرها في قول الله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ سَيِّئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْنِسْنَ يَبْهَتَيْنِ يَقَرِينَ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْنِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْغِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: ١٢].

طابع السور المكية:

من المعلوم من دراسة سورة الأنعام وغيرها من السور المكية أن القرآن المكي كان يتعامل مع قوم لا يجهلون وجود الله تعالى، ولا ينكرونه، ولكنهم يجعلون معه آلهة أخرى، ويقسمون ما رزقهم الله - تعالى - من الحرث والأنعام بينه وبين شركائهم، وينكرون البعث، ويكذبون بالجزاء، ولا يؤمنون بالغيب، ويصدقون بالكهانة والسحر وزجر الطير، ويدينون بالخرافة، ويصدون عن المسجد الحرام، ويجعلون صلاتهم عنده صفيراً وتصفيقاً، ويلزمون القادمين إليه من خارج مكة أن يطوفوا حوله عراة، ويمنعونهم أن يحملوا معهم طعامهم.

وكانوا يقيمون شريعتهم على الأهواء؛ فيئدون البنات، ويقدمون البنين قرابين لآلهتهم في نذورهم، ويستحلون الحرمات، ويستبيحون الأعراض والدماء والأموال.

ولهذا وجهت السور المكية عنايتها إلى الأمور التالية: -

- ١ - بيان حقيقة التوحيد الخالص من الشرك والضلال، وتقرير صفات الألوهية، وخصائص الربوبية، وتوضيح أصول العقيدة الصحيحة.

- ٢ - الحث على التفكير في خلق السموات والأرض، وتدبر ما فيهما، ولفت الأنظار إلى دلائل الوجدانية المنبثقة في الآفاق والأنفس.
- ٣ - الإقناع بالبعث عن طريق إثبات قدرة الله تعالى، والدعوة إلى التصديق بالحساب، والحض على الإيمان بالغيب الذي يفتح آفاق الفكر الإنساني على ما وراء الوجود المشهود، ويسجل للإنسان مزيته على سائر المخلوقات.
- ٤ - تفنيد مزاعم المشركين، والكشف عن زيغهم، ودحض مفترياتهم، وإبطال معتقداتهم، وإقامة الحجة عليهم من أنفسهم، إذا مسَّهم الضر، أو أحاطت بهم الشدة، حيث لا يجدون لهم ملجأ يلجأون إليه إلا الله تعالى.
- ٥ - تثبيت فؤاد الرسول ﷺ لقصاص الرسل السالفين، وإخباره بسيرتهم مع أقوامهم، وتذكيره بما لقوا من تكذيب وإيذاء، وما كان منهم من صبر وثبات على الحق، حتى جاءهم نصر الله - تعالى - ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (٥) وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[الروم: ٦، ٥].
- ٦ - دعوة المشركين إلى الاعتبار بمصارع أهل العناد والاستكبار، وأصحاب الكفر والضلال، وهلاك الذين بغوا في الأرض، وأكثروا فيها الفساد.

طابع السور المدنية:

أما السور المدنية فقد اتسعت أمامها ميادين المواجهة، بعد أن صارت تتعامل مع طوائف شتى من الناس، ونماذج مختلفة من الخليقة فهي:

أولاً: تواجه مجتمعاً جديداً استجاب أفرادَه لله تعالى، وصدقوا برسوله ﷺ واستقرت عقيدة التوحيد في قلوبهم، وصاروا مهينين لاستقبال منهج الله - تعالى - وتشريعاته، فيما يتصل



بالعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والسلوك، وسائر شؤون حياتهم السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والحربية.

ثانياً: تواجه طائفة حاقدة حاسدة من أهل الكتاب - يهود يثرب - الذين أخذوا ينفثون سموم البغض والعداوة، ويمكرون بالمسلمين، ويكيدونهم، ويسعون للظهور عليهم، ويعملون على النيل منهم، ويحاولون تطويق الدعوة الإسلامية، والقضاء عليها في مهدها، ولا يراعون في المؤمنين عهداً ولا ميثاقاً، ولا يرقبون فيهم إلاّ ولا ذمة.

ثالثاً: تتصدى لجماعة أخرى، دبّ إلى قلوب أصحابها مرض النفاق؛ فاتخذت من إشهار إسلامها ذريعة تتوارى خلفها، وانطلقت، وهي في مأمن من افتضاح أمرها، وانكشاف سترها، لتحقيق مآربها في توهين عزائم المؤمنين، وتشبيط هممهم، وتمزيق شملهم، وكسر شوكتهم، وتزويد أعدائهم بما تسرق من أسرارهم، وما تجمع من أخبار الخوف والأمن فيهم.

رابعاً: تجابه عصبة الشرك بمعتقداتها الضالة، وتصوراتها الفاسدة، وعاداتها المنكرة، وسلطانها الطاغى، واستعلائها الباغي.

هدفها وغايتها:

وسورة النساء تواجه كل هذه الطوائف، وتشق طريقها في هذه الاتجاهات وتتخذ موضوعاتها من تلك المواجهات، ساعية نحو هدفها الأسمى، وغايتها المرسومة، التي تقصد إليها بكل آية من آياتها؛ وهذه الغاية هي: إنهاء وجود المجتمع الجاهلي، والقضاء على كل ما توارثه من أعراف باطلة، وتقاليد فاسدة، وإقامة صرح المجتمع الإسلامي على المبادئ القويمة، والمثل الكريمة، والسلوك السوي، الذي ينبع من الإيمان القوي، والضمير الحي؛ فيتوخى العدل، ويتحرى السداد، في كل ما يأتي من الأعمال، وما يذر منها.

خصائصها وسماتها:

وهي تصور أسلوب المنهج الرباني، وتوضح طريقته، وهو يعالج المجتمع البشري من الأمراض المزمنة، ويداويه من العلل المستعصية، ويشفيه من الأدواء المبرحة، ويصوغه صياغة جديدة، وينشئه على نمط فريد، له أصوله الثابتة، ومقوماته المستقرّة، وتنظيماته المعصومة، التي يرسّي دعائمها الوحي الكريم، ويضع لبناتها في تّؤدة ومهل، على أنقاض المجتمع الجاهلي؛ فيبدله بالعماية هدى وبصيرة، وبالغواية رشاداً، وبالفساد إصلاحاً، وبالحزب والاختلاف سلماً وائتلافاً، وبالضعف والمذلة قوة وعزة، وبالانحطاط والتأخر رقيّاً ورفعة، ويعمل على حماية كيانه وصيانته وجوده، ودعم استقلاله، وتحرر شخصيته.

وبهذا نضع السورة الكريمة أمام الدارسين والباحثين جانباً من الجهود الموصولة، التي بذلها الإسلام ليخرج هذا المجتمع النظيف في عقيدته، المستقيم في فطرته، الحيّ في ضميره، الواعي في تفكيره، اليقظ في شعوره، الواقعي في تصوراتهِ، الفاضل في سلوكه، وتشفي غليل الذين يتشوقون إلى معرفة السبب الذي جعل عرب الجزيرة، ومكان الصحراء القاحلة، يسيطرون في أقل من قرن من الزمان، على أكبر دولتين في العالم يومئذ: دولة الفرس، ودولة الروم.

من خصائص هذا المنهج:

ومن مزايا هذا المنهج الذي تضيفه هذه السورة الكريمة:

- ١ - أنه منهج يرتكز على العقيدة، وتمتد جميع خطوطه من نقطتها، وتنبت كل تنظيماته من محورها، وتبدأ مسيرته وانطلاقته منها، ولا يتخلّى عنها قيد شعرة، بل تظلّ دائماً رافده الذي يمدّه بأسباب الحياة، وعوامل البقاء، ويظل دائماً خاضعاً لها، عاملاً في ظلها، دائراً في فلكها، لا يحرث للدنيا وحدها، ولا للآخرة



وحدها، وإنما يحرث لهما معاً، وينظم الحياة الفانية في سلك الحياة الباقية، ويعتبر العادات الحيوية، التي اقتضتها سنة الفطرة من عمل وكسب، ومأكل ومشرب... عبادات، ويرى خدمة الحياة نسكاً، ويعدّ الشرائع التي سنّها شعائر؛ فالأمانة والعدل واحترام الحقوق ليست مبادئ حضارية، ولا عوامل للنجاح فحسب، ولكنها فوق هذا هدى وإيمان، وتقوى ورشاد؛ ولهذا يتسع نطاق الأمانة في منهج الله - تعالى - حتى تشمل التكاليف جميعها، والدين كله.

٢ - وهو منهج صاغه الله تعالى، ليخلق به المجتمع خلقاً آخر، وينشئه إنشاءً جديداً، يصدق عليه قول منشئه عز وجل: ﴿كُنْتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، فقد أخرج منهج الله - تعالى - إخراجاً جديداً فريداً، وبعثه بعثاً أصيلاً، جعل له وجوداً وذكرًا في الأرض، ودوراً في التاريخ؛ وحضارة إنسانية شامخة، لم يظفر العالم بمثلها من قبل، ولن يظفر بمثلها من بعد إلا في ظله.

٣ - وهو منهج من أصدق سماته الكمال والتفرد؛ لأنه من صنع الله الذي أتقن كل شيء؛ فهو منهج لا مثيل له ولا بديل عنه، تنزه عن النقص والقصور والحيث والمحاباة، وبرئ من التعارض مع فطرة البشر، والتصادم مع نوااميس الكون، وهو منهج يصرح لنا العليم الخبير أنه يبين لنا فيه ما خفي علينا، ويهدينا به سبيل المفلحين ممن سبقنا، ويتوب به علينا من الحيرة والضلال، ويظهرنا به من سوءات الجاهلية ورجسها.

٤ - وهو منهج يكرم العقل البشري، ويحترم الفكر الإنساني، ويأخذ بيده في طريق البحث والنظر، ويدفعه إلى التأمل في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء، ويربيه على النشاط، ويستحث خطاه إلى إدراك أسرار العظمة في هذا الوجود، ويدعوه

إلى بذل طاقته، واستغلال قدرته في فهم النصوص، وتدبر الآيات، واستنباط الأحكام منها.

٥ - وهو منهج ثابت الأصول، وطيد الأركان، راسخ البنيان، يعمل في كل عصر، ويلائم كل بيئة، ويؤدي مهمته في كل جيل، ويؤتي ثماره في كل أرض، ولا يدركه الوهن، ولا يدب إليه المشيب، ولا يفتقر إلى دم جديد، لأنه يتعامل مع الإنسان الذي لا تتغير ذاته مهما تغيرت أساليب حياته.

٦ - وهو منهج يقتلع من النفوس والطباع جذور الشر والفساد، ويبذر فيها بذور الخير والإصلاح في رفق وسهولة، وأناة وتمهل، وصبر وثبات، وثقة ويقين بالنتيجة، وقد شهدت له التجربة بأنه أفضل مطهر للنفوس، وأعظم مزك للأرواح، وأصلح مقوم للأخلاق، وأنجع دواء لعلاج آفات المجتمع، ووقايته من الانحرافات المدمرة، وصدق الله العظيم: ﴿فَإَيَّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

عرض عام لموضوعات السورة الكريمة:

والسورة الكريمة تقدم هذا المنهج الإلهي من خلال الموضوعات الآتية:

- ١ - العقيدة السليمة، والإيمان الصحيح.
- ٢ - إصلاح المجتمع وسيلته النهوض بالأسرة.
- ٣ - الجهاد في سبيل الله - تعالى - ركن من أركان الإسلام.
- ٤ - جرائم أهل الكتاب.
- ٥ - من أساليب المنافقين وتحركاتهم.
- ٦ - السياسة الرشيدة للمال.
- ٧ - من مظاهر يسر الإسلام التيمم، وصلاة الخوف.
- ٨ - فضائل وآداب.



العقيدة السليمة:

وجهت السورة الكريمة اهتمامها إلى ترسيخ عقيدة التوحيد في القلوب، باعتبارها الركيزة الأولى التي إذا صحت، وسلمت من شوائب الشرك الظاهر والخفي، واستقرت في القلب، استقر تبعاً لها كل شيء من التشريعات، وتم الانقياد لسائر الأحكام التي تتعلق بالعبادات والمعاملات، والسلوك والأخلاق.

١ - فدعت الناس كافة إلى عبادة ربهم، وطاعته، واتباع الأمور التي تغضبه ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورًا رَكِبُكُمْ﴾؛ وصرحت بأن الله - تعالى - أوصى الأمم السابقة وإيانا بتقواه ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾، وأمرت الخلق أن يعبدوا الله - تعالى - وحده، وألا يشركوا به شيئاً ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

٢ - وقررت أنه لا دين أحسن للعباد من أن يسلموا وجوههم إلى الله تعالى، وينقادوا له مذعنين، ويعبدوه مخلصين، ويطيعوه طاعة من يعلم أنه يراقبه ويراه، ويشعر بأنه مطلع على ظواهره وخفائيه، محيط بجهره ونجواه، ويتبعوا دين إبراهيم المائل عن جميع الأديان الباطلة، الذي يتفق مع الإسلام ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

٣ - وحددت المفهوم الصحيح للعقيدة السليمة، وبينت أنه يقوم على توحيد الله تعالى، والتصديق بجميع رسله دون تفريق، والإيمان بملائكته وكتبه واليوم الآخر ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَأَلْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رُسُولِهِ وَأَلْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

٤ - نفت الإيمان عن الذين يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويعلمون أنهم يؤمنون ببعضهم دون البعض ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ

وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿النساء: ١٥٠، ١٥١﴾.

٥ - صرحت بأن شرط الإيمان بالله تعالى، واليوم الآخر أن يرد المؤمنون كل مسألة يحدث فيها اختلاف، وكل أمر يكون محل نزاع إلى كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ لأن الله - تعالى - هو صاحب الحق المطلق في فرض النظام الذي يراه، وتقدير الأحكام التي يرضاها، واختيار الأسلوب الذي ينظم شؤون خلقه عن طريق الوحي.

٦ - جعلت من علامات زيغ العقيدة، وأمارات النفاق والضلال رفض تشريعات الله تعالى، ونبد أحكامه، وتجاوز نظامه، وإرادة التحاكم إلى غيرها ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَزَّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا.

٧ - وقررت أن الإيمان بالله تعالى، والتصديق بقلائه، والإنفاق من رزقه في سبيله هو سبيل الفوز، وطريق السعادة، وأنه لا يصيب الكافرين بضرر، ولا يلحق بهم خسارة، ولا يعود عليهم بشر، ولا يحرمهم شيئاً من متاع الحياة ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا؟﴾

٨ - وفرضت طاعة الرسول ﷺ وأكدت أنها طاعة لله - تعالى - ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

وجعلت طاعة حكمه، والتسليم به، والارتياح إليه، والرضا عنه دليل الإيمان ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾.



وَقَرَّرَتْ أَنْ مِشَاقَةَ الرَّسُولِ ﷺ وَعَصِيَانَهُ كُفْرٌ يَعْرِضُ صَاحِبَهُ لِلْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ .

٩ - ونهت عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وذكرت أن مما لآلئهم تبطل دعوى الإيمان، وتقدم دليلاً واضحاً على النفاق. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُبَعِّدُوا اللَّهَ عَنْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]؟

١٠ - وجعلت العمل الصالح لازماً للإيمان، وبرهاناً على صحته، ودليلاً على صدقه، ووعدت الذين ينفذون حدود الله - تعالى - ويطيئون أحكامه بالنعيم المقيم، وأنذرت الذين يخالفونها بالعذاب الأليم ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصِيَنَّ بِهِمَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوْصُونَ بِهِمَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ أَمْرَأَةً وَلَهُنَّ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مَنَّهُمَا الشُّدُوسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصَىٰ بِهِمَا أَوْ دَيْنٌ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّتِهِ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٢، ١٣، ١٤].

١١ - وأكدت أن الذين يكذبون بالقرآن الكريم، ويكفرون بآيات الله - تعالى - سوف يصلون ناراً كلما نضجت جلودهم فيها بدلوا جلوداً غيرها لتستمر آلامهم ولا يفتر عنهم العذاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا فَضَحَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا
الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ [النساء: ٥٦].

١٢ - وقررت أن الجزءاء مترتب على العمل، مقترن به، قائم على أساسه، لا يخضع لمزاعم أخرى، ولا لاعتبارات بعيدة عنه ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

النهوض بمستوى الأسرة:

لم يكن وضع المرأة في المجتمع الجاهلي، ولا في غيره من المجتمعات الأخرى المعاصرة يوفر لها الكرامة والحماية، ويساعدها على أداء مهمتها الاجتماعية، ووظيفتها الطبيعية كشريك للزوج في تأسيس الأسرة، وأفضل مربية للأبناء، ولهذا حرص الإسلام على أن يعيد إليها كرامتها، ويرفع عنها كل ألوان المعاملة التي كانت تسيء إليها، وتتجاهل إنسانيتها، وتعدّها من سقط المتاع.

١ - فحمى حياتها من الوأد، وصان كرامتها من الامتهان، فلا تورث، ولا تنكح دون مهر، وكفل لها الحرية، فلا تمسك بعد الطلاق للإضرار بها، ومنحها حق الملكية، وفرض لها الميراث.

٢ - قرر الوحي الكريم أنها من معدن الرجل الذي صاغه الله - تعالى - منه، وأن حقيقتهم واحدة، وأصلهما واحد ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

٣ - وصان الإسلام وحدة الأسرة، وحفظ كيانها، وحمى وجودها، فجعل مقاليد الأمور فيها للرجل، وحمله مسؤولية رعايتها، وإعالتها وفرض عليه القوامة.

٤ - ولتتوفر المرأة على القيام بشؤون الزوجية، وواجبات الأمومة، ورسالة التربية أعفاها الإسلام من جميع الالتزامات المالية، والأعباء



المادية، وكفل لها نفقتها، وجميع حاجاتها، وبهذا وفر لها الوقت الذي تقضيه في أداء دورها، وهياً لها أن تستغل ما حباها الله - تعالى - من العطف والحنان، وما منحها من القدرة على فهم الطفولة، وطول الصبر والسهر على رعايتها في النهوض بواجبها.

٥ - واعتبر الإسلام الزوجية لحمة كلحمة النسب والقربة، فجعلها سبباً من أسباب الميراث؛ ليقم بناء الأسرة على أساس قوي من تبادل التعاون، والشعور بالمسؤولية.

٦ - وشرع لها من النظم، ومن وسائل العلاج ما يقوم اعوجاجها، وما يحفظها من عوامل التفكك، ويحميها من كل المؤثرات التي توهم بناءها؛ فسق للرجال أسلوب التأديب اللائي يخشون نشوزهن، ولم يهمل شأن النساء اللائي يخشين نشوز بعولتهن، فوصف لهن العلاج.

٧ - وحماها من تنازع الاختصاص، والتطاحن على المراكز؛ فأقام شرعة العدل فيها على أساس أن يحتفظ كل من الرجل والمرأة بمقوماته الطبيعية، وخصائصه النوعية، وأن تظل الذكورة والأنوثة صفتين متقابلتين متميزتين، وألا يتمنى أحد النوعين ما فضل الله - تعالى - به النوع الآخر.

٨ - ودعم أواصر الأسرة الصغيرة بفريضة الإحسان إلى الوالدين، وصان وجود الأسرة الكبيرة، وقوى روابطها الاجتماعية بالدعوة إلى الإحسان الشامل الذي يعم الأقارب، واليتامى، والمساكين، وذوي الجوار.

فريضة الجهاد:

الجهاد في الإسلام أصل من أصوله؛ وقاعدة من قواعده، ولا خلاف بين علماء المسلمين في أنه من أوجب الواجبات، وأنه لا بد منه

لمواجهة الباطل المتغطرس، وكسر شوكة الشر المتمرد، وتقليل أظافر الفساد الشرس، وحماية الهدى من الضلال الضاري، والعدل من الجور العاتي، والمعروف من المنكر الفاجر، وشرعة الله - تعالى - من شريعة الغاب؛ وحكم الطاغوت، ولهذا جاءت به الرسالات السماوية، وفرضه الله - تعالى - في التوراة والإنجيل والقرآن، وقرر الإسلام أن الذي يموت دون أن يغزو في سبيل الله - تعالى - أو يحدث نفسه بالغزو يموت على شعبة من النفاق، ويتجلى موقف السورة الكريمة من الجهاد في الحقائق التالية:

١ - استشارت العجب من أمر الجماعة التي كانت تدفعها الحماسة إلى القتال قبل أن يفرضه الله - تعالى - على المؤمنين، فلما فرضه عليهم امتلأت قلوب تلك الجماعة جبناً وخوفاً من لقاء الأعداء، وطارت نفوسها هلعاً وفرقاً من مواجهتهم، ودهشت من أن يكتبها الله - تعالى - عليها ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

٢ - نذبت المؤمنين الذين يبيعون الدنيا بالآخرة إلى أن ينفروا للقتال في سبيل الله، ووعدتهم المثوبة الحسنی، والأجر العظيم، إن كتب الله - تعالى - عليهم الموت، أو قدر لهم الحياة ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

٣ - أمرت المؤمنين بأن يأخذوا الحيطة من أعدائهم الذين يبيتون لهم الغدر، ويضمرون لهم الشر، ويمكرون بهم المكر السيء، ويرصدون حركاتهم، وألزمهم ألا يخرجوا من المدينة للجهاد، أو يذهبوا في أمر هام من أمور الدعوة إلا في كتائب، أو على هيئة



تعبئة عامة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَنِيَّةٍ جَمِيعًا﴾.

٤ - ألهمت حماسة المؤمنين، وأهابت حميتهم الخيرة، واستثارت عاطفتهم النبيلة نحو إخوانهم المستضعفين، الذين حبسهم المشركون عن الهجرة، وغلبوهم على أمرهم، وأخذوا يسومونهم سوء العذاب، وأهابت بهم أن يفكوا وثاقهم، ويطلقوهم من أغلال الأسر، وينقذوهم من الفتنة، ويخلصوهم من المحنة ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

٥ - حددت هدف المؤمنين من الجهاد، وقررت أنهم إنما يقاتلون في سبيل الله - تعالى - إحقاقاً للحق، ويحاربون من أجل حماية الدعوة إلى الله - تعالى -. والتمكين للإيمان في أرض الله - سبحانه - وكفالة حرية المؤمن في ممارسة شعائره، وإقامة شريعة ربه، وضمان أمنه في نفسه وأهله ووطنه، وأمرت المؤمنين بالتصدي لأولياء الشياطين الذين يقاتلون لتثبيت أركان الباطل، ونشر الفساد، وأكدت لهم ضعف كيد الشيطان، وخيبة تدبيره، وفشل أساليبه، وبوار خططه ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

٦ - التفتت التفاتة خاصة إلى الرسول ﷺ لتأمره ألا يتخلى عن القتال في سبيل الله، ولو لم يخرج معه أحد، وأن يحرض المؤمنين على القتال؛ لأنه الوسيلة لكسر شوكة الكافرين، وكف بأسهم ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكْفِ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾.

٧ - قطعت علاقة التناصر والولاء بين المؤمنين والمنافقين الذين تخلفوا

عن الهجرة مع قدرتهم عليها، وأقاموا في مكة إيثاراً لمصالحهم الدنوية، وفرضت عليهم أن يقاتلوهم في كل مكان يلقونهم فيه إن لم يهاجروا في سبيل الله - تعالى - أو يلحقوا بقوم لهم عهد وميثاق مع المؤمنين... ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليَاءَ وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ [النساء: ٨٩، ٩٠].

٨ - دعت المؤمنين عند خروجهم للغزو إلى التروي في شأن من يعلن إسلامه لهم، والتورع عن رميه بالكفر، والامتناع عن قتله طمعاً في الغنمية، حقناً لدم المؤمنين الزكي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن ءَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٩ - أنبأت المؤمنين أن الله - تعالى - رفع منزلة الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من ذوي الأعدار، وأنه فضل المجاهدين درجات كبيرة في الرحمة والمغفرة على القاعدين من غير عذر ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا [النساء: ٩٥ - ٩٦].

١٠ - أكدت سوء مصير الذين يتشاقلون عن الهجرة، ويتخلفون عن اللحاق بالرسول ﷺ ونصرته والجهاد معه، ويؤثرون رعاية أموالهم ومصالحهم على دينهم، ويعرضون أنفسهم وإيمانهم لفتنة المشركين ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.



١١ - وعدت الذين يفرون بدينهم، ويهاجرون إلى ربهم أن يظهروا على عدوهم، وأن يرغبوا أنفه بما يرزقهم الله - تعالى - من فضله، وما يفتح عليهم من سعة وانطلاق، وما يجدون من حرية وأمن، وضمنت لمن يدركه الموت في طريق هجرته أجراً عظيماً ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَاً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ .

١٢ - سجلت من أمارات المنافقين أنهم لا يكتفون بالتخلف عن الخروج للجهاد في كتائب المؤمنين، ولكنهم يضيفون إلى جريمتهم هذه تفتير عزائم الراغبين في الغزو، وتشبيط همم المستعدين للقتال، ويعدون حرمانهم من الشهادة في سبيل الله نعمة كبرى ﴿وَلِإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً﴾ .

١٣ - نهت المؤمنين عن أن يستكينوا، وأن يأخذ منهم الضعف مأخذه، وينال منهم العجز مناله، فيقعدا عن مطاردة المشركين، ويتقاعسوا عن طلبهم، وتتبع أثرهم، وأخبرتهم أنهم وإن اتفقوا معهم في الآلام والجراح، فإنهم ينفردون عنهم بالتعرض لرحمة الله تعالى، وترجح كفتهم عليهم بالثقة في وعده، واليقين بمثوبته ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَى إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ .

من جرائم أهل الكتاب:

تميط السورة الكريمة اللثام عن حقيقة أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم ينتمون إلى الدين الصحيح، وتبدأ باليهود الذين يجاورون المسلمين في المدينة، ولهم معهم حلف، فتبين ما تسرب إلى عقيدتهم من ضلال، وما امتلأت به صدورهم من حقد وحسد، وما سرى في أخلاقهم من وباء، وما الطبع به سلوكهم من فساد.

١ - فهم من حيث عقيدتهم يستحبون العمى على الهدى، ويؤثرون الضلالة على إيثار من يشتري شيئاً تدفعه إلى شرائه حاجته الملحة، وأكبر شاهد على زيغهم وضلالهم تحريفهم أحكام التوراة عن مواضعها، وإخفاء كثير من نصوصها ومتاجرتهم بأحكامها، وتفريقهم بين الله - تعالى - ورسله، وقولهم نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وإيمانهم بالجبت والطاغوت، وشهادتهم أن إلى أقوم قيلاً، وأهدى طريقاً من المسلمين؛ ولهذا غضب الله - تعالى - عليهم وطردهم من رحمته، وحرّمهم مغفرته ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

وتدعوهم السورة الكريمة إلى الإيمان بالقرآن الكريم الذي جاء مبيناً لما بين يديه من الكتاب، وتهددهم إن أعرضوا بمسح خلقتهم، وطمس فطرتهم أو إصابتهم باللعنة التي أصابت أسلافهم الذين اعتدوا في السبت فيه ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أَوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بَمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

٢ - وهم من حيث علاقتهم بالمؤمنين يكونون لهم العداوة والبغضاء، ويحملون لهم الحقد والحسد، ويكرهون أن يروا نعمة الله - تعالى - تصيبهم، ورحمته تنزل عليهم، ويحسدونهم على ما آتاهم ربهم من فضله، ويرغبون أن يضلّوهم عما جاءهم من الهدى، ويبذلون كل جهدهم لتحويلهم عن الإسلام بمكرهم السيئ، وسعيهم الذي لا يفتر؛ وكيدهم الذي لا يهدأ، ومؤامراتهم التي لا تنتهي، وليس أدلّ على عداوتهم للمسلمين من عنادهم للرسول ﷺ وتكذيبه، وقولهم له: سمعنا وعصينا، وتركهم الوضوح في خطابه إلى الالتواء، إذ يقولون: اسمع غير مسمع، وراعنا لياً بألستهم، وهم لن يفلتوا من قبضة الله - تعالى - ولن ينجوا من عقابه، وهو من



ورائهم محيط، وهو أعلم بأعداء أوليائه المؤمنين، وسيكفيهم شرهم، ويرد عنهم بأسهم، ويعينهم عليهم ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.

٣ - وهم من حيث طباعهم، وما يعتمل في نفوسهم قوم مالت رؤوسهم من الخرور، وورمت أنوفهم من الكبر، وانتفخت أوداجهم من الزهو، وامتلأت أشداقهم بالفخر؛ يمدحون أنفسهم ويزكونها، ويدعون أنهم طاعة وصلاح وتقوى، ويزعمون أن الله - تعالى - راض عنهم، وأن غضبه ومقته لا يحل عليهم، لأنهم أبناؤه وأحبائه، وقد صيغت طباعهم من البخل، وركبت من الشح، فلو كان لهم نصيب من فضل الله - تعالى - دسهم في خزائنه ما أعطوا أحداً شيئاً ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]. ويلتفت السياق إلى إسلامهم، فيربط بين الأحفاد والأجداد، ويبين أن هؤلاء اليهود، في خبث معدنهم، ودنس طباعهم، واستطارة شرهم، وشدة عنادهم وضلالهم، لا يختلفون في قليل ولا كثير عن أسلافهم الأوائل الذين بعث الله - تعالى - إليهم رسوله موسى - عليه السلام - بآيات بينات، وسلطان واضح، فكذبوه، ورموه بالسفه، وقابلوه بالعناد، وطلبوا منه بعد أن نجاهم الله - تعالى - على يديه من بطش فرعون الذي ذبح أبناءهم، واستحيا نساءهم، وانفلق لهم البحر فاجتازوه، وهلك فرعون وجنوده...

طلبوا منه أن يريهم الله - تعالى - جهرة، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، وارتد الذين آمنوا منهم عن الإيمان إلى عبادة العجل الذي صنعه السامريّ لهم عندما غاب عنهم موسى عليه السلام لميقات ربه، ولم يقبلوا التوراة، ويعطوا ميثاقهم على العمل بها، واتباع أحكامها، إلا بعد أن رفع الله - تعالى - جبل الطور فوق رؤوسهم كأنه ظلة، ولم

يخامرهم شك في أنه واقع بهم إن لم يقبلوا التوراة، فأخذوها مرغمين، ثم نقضوا الميثاق الذي أعطوه بعد أن استقر جبل الطور مكانه، وكفروا بآيات الله - تعالى - وقتلوا أنبياءه، فلعنهم الله - تعالى - وجعل قلوبهم قاسية لا تلين للحق، وضرب عليهم الذلة والمسكنة، ومن قبل كفرهم بخاتم الرسل محمد ﷺ كفروا بعتسى ابن مريم عليه السلام، وأشاعوا أنهم قتلوه، وصلبوه، واتهموا أمه البتول التي طهرها الله - تعالى - واصطفاهما، ورموها بالفاحشة، وتعاملوا بالربا واستحلوا أكل أموال الآخرين بالباطل، وصدوا الناس عن دين الله - تعالى - فعاقبهم بتحريم بعض الطيبات عليهم ﴿فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴿

ولما أنعم الله - تعالى - بأن يدخلوا بيت المقدس أمرهم بالدخول في مذلة وانكسار وخشوع ينبئ عن شكر الله - تعالى - الذي نجاهم من عدوهم، وأسكنهم أرض الشام؛ ليأكلوا منها رغداً، وأن يسألوا ربهم مغفرة ذنوبهم، فعصوا أمر الله تعالى، وبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم.

وحرّم الله - تعالى - عليهم أن يعملوا في يوم راحتهم إكراماً لهم، فلم يأبھوا بهذا التحريم واعتدوا في السبت، فمسخهم الله - تعالى - قردة خاسئين.

وختمت السورة الكريمة حديثها عن اليهود بالثناء على الطائفة الراسخة في العلم منهم، وهي التي فهمت الدين فهماً صحيحاً، ووعت الأحكام وعياً دقيقاً، وآمنت بما أنزل على محمد ﷺ إيماناً صادقاً ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

ولم تطل السورة الكريمة وقفها مع النصارى، ولم يفض في الحديث عنهم كما أفاضته في الذين غضب الله - تعالى - عليهم ولعنهم،



ولكنها تحدثت إليهم في أهم قضايا الدين؛ قضية التوحيد، وبينت ما وقعوا فيه من الضلال، وما انتهوا إليه من الشرك، بتأليه المسيح وأمه عليهما السلام، ونهتهن عن الغلو والشطط، ومجاوزة الحق الأبلج إلى ظلام الباطل بعقيدة التثليث الكافرة.

وذكرت أن المسيح واحد من الرسل - عليهم السلام -، وأنه مخلوق بكلمة الله تعالى، موجود بإرادته التي تتعلق بالشيء على سبيل الوجود، فيكون، أو تتعلق به على سبيل العدم، فلا يكون، وأنه - سبحانه - سواء ونفخ فيه من روحه، كما سوى آدم عليه السلام، ونفخ فيه من روحه، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾، وكما سوى الله - تعالى - كل إنسان، وينفخ فيه من روحه ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۖ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِي ۖ﴾ [السجدة: ٧، ٨، ٩]، وأنه عبد من عباد الله - تعالى - يشرف بهذه العبودية، ويسمو قدره بها، ويرفع هامته عالية، ولا يأنف منها، ولكنه يأنف الأنفة كلها من أن يتخذ إليها من دون الله - تعالى - ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

فضح المنافقين وكشف أساليبهم:

فضحت السورة الكريمة المنافقين، وكشفت أساليبهم، ليعرفهم المؤمنون، ويحذروا كيدهم، ويتقوا خطرهم، وإليك ما جاء فيها بشأنهم:

١ - أوضحت أنهم حائرون بين الإيمان والكفر، مترددون بين الهدى والضلال، غير معدودين في المؤمنين، ولا في المشركين، يودون أن يأمنا جانب المسلمين وجانب الكافرين، ويقومون إلى الصلاة في أوقات قليلة، وهم كسالى مكرهون مرأون ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَءَوْْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا...﴾.

- ٢ - وأنهم يركنون إلى الكافرين، ويتخذونهم أعوانهم؛ لاعتقادهم أن القوة والغلبة لهم ﴿أَيَبْنَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.
- ٣ - وأنهم لا يتورعون عن الجلوس في مجالس المشركين، الذين يسخرون من الإسلام، ويستهزئون بكلام الله - تعالى -، ويخوضون في آياته بالباطل، مع أن الله - تعالى - أدب المؤمنين أن يهجروا هذه المجالس، ولا يقعدوا فيها ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.
- ٤ - وأنهم يبتغون عرض الحياة، وينتظرون نتيجة المعركة، فيطالبون المؤمنين بنصيبهم من الغنيمة عند النصر، وينشدون حظهم منها لدى المشركين عند الهزيمة ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكُمْ يَحْلِفُونَ أَنْ لَكُمْ لَكُمْ فَتَحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٥ - وأنهم يقومون بتثييط همم المؤمنين عن القتال، ويعملون على توهين عزائمهم، ويذيعون الأنباء والشائعات التي تبث الرعب في نفوسهم، وتفت في عضدهم ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبُطُنَّ...﴾.
- ٦ - وأنهم يكرهون النزول على حكم القرآن الكريم، وتضييق صدورهم به، ولا تنشرح قلوبهم له، ويحبون الاحتكام إلى القوانين التي وضعها أرباب الظلم والطغيان ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾.
- ٧ - وأنهم حين يفتضح أمرهم، وينكشف خداعهم، ويظهر نفاقهم، يلجأون إلى الأيمان الكاذبة؛ فيحلفون بالله إنهم ما أرادوا إلا الخير، وما ابتغوا غير الإصلاح، وما قصدوا سوى الإحسان ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.



٨ - وأنهم يتشاقلون عن الخروج للقتال، ويفرحون بالإفلات مما يصيب المجاهدين من الهزيمة، ويتمنون أن لو كانوا معهم في حال النصر والغنيمة ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِغُنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا [النساء: ٧٢، ٧٣].

٩ - وأنهم يخافون لقاء المشركين، ويخشون بأسهم، أكثر من خشيتهم بأس الله - تعالى -، وينكرون على الله - تعالى - أن يفرض عليهم القتال ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ؟

١٠ - وأنهم يتطهرون برسول الله ﷺ؛ فإن أصابوا مغنماً قالوا: هذا من فضل الله علينا، وإحسانه إلينا، وإن مسهم السوء قالوا: قبحهم الله هذا من شؤم محمد علينا ﴿وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ﴾.

١١ - وأنهم حين يأمرهم الرسول ﷺ يظهرون الرضا والقبول، ويقولون مقالة المؤمنين الصادقين: أمرك مطاع، وحكمك نافذ، فإذا خرجوا من عنده دبروا العصيان والمخالفة ﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾.

١٢ - وأنهم يبغضون الإسلام، ويتمنون أن يرتد المسلمون عنه؛ ليكونوا جميعاً سواء في الكفر ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾.

١٣ - وأنهم إذا خلا بعضهم إلى بعض تناجوا بالإثم والخيانة ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾.

السياسة المالية الرشيدة:

نبهت السورة الكريمة إلى أهمية المال، وضخامة شأنه، وخطر أمره؛ بما تناولت من قضاياها، وبما فصلت من أحواله، وبما شرعت

من أحكامه، وبما أفسحت له من صدرها، وبما اختصته من حديثها، الذي بدأته مع الآية الثانية، وظلت تعالج قضيته في اثنتي عشرة آية متتالية بعد آية الافتتاح، وعادت إلى موضوعه مرة بعد مرة، في أثناء رحلتها المباركة إلى ختامها، وأنهت الحديث عنه مع آخر آياتها، في بيان ميراث الكلالة، ومن أهم المبادئ المالية التي قررتها السورة الكريمة:

- ١ - حصانة المال العام والخاص، واحترام ملكيته، وتحريم الاعتداء عليه بأية وسيلة غير مشروعة.
- ٢ - عدم حلّ شيء لغير مالكة إلا ما كان عن طيب نفس من صاحبه.
- ٣ - الحث على تنميته، وتثميته.
- ٤ - الحجر على السفهاء، ومنعهم من السيطرة عليه، وإبعادهم عن التصرف فيه.
- ٥ - النهي عن البخل به في مواطن الحق، وتحريم إنفاقه رياء.

والسورة الكريمة لم تقرر هذه المبادئ تقريراً نظرياً جافاً يسأمه العقل، ويملّه الفكر، ولكنها لمستها لمساً مثيراً، له موقعه في النفس، وصداه في الحسّ، ومكانه في القلب، وأثره في العقل؛ لأنها تناولت المال في مجال وظيفته، وعرضت قضاياها من خلال نشاطه الدائم، وحركته المستمرة، وفي مواقعته من شؤون الحياة، تناولته، وهي تعالج أوضاعاً قائمة، وحالات موجودة وواقعاً ملموساً، وتصرفات فعلية، ولم تفرض السورة الكريمة فروضاً خيالية، قد تكون أو لا تكون، وقد تنجح أو تفشل، ولكنها عاشت مع الحقائق الثابتة.

- ١ - فأمرت الأوصياء بإعطاء اليتامى أموالهم ذاتها، ونهتهم عن تبديلها بغيرها أو ضمها إلى أموالهم اغتصاباً ﴿وَأَتُوا آلَيْنَهُمْ مَّا لَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْحَيْثُ بِالْأَيْمَانِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾.



- ٢ - ودعتهم عند مخافة الجور على اليتيمات، وعدم الاطمئنان إلى تحقيق شرعة العدل معهن أن يتزوجوا غيرهن ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْكحِ فَاُنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.
- ٣ - وأوجبت على الأزواج دفع المهور عن سماحة طبع، وسخاء نفس ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾.
- ٤ - وحجرت على التصرفات المالية للسفهاء، الذين يسيؤون استخدام المال ومنعهم من إدارة أموالهم ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾.
- ٥ - ودعت الأوصياء إلى استثمار الأموال التي بأيديهم، ووجهتهم إلى أن يجعلوا نفقة الموصى عليهم من ربحها لا من صلبها ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥].
- ٦ - وطالبت الأوصياء بدفع أموال اليتامى إليهم، عند ظهور أهليتهم للزواج، وعند الاطمئنان على بلوغهم؛ والاشهاد عليهم عند دفعها إليهم ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾.
- ٧ - وكررت النهي عن تبذيرها بالإسراف فيها، ونصحت الأغنياء من أن يقوموا بالإشراف على شؤون اليتامى، ورعاية مصالحهم تطوعاً لوجه الله - تعالى - ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾، ونصحت الفقراء من الأوصياء، أن يكون قوتهم الضروري من ربح المال وغلته، لا من رأسه وصلبه ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.
- ٨ - وجعلت للذكور والإناث معاً حق ميراث الوالدين والأقربين، قلت التركة أو كثرت ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرُ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.
- ٩ - وشرعت صلة الأقارب وبرهم، والإحسان إلى اليتامى والمساكين، إذا حضروا قسمة التركة ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾.

- ١٠ - وفرضت على الأوصياء أن يكونوا صادقين مع اليتامى إذا حدثوهم عن أموالهم ونفقاتهم، وأن يطمئنوهم على ثروتهم، وأن يكون كلامهم معهم مطمئناً خاطرهم، ومحققاً مصلحتهم ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.
- ١١ - وعينت الوراثين، وحددت سهم كل وارث، وأوجبت الالتزام بحدود الله - تعالى -، وتوعدت الخارجين عليها ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.
- ١٢ - وحرمت على الأزواج إمساك النساء، اللاتي تحت أيديهن، من غير حاجة إليهن، رغبة في الإضرار بهن، ليفتدين أنفسهن بما لديهن من مال ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾.
- ١٣ - وحظرت عليهم عند الرغبة في تسريحهن استرداد شيء مما أعطوه لهن بالغاً ما بلغ ﴿وَأَتَيْنَهُنَّ إِحْدَثُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾.
- ١٤ - وجعلت المال وسيلة ابتغاء الإحصان ومجانبة السفاح ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ﴾.
- ١٥ - وكررت أمر الأزواج بدفع المهور للنساء، وجعلتها فريضة مقررة مقدرة ﴿فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤].
- ١٦ - وأوجبت دفع مهر الإماء إليهن أسوة بالحرائر ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.
- ١٧ - وحثت المؤمنين على ألا ينهزموا أمام إغراء المال، ونهتهم عن كل وسيلة تؤدي بهم إلى أن يأخذ أحدهم مال أخيه دون وجه حق، وهددت الذين يأكلون أموال غيرهم ظلماً ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.
- ١٨ - ونهتهم عن أن يحملهم التفاوت في الحظوظ المادية، وغيرها،



- على أن يتمنى بعضهم ما فضل الله - تعالى - به غيره ﴿وَلَا تَنَمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ .
- ١٩ - وأمرت باحترام عقود الموالاة، وإعطاء أصحابها نصيبهم المقرر لهم ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَتَاوُهُمْ فَصِيبُهُمْ﴾ [النساء: ٣٣] .
- ٢٠ - وجعلت من مبررات قوامة الرجال على النساء ما أنفقوا من أموالهم ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ .
- ٢١ - وذمت البخلاء الذين يحرضون غيرهم على البخل، وقبحت عمل الذين ينفقون أموالهم رياء، وأثنت على الذين ينفقونها إيماناً وابتغاء مرضاة الله - تعالى - ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ .
- ٢٢ - أكدت أن الله - تعالى - لا يضيع أجر المنفقين، وأنه يضاعف أجورهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .
- ٢٣ - وجعلت المال من أهم الأمانات التي يجب ردّها إلى أربابها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ .
- ٢٤ - وكشفت عن عبادة المنافقين المال، واعتباره فوزاً عظيماً ﴿يَلْبِسَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ .
- ٢٥ - وجعلت المال دية في القتل الخطأ ﴿فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ .
- ٢٦ - وحرمت قتل من أعلن إسلامه طمعاً في ماله ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .
- ٢٧ - وفضلت الذين يجاهدون بأموالهم على غيرهم ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ .
- ٢٨ - وجعلت جهنم مأوى الذين يفضلون البقاء بجوار أموالهم على الهجرة في سبيل الله ﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ .

- ٢٩ - ووعدت الذين يهاجرون في سبيل الله - تعالى - تاركين أموالهم وديارهم، بسعة الرزق، وكبير العوض ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغْمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.
- ٣٠ - ونهت الرسول ﷺ عن الدفاع عن الذين يخونون أمانة المال ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾.
- ٣١ - وجعلت الأمر بالصدقة من النجوى الجائزة ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾.
- ٣٢ - وقبحت سلوك أهل الجاهلية الذين كانوا لا يعطون يتامى النساء مهورهن ﴿وَمَا يُثَلَّ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى الْيَسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾.
- ٣٣ - وأشارت إلى ما ركب في النفوس من الشح بالمال، ونبهت إلى أنه ينبغي ألا يكون هذا الشح عقبة في طريق المصالحة التي تبقى على الحياة الزوجية ﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾.
- ٣٤ - ذكرت من جرائم اليهود تعاملهم بالربا الذي نهاهم الله - تعالى - عنه ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ وسجلت عليهم أكل الأموال بالباطل ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾.
- ٣٥ - كان آخر آياتها بشأن بيان ميراث الكلاله.

من مظاهر التيسير في الإسلام:

جاء في السورة الكريمة من هذه المظاهر:

- ١ - التيمم بالصعيد الطاهر الذي شرعه الله - تعالى - عند فقد الماء، وعند المرض الذي يمنع استعماله وعند السفر ﴿وَلِإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.



- ٢ - قصر الصلاة الرباعية في حال الخوف من مباغته الأعداء، وبيان كيفية هذه الصلاة.

فضائل وآداب:

عنيت السورة الكريمة بأن تغرس في النفوس المؤمنة كثيراً من الآداب الرفيعة، وأن تربيهم بمنهج الله - تعالى - على نماذج عالية من الفضائل الإنسانية، وتبدو ملامح هذه العناية فيما يلي:

- ١ - الثقة بأن الموت لا مفر منه، وأن البروج المشيدة لا تحول دون نزوله، يطبع القلوب على الشجاعة، ويربي النفوس على التضحية، ويحببها في الإقدام ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾.

- ٢ - ردّ التحية بمثلها، أو بأحسن منها، ببذر بذور المحبة، وينمي غراسها، ويقوي أواصر المودة، ويدفع إلى حسن الظن، ويجعل المؤمنين كأعضاء الجسد الواحد ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَسَنَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

- ٣ - تقرير الجزاء على أساس العمل وحده يقضي على التواكل، ويسد الطريق على الأماني الكاذبة، والأوهام الخادعة ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يَّحْزَنْ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿[النساء: ١٢٣ - ١٢٤].

- ٤ - ولما كان للصلاة أهميتها في تربية المسلم، وتزكية روحه، وتقويم سلوكه، وتهذيب أخلاقه، ونهيه عن الفحشاء والمنكر، عرضت لها السورة الكريمة في مناسبتين.

- ٥ - ولما كان الصدق في الحديث، والكلم الطيب، والقول السديد يترك أثراً خلاصة في النفوس، ويوثق العلاقات الاجتماعية نبهت

- إليه السورة الكريمة في أكثر من موضع، وكرهت الجهر بقول
السوء من غير مبرر.
- ٦ - وفي الحرص على تطهير المجتمع من الفاحشة، وعزل النساء
اللاتي يمارسنها، وإيذاء الذين يأتونها تربية على العفاف والطهر،
وحت على تكوين الأسرة.
- ٧ - وفي الإشارة بما عليه الصالحات القانتات من حفظ الغيب دعوة
إلى تربية الضمير، وحت على التخلق بالعفة والوفاء، والتزين
بالطاعة والإخلاص.
- ٨ - وفي لفت انتباه الأزواج إلى أنهم قد يكرهون شيئاً ويجعل الله
- تعالى - فيه خيراً كثيراً، مطالبة بالصبر والاحتمال، وحض على
الإغضاء والتسامح، ومطالبة بالتمهل، وبعث الأمل والرجاء فيما
عند الله - تعالى - من خير.
- ٩ - وفي التنديد بجرائر أهل الكتاب، وتقرير ما اتصفوا به من كفر
وافتراء، وغلظة وجفاء، وعناد وخيلاء، وحسد وبخل... تحذير
من جرائمهم، وتنفير من رذائلهم، ودعوة إلى مخالفة سلوكهم،
وعدم انتهاج أسلوبهم ومجانبة السير على سننهم.
- ١٠ - وفي نهى المؤمن عن أن يتهم بالكفر من ألقى إليه السلام سمو
به عن أن تكون غايته الدنيا، وتنزيه له عن الرجم بالغيب،
وتعويده التثبت، وتعليمه أن الخطأ في العفو أفضل من الخطأ
في العقاب.



سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
 زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
 بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ
 وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطِّيبِ وَلَا تَاْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ
 كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا
 مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا
 فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَءَاتُوا
 النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
 هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾	من أصل واحد، وحقيقة واحدة.
﴿وَبَيَّتَ مِنْهُمَا﴾	نشر من الزوجين نسلًا كثيرًا.
﴿سَاءَ لَوْ يَدُ﴾	تعرفونه، ويقول بعضكم لبعض: أسألك بالله أن تعمل كذا...
﴿وَالْأَرْحَامُ﴾	وصلوا الأرحام، ولا تقطعوها.
﴿رَفِيبًا﴾	يحصي أعمالكم، ليجازيكم عليها.
﴿وَأَنَّا الْيَتَامَى﴾	من كانوا يتامى قبل بلوغهم رشدهم. اليتيم: صغير مات والده.
﴿الْخَبِيثَ﴾	الرديء الذي تزهد فيه النفس، ولا تميل إليه.
﴿الطَّيِّبَ﴾	الجيد الذي تفتح إليه النفس راغبة طامعة.
﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾	ولا تستولوا على أموالهم قاصدين ضمها إلى أموالكم غصبًا وانتهابًا.
﴿حُبًّا كَبِيرًا﴾	ظلمًا صارخًا، وغبنًا فاحشًا.
﴿أَلَا نَقْصِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾	ألا تعدلوا في معاملة اليتيمات اللاتي هن تحت وصايتكم.
﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾	فتزوجوا غيرهن ممن لسن تحت وصايتكم، والأمر للنذب لا للوجوب.
﴿أَلَا لَعَلَّوْا﴾	ألا تسوا بين أزواجكم في الحقوق المشروعة لهن.
﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾	أو اقتصروا على نكاح من ملكتموهن من الإماء.
﴿أَذْنَىٰ أَلَا تَعْلَمُونَ﴾	أقرب إلى الإنصاف، لكيلا تعتدوا وتجاوزوا.
﴿صِدْقَيْنِ مَخْلَ﴾	مهورين فريضة عن طيب نفس.
﴿عَنْ شَيْءٍ وَثْنَةٍ﴾	عن جزء من المهور التي دفعتموها إليهن.
﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾	فخذوه، وأنفقوه حلالاً طيباً.
﴿فَرَجِدَةً﴾	فانكحوا زوجاً واحدة مع العدل.



التأويل والبيان

هذه السورة المباركة تقتلع عادات المشركين من جذورها، وتهدم تقاليد الجاهلية من أساسها، وتجتث أوضاعها في المعاملات المالية، والأوضاع الاجتماعية من أصولها، وترسي مكانها، وتقيم بدلها شريعة الله - تعالى - للمسلمين، ودستوره للمؤمنين، وقد أثر الوحي الكريم أن يبدأها بخطاب الناس جميعاً، إيداناً بأن الجنس البشري كله مخاطب بفروع الشريعة، مطالب بتنفيذ أحكامها، مأمور بسلوك منهجها، مكلف باتباع صراطها، وإجابة الداعي إليها، وإعلاناً لعالمية دعوة الرسول ﷺ الذي لم يأت للعرب وحدهم، ولكنه بعث إلى الناس كافة، ولهذا دعت السورة الكريمة الجنس البشري كله، ونادت الناس جميعاً. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. آمنوا بالله، وخافوا عقاب الخالق القادر، واحذروا بطشه، واعبدوا ربكم الذي له وحده فضل تربيتكم، وجميل رعايتكم في جميع أطوار حياتكم، واحفظوا حدوده، والتزموا بطاعة أوامره، واجعلوا بينكم وبين ما يغضبه حائلاً يقيكم عقابه، وحجاباً يمنع عنكم عذابه، واحرصوا على أن يراكم حيث يحب، وألا يراكم حيث يكره، فهو أهل التقوى والحمد، وأهل العظمة والمجد. ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ من العدم، وأنشأكم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وبرأكم من حقيقة واحدة، وسوى بينكم في البدء من الطين، فكلكم لآدم، وآدم من تراب، ولا فضل للإنسان على آخر إلا بالإيمان الصادق، والسعي المشكور.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهو الذي جعل لكم من أصلكم الذي أوجدكم منه أزواجاً، تلتمسون في كنفهم الراحة، وتظفرون بالهدوء والاستقرار، وتنعمون بالأمن والطمأنينة، وتسعدون بالمودة والرحمة، وتفتنون ظلال الأنس والهناء.

﴿وَبَيَّنَّا مِنْهُمْ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، وقدَّر لحياتكم الزوجية أن تؤتى ثمارها، وأن تنجبوا أبناء كثيرين، وبنات كثيرات، ينتشرون في ربوع الأرض، وينبثون في أرجائها، وهياً لهم أن يعمروها، وأن يستخرجوا كنوزها، وينتفعوا بثرواتها وسخر لهم ما فيها من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الذي له في كل شيء آية، تدل على ربوبيته، وتنطق بوحدانيته وتشهد بألوهيته، وتسبح بحمده، وأنتم تعرفونه حق المعرفة، ولا تجهلونه، ويستعطف بعضكم بعضاً به، ويناشده باسمه أن يقضي له حاجته، ويقول له: أسألك بالله أن تهتم بموضوعي، وتسعى في مصلحتي ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ فحري بكم أن تقدروه حق قدره، وأن تتقوه حق تقاته، وأن تشكروه على نعمة الخلق والربوبية.

﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ فاتقوه، وصلوا أقاربكم بالبر والإحسان، وتفقدوا مصالحهم، وتوددوا إليهم، ولا تقطعوا زيارتهم، ولا تملؤا السعي لراحتهم، ولا تهملوا حق القرابة في النفس الإنسانية التي خلقكم الله - تعالى - منها.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ يحصي أعمالكم، ويعلم ما تفعلون، فاستشعروا رقابته عليكم، وعلمه خفاياكم، واطلاعه على ظاهركم وباطنكم، وإحاطته بجميع أحوالكم.

الدروس المستفادة - أولاً:

- ١ - في نداء الناس جميعاً، وأمرهم بتقوى الله - تعالى - دليل على أن حياة البشر على هذا الكوكب الأرضي لا تستقر أوضاعها، ولا يستقيم أمرها، ولا تدرك رشدتها، ولا تبلغ كمالها، ولا تحقق غايتها إلا في ظل الإيمان الذي يجمع الخلق على وحدانية ربهم الذي خلقهم من معدن واحد.



- ٢ - في تقرير وحدة النشأة من النفس الواحدة، والانتماء إلى أسرة واحدة دعوة إلى البعد عن كل أشكال الصراع، ونبذ جميع ألوان النزاع، الذي يتجاهل حقوق هذه الوحدة، ويخنق العالم بالمشكلات، ويدمر سلامه بالعصبية، ويقيم على شفا حفرة من النار.
- ٣ - نعلم من قوله - تعالى - ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أن المرأة تتمتع بسائر الخصائص الإنسانية الكريمة التي يتمتع بها الرجل، وندرك بطلان الافتراءات، وكذب الأساطير التي جردت المرأة من خصائص الإنسانية، وزعمت أنها أصل الشر والبلاء، ومصدر النجاسة والقبح، وحرمتها جميع حقوقها.
- ٤ - نجد في قوله - تعالى - : ﴿وَبَنَّا مِنْهُمْ رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً﴾ إشارة إلى أن الأسرة هي الخلية الأولى لتكوين المجتمع السليم، وإلى ما يجب من الاهتمام بشأنها، والعناية بأمرها في إطار المنهج الذي يرسمه الوحي الكريم لإصلاح حالها، والنهوض بها.
- ٥ - بدء خلق الناس من نفس واحدة، وانتشارهم على وجه الأرض أمماً وشعوباً، واختلافهم في السمات والقسمات والصفات، وتنوعهم في الطباع والمشاعر والأخلاق بحيث لا يمكن الاتفاق الكامل بين اثنين منهم. هذه ظاهرة باهرة تشهد بعظمة الله - تعالى -، وقدرته، وتدلنا على سعة علمه وتدبيره؛ إذا وعاهها المؤمن، وتأملها ملأت نفسه خشوعاً، وقلبه خشية ومهابة، ووجدانه يقيناً وثباتاً؛ ولهذا سبقها الأمر بتقوى الله - تعالى -.
- ٦ - الربوبية التي منحت الناس وجودهم، وأخضعتهم لناмос الحياة، وزودتهم بالمواهب والاستعدادات هي وحدها التي تملك كل شيء، وهي صاحبة الحق المطلق في أن تختار للناس منهج حياتهم، وأن تضع لهم قيمهم وموازينهم، وأن تشرع لهم نظمهم وقوانينهم.

٧ - حين يعلم الناس علم اليقين أنهم لم يخرجوا إلى هذا الوجود بإرادتهم، وأن إرادة الله - تعالى - وحدها، هي التي أخرجتهم إلى هذه الحياة، ويؤمنون لسلطان هذه الإرادة، ويستجيبيون لتصرفها، فإنهم يريحون أنفسهم بالتسليم لتدبيرها، ويسعدون قلوبهم بالرضا بتقديرها.

﴿وَأَتُوا إِلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

عقب الأمر بتقوى الله - تعالى - الرقيب على الأعمال والضمائر، المطلع على الظواهر والسرائر، يأتي الأمر لأوصياء اليتامى بالمحافظة لهم على ما ورثوه من الأموال، وإحسان القيام عليها، وعدم المساس بها إلا بما هو أنفع لهم، وأصلح لها، والإنفاق عليهم، وإصلاح شؤونهم منها، وردها إليهم إذا أدركوا رشدهم، وظهرت قدرتهم على تصريف شؤونهم، والاستقلال بإدارة أموالهم، واستثمار ممتلكاتهم. ﴿وَأَتُوا إِلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ﴾.

ولا تستولوا أيها الأوصياء على الجيد النفيس من أموال اليتامى، وتعطوهم عوضاً عنه رديء أموالكم وخسيسها، واحذروا أن يحملكم الطمع في أموالهم على أن تحتالوا لأكلها بالباطل، وتضيفوا أموالهم كلها أو بعضها إلى أموالكم، وتخلطوها بها، لتختلسوها من حيث لا يشعرون. ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾.

إن التصرف على هذا النحو في أموال اليتامى إثم كبير، وذنب عظيم، وجريمة تستوجب العذاب الشديد. ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

ثانياً:

١ - في توجيه الأمر في الآية الكريمة. ﴿وَأَتُوا﴾ إلى الناس كافة مع أن المقصود به الأوصياء خاصة إشارة إلى أن رعاية اليتيم، وحفظ ماله



من الضياع مسؤولية المجتمع كله، الذي يتكافل أفراداه في جلب المنفعة وإبعاد المضرة ويتعاونون على الإتيان بالخير ودفع الشر.

٢ - حرمت الآية الكريمة ما كان سائداً في المجتمع الجاهلي، من السطو على مال اليتيم كله أو بعضه، والاستيلاء على الجيد من ماله، وإعطائه في مقابلة الرديء من مال الوصي.

٣ - تبين الآية الكريمة خلقاً من أخلاق المتقين، الذين يظفرون في الدنيا بتوفيق ربهم، وهدايته، فيلزمون جادة الصواب، ويحذرون الإضرار باليتيم، والعدوان على ماله، ويفوزون في الآخرة بالنجاة من عذابه، ويغتمون الخلود في ثوابه.

٤ - أثرت الآية الكريمة إطلاق كلمة ﴿أَلْيَنَى﴾ على من بلغوا رشدهم، استدراراً لعطف الأوصياء عليهم، واستجلاباً لرحمتهم بهم، وتذكيراً لهم بضعفهم، حتى لا يطمعوا في أموالهم.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثًىٰ وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ذَلِكَ أَدَقُّ أَلَّا تَعُولُوا﴾.

كان أسلوب الجاهلية الأولى في معاملة يتامى النساء مزرياً بكرامتهن الإنسانية، مضيقاً حقوقهن المادية، متجاهلاً مشاعرهن، ورغباتهن النفسية:

أ - فتارة كان الأوصياء يتزوجون من في حجرهم من اليتيمات، إن كان لهن حظ من الجمال، دون أن يوفوهن الصداق الذي يجب أن يدفع لمثلهن، وتارة أخرى كانوا لا يعطونهن ما كتبوه لهن من الصداق، وفي كلتا الحالتين قد يكون بين الأوصياء واليتيمات فارق كبير في السن، فيتجاهلون هذا الفارق، وقد لا تكون الرغبة في الزواج من الأوصياء متوفرة عند اليتيمات، فيتم إكراههن على هذا الزواج.

عن عروة بن الزبير أنه سأل خالته عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - عن هذه الآية، فقالت: «يا بن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، يشركها في مالها، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن»^(١).

ب - وحيناً آخر كانوا يزهدون منهن، إن لم ينلن إعجابهم، وكانوا يحبسونهن عن الزواج بغيرهم، ابتزازاً لمالهن، وتسخيماً لهن في خدمتهم.

وكان إلى جوار هذه الأساليب الجائرة أسلوب آخر أمعن في الغرابة والشذوذ، يتعامل به المجتمع الجاهلي، ويقره على أوسع نطاق، ولا يضع له ضابطاً من الضوابط؛ ولا يقيد به بضمان من الضمانات؛ وهو أن يتزوج الرجل بمن يريد من النساء دون حد، وأن تطلق حرته في التعدد من غير قيد.

فجاءت هذه الآية الكريمة؛ لتقضي على هذه الأساليب كلها، وتغيرها، فأمرت الأوصياء بالعدالة الكاملة في معاملة اليتيمات، وإنصافهن في جميع الحالات، التي كان يقع الظلم عليهن فيها، وطالبتهن عند الخوف من عدم القدرة على إقامة ميزان العدل معهن، وأداء جميع حقوقهن الإنسانية والمالية، أن يتزوجوا من شأوا من غيرهن. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

وأجازت لهم أن يتزوجوا اثنتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، وأوجبت ألا يكون في عصمتهم أكثر من أربع؛ شريطة أن يعدلوا بينهن، فيما

(١) جاء في الصحيحين، وسنن النسائي.



يمكن العدل فيه؛ من المعاملة، والنفقة، والمعاشرة، وفيما يخضع لإرادة الإنسان، ولا يخرج عنها، وشريطة أن يكون التعدد تلبية لضرورة فطرية أو اجتماعية؛ فإن تعدد الزوجات في الإسلام غير مطلوب لذاته، ولا مشروع من غير ضرورة ملحة، والإسلام لم ينشئ التعدد، وإنما حدده، ولم يأمر به، وإنما رخص فيه وقيده. ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾.

فإن خاف الأزواج أن يقعوا في الحيف، ويجافوا العدل المفروض عليهم لزمهم أن يقتصروا على الزواج من واحدة، وأوصد في وجههم باب التعدد. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾.

وفتحت الآية الكريمة الباب على مصراعيه أمام الإماء، ليجدن طريقهن إلى الحرية، وينلن الكرامة الإنسانية، ويتنسمن نسيم العفة والفضيلة، فأجازت للرجال أن ينكحوا من شأوا منهن بملك اليمين دون حد؛ لأن هذا النكاح يحقق مصلحتهن، ويؤهلن للحرية إن عاجلاً أو آجلاً. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، ولا حق للإماء في العدل في الفراش بينهن، ولهن الحق في الكفاية بالمعروف. والزواج من غير اليتيمات عند الخوف من الجور عليهن أيسر حل، وأقرب إجراء لتحقيق العدل، واتقاء الظلم ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾.

ثالثاً:

١ - أبطلت الآية الكريمة كل المظالم التي مارسها المجتمع الجاهلي مع اليتيمات؛ فمنعت تزوجهن إلا بمهر المثل، وحرمت الزواج بهن طمعاً في أكل أموالهن، أو حبسهن عن الزواج ابتزازاً لثروتهن.

٢ - تفيد الآية الكريمة أن تعدد الزوجات حرام عند الخوف من عدم إقامة العدل بينهن، ولكن هذه الحرمة لا تقتضي بطلان عقد الزواج أو فساده، فقد يخاف الإنسان الظلم ولا يظلم، وقد يظلم ثم يتوب وتصح توبته.

٣ - لم يفتح الإسلام باب التَّسَرِّي؛ لينصرف طلاب المتعة في اقتناء الإماء: وإنما فتحه توفيراً لحمايتهن، وتيسيراً لكفائتهن بالمعروف، وإحصاناً لهن، وسعيّاً وراء إعفافهن، وإبعادهن عن الرذيلة والإثم، وتحقيقاً لحفظ النوع الإنساني بالتناسل؛ فإذا انحرف المسلمون عن هذه الأهداف فلا ذنب للإسلام في انحرافهم، وإنما الذنب ذنبهم.

٤ - يجب على من يدخل الإسلام من القبائل التي ما تزال تبيح التعدد بلا قيد أن يمسك في عصمته أربعاً منهن، ويسرّح الأخريات.

٥ - من الأسباب التي توضح حكمة الإسلام السامية في إباحة تعدد الزوجات:

أ - أن الرجل يؤدي وظيفة النسل طوال أيام العام، ولا تؤديها المرأة، وهي حامل تسعة أشهر.

ب - أن الرجل مستعد للإنجاب بعد بلوغه سن الستين، ونادراً ما تلد المرأة بعد الخمسين.

ج - أن الإحصاءات الدقيقة دلت على أن عدد الرجال في العالم أقل من عدد النساء في أوقات السلم، فضلاً عن أوقات الحرب.

تعدد زوجات الرسول ﷺ:

يجمل بنا أن نشير إشارة موجزة مركزة إلى الأسباب التي دعت إلى تعدد زوجات النبي ﷺ، بعد وفاة خديجة الكبرى التي لم يتزوج عليها - رضي الله تعالى عنها -، والتي جعلت من خصوصياته ﷺ أن يتجاوز في التعدد أربعاً.

١ - تزوج سودة بنت زمعة حماية لها من الفتنة في دينها، فقد توفي زوجها بعد عودته من الهجرة الثانية معها إلى الحبشة، ولو عادت إلى أهلها المشركين لعذبوها، وفتنوها



- ٢ - تزوج عائشة بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - إكراماً لصاحبه، ورفيقه في الهجرة، كما تزوج حفصة بنت عمر - رضي الله عنهما - بعد استشهاد زوجها خنيس بن حذافة بدير إكراماً لأبيها.
- ٣ - تزوج زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة إبطالاً للعادة الجاهلية التي تحرم الزواج من زوجة المتبنى بعده.
- ٤ - تزوج برة بنت الحارث سيد بني المصطلق؛ لأن المسلمين كانوا قد أسروا مائتي بيت من قومها بالنساء والذراري، فتزوج الرسول ﷺ بنت سيدهم، وأعتقها؛ ليقّدي به المسلمون، ويعتقوا ما في أيديهم من الأسرى، وقد حُب هذا العمل بني المصطلق في الإسلام فأسلموا، وصاروا عضداً للمسلمين.
- ٥ - تزوج زينب بنت خزيمة بعد استشهاد زوجها عبد الله بن جحش في أحد إحساناً إليها، ومكافأة لها على حبها للمساكين، وعطفها عليهم، وبرها بهم، فقد كانت تسمى في الجاهلية «أم المساكين».
- ٦ - تزوج هنداً (أم سلمة)، بعد وفاة زوجها، وهو أبو سلمة عبد الله بن أسد ابن عمة الرسول ﷺ برة بنت عبد المطلب، وأخوه من الرضاعة وقد كان أول فارس بدينه، ومهاجر إلى الحبشة، وكانت تحب زوجها، وتجلّه، حتى إنها رفضت الزواج من أبي بكر وعمر؛ لتتفرغ لرعاية أولاده منها، ولما قال لها النبي ﷺ: «سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك، ويخلفك خيراً، قالت: ومن يكون خيراً من أبي سلمة؟ فكان زواجه منها خير عزاء لها».
- ٧ - تزوج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت زوجة لعبيد الله بن جحش، وهاجرت معه إلى الحبشة الهجرة الثانية؛ فتنصر هناك، وثبتت هي على الإسلام، وكان قومها أعداء لبني هاشم في الجاهلية والإسلام، فلم يضيعها رسول الله ﷺ، وتزوجها.

٨ - تزوج صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب سيد بني النضير بعد مقتل زوجها، وأبيها يوم خيبر، وكان قد أخذها دحية الكلبي، فأشار أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - على رسول الله ﷺ أن يتزوجها، لئلا تكون أسيرة عند من تراه دونها، فوافق ﷺ على مشورتهم، واختارها وأعتقها وتزوجها، وقد بلغها أن عائشة وحفصة - رضي الله عنهما - قالتا فيها: نحن أكرم على رسول الله ﷺ منها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال لها: ألا قلت: وكيف تكونان خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى؟».

٩ - تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وكانت تسمى: برة فسمها النبي ﷺ ميمونة، زوجه منها عمه العباس، وكانت قد جعلت أمرها إليه، بعد وفاة زوجها الثاني: أبي رهم بن عبد العزى، وهي خالة عبد الله بن عباس، وخالد بن الوليد، ولعل السبب في زواج النبي ﷺ منها قرابتها من بني هاشم، وقد كانت آخر زوجاته ﷺ.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا﴾.

ومن صور البغي التي شقيت بها المرأة في الجاهلية أن وليها كان صاحب الحق في قبض صداقها، وامتلاكه كله، وحرمانها منه؛ كما كان من حقه أن يبادل بالمرأة التي تحت ولايته على امرأة تحت ولاية غيره، كمبادلة سلعة بسلعة والآية الكريمة تأمر الأولياء والأزواج معاً أن يعطوا النساء صداقهن المفروض، وتوجب على الأزواج أن يدفعوه عن ارتياح، وطيب خاطر، وسماحة نفس، وتجعل الصداق حقاً خالصاً لهن، لا يجوز لغيرهن أخذ شيء منه إلا بمحض اختيارهن، وتامام رضاهن.

وقد أوجب الإسلام تحديد الصداق وتسميته، وحث على أن



يكون الباعث على دفعه الاغتباط الذي يصحب بذل الهبة، والسرور الذي يلزم تقديم المنحة.

رابعاً:

- ١ - قررت الآية الكريمة للمرأة حق التملك الذي كان محظوراً عليها، وأوجبت لها المهر، ومنعت أن تنكح بدونه.
- ٢ - تقييد الإتياء بكلمة (نحلة) يطالب الأزواج بالسماحة والأريحية عند إعطاء النساء مهورهن، ويمنع التبرم والضيق والضجر، وكل ما يحول دون تحقيق المودة والتفاهم.
- ٣ - يستفاد من اشتراط طيب النفس عند أخذ شيء من صداق المرأة أو مالها عدة أمور:
 - أ - أن كل مال يؤخذ بسيف الحياء، أو الإكراه، أو الموافقة الصورية حرام.
 - ب - أن العلاقة الزوجية مع متانتها وقوتها لا تلغي حصانة المال الخاص، بالزوجة ولا تزيل حرمة واحترامه، ولا تجعله حلالاً للزوج إلا إذا تحقق الشرط.
 - ج - أنه من واجب الأزواج أن تعف نفوسهم عن أموال أزواجهم، وأن تسمو أقدارهم عن أن يعيشوا عالة عليهن، وألاً يشوهوا بالاستغلال وجه الزواج.
 - د - أن الإسلام حريص على أن يظهر الزوج دائماً بمظهر الأهلية الكاملة لكفالة زوجه، وأداء حقوقها، وألاً يضطرب نظام الأسرة، وتنتكس قوامه الرجل، وتذهب هيئته باختلال الأوضاع فيها.
 - هـ - وأنه حريص كذلك على أن يسود الصفاء جو الأسرة، وأن يظل الوثام يُظل سماءها، وأن تأخذ بأسباب الاستقرار.

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْنُلُوا إِلَيْنَا حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا



٨ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْقِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا
 خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ٩
 إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي
 بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ١٠

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿السَّهَاءُ﴾	الذين يتلفون أموالهم إسرافاً، ولا يحسنون التصرف فيها.
﴿أَمْوَالِكُمْ﴾	الأموال عامة، تشمل مال اليتيم، والصدقات، والميراث، وغيرها.
﴿قِيَمًا﴾	قائمة بكفايتكم، مؤدية مطالبكم، كافلة وجودكم.
﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾	واجعلوها مصدر طعامهم، وسبب نفقتهم بالتثمين والتنمية.
﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾	كلاماً طيب به نفوسهم، ويطمئنهم على أموالهم ومستقبلهم.
﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾	لاحظوا تصرفاتهم، وراقبوا معاملاتهم المالية، واختبروهم.
﴿ءَأْتَسْتُمْ رُشْدًا﴾	وجدتم فيهم سلامة التصرف عامة، وحفظ المال خاصة.
﴿إِسْرَافًا وَيَدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾	تبذيراً، ومسارة إلى إتلافها قبل أن تصل إلى أيديهم.
﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾	فليبالغ في الزهد في مال اليتيم، ولينزع بترك ما لا ينبغي له.
﴿فَلْيَأْخُذْ كُلَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾	فليأخذ من مال اليتيم بمقدار ما يستحق من الأجر على رعاية أمره.
﴿وَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾	وسلموهم أموالهم علانية، وأقيموا عليهم شهوداً عند التسليم.
﴿حَسِبًا﴾	محصياً أعمالكم، ومحاسباً لكم على ما أعلنتم، وما أسررتم.
﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرُ﴾	من الميراث قليلاً أو كثيراً.
﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾	حقاً مقررأ، وسهماً واجباً.
﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾	فقدموا إليهم بعض المال قبل قسمته.



الكلمة	تفسيرها
﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾	قولاً كريماً يدل على اغتباطكم بالعطاء واعتذاركم عن القصور فيه .
﴿وَلِيَحْسَنَ﴾	الخشية: خوف مشوب بالتعظيم الذي يثمره العلم الصحيح .
﴿سَدِيدًا﴾	عدلاً وصواباً، ونافعاً في كل حال .
﴿سَعِيرًا﴾	ناراً مشتعلة، والتنكير للتهويل، أو التنويع: أي سعيراً خاصة بأكلي أموال اليتامى ظلماً .

التأويل والبيان:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

المال عصب الحياة، ودعامة عمارتها، وسلّم النهضة فيها، ومبعث القوة والظهور على الأعداء، ووسيلة العزة والحرية، وله وظيفته في تحقيق أهداف المجتمع، والوفاء بمتطلباته، وكفاية حاجاته.

وهو في الأصل ملك عام للجماعة المتكافلة في الانتفاع به على خير الوجوه وأفضلها، ثم هو بعد ذلك ملك خاص لصاحبه، له حرمة دمه وعرضه؛ فلا يجوز انتزاعه منه، وتجريده من ملكيته، ما دام قد وصل إليه بطريق مشروع، ولكن حرية التعامل بالمال، والتصرف فيه لا يمنحها الإسلام إلا للأفراد الذين يقدرّون على الانتفاع به، ويرعون مصلحة الجماعة فيه، ويستطيعون القيام عليه، وتنميته وتثميته، ويحسنون تصريفه وتدبيره. أما السفهاء من الأغنياء الذين يجهلون سياسة المال، ولا يصلحون للتعامل فيه، فقد أوجب الإسلام حماية مالهم من القلق والضياع، وحياتهم من الفاقة والمسغبة، ومستقبلهم من الخسران والبوار، بالحجر على تصرفاتهم المالية، ومنعهم من حيازة أموالهم، سواء أكانوا من اليتامى أو من غيرهم.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾.

وقد أقام الإسلام عليهم وصاية عادلة رحيمة، تحفظ أموالهم، وتثمرها لهم، وتتولى رعاية مصالحهم، والإنفاق عليهم، وتتعهدهم بالنصح والتوجيه والتأديب، وتعاملهم بالحسنى، والكلمة الطيبة التي تبعث الأمل في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، وتشعرهم بالعزة والكرامة،



وتخبرهم أن النفقة التي تجري عليهم ليست صدقة ولا عطية، ولكنها من حُرِّ مالهم الذي سيؤول إليهم عند إدراكهم رشدهم ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

الدروس المستفادة أولاً:

الخطاب في: ﴿أَمْوَالِكُمْ﴾ ينطوي على عدة إشارات لها أهميتها الكبيرة:

- أ - فهو يشعر بحقيقة التكافل في المجتمع الإسلامي، وشدة ارتباط المصالح فيه، ويشير إلى أن مصلحة الفرد هي عين مصلحة الجماعة.
- ب - ويدل على أن المال مملوك ملكية عامة للجماعة المسلمة؛ تحمي به وجودها، وتدعم قوتها، وأنه ليس ملكاً للسفهاء ما داموا فاقدين أهلية التصرف فيه.
- ج - ويُهيب بالأوصياء والأولياء أن يحافظوا عليه، ويتعهدوه بالإنماء، كأنه ملك خالص لهم، وألاً يؤثر فيهم الشعور بأنه مملوك لغيرهم.
- د - ويفيد أن السفية قد يكون ابناً لصاحب المال، وربما دفعته الشفقة به إلى تمكينه منه، ودفعه إليه، فيضيعه السفية عليه.
- هـ - ويؤكد أن السفية إذا ضيع ماله وجبت نفقته على وليه، أو على المجتمع، مما يكون سبباً في إضاعة مال الولي، أو جزء منه.
- ٢ - الآية الكريمة تدعو إلى الاعتدال في الإنفاق، وتحث على حفظ المال: وتنهى عن إتلافه، والتفريط في رعايته، وتعرف المسلمين بقيمته ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾.
- ٣ - يؤخذ من قوله - تعالى -: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ مطالبة القائمين على

أموال السفهاء بعدم حبسها عن الحركة، وإطلاقها من عقالها، حتى ينفقوا على أصحابها من ربحها وغلتها، لا من رأسها وصلبها، والرزق يشمل جميع أوجه النفقة. ولولا كلمة ﴿فِيهَا﴾ لجاز أن يسمى الإنسان رازقاً، فلله ما أدق تعبيرات القرآن الكريم، وما أعظم إعجازه!!!

﴿وَابْتُلُوا آلَئِنَّمَا حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

تأمر الآية الكريمة أوصياء اليتامى أن يلاحظوا سلوكهم العام، ويراقبوا تصرفاتهم ويختبروا قدرتهم على الاستقلال في إدارة شؤونهم سواء كان هذا الاختبار عن طريق تمكينهم من إبرام بعض التصرفات المالية، أو إحضارهم عند إبرامها وأن يقيسوا أعمالهم بمقاييس بيتهم التي تميز الرشد من السفه، وتحدد أمارات النضج والبلوغ ﴿وَابْتُلُوا آلَئِنَّمَا﴾.

فإذا وصلوا إلى سن الزواج، وتطلعت أنفسهم إلى تكوين الأسرة، وبلغوا مبلغ الرجال ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾.

فإن تبينتم قدرتهم على الاستقلال في إدارة ممتلكاتهم، واطمأنتم إلى صلاحيتهم للتصرف في أموالهم فبادروا بدفعها إليهم كاملة ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾.

ومن واجبكم أن تحافظوا عليها، في أثناء تحمل أمانة الرعاية، ومسؤولية الوصاية، وأن تحذروا تبديدها بالتبذير والإسراف فيها، وألا تسارعوا إلى إتلافها، والإتيان عليها، خشية أن يصل أصحابها إلى الإدراك السليم ويُنَحِّوكم عن منصب الوصاية عليهم، ويقبضوها منكم ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾.



وعلى من يكون غنياً من الأوصياء أن يعف نفسه، ويكف يده عن أخذ شيء من مال اليتيم في مقابل رعايته شؤون، وألا يتقاضى أجراً نظير قيامه بالأعباء المالية، وأن يعتبره واحداً من أبنائه ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾.

ولمن يكون فقيراً من الأوصياء الحق في أن يأكل من مال اليتيم، في أضيق الحدود، وأن يأخذ القدر الضروري الذي يكفي مثله، وألا يزيد عن مقدار ما يستحق من الأجر على إدارة شؤون اليتيم، وأن يكون ما يأخذه من ربح المال وغلته، لا من صلبه ورأسه ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

ويجب أن يتم دفع الأموال إلى الذين بلغوا رشدهم علانية، وأن يتم الإشهاد على إجراءات الدفع، كما يتم الإشهاد على سائر العقود إبراء لذمة الأوصياء، ونفياً للتهمة عنهم، وحسماً للخلاف، وقطعاً للخصومة ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾.

وإن كان المعول عليه أولاً وأخيراً شهادة الله - تعالى - على خلقه، وبراءة ساحتهم عنده، لأنه هو الرقيب عليهم، الشهيد على أعمالهم، وهو الذي سيحاسبهم ويجزيهم بما كانوا يعملون ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسيبًا﴾.

ثانياً:

١ - أعباء الوصاية جسيمة، وأمانتها كبيرة، ومسؤوليتها خطيرة، وبلاؤها عظيم، وهي باب من أبواب الفتنة؛ ولهذا يرحم الإسلام الأوصياء، ويأمرهم بترقب الفرصة التي تلقي عنهم أثقالها، وتضع عنهم أوزارها.

٢ - تكشف الآية الكريمة عن النزعات الشريرة التي تسيطر على بعض الأوصياء، وتدفعهم إلى الإجهاز على مال اليتيم، قبل أن يبلغ

- رشده، ويخاصم وصيه، ليقبض ماله، وتحذر من هذه النزعات.
- ٣ - مما يشهد بأن الزواج سنة من سنن الفطرة أن الآية الكريمة تجعل الوقت الذي تتجه فيه رغبة الإنسان، وتتوق نفسه إلى أن يكون رب أسرة علامة من علامات الرشد.
- ٤ - إذا وصل الإنسان إلى سن الرشد سقطت عنه كل ألوان الوصاية، ورفع الحجر على تصرفاته، ونال استقلاله الذاتي، وتمتع بحريته الشخصية كاملة، وجعل أمره إليه، وتحمل مسؤوليته تامة.
- ٥ - فرقت الآية الكريمة بين الأوصياء؛ فالزمت الأغنياء منهم العفة وفرضت على الفقراء التدبير والقصد.
- ٦ - الإشهاد على تسليم من بلغ رشده من اليتامى ماله يبرئ ذمة الوصي في الدنيا، ولا يبرئها في الآخرة إلا بشهادة الحسيب الرقيب - سبحانه -.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

سبب النزول:

مات رجل من الأنصار يقال له: أوس بن ثابت، عن زوجة وثلاث بنات، فأخذ ابنا عمه: خالد وعرطفة ميراثه، فجاءت زوجته شاكية إلى رسول الله ﷺ، فقال لها: «ارجعي حتى أنظر ما يوحى به الله»، فنزلت: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾. وقال لهما: «لا تحركا من مال أوس شيئا؛ فإن الله قد جعل للنساء نصيبا ولم يبينه»، فلما نزل قوله - تعالى -: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلرِّجَالِ النِّصَابُ وَلِلنِّسَاءِ النِّصَابُ﴾ الآية ورز الميراث كما أمر الله - تعالى -.

تحقيقاً لمنهج الإسلام في إقرار نظام التكافل الاجتماعي بين أفراد



الأسرة الواحدة، الذي هو حجر الأساس في بناء التكافل الاجتماعي على مستوى الأمة، فرض الله - تعالى - لكل وارث من الرجال والنساء نصيباً محدداً، وقدرأً معيناً، في التركة الموروثة من الوالدين، أو الأقربين، قليلة كانت هذه التركة أو كثيرة.

ونسخ نظام الجاهلية الذي كان يخص من ذوي القربى الرجال وحدهم؛ لأنهم يركبون الخيل، ويحملون السلاح، ويردون الغارة، ويحمون العشيرة ويحوزون الغنيمة، وَيَحْرَمُ النساء والأطفال من الميراث؛ لأنهن لا يركبن فرساً، ولا يردن مغيراً، ولا ينزلن بالعدو نكابة.

ثالثاً:

١ - لم يكن أسلوب الجاهلية الذي يُورث المحاربين دون سواهم إلا ظلاً لحياتهم الشاذة التي قامت على الغزو، ونبتت على السلب والنهب، وترعرعت في جو الغارات الدائمة، والحروب المستعرة، والخلافات المستحكمة، وكأنهم يُغرون المقاتلين بهذا التوريث، ويؤججون به حميتهم للقتال، وهم بهذا يتجاهلون الحق، ويحافون مبدأ العدل، وينحرفون عن الصواب، ويتنكرون لمنطق العقل، فما دامت درجة القرابة واحدة بين الأقارب فلماذا يعطى البعض دون البعض؟ ولهذا جاء منهج الله - تعالى - ليثبت أركان العدل، ويقيم شرعة الحق، ويقر الصواب، ويحمي القلوب من الحقد، وينأى بالنفوس عن الحسد، ويبرئ الصدور من الغل، فأشرك النساء مع الرجال في الميراث، وسوى بينهما في الاستحقاق، فالمال مال الله وهو الرزاق، والحكم حكمه وهو الواحد الخلاق.

٢ - من الحقائق الثابتة التي لا يمكن إنكارها، ولا يُقبل جهلها أن الأبناء يرثون من آبائهم وأقاربهم صفات كثيرة، لها تأثيرها المُستمر في حياتهم؛ فهم يرثونهم في الهيئة الجسمية من حيث لون

البشرة، والطول أو القصر، والوسامة أو الإمامة، ويرثونهم في الاستعداد للصحة أو المرض، ويرثونهم في بعض الأخلاق والملكات، فمن الطبيعي أن يخلفهم على المال الذي هو عرض من أعراض الحياة.

٣ - من طبيعة المنهج الرباني أن يحفز الهمم للسعي، ويدفعها للعمل المثمر، ويستحث خطاها لبناء القوة المادية التي تواكب بناء القوة المعنوية، وتسير معها جنباً إلى جنب، وتبدو هذه الطبيعة من جعل الإرث في محيط الأسرة. فإن الآباء مفطورون على حب الأبناء، مجبولون على إثارة مصلحتهم، والاجتهاد في إسعادهم، وشعورهم بأن جهدهم الشخصي، وكدهم اليومي، وسعيهم في الحياة مذخور لأبنائهم، وسيعود أثره على ذريتهم، يحدوهم إلى مضاعفة الجهد، ويدفعهم إلى الجد والمثابرة، ويحملهم على التفاني في البذل، والإخلاص في العمل، مما يؤدي إلى عمارة الحياة، ويكون سبباً في قوة المجتمع، وعزته ومنعته؛ ومن أجل هذا قام نظام الإرث في الإسلام على الاعتراف بالميول الفطرية، والروابط الأسرية.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

لما كانت درجة القرابة من صاحب التركة تختلف، ومرتبها تتفاوت كان الميراث للأقرب فالأقرب، وبناء على هذا صار بعض الأقارب لا يرثون، فالابن يحجب الأخ، والأخ يحجب العم، ولئلا تترتب على الحجب آثار نفسية تضعف من صلة القرابة، وتقلل من فاعليتها قرر الإسلام للأقارب الذين ليس لهم نصيب في التركة رزقاً مشاعاً، وأوجب لهم حقاً غير محدود، إذا حضروا قسمة التركة، وتوزيع الأنصبة، جبراً لخاطرهم، وتطبيعاً لنفوسهم، واستبقاءً لمودتهم،



ومكافأة لهم على حضورهم واهتمامهم، وقرر الإسلام مثل هذا الحق لمن يحضر مجلس القسمة من اليتامى والمساكين، إحساناً إليهم، وإصلاحاً لحالهم، ومساهمة في كفالتهم، ورفعاً لمعنوياتهم، ولكي يفعل هذا العطاء فعله في النفوس، ويثمر ثمرته في القلوب أوجب الإسلام أن يكون مصحوباً بالقول الكريم، مشفوعاً بالكلام الطيب الذي يشعر بالارتياح للبذل، وينبئ عن طيب النفس بالعطاء.

رابعاً:

- ١ - تعتبر التركة في الواقع مَغْنَمًا للوارثين، والإسلام في سماحته يأبى أن يخرج واحد من الذين يحضرون توزيع المغنم صفر اليدين، حسير النفس، كاسف البال.
 - ٢ - يسعى الإسلام سعيه الحثيث لتوسيع نطاق تداول المال، وتكثير الأيدي التي تتناوله، والجيوب التي تستقبله ﴿كَئِنْ لَا يَكُنْ دَوْلَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧].
 - ٣ - ويربى المؤمنون على أن يقابلوا نعم الله - تعالى - عليهم، وإحسانه إليهم بالشكر له، والإحسان إلى عباده، والبذل في سبيله.
 - ٤ - ويعمل على إشاعة الحب في المجتمع، وتوطيد المودة بين أفرادها؛ لأن الحب في الله ثمرة الإيمان، ولن يدخل المؤمنون الجنة إلا إذا تحابوا، ولن يبلغوا رحمة ربهم إلا إذا تراحموا.
 - ٥ - ويسخر جوارح المؤمن للخير والطاعة، فحين تمتد يده بالعطاء، فعلى لسانه أن ينافسها بالمنطق الجميل، ويشاركها بالكلمة النابضة بالخير، فللكلمة سحرها وأثرها، وإن العطاء إلى نفاذ، ولكن الكلم الطيب إلى خلود مع أن مؤنثه أيسر من مؤنة العطاء.
- ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

تحرك الآية الكريمة مشاعر الأوصياء، وتهز أوتار قلوبهم، وتلمس مكن الرحمة فيها، فتذكرهم بأن الموت راصد لهم، يفجؤهم في أية لحظة، وينزل بهم على غرة وأن أولادهم معرضون لليتم بين عشية أو ضحاها، وتُهب بهم أن يتصوروا حال أبنائهم إذا اخترم الموت آباءهم، وتركوهم ضعافاً عاجزين مضيعين، وتأمّرهم أن يستحضروا في أذهانهم مبلغ الخوف الذي ينتابهم على أبنائهم من هذا المصير، الذي يجري به قدر الله - تعالى - وحده، ولا يملك التصرف فيه سواه، فليخف الله - تعالى -، وليحذر العاقبة، وليحسب حسابها أولئك الذين يؤرقهم الخوف على مستقبل ذرائعهم الضعاف، ويملؤهم الرعب من أن يتلقاهم الناس من بعدهم بالمساءة، ويستقبلوهم بالإهانة، ويعرضوهم للمذلة ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَأَفُوا عَلَىٰهُمْ﴾ [سورة النساء، الآية: ٩]. فليتقوا الله - تعالى - في أمر اليتامى الذين يلون وصايتهم، وليعاملوهم بما يحبون أن يعامل به أبنائهم من بعدهم، وليحسنوا تربيتهم، والقيام برعاية مصالحهم، والمحافظة على أموالهم، وليتعهدوهم بالنصح والتوجيه، والقول السديد، الذي يتدفق بالخير؛ فلا يُهن النفس، ولا يجرح الشعور، ولا يتناول الآباء بالقدح والتجريح، ولا يقصد إلى الإضرار بمصلحة الأبناء ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

خامساً:

- ١ - كان اليتيم في المجتمع الجاهلي مهيض الجناح، مُضيّعاً، يبتز الوصي ماله، ويهدر حقوقه، ويستنفد طاقته، ويسخره لخدمته، وقد جاءت هذه الآية الكريمة إلى جانب أخواتها التي عالجت قضيته؛ لتصنع له الأبوة الكريمة، ولتقيم عليه الوصاية الرحيمة، ولتحله محل الأبناء، وتنزله منزلتهم، وتحقق له من الرعاية ما يتحقق لهم.
- ٢ - وقد ضربت الآية الكريمة على أشد الأوتار حساسية، واستغلت



حب الآباء الشديد أبناءهم، وقلقهم على مستقبلهم في ترويع الأوصياء من الإساءة إلى اليتامى الذين في حجورهم، ودعوتهم إلى إنصافهم من أنفسهم، وموالة برّهم، وعدم إضاعتهم.

٣ - واتخذت من الموت الذي يأتي بغتة، ولا تحمي منه البروج المشيدة وسيلتها في إقناع الأوصياء بأداء حقوق اليتامى، وعدم استغلال فرصة عجزهم وضعفهم، إشفاقاً منهم على أبنائهم الذين قد يتعرضون لمثل مصيرهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

بعد أن لمس السياق موطن العطف والشفقة في قلوب الآباء تجاه مصير ذريتهم الضعاف من بعدهم لو عصفت به عاصف المنون، ومسّ شغاف هاتيك القلوب، انتقل إلى الصورة الرهيبة التي يكون عليها حال الذين لا يقسطون مع اليتامى، ويأكلون أموالهم بالباطل، إسرافاً وبداراً أن يكبروا، وقد صار هذا المال الذي أكلوه بغير حق وبالا عليهم في الدنيا، فأصبحوا لا يأكلون بأموال اليتامى طعاماً يفيدهم، ويقيم أودهم، ويسري في عروقهم دماء زكية، ويتحول في أجسامهم صحة وعافية، تعينهم على القيام بطاعة ربهم، وأداء ما افترضه عليهم، وتساعدهم على احتمال أعباء الحياة، والسعي في طلب الحلال من الرزق، ولكنهم يأكلون بهذا المال الحرام سماً زعافاً، ويلتقمون في أفواههم ما هو كالجمر في الضرر والإيذاء، بما يجر عليهم من ويلات الأمراض التي تتقد آلامها في أبدانهم، وتشتعل في أجسادهم سعيراً، وتجعلهم يتململون على أحرّ من الجمر، ويمدون أيديهم إلى السماء داعين، يا رب، يا رب، ومطعمهم حرام، ومشربهم حرام، وملبسهم حرام، فأنى يستجاب لدعائهم؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

وكل ما يلاقونه في الدنيا من بلايا ومحن، وكوارث وفتن لا يغني عنهم من عذاب الآخرة شيئاً؛ ففي الأثر أنهم يسبحون في بحر من الدم، ويلتقمون الجمر بأفواههم، فيخرج من أدبارهم، مع ما أعد لهم من عذاب السعير، وهذا إذا ماتوا على غير التوبة التي من تمامها أن يردوا الحقوق إلى أصحابها، وأن يستحلوا الخصوم ﴿وَسَبُّكَ سَعِيرًا﴾.

سادساً:

- ١ - من التخويف بحقيقة الموت الذي لا رادّ له، ولا عاصم ينتقل السياق إلى الترغيب بحقيقة البعث الذي لا يجحده إلا الخاسرون لينقل إلينا صورة العذاب الرعب الذي أعده الله - تعالى - للذين يعتدون على أموال اليتامى، ويضيعونها عليهم.
- ٢ - فعل هذا التخويف فعله في نفوس الأوصياء، فخلصها من أدران الجاهلية، وهزها هزة عنيفة، أشاعت فيها الرعب والفرع، وجعلتهم لصدق إيمانهم يرون أموال اليتامى ناراً حامية، وصار الذين عندهم يتامى يعزلون طعامهم من طعامهم، وشرابهم من شرابهم، ويخصونهم بالأجود، حتى يأكلوه أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروه لرسول الله ﷺ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمَنَّى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم.
- ٣ - ينبه التعبير بالأكل في: ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الَّتِي تَمَنَّى طُلُمًا﴾ عن أخذها بغير وجه حق إلى أن أهم البواعث على خيانة الناس أمانة المال، وأعظم الدوافع إلى أخذه من غير وجوه المشروعة إنما هو شهوة البطن.



سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ

وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ
 فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ
 مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ
 رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
 وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
 فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا
 أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ
 ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
 يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾
 وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ
 نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿يُؤْمِرُكُمْ اللَّهُ﴾	يأمركم الله بما يحبه، ويلزمكم ما فيه خيركم، وصلاح أمركم.
﴿فِي أَرْوَاحِكُمْ﴾	في شأن المؤمنين من بنيكم وبناتكم؛ لأن اختلاف الدين يمنع الإرث.
﴿حَظَّ الْأُنثَيَيْنِ﴾	نصيبهما.
﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾	فإن كان الأولاد إناثاً فقط.
﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾	ثلاثاً فأكثر، والبناتان المسكوت عنهما كالأختين المنصوص عليهما في ميراث الكلالة.
﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾	ولأبوي الميت.
﴿كَكَلَّةٍ﴾	ليس له والد ولا ولد.
﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾	من غير أن يقصد الموصي الإضرار بالورثة؛ فيزيد عن الثلث في الوصية، ويختلق الدين ويفتعله.
﴿عَلِيمٌ﴾	يشرع أحكامه عن علم محيط بمصلحة عباده، وبمن يلتزم بها، ومن يفرط فيها.
﴿حَلِيمٌ﴾	يمهل المخالفين أوامره، ولا يعجل لهم العقوبة.
﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾	الأحكام التي سبقت في السورة الكريمة هي الحدود التي يجب الوقوف عندها، وعدم مجاوزتها؛ لأنها صادرة عن الله - تعالى -.
﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾	ومن يتبع الرسول - ﷺ - فيما جاء به.
﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾	ومن يخالف الرسول - ﷺ - فيما جاء به.
﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾	يمسّ كرامته بالإهانة، وشرفه بالعار والفضيحة.

التأويل والبيان:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ يَثُلُ حَظُّ الْأُنثَيَيْنِ إِن كَانَ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أمر الكتاب العزيز الأبناء بالإحسان إلى آبائهم في عدة مواضع منه ﴿وَالْأُولَئِينَ إِحْسَنَّا﴾ [الإسراء: ٢٣]، ووصاهم بالشكر لهم، والاعتراف بفضلهم، وردّ جميلهم، وسؤال الرحمة لهم في حياتهم، وبعد مماتهم ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٤]، ومما يعين الأبناء على الوفاء بحقوق الآباء، والإحسان إليهم، والتفاني في برهم، وخفض جناح الذلّ لهم من الرحمة أن يستجيب الآباء لما وصاهم الله - تعالى - به، وأن يلتزموا الحدود التي سنّها في العدل بين أولادهم، وأن يطبقوا شريعته فيما أوجب لهم من حقوق ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ وإنما وصى الله - تعالى - الآباء مع ما تفضل به عليهم، وأودعه في قلوبهم من محبة أبنائهم، وما فطرهم عليه من رحمتهم؛ لأن رحمتهم لا يضبطها العدل، ولا يسيطر عليها الإنصاف، ولكنها تخضع للمؤثرات، وتلعب بها الأهواء، وقد رأينا المجتمع الجاهلي يورث الرجال بسبب النسب أو التبني أو الحلف، ولا يورث الأولاد من النساء والأطفال، ولأن الله - تعالى - أرحم الراحمين، وأعدل الحاكمين، وله الربوبية وحده في ملكه وعلى سائر خلقه، ومنهم العبودية الخالصة لألوهيته، وعليهم الطاعة



المطلقة لمنهجه، الذي اختاره دستوراً لحياتهم، واتباع أحكامه التي سنّها لتحقيق مصلحتهم، والخضوع لنظامه الذي فرضه لحماية أمنهم، وقرره لنشر العدالة والسلام بينهم، وله - سبحانه - وحده الحق في أن يشرع لخلقه طريقة تدبير شؤونهم، وتنظيم حياتهم، وليس لأحد سواه أن يضع تشريعاً لنفسه أو لغيره مناهضاً به تشريع الله - تعالى - فهو الذي يأمر وينهى، ويوصي ويحذر، ويحق ويبطل، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ويتولى تقسيم التركات؛ لأنها من جملة الأرزاق التي قسمها بين عباده. ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾، ومنه - سبحانه - تأتي الشرائع والقوانين، وعنه يتلقى الناس منهج حياتهم في أخص شؤونهم، ومنها توزيع ميراثهم بين وارثيهم.

١ - فعندما لا يكون للميت وارث إلا بنيه وبناته، فإنهم يقسمون التركة بينهم، على أساس أن تأخذ البنت سهماً، ويأخذ الابن سهمين ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾.

وبهذا وصل الله - تعالى - الأنثى بعد قطيعة، وأعطاهما من بعد حرمان، وجعل نصيبها هو الأصل الذي يقدر على أساسه حظ الذكر، فلم يقل: للأنثى نصف حظ الذكر، ولا للأنثيين حظ الذكر.

وليس في هذا التفاوت بين النصيبين إجحاف بحق الأنثى، أو إهدار لوجودها، أو انتقاص لقدرها، أو حط من كرامتها؛ فإن تبعاتها الشخصية، ومسؤولياتها الاجتماعية ليست شيئاً مذكوراً إذا قيست بتبعات الرجل ومسؤولياته، فهو مسؤول عن تكوين أسرة، وإعداد منزلها، وإمهار الزوجة، والإنفاق عليها، وعيالة من يرزقه الله - تعالى - من ذرية، وهي ليست مسؤولة عن شيء من ذلك، اللهم إلا أن تعول نفسها، إن لم تكن في عصمة زوج أو كفالة ولي.

وحين لا يكون ثمة تفاوت واضح في التبعات والأعباء تكون المساواة بين الذكر والأنثى قاعدة في الميراث؛ كحال الأب والأم حين

يجتمعان مع ذرية المتوفى، فلكل منهما السدس، وكذلك الجدان عند فقد الأبوين، يضاف إلى هاتين الحاليتين الإخوة لأم، فلا فرق بين ذكرهم وأنثاهم إذا ورثوا.

٢ - فإن لم يترك الميت ذرية ذكوراً، وترك بنتين أو أكثر أخذن ثلثي التركة، وإن ترك بنتاً واحدة أخذت نصف تركته، ثم يأخذ الباقي أقرب عاصب له على الترتيب: الأب، عم الجد، ثم الأخ الشقيق، ثم الأخ لأب، ثم العم، ثم أبناء الأصول ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾.

وهذا النص الكريم يفرض الثلثين للبنات إذا كن فوق اثنتين، وقد جاء فرض الثلثين للبنتين فقط من:

أ - القياس على الأختين اللتين تأخذان الثلثين في ميراث الكلاله الذي جاء حكمه في الآية الأخيرة من هذه السورة المباركة.

ب - ومن السنة المطهرة التي أعطت بنتي سعد بن الربيع الثلثين.

وللأبوين في الإرث ثلاث حالات:

أ - أن يجتمعا مع الأولاد؛ فيكون لكل منهما السدس، والبقية للولد أو الأولاد، إن كانوا ذكوراً، وإن كانوا ذكوراً وإنثاءً فللذكر مثل حظ الأنثيين، وإن ترك الميت بنتاً واحدة أخذت النصف فرضاً، وأخذ كل من الأبوين السدس، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب، وإن ترك الميت بنتين أخذتا الثلثين، وأخذ كل واحد من الأبوين السدس ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

ب - أن ينفرد الأبوان بالميراث حين لا يترك الميت ذرية، ولا إخوة، ولا زوجاً ولا زوجة، فتأخذ الأم الثلث، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب، فإن كان مع الأبوين زوج أخذ الزوج النصف، وأخذت الأم ثلث الباقي، وأخذ الأب الباقي تعصباً، وإن كان مع



الأبوين زوجة كان لها الربع، وللأم ثلث الباقي، وللأب الباقي تعصيباً ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾.

ج - وإن اجتمع الأبوان مع الأخوة - سواء كانوا أشقاء أو لأب أو لأم - فإن الأخوة لا يأخذون مع الأب شيئاً؛ لأنه مقدم عليهم، وهو أقرب عاصب بعد الولد الذكر، ولكنهم يحجبون الأم من الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع الإخوة السدس، وابن عباس - رضي الله عنه - يعطي الإخوة السدس تطبيقاً لقاعدة: من لا يرث لا يحجب، ويأخذ الأب باقي التركة إن لم يوجد زوج أو زوجة. أما الأخ الواحد فلا يحجب الأم عن الثلث، فيفرض لها معه الثلث ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾.

وتوزيع التركة على مستحقيها لا يكون إلا بعد قضاء الديون الواجبة على الميت، ولو استغرقت جميع تركته، توفية لحق الدائن، وتبرئة لذمة المدين، فإذا تمّ قضاء ديونه نفذت وصيته من ثلث تركته فقط، إن كانت الوصية لغير وارث ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دِينَ﴾.

وعلى المؤمنين أن يتلقوا أمر ربهم بالتسليم والرضا، ولا يجوز لهم أن يعصوا أمره، أو يخالفوا حكمه، فيؤثروا آباءهم أو أبناءهم بأكثر مما فرضه الله - تعالى - لهم، أو يحرموا وارثاً من حقه كله أو بعضه؛ لأنهم لا يعرفون أيهم أقرب لهم نفعاً، ولا يدرون أي تقسيم أقرب للإنصاف، وأعظم رعاية للمصلحة ﴿وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١].

وإذا كنتم لا تدرون أي وارثيكم أقرب لكم نفعاً، فإن الله - تعالى - وحده هو الذي يعلم ما فيه صلاح حالكم، واستقامة أمركم؛ لأنه وسع كل شيء علماً، وأحاط بكل شيء إدراكاً، وله في كل حكم يصدره وكل قضاء يقدره حكمة بالغة؛ فهو يشرع بعلمه المحيط،

ويقضي بحكمته التي تدبر كل أمر، وتضعه في مكانه الصحيح، ولهذا أوصاكم باتباع شرعه الحكيم، وفرض عليكم السير على نظامه القويم، والتزام منهجه السليم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

يَعْلَمُ مِنْ قَوْلِهِ - تعالى - : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِي تَرَكَ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِلَّذِينَ تَرَكَ الْوَلَدَ وَالْوَلَدُ وَلَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَةٌ أَبَوَاهُ فَلِلثَلَاثِ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلَّذِينَ تَرَكَ الْوَلَدَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ ؕ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١] أنه يجب على المسلم أن يتقيد بحكم الله - تعالى - في المال، ولا يجوز له أن يخرج عن إطار السياسة الموضوعة لتداوله.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا النِّصْفُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

٣ - ويرث الزوج نصف تركه زوجته إذا ماتت وليس لها ولد - ذكراً كان أو أنثى -، ولا أولاد ابن، وله ربع تركتها إن كان لها ولد من هذا الزوج أو من غيره - ذكراً كان أو أنثى - أو كان لها أولاد ابن، ولا تقسم تركتها إلا بعد إنفاذ وصيتها من الثلث، والوفاء بما



في ذمتها من دين ولو استغرق جميع تركتها، لأنهما مقدمان على حق الورثة.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾.

٤ - وترث الزوجة - واحدة أو أكثر - ربع تركة الزوج إن مات عنها ولم يترك ولداً منها أو من غيرها - ذكراً كان أو أنثى - ولا أولاد ابن، وتأخذ ثمن تركته إن ترك ولداً منها أو من غيرها - ذكراً كان أو أنثى - أو كان له أولاد ابن، من بعد سداد الدين، وإنفاذ الوصية.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ﴾.

٥ - وإن مات رجل أو امرأة، ولم يترك أحدهما وارثاً من أصله - أباً أو جداً - ولا من فروعه - ابناً أو بنتاً أو ولد ابن - وكان للميت أخ أو أخت من جهة أمه، كان لكل منهما السدس، لا فرق بين ذكر وأنثى، فإن زاد الإخوة من الأم عن اثنين اشتركوا في تقسيم الثلث بينهم بالتساوي، مهما كثر عددهم، واختلف نوعهم، بعد دفع الدين، وإنفاذ الوصية التي يجب أن تكون قائمة على العدل، وألا يكون مقصوداً بها الإضرار بمصلحة الورثة كلهم أو بعضهم.

﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾.

فالتزموا باتباع ما فرضه الله - تعالى - عليكم، وقوموا بتنفيذ وصية ربكم الذي وصاكم بما يعلم أن فيه مصلحتكم، وبما يحقق شرعة

العدل بينكم، وبما تسموا الحكمة فيه عن الميل والهوى، وبما يمليه الحلم الذي لا يعجل بالعقوبة، والعفو الذي يسع التائبين، والمغفرة التي تعم المؤمنين ﴿وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.

والله - تعالى - عليم بالنيات والسرائر، مطلع على ما تخفيه الضمائر، حليم على من عصاه، وخالف أوامره، وتعدى حدوده، فكونوا حلماء مع من يسيء إليكم، ولا تعاقبوه بحرمانه من حقه الذي شرعه له العليم الحليم، ولا تحاولوا إلحاق الضرر به بإبرام الوصية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ما ذكرته السورة الكريمة من الأحكام التي تتعلق باليتامى والنساء، وما قررته من الموارد هي حدود الله - تعالى - التي وضعها علمه، وأقامها عدله، واقتضتها حكمته البالغة، للمحافظة على حقوق الضعفاء، وتنظيم حركة المال في الأسرة، وتعيين الذين يستحقونه؛ والذين لا يستحقون منه شيئاً، وتحديد الأيدي التي ينتقل إليها؛ لتتصرف فيه، وتنتفع به، وقد وضع الله - تعالى - تلك الحدود؛ لتكون الفيصل في علاقات الأسرة، وروابط المجتمع، وسياسة المال ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾.

ومن يطع الله - تعالى - فيما سنّ من الأحكام، وما شرع من الموارد، ويقف عند الحدود التي أقامها، ولا يتجاوزها، ويتبع الرسول - ﷺ - فيما جاءه به، وبلغه عن ربه ينل مغفرة الله - تعالى - ورضوانه، ويظفر بالخلود في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً. ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.



أما من قاده هواه إلى معصية مولاه، فلم ينته عندما جاءه من حدود الله - تعالى - وأبى أن يستجيب لأمر ربه، الذي بلغه على لسان رسوله. وتجاوز ما سنَّه له، ونازعه سلطانه، وشرع لنفسه أحكاماً غير أحكامه، واتبع في المال سياسة غير السياسة التي وضعها خالقه، فإن الله - تعالى - يدخله ناراً خالداً فيها؛ ويسلكه في العذاب الذي يذل كبريائه، ويمتهن كرامته وإبائه، ويلحق به المهانة، ويذيقه الهوان والمذلة، ويجرعه كأس الصغار. ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

من الدروس المستفادة:

١ - يؤخذ من قوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية أن رفض جزئية واحدة من تشريع الله - تعالى - كجزئية الميراث، واستبدالها لغيرها بعد انسلاخها من الدين كله، وإنكار الحق الخالق - سبحانه - في التشريع لعباده؛ وتطاولاً على صاحب الأمر، وعدواناً على مالك الملك يذيق صاحبه عذاب الهون، ويصليه جهنم وساءت مصيراً؛ لأن ترك هذه الجزئية إما أن يكون الباعث عليه جحودها، وعدم الاعتراف بها، وإما أن يكون الباعث عليه استقبحها، واستحسان غيرها، وكلاهما كفر صريح لا مرية فيه ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

٢ - ويؤخذ من قوله - تعالى - ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ أن الذي يتجاوز حدود الله - تعالى - يخلد في عذاب جهنم، وهذا واضح لا شبهة فيه بالنسبة لمن يتجاوز هذه الحدود جاحداً إياها، أما إذا كان التجاوز مصحوباً بالاعتراف بالتقصير فإنه يدخل في مفهوم قوله - تعالى - ﴿وَيَتَقَرَّرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا
 عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي
 الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا
 ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا
 وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا
 ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ
 ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ
 اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
 يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
 قَالَ إِنِّي تَبْتُ أَلَّنَّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ



أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
 لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ اتِّبَتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ
 مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى
 أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾
 وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبِدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
 إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ
 بِهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى
 بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا
 غَلِيظًا ﴿٢١﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا شَرَّ مَا لَكُمْ﴾	يزنين، وسمى الزنا فاحشة لشدة قبحه وشناعته.
﴿وَمِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾	أي في حال كونهن من نساكنكم المسلمات.
﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَثَمَةً مِنْكُمْ﴾	اطلبوا للشهادة عليهن أربعة رجال مسلمين.
﴿فَأَنسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾	احبسوهن فيها، واعزلوهن عن المجتمع، ومخالطة أفرادهن.
﴿سَيَلًا﴾	طريقاً آخر غير حبسهن في البيوت.
﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾	والمسلمان اللذان يفعلان فعل قوم لوط.
﴿فَأَذْرِهُمَا﴾	فعاقبوهما بالتوبيخ والزجر والتعير عند ثبوت جريمتهما.
﴿فَإِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا﴾	كفّا عن جريمتهما، وأطاعا الله - تعالى - واستقاما.
﴿فَاعْرِضْوهَا عَنْهُمَا﴾	اتركوا عقابهما، وكفوا عن إيذائهما.
﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾	إنما الرجوع عن الإثم الذي يقبله الله - تعالى - ويمحو به السيئات.
﴿يَجْهَلُونَ﴾	من غير إصرار على المعصية، بدافع الغفلة، ونسيان العقوبة على المخالفة.
﴿يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾	يُقلعون عن المعاصي، ويندمون على ما فعلوا، ويؤدبون الحقوق لأصحابها، قبل أن ينزل الموت بهم.
﴿وَلَا تَقْبَلُونَهُنَّ لِذَهَبًا﴾	ولا تضيقوا عليهن وتيسنوا عشرتهن؛ ليفتدين أنفسهن.
﴿بِعَوضٍ مَّا آتَيْنَهُنَّ﴾	برد ما أخذنه منكم مهراً أو هدية أو ميراثاً.
﴿بِفَاحْشَةٍ بَيْنَهُنَّ﴾	بفعلة ظاهرة الشناعة، وتشمل كل جريمة فاضحة؛ كالنشوز وسوء الخلق، والزنا، والسرقة.
﴿أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾	عهداً قوياً صنعتته عقدة النكاح، قوامه الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان.



التأويل والبيان:

لما فرغت الآيات الكريمة من سنّ الضمانات الكفيلة بحماية الضعفاء واليتامى في أنفسهم وأموالهم، والتحذير من إتلاف المال، وتبذيره؛ لأنه عصب الحياة، وبه تؤسس نهضة الأمة، وتبنى حضارتها، وتقرير الطريقة العادلة في توريثه. لما فرغت الآيات الكريمة من هذا شرعت في تطهير المجتمع من الفوضى الجنسية التي تنطلق فيها الغرائز من عقالها في غير ضابط يحكمها، فتدمر الأمة، وتبدد كل قواها، وتقضي على حضارتها، ووضعت أسلوب تنظيف المجتمع من آفاق السلوك الشاذ، وحمايته من جريمتين هما أخطر الجرائم على الصحة، والأخلاق، ومقومات العزة والكرامة، هاتان الجريمتان هما: جريمتا الزنا واللواط، وقد دعا القرآن الكريم في مكة إلى العفة عن الحرام، واجتناب الفواحش في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥]. ولكنه لم يفرض عقوبة على إتيان الفاحشة إلا عندما استقرت دولته، وتأسست حكومته في المدينة.

والآية الكريمة: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَتْحَشَةُ...﴾ تأمرنا بعزل العناصر التي تحمل جرثومة وباء الزنا عن أفراد المجتمع، وحرمانها مخالطته، والإنسياب فيه، وتقصر العقوبة على اللاتي يزاولنها من النساء، وتسكت عن شركائهن من الرجال، مما يوحي بأن هذا الإجراء كان تمهيداً لإجراء آخر، له صفة الدوام تهيء له هذه الآية الكريمة؛ ولصرامة العقوبة وقسوتها وضع لها الإسلام كل الاحتياطات الواجبة، وشرع لها

أقوى الضمانات التي يصبح من العسير منها اختلاق الاتهام للعفيفات، والتأمر على البريئات، ويكفي من هذه الضمانات ما تضمنه النص الكريم من:

- أ - وجوب الإشهاد.
- ب - وأن يكون الشهود أربعة رجال.
- ج - وأن يكونوا من المسلمين العدول.
- د - وأن يشهدوا بما رأوا بأعينهم لا بما علموا من غيرهم.
- هـ - وأن تحصل الشهادة في مجلس واحد، ولا تنفرك في مجالس عدة. فإذا تمت الشهادة على هذا الوجه، وثبتت عليهن جريمة الزنا، عوقبن بالحبس في بيوتهن، لا يخرجن منها، ولا يزاولن نشاطاً في المجتمع، ولا يختلطن بأعضائه، ولا يتزوجن حتى يدركهن الموت، أو يجعل الله - تعالى - لهن مخرجاً من الحبس بما يشعره لهن من الحدّ، ولما نزلت آية النور التي نصت على حد الزنا: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...﴾ الآية، قال رسول الله - ﷺ -: «قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة، وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة».

من الدروس المستفادة أولاً:

- ١ - للمرأة أن تخرج من بيتها لقضاء مصالحها، وزيارة أهلها، بإذن زوجها، ولا يجوز حبسها في البيت، بدافع التسلط والغيرة، ولكن يُشرع حبسها في الحالة التي ذكرتها الآية الكريمة.
- ٢ - يربي الإسلام الحنيف النساء المسلمات على العفة والطهارة، وينمي فيهن الغفلة عن الشر، ويحفظ عليهن حياءهن، ويرعى



عواطفهن الجياشة، ويعصم ألسنتهن مما يقبح ذكره، ويصون أعينهن من الوقوع على ما تشين رؤيته، ويقطع عليهن جعل التفكير في الخنا والمنكر، ويساعدهن على أداء رسالة الأمومة، ورعاية مؤسسة الأسرة، والتفرغ لشؤون بيت الزوجية، ولهذا أعفاهن من الشهادة في الحدود، وقصرها على العدول الأحرار من المؤمنين.

٣ - يفيد قوله - تعالى - : ﴿فَأَنسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ الأمر بحبس اللاتي يأتين الفاحشة في البيوت، ولو أقيم عليهن الحد، حتى يأتين الموت، أو يجدن سبيلاً إلى النكاح الذي يغنيهن عن السفاح.

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

واللواط أقبح من الزنا، وأشد منه جرماً، وأشنع منه نكراً، وأسرع تقويضاً لكيان المجتمع، لما فيه من إفساد الرجولة، وإهدار كرامة الإنسان، ومخالفة سنة الفطرة، ولأن الزنا قد ينتهي بمقتضيه إلى العلاقة المشروعة، حين يتزوج الزاني ممن زنا بها، واللواط ليس كذلك، والآية الكريمة تأمر إيذاء اللذين يفعلان هذه الجريمة وتعزيرهما، والتعزير عقوبة اجتهادية تخضع لتقدير القائم على أمر المسلمين، الذي ينفذ أحكام الله - تعالى - فيهم، ويقيم حدوده بينهم، ويطبق شريعته على أحوالهم، قد يكفي فيها اللوم والزجر والتعنيف، وقد يلزم فيها الهجر والمجانبة، وقد تكون بالضرب خفيفاً أو شديداً ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا﴾.

ويظل التعزير قائماً ما دامت الجريمة، فإذا أقلع عنها الفاعل والمفعول به، واستقام أمرهما، وحسنت توبتهما، رفع عنهما التعزير، وأوقف الإيذاء، فإن الله - تعالى - فتح لعباده المذنبين باب التوبة، وإنه

- سبحانه - ليبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ولا يزال كذلك حتى تطلع الشمس من مغربها، وهو يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يشرك به، وهو أرحم بالآثمين من أن يغلق في وجوههم باب التوبة، أو يحرمهم المغفرة، بلى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

وقد عُدَّت عقوبة التعزير على هذه الجريمة إلى الرجم، وفي فقه المالكية: من فعل فعل قوم لوط رجم الفاعل والمفعول به سواء كانا محصنين أو غير محصنين^(١)، استناداً إلى ما ورد من قول الرسول - ﷺ -: «ومن رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

من الدروس المستفادة ثانياً:

١ - يؤخذ من قوله - تعالى -: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾:-

أ - أن الله - تعالى - هو الذي يشرع العقوبة، وهو الذي يوقف إجراءاتها عندما تؤدي غايتها.

ب - أن من تمام التوبة الاستقامة، وإصلاح المرء ما أفسد من الأعمال.

ج - وأنه حين يتوب الله - تعالى - على عبد من عباده المؤمنين، ويسلكه في زمرة الصالحين، فليس لمسلم أن يُعيرَ بما كان منه من خطيئة.

٢ - في قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ دعوة إلى

(١) لابن جزىء الغرناطي المالكي في كتابه: قوانين الأحكام الشرعية ص ٣٨٤.



استقبال الذين يتولون من جريمة الفاحشة وغيرها بالصفح والمغفرة.

٣ - نزداد يقيناً بعظمة أخلاق الإسلام حين نجد بعض أمم الغرب تبيع اللواط، وتقر مزاولته.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

وبمناسبة ذكر التوبة التي فتحت رحمة الله - تعالى - بابها، ووعده عباده بها في قوله - سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

بهذه المناسبة بين السياق أن التوبة المقبولة التي تحط الخطايا عن أصحابها، ويمحوها الله - تعالى - بها أوزارهم، ويبدل بها سيئاتهم حسنات إنما هي توبة الذين يُلْمُونَ بالمعصية، ولا يُصِرُّون عليها، ويقعون في الإثم، وقد غطى على عقولهم الجهل بما يسببه لهم من فساد القلب، وبما يجزّه عليهم من ظلام النفس، ويرتكبون الذنب، وقد أضلهم جهلهم عما يترتب عليه من سخط الواحد القهار، الذي يغار على محارمه أن تنتهك، ويغضب لحدوده أن تُهدر ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾.

فلما انتبهوا من غفلتهم، وصحوا من سكرتهم، وأفاقوا من سباتهم تذكروا زلتهم، وعرفوا مخالفتهم، وأيقنوا أنهم ظلموا أنفسهم، وأوردوها مع الهلكة، فإذا هم يبصرون طريق النور، فيبادرون بالتوبة الصادقة ويسارعون إلى الندم والاستغفار، ولم يبطئوا في إصلاح ما أفسدوا ولم يقصروا في تدارك ما فاتهم، وعلاج ما فرط منهم، وكانوا من الذين قال الحق - تعالى - فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا

أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦﴾. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

فأولئك يفرح الله - تعالى - بأوبتهم إلى طاعته، ويبارك رجعتهم إلى الحق ويقبل منهم توبتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويُنس حفظتهم وجوارحهم سائر ذنوبهم، فيلقون ربهم، وليس عليهم شاهد بذنوبهم ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

والله - تعالى - أعلم بضعف خلقه إذا مسهم طائف من الشيطان، أو نصب لهم شراكة، وأجلب عليهم بخيله ورجله، وهو - سبحانه - بالغ الحكمة فيما قدر من محو الحسنات السيئة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ﴾ [هود: ٢ - ١١٤]، وفيما شرع من قبول التوبة، وما وعد الخطائين إياه من المغفرة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

والآية الكريمة تضع شرطين لقبول التوبة: -

أ - أن يقع فعل السوء من المرء نتيجة الجهالة، والمقصود بها: الغفلة والنسيان، أو الحمق والسفاهة، وعدم الإصرار على الإثم.

ب - أن تكون التوبة من قريب، بأن تتم عقب التذكر، والانتباه من الغفلة، دون تسويف ولا إرجاء، وقبل ساعة الاحتضار، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر»^(١).

وفي أفراد كلمة السوء في: ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ إشارة إلى أن شأن

(١) رواه أحمد والترمذي.



المؤمنين لا يقعون في الإثم إلا قليلاً، وأنهم لا يصرون على المعصية، وأنهم يتولون من قريب ﴿فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩]، وأن فعلهم السوء كان خطأ عابراً، وزلة عارضة، وهفوة غير متعمدة.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْفَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ والله - تعالى - لا يدخل في رحمته، ولا يُظَلِّ بمغفرته، ولا يمن بتوبته على صنفين من عباده: -

أ - هؤلاء الذين يعملون عمل أهل النار، فيسارعون إلى ارتكاب المعاصي، ويعكفون على ملذاتهم وشهواتهم، ويغرقون في بحار الخطايا، ويؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، ولا يرجون لقاء الله - تعالى -، ويسرفون على أنفسهم في المجاهرة بالفسوق، ولا يبالون بما أكلوا من أموال الناس بالباطل، ولا بما سفكوا من دمائهم، ولا بما جلدوا من ظهورهم، ولا بما هتكوا من أعراضهم، ولا بما نشروا من فساد، ولا بما قادموا من رشاد، ولا يذكرون الله - تعالى - إلا قليلاً، فإذا ذكروا أجلوا التوبة من ذنوبهم، وأخروا الأوبة إلى عفو ربهم، حتى تنصرم أعمارهم، وتنقضي آجالهم، ويترك الموت باب أحدهم، وتنزل به سكراته، وتنشب غواشيه مخالبتها فيه، فيفزع حينئذ إلى الإنابة، بعد أن يش من الحياة، ويفر إلى الندم، ويقول: إني تبنت الآن، وهو يرى مكانه من النار ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَظَّتْ بِهِ خَطِئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْفَ﴾.

ب - وأولئك الذين يشترون الضلالة بالهدى، ويستحبون العمى على

الرشاد، ويسرحون في الضلال المبين، ويمرحون في الكفر برب العالمين؛ يهتف بهم داعي الإيمان إذا أصبحوا أو أمسوا، وإذا تحركوا أو سكنوا أن آمنوا بربكم، واستجيبوا الداعية، وأرهفوا أسماعكم لصوت الحق، وافتحوا أعينكم على إشراقه الوحي، ونور الآيات البينات، وتأملوا بعقولكم ما خلق الله - تعالى - في الأرض والسموات، وما بث فيها من دابة؛ فيصمون أسماعهم، ويغمضون أعينهم، ويخلقون قلوبهم، ويؤثرون الخواية ويرضون الحياة الدنيا، ويطمئنون إليها، ويقطعون أعمارهم في الصدّ عن سبيل الله، وينفقون أموالهم كي يخرسوا صوت الحق، ويشلّوا حركته، ويزهقوا روحه، ويفتنوا أصحابه، ليردوهم على أعقابهم خاسرين ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. [محمد: ٣٤]. ﴿وَالَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

هؤلاء وأولئك أعدّ الله - تعالى - لهم يوم القيامة عذاباً شديداً الإيلام في نار ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ تُسَعَّرُ بهم، فتشوى بها جلودهم، وتطلع على أفئدتهم، لا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثالثاً:

١ - يؤخذ من الآيتين السابقتين: أن العدالة الإلهية لا تسوّي بين من يعتاد طاعة ربه، وينمو فيه حسّ الإيمان، وذوق الاستقامة، ثم تبدر منه المعصية على غير عادته ومألوفه، فيتوب من فوره، وبين من يألف المعصية، ولا ينفر من الرذيلة، ولا يشعر بقبح الذنب، ولا يجد له وخزاً في ضميره، ولا تائباً من نفسه.

٢ - في جمع كلمة السيئات: ﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ دلالة على استمرار



المعصية، واعتياد المخالفة، والإضرار على الفسوق، وتعتمد الإثم والفساد، ولهذا يعلن المارق التوبة في الوقت الذي يصبح فيه عاجزاً عن العمل ﴿إِنِّي تُبْتُ الْكُنَّ﴾، ﴿أَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

عاش أهل الجاهلية الأولى في ظلام روحي، بدون عقيدة ربانية، ومن غير تشريع سماوي، فكانت الحرية مسلوبة، والحقوق مغصوبة، والكرامة مهذرة، ولهذا عُدَّت النساء من سقط المتاع.

أ - وكان الرجال يرثون النساء، ويمتلكون ذواتهن كجزء من التركة على الرغم منهن؛ فإذا توفي عن المرأة زوجها جاء وليه، فألقى عليها ثوبه، واستولى عليها غنيمة باردة، فإن نالت إعجابه، وحلّت من قلبه بمكان تزوجها، وإن لم تستحوذ على رضاه حبسها حتى تموت، فيرثها، روى البخاري أنه كان إذا مات الرجل منهم كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية.

ب - وكان منهم من يضيق على زوجته في النفقة أشد التضيق، ويرهقها بسوء المعاملة، ويمسها بالأذى؛ لتفتدي نفسها، وتشتري حريتها بالمال الذي قبضته مهرأ لها.

ج - وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا امرأته على الصبي فيهم، حتى يكبر فيتزوجها.

د - وكان وصي اليتيمة يمسكها عن الزواج، حتى يكبر صغيره، فيتزوجها، ويأخذ مالها.

هـ - وقد اعتاد كثير منهم إذا أراد فراق امرأته، وسلب مالها، أن يرميها بفاحشة لتخاف على عرضها، وتغار على سمعتها، وتسارع برد ما دفعه فيها إليه، وحينئذ يُسرّحها.

- والآية الكريمة وهي تقتلع جذور هذه العادات الظالمة، وتهدم هذه النظم الجائرة، تتجه إلى الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وسرت حرارته في عروقهم، وامتزج نوره بأرواحهم، وسموا به إلى مصاف الملائكة المقربين، وتناديهم بالصفة التي رضيها الله - تعالى - لهم، وأحبها منهم، وعقدت لهم ولايته عليهم، ودفاعه عنهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

تتجه الآية الكريمة بالخطاب إلى هؤلاء المؤمنين؛ لتقول لهم: إن الله - تعالى - ينهاكم عن أن تجعلوا ذوات النساء ميراثاً لكم كما يورث المال والمتاع، سواء كن راضيات أو كارهات، ويحرم عليكم أن تقهروا النساء الضعيفات اللاتي لا تتوفر لهن الحماية، وتمتلكوا رقابهن ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾.

ويحظر عليكم أن تسيئوا معاملتهن، أو تضيقوا عليهن؛ للإضرار بهن، واسترداد ما دفع فيهن على نحو ما كان يفعل الجاهليون، إلا إذا ارتكبن فاحشة ظاهرة، لا مجال فيها للظن والشبهة، فلكم حينئذ أن تقسوا عليهن في المعاملة، وتخشنوا معهن، لتستردوا بعض ما أعطيتموهن من الصداق. وهذا اللون من الإجراء كان قبل تقرير حد الزنا في أول سورة النور ﴿وَلَا تَقْضُوهُنَّ إِيَّاهُ بَعْضَ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾.

أما إذا لم يتأتين بجريمة نكراء، فلم يسرقن، ولم يزنين، ولم يكن سيئات الخلق، فعليكم أن تعايشوهن بالحسنى، وتعاشروهن بالمعروف، وتعاملوهن معاملة طيبة كريمة، وتسبغوا عليهن النفقة إذا أنفقتن،



وتسلموا عليهن إذا دخلتم، وتحلّوا معهن بالصبر والتجمل ﴿وَعَايَشُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وإذا لم تشعرُوا نحوهن بعاطفة الحب، فلا تنساقوا وراء مشاعر الكره؛ فتفصموا علاقة الزوجية، وتقطعوا وشيجة المصاهرة، فقد تكرهون شيئاً، وأنتم لا تدرون ما أودع الله - تعالى - فيه من خير كثير ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، والإسلام لم ينشئ العلاقات الزوجية على الأحاسيس التي تشتعل وتخبو، ولا على العواطف التي تقوى وتفتّر، ولم يؤسسها على الميول الطارئة، والرغبات العابرة التي لا تستقر على حال، وإنما أسسها على الحقائق الثابتة، والقيم السامية التي ينمو في ظلها التعاون الكريم، والتراحم الجميل، والرعاية الطيبة، والرسول الكريم - ﷺ - ينصح الأزواج، فيقول: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضى آخره»، وذكر رجل لعمر بن الخطاب أنه يريد طلاق زوجته، لأنه لا يحبها، فقال له عمر: «أكل البيوت يبنى على الحب»؟ ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

رابعاً:

- ١ - وصف الفاحشة بأنها مبينة: ﴿يَفْجَشَةُ مُبَيِّنَةً﴾ يحرم إساءة معاشره النساء، وعضلهن بسبب الهفوة الصغيرة، والمخالفة اليسيرة.
- ٢ - ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لما كانت الكراهية عملاً من أعمال القلب التي لا تدخل في دائرة اختيار الإنسان، ولا تخضع لإرادته، لم ينه الله - تعالى - الأزواج عنها، ولكنه - سبحانه - نصحهم بعدم الاستجابة لها، والتأثر بها، والتعويل عليها؛ لما يرجى من حصول الخير الكثير معها.
- ٣ - من قوله - تعالى -: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ نعلم أن العلاقات الاجتماعية

لا يكفي لسلامتها، وصلاحها أن يتعارف عليها الناس، أو يقرروها، ولكنه يتعين أن يقرّها منهج الله - تعالى -، ويعتمدها دستوره، فإذا أقرتها شريعة الله - تعالى - أصبحت إحدى الشعائر التعبدية، التي يثاب المؤمن على فعلها، ويؤاخذ على تركها.

٤ - يغتنم القرآن الكريم المناسبة الخاصة، التي يعالج قضيتها، ليصدر حكمه العام، ويضع دستوره الشامل الذي يضبط سلوك الأفراد، وينأى بهم عن مطاوعة الانفعالات العارضة، والانقياد للعواطف المتأرجحة، فيقول: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾، ولا يتقيد بالحال الراهنة، فيقول: فعسى أن تكرهوهن؛ ليضع الدستور العام، ويحثنا على الصبر والتحمل بالحلم والصفح في كل حال، وينبهننا إلى أن بعض الأمور التي نكرهها قد تحمل في طياتها الخير العميم، ونحن لا ندري ما يدخره لنا القدر الرحيم فيها.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾.

فإن عجزت كل وسائل الإصلاح عن استبقاء عقدة النكاح، ونفدت جميع طرق العلاج لتسيير دفة الحياة الزوجية، ولم يبق في قوس الصبر منزع، وساءت حال الزوجين، واتسعت شقة الخلاف بينهما، وحفت في قلوبهما ينابيع المودة والرحمة، ولم يعد كل منهما لباساً للآخر، ولم يصبح بيت الزوجية حرماً آمناً، يخيم عليه الهدوء، وترف فوقه راية السلام، وتتوفر فيه السكنى والراحة، ولم يكن سبيل إلى الإمساك بالمعروف، فلا مناص من تسريح بإحسان، وعندئذ تغادر الزوجة بيت الزوجية بعد انقضاء عدتها، موفورة الكرامة، دون حبس أو تضيق، على أن تحمل معها كل ما تملك، وتأخذ جميع ما دفع فيها من مهر، بالغاً ما بلغ، ولو كان قنطاراً من الذهب، ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾.



لا يحل مصادرة شيء منه، فأخذ شيء منه ظلم صارخ، وغبن ظاهر، وعدوان واضح، وذنب عظيم: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتَّاتٍ وَإِنَّمَا تُمِينَنَ﴾.

هذا حين يكون الرجل هو السبب في تكدير صفوة الحياة الزوجية، ويكون صاحب السعي في الانفصال، والرغبة في استبدال زوج مكان زوج. أما حين تكون المرأة معول الهدم لكيان الأسرة، وطالبة الفراق، فإنه يباح للزوج عندئذ أن يسترد الصداق كله أو بعضه، عملاً بقوله - تعالى -: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾. روى البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن جميلة بنت عبد الله ابن سلول كانت امرأة ثابت بن قيس بن شماس، فأتت النبي ﷺ -، فقالت: لا أطيق زوجي بغضاً، وأكره الكفر بعد الإسلام - أي كفر نعمة العشير وخيائته في فراشه -، فقال النبي ﷺ: أتردين عليه حديثه؟ - كان قد أصدقها حديقة - قالت: نعم، قال للزوج: اقبل الحديقة، وطلقها.

في قول الله - تعالى -: ﴿وَأَتَيْنَهُمْ إِحْدَهُنَّ فَنطَارًا﴾ دليل قاطع، وحجة واضحة على أن صداق المرأة ملك خالص لها، لا حق فيها لغيرها من ولي أو زوج إلا عن طيب نفس منها، وهو تأكيد لقوله - سبحانه - ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ يَحِلُّهُنَّ﴾، وفيه دليل على أن تحديد المهور لا يجوز.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

وما يليق بكم أيها المؤمنون أن يؤرقكم الطمع، ويستيقظ في نفوسكم حب المال، ويستحوذ على تفكيركم استرداد شيء من النحلة التي نحلتموها زوجاتكم، عن طيب نفس، وسماحة طبع، وما يجمل منكم أن ترخصوا بيتاً تأسس على الطهر وتنسوا حياة أثمرت العفة والإحسان، وأن تتنكروا المعاشرة اتصل فيها بعضكم ببعض أوثق اتصال؛ صفت فيه النفوس، وتآلفت القلوب، وتعانقت الأرواح،

وامتزجت الأحاسيس، وتجاوبت المشاعر، ولا أن تدوسوا ما كان لكم من نسائكم من ذكريات غالية، ومواقف عزيزة، ولا أن تجحدوا عقد الزواج الذي وثقتموه باسم الله - تعالى -، وجمعكم على سنته التي شرعها، وهو ميثاق ضخم، وعهد كبير، ولا يستهان به، وله قداسته في الضمائر الحية، وله حرمة في القلوب المؤمنة، وله وزنه في النفوس المطمئنة ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

- في قوله - تعالى -: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾؟ إنكار، والإرادة الإلهية لا تنكر إلا كل قبيح بين فاعليه، وتنفر منه الفطر السليمة، والطباع المستقيمة.

- في إيثار التعبير: ﴿أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ على: أفضيتم إليهن دليل على أن كلاً من الزوجين جزء متمم لصاحبه، وأنهما على قدمي المساواة، إذا وعينا حقيقة قوامة الرجال على وجهها الصحيح.

- في قوله - تعالى -: ﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ إشارة إلى ضخامة حق النساء على أزواجهن، في أن يمسكوهن بمعروف، أو يسرحوهن بإحسان، وإلى ما فطرن عليه من الثقة القوية بأزواجهن ثقة جعلتهن يؤثرن فراق أهلهن، ويختزن عشرة من كانوا غرباء عنهن.



سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ
 إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا
 وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ
 وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ
 الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ
 وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
 وَرَبِّبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ
 اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ
 فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ
 مِّنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ

إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾
 وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
 كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا
 بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ
 مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
 فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
 حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَن يَنْكِحَ
 الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ
 فَنِيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ
 بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
 بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ
 أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَنْ تَتْرُكُوا بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ
 مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ
 الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي



مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾
 وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
 الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ
 عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ عَلَيْهِنَّ﴾	ما عقد آباؤكم عليهن، بنوا بهن أولاً، ولا نكاحهم بدون شهود أو مهر.
﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾	إلا ما سبق من هذا النكاح قبل تحريره، وإلا من مات منهن.
﴿وَلَحِشَةً﴾	عملاً شديداً القبح عند ذوي الفطرة الزكية.
﴿وَمَقْتًا﴾	وفعلاً مكروهاً عند الله - تعالى - يستوجب شدة غضبه.
﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾	وقبح طريقاً مسلوكة، وبئس من يسلكها.
﴿وَرَبِّبْنَاهُمْ﴾	بنات زوجاتكم من غيركم، وبنات أولادهم.
﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾	وصف لبيان الحال الغالبة في الرائب، ولا قيد في الحكم.
﴿حَلَائِلَ أَبْنَائِكُمُ﴾	زوجاتهم؛ من الحلّ، أو الحلول في فراش واحد، أو حلّ الإزار.
﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾	إلا ما وقع من الجمع قبل التحريم.
﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾	والحرائر المتزوجات من جميع النساء لا من المسلمات فحسب.
﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ﴾	إلا المحصنات المسبيات في الجهاد المشروع إن لم يكن معهن أزواجهن.
﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾	فرضه الله - تعالى - عليكم، وأوجه.
﴿وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾	ما خلا هؤلاء المذكورات، مما لا يوجد سبب آخر لتحرिमهن؛ كالشرك، أو البيئونة الكبرى.
﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾	أن تطلبوا الحرائر بالمهور، والإماء بها، أو بأثمانها.
﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْلِفِينَ﴾	مُعِفِّينَ أَنْفُسَكُمْ بِالزَّوْجِ عَنِ الزَّانَا.
﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾	فمن طلبتم التمتع بعشرتهن من النساء.
﴿أُجُورُهُنَّ﴾	مهورهن ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾.



الكلمة	تفسيرها
﴿فِيمَا تَرَاوَعْتُمْ يَدًا مِنْ بَعْدِ الْفَرِيقَتَيْنِ﴾	فيما تزيدونه أو تنقصونه بعد تحديد الصداق .
﴿طَوَلًا﴾	سعة وغنى يمكنه من دفع المهر .
﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾	أن يتزوج الحرائر .
﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ﴾	فمن الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهن غيركم .
﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾	بموافقة مواليهن .
﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾	وإدفعوا لهن مهورهن المفروضة، لا لمواليهن .
﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾	من غير نقص أو مماطلة .
﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَفِّحَاتٍ﴾	عفيفات غير زانيات .
﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾	ولا جاعلات لهن عشاقاً، يباشرونهن سراً .
﴿فَإِذَا تَزَوْجْنَ﴾	فإذا تزوجن .
﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾	من الجذ .
﴿ذَلِكَ﴾	الزواج من الإماء .
﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾	لمن خاف المشقة والعناء، أو الانحدار في بؤرة الزنا .
﴿وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾	حبسكم أنفسكم عن تزوج الإماء أفضل لكم لثلا يصبح أبناءكم أرقاء .
﴿سُنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾	مناهج الراشدين السابقين، وطرقهم في العمل بمقتضى الفطرة، وهداية الدين .
﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾	ويخلصكم من سوءات الجاهلية، وقبائحها .
﴿يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾	ينقادون لأهوائهم، ويعبدون ملذاتهم .
﴿يَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾	تبتعدوا عن الحق، وتنحرفوا عن الصواب انحرافاً شديداً .
﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾	طبع الإنسان على قلة الاحتمال، والضعف عن مقاومة غرائزه .

التأويل والبيان:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

مما تعارف عليه أهل الجاهلية الأولى أن يخلف الابن أباه على زوجته إذا مات، ويورثها كجزء من تركته، وقد أنكر القرآن الكريم هذا العرف، ونهى عنه، واستثنى ما سلف منه في الجاهلية قبل مجيء التحريم: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ويدخل في مضمون هذا النهي كل نكاح فاسد تعارف عليه الجاهليون؛ كالنكاح بغير مهر، أو بغير شهود، وكنكاح الشغار، واعتبر القرآن الكريم نكاح زوجة الأب جريمة بشعة في منطق العقل، وأكد أنه فاحشة، تستحق غضب الله - تعالى - وسخطه، وسلوك قبيح، وعادة مردولة، وشدد في تفضيحه أكثر مما شدد في تقبيح الزنا الذي قال فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، فلم يصف الزنا بالمقت الذي وصف به نكاح زوجة الأب: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، ومن هنا يبدو حرص الإسلام الشديد على ألا تهتز صورة الآباء في أذهان الأبناء، وأن تحاط بهالة من الاحترام والتقدير، وذلك بإنزال زوجة الأب منزلة الأم، ومجانبة كل إجراء من شأنه أن يجعل الابن نذاً لأبيه، ولو بعد موته. في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ إشارة إلى أن العقل يستقبح هذا النكاح، وفي قوله - تعالى -: ﴿وَمَقْتًا﴾ إشارة إلى أن الله - تعالى - يكرهه ويغضب على صاحبه، وفي قوله - تعالى -: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ إشارة إلى أن العرف السليم يمجّه، وينفر منه.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ



- ٣ - فروع أبويه، فيحرم عليه التزوج بأخته، وبنات إخوته وأخواته ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ..﴾ ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾.
- ٤ - الفروع المباشرة لأجداده، فيحرم على الرجل التزوج بعمته وخالته، وعمّة أبيه، وعمّة جده لأبيه أو أمه، وعمّة أمه، وعمّة جدته لأبيه أو أمه ﴿وَعَمَّتُكُمْ وَخَالَتُكُمْ﴾.

ب - والمحرمات بالمصاهرة:-

- ١ - أصول الزوجة، فيحرم على الرجل الزواج من أم زوجته، وجداتها من جهة أبيها، ومن جهة أمها - مهما علون - ويبدأ هذا التحريم بمجرد العقد على الزوجة، ولا يتوقف على الدخول بها ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾.
- ٢ - فروع الزوجة، فيحرم على الرجل الزواج من بنت زوجته، وبنات أولادها - ذكوراً أو إناثاً - مهما نزلن، ويبدأ هذا التحريم من وقت الدخول بالزوجة، لا من وقت العقد ﴿وَرَبِّبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.
- ٣ - زوجات الأب والأجداد من الجهتين، فيحرم على الرجل الزواج من زوجة أبيه، وزوجة أحد أجداده لأبيه أو أمه - مهما علون - ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.
- ٤ - زوجات الأبناء، وأبناء الأولاد، فيحرم على الرجل الزواج من امرأة ابنه من صلبه، وامرأة ابن ابنه، أو ابن بنته (مهما نزلن). ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾.
- ٥ - الجمع بين الأختين في وقت واحد، فإذا عقد رجل على امرأة حرمت عليه أختها تحريماً مؤقتاً، ما دامت زوجته في عصمته ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.



ج - المحرمات من الرضاعة: يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب، وهؤلاء هن المحرمات:

- ١ - الأم من الرضاع، وأصولها - مهما علون - ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾.
- ٢ - البنت من الرضاع، وبناتها - مهما نزلن - وبنت الرجل من الرضاع: هن من أرضعتها زوجته، وهي في عصمته.
- ٣ - الأخت من الرضاع، وأخواتها - مهما نزلن - ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ﴾.
- ٤ - العمة والخالة من الرضاع؛ والعمة من الرضاع هي أخت زوج المرضع، والخالة من الرضاع هي أخت المرضع.
- ٥ - أم الزوجة من الرضاع، وهي التي أرضعت الزوجة في طفولتها، وأصول هذه الأم - مهما علون -، ويبدأ هذا التحريم بمجرد العقد على المرأة.
- ٦ - بنت الزوجة من الرضاع، فيحرم على الرجل الزواج من كل امرأة أرضعتها زوجته، قبل زواجه بها أو بعده، وبنات أولادها - مهما نزلن - ويبدأ هذا التحريم بعد الدخول بالزوجة.
- ٧ - زوجة الأب أو الجد من الرضاع - مهما علا - فيحرم على الرجل الزواج من ضرة مرضعته، لأنها زوجة أبيه من الرضاع.
- ٨ - زوجة الابن من الرضاع - مهما نزل -
- ٩ - الجمع بين المرأة وأختها من الرضاع، أو عمتها، أو خالتها من الرضاع، أو أية امرأة أخرى ذات رحم محرم منها من جهة الرضاع.

د - المحرمات بالإحصان:

وهن الزوجات اللاتي ضمنهن سياج الأسرة، وصرن في عصمة أزواجهن، وصيانتهم، وحفظهم؛ فإذا تزوجت امرأة حرمت على غير زوجها من الرجال، ما دامت في عصمته، حفظاً للأنساب من الاختلاط، وحماية للمجتمع من فوضى النسل، وصيانة لكرامة الإنسان، وسموا بمكانته عن دَرَك الحيوان ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

ولا يحرم نكاح السبايا في الحروب المشروعة من نساء الكفار اللواتي انقطعت صلتهم بالأزواج، وأصبحن في دار الإسلام، وأزواجهن في دار الحرب، وزالت عنهن صفة الإحصان، إذا استبرئن بحیضة واحدة، ظهر منها خلواً أرحامهن من الحمل، وحينئذ يحل العقد عليهن إن دَخَلن في الإسلام، كما يحل لمن يقعن في سهمه من المجاهدين أن يباشرهن من غير عقد، سواء أسلمن أم لم يسلمن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

وهذا إجراء حكيم، راعى فيه الإسلام مصلحة المرأة التي غالباً ما يكون زوجها قد قتل في المعركة، أو أُسرت وهي لا تدري عنه شيئاً، ومن العسير عليها أن تعثر عليه؛ فلكيلا تصبح عالة على المجتمع، أو يجرفها تيار الفساد، هياً لها الإسلام زوجاً تأوي إلى كنفه، وتفي إلى ظله، ويبسط عليها جناح رعايته ومودته، ويضفي عليها ثوب العفة والصيانة والإحصان، وأوجب عليه أن يكون معها عادلاً وبها رحيماً، ورغبه في عتقها.

ومما يجدر التذكير به أن الإسلام لم يشرع الرق، ولم يأمر به؛ فقد جاء والعالم يموج بالرق، نتيجة الحروب المشبوبة، وقد خاض المسلمون المعارك دفاعاً عن وجودهم، وحماية لمعتقداتهم، وصدأ للعدوان عليهم، وأسروا من أعدائهم، وأسر منهم أعداؤهم، واسترقاق الأسرى نظام عالمي قديم قدم الحروب، لا يملك الإسلام إبطاله من



جانبه وحده، وإلا أصبح أسرى المسلمين أرقاء، وأسرى الكفار أحراراً، وهذا ما لا يرضاه عقل، وإنما يملك الإسلام أن يعامل الرقيق معاملة تشعره بإنسانيته، وتحفظ له كرامته، وتفتح قلبه على سماحة دين الله - تعالى -، وبصيرته على نوره، وهذا هو الذي كان.

شرع الله - تعالى - لكم تحريم ما حرم عليكم من النساء، وتحليل ما أحل لكم منهن، وفرضه عليكم، وألزمكم به، فقفوا عند حدوده، ولا تعتدوها ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

من الدروس المستفادة أولاً:

- ١ - في تحريم الزواج من هؤلاء النساء تكريم للإنسان، وتفضيل له على كل الأجناس التي تتصل بينها العلاقات الجنسية على غير نظام.
- ٢ - وفيه ضمان لبقاء الجنس البشري، فلولا هذه السنة الحكيمة لانقرض هذا الجنس.
- ٣ - وفيه وقاية من الأمراض الوراثية التي يستفحل خطرهما، ويستعصي علاجها.
- ٤ - وفيه حفاظ على لُحمة النسب، وقرباة الدم من أن تفسد بعلاقة طارئة، تنشأ كلمة الزواج، وتنهيها كلمة الطلاق، والله - تعالى - شرع الزواج حفظاً للأنساب، وتشبيهاً لبناء الأسرة، ودعماً لكيانها، وسبيلاً إلى بقائها، وما كان - حاشاه - ليهدم صرح بنيانه، ويقوض أركان نظامه.
- ٥ - ولو أبيض الزواج من البنات والأخوات لتشتت شمل الأسرة، وانفرط عقدتها، وتبعثرت حياتها؛ إذ تصبح خلوة الأب ببناته، والأخ بأخواته محظورة، والنظرة إليهن حراماً، والابتسامة لهن ريبة، والنفقة عليهن مساومة.

٦ - وَجُوُ الْأُسْرَةِ جَوْ صَحِّي نَقِي، تنمو العلاقة فيه بين أفرادها طبيعية، لا تكلف فيها، ولا حجاب ﴿طَوَّفُونَا عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، ومن الحكمة صيانة هذا الجو السليم عن كل ما يفسده.

ولما انتهت الآية الكريمة من ذكر آخر نوع من النساء اللاتي حرم الله - تعالى - على الرجال نكاحهن شرعت في ذكر من يحل لهم أن يتخذوا منهن النواة الأولى في تكوين الأسرة، وبيان الطريقة التي يحب الله - تعالى - للذكر والأنثى أن يلتقيا عليها في طهر وعفاف التقاء محموداً، فقررت أنه يحل نكاح أية امرأة لم يتناولها التحريم، وأن غير المحرمات على الرجال مباح لهم، في إطار قوله - تعالى - ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنً وَثُلَاثَ وَرُبْعَ...﴾، إذا توفرت عندهم الأهلية المالية، واستطاعوا أن يدفعوا للحرائر صداقهن، وفي الإماء ثمنهن، وقدروا على الإنفاق عليهن، متمثلين قول الرسول الكريم - ﷺ -: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١)، ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا رَزَا ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾.

على أن يكونوا راغبين في الالتقاء الشريف، والإحصان النظيف، والحياة الزوجية التي تحفظ الماء بالنسل الطاهر، والذرية الصالحة، وألا يقصدوا إلى البغاء، وسفح الماء، طلباً للشهوة، واستجابة للنزوة ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْتَفْعِينَ﴾.

وإذا صدقت نيتكم، وصحت عزيمتكم على ابتغاء الإحصان، بما رزقكم الله - تعالى - من المال، فمن أبرمت عقد زواجها فادفعوا إليها مهرها الذي يجب بالعقد عليها، أو البناء بها، أو الخلوة الصحيحة معها، واعلموا أنه حق لها، فرضه الله - تعالى - عليكم، وأنكم لا

(١) رواه الجماعة.



تؤدونه تطوعاً، ولا تدفعونه تبرعاً ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

ولا حرج عليكم إذا قدرتم الصداق، وحددتم قيمته، أن تتسامحوا من بعد فرضه وتقديره، وتراضوا على تعديله، بالزيادة فيه، أو النقص منه، ولا مانع أن تتنازل الزوجة عنه كله أو بعضه، ولا جناح على الزوج أن يضاعفه، أو يزيد فيه ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾. والله - تعالى - علام الغيوب، يعلم نيات الراغبين في الزواج، ومقاصد المائلين إلى السفاح، ويعلم من يؤثرون التعاون والتسامح، ومن يبيتون الغدر، ويضمرون الشر، وله الحكمة الرشيدة في كل ما سنَّ لعباده من القوانين، وما شرع من الأحكام ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

ثانياً:

١ - حين لا يتعلق التشريع بحق من حقوق الله - تعالى -، ولا حد من حدوده، فإن الحكمة الإلهية تفتح للأطراف المعنية باب التفاهم، والتراضي، وتترك لهم حرية التصرف في ضوء ما يترأى لهم من المصلحة الخاصة، بعد أن يتقرر الحق الواجب، فإذا ما تقرر الحق لصاحبه أصبح حر التصرف فيه، ما دام هذا التصرف لا يحلّ حراماً، ولا يحرم حلالاً، نجد هذا في قوله - تعالى -: ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا﴾، وفي قوله - تعالى -: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾، وليس معنى هذا أن الله - تعالى - يدع الناس لأهوائهم، أو ترك لهم حرية اختيار تشريع آخر، يحلون به ما حرم، أو يحرمون به ما أحلّ، وإنما معناه أنه - سبحانه - جعل الحكم على درجتين، كليهما يكون العمل بها وفق تشريع الله - تعالى -، وتنفيذاً لحدوده، فلولا هذان النصان وأمثالهما ما كان التنازل والتراضي

مشروعاً، والمسلمون عند شروطهم إلا شرطاً أحلّ حراماً، أو حرّم حلالاً.

٢ - في الآية الكريمة كلمتان، هما:

- ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾.

- ﴿وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.

وهاتان الكلمتان استغللها طائفتان من الناس، وأولوهما تأويلاً فاسداً، بغية الوصول إلى مآربهم الخسيسة، وتحصيل شهواتهم الباطلة، وهاتان الطائفتان هما:

أ - أصحاب النفوس المظلمة، والقلوب المريضة، الذين صدق فيهم قول الحق - سبحانه - ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥]، وهؤلاء أباحوا لأنفسهم الزنا زاعمين أنه استمتاع في مقابل أجر، وتجاهلوا عامدين ما جاء في الآية الكريمة نفسها من نص واضح وشرط صريح، على وجوب ابتغاء الإحصان، ومجانبة السفاح ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْتَفْهِجِينَ﴾، وأهملوا كل نصوص القرآن الكريم التي تأمر بالعفة والطهارة وتحرم الفاحشة، كقوله - تعالى -: ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٦٩].

ب - أصحاب الأهواء المضلة الذين أحلوا بهاتين الجملتين زواج المتعة، وهو كل زواج لفترة محددة من الزمن، وقد تغافل هؤلاء عن حكمة مشروعية الزواج، وبناء الأسرة في الإسلام، وجعلوا أنه لا فرق بين زواج المتعة والسفاح في شيء.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْتَفْهِجَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْتَ بِفَحِشَةٍ قَلِيلٍ نَصَبُ مَا عَلَى



الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٦﴾

الإسلام يتعامل مع الإنسان في حدود فطرته وواقعه، وعلى قدر طاقته واستعداده ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: ٦١]، ولما كان ثمة طائفة من الرجال ليست لديهم القدرة المادية على الزواج من الحرائر، ودفع صداقهن اللائق بأمثالهن، ولا يستطيعون الاضطبار على طلب الحرائر، ويجدون حرجاً ومشقة في الانتظار، ويخشون الانزلاق في مهاوي الفتنة، والإلمام بالخطيئة، والتردي في حمأة الرذيلة، لما كان الأمر كذلك فقد رخص الإسلام لهؤلاء المُقْلِينَ في الزواج من الإماء المملوكات للآخرين، شريطة أن يكنَّ مؤمنات؛ فالإيمان يجعل الناس سواسية في ظله، والمؤمنون بعضهم من بعض، تتكافأ دماؤهم، وقد خلقهم الله - تعالى - من نفس واحدة، فبعضهم أولى ببعض.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتْيَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.

فلکم أيها المُقْلُونَ أن تتزوجوهن بموافقة أوليائهن، وإذن موليهن، إذا دفعتم إليهن الصداق، ولم تدفعوهن إلى ساداتهن؛ لأنه ليس كسباً يكسبهن للسلادة، ولكنه حق خالص لهن يتقاضينه، ويقبضنه، وهو فريضة أوجبها الله - تعالى - لهن في مقابل استحلالهن، فأدوهما بما تعارفتن عليه شرعاً وعادة، وعلى ما تراضيتن به من غير نقص ولا مماطلة ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاثُورَهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

ولما كان البغاء في الجاهلية مقصوراً على الإماء، كنَّ يجاهرن بالفاحشة، وينصبن لها الرايات، ويأتينها علناً، ولهذا كان الزواج منهن مقيداً بأن يجتنبن الزنا الذي يباح فيه العرض لكل مشتر وراغب، ويقلن عن اتخاذ العشيق الذي يبذل له العرض سراً، وَيَلْذُنْ بِكُنْفِ الْإِحْصَانِ ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَخَفَّاتٍ أَخْدَانٍ﴾.

فإذا بلغت الرقيقات درجة الحرائر بالزواج، ولم يلبسن ثوب الإحصان، ولم يسلكن الطريق إلى الطهارة، ولم يعففن عن السفاح، ولم يهجرن الخدين، وثبت عليهن غشيان الفاحشة، بشهادة أربعة عدول من المسلمين، لا تخالف شهادة واحد منهم الآخرين، واتفقت الشهادة على رؤيتهن في حال المباشرة غير المشروعة، أقيم عليهن الحد، وجلدن خمسين جلدة على النصف من الحرة؛ لأنهن ضعيفات المقاومة؛ لما أحدثه الرق في نفوسهن من مذلة ومهانة، وكسر الأنوف، وولي الأعناق، وامتهان الكرامة، فلهذا رَفَقَ بهن الإسلام، ورحم حالهن، ومعلوم أن النصف يكون من العقوبة التي تقبل القسمة، وهي الجلد، أما الرجم فلا يمكن قسمة العقوبة فيه، فلا رجم على الإماء المحصنات، والأبكار منهن إن أتين بفاحشة ينلن نفس العقاب على يد القائم بأمر المسلمين.

﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْكَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

ذلك الإجراء بالزواج من الإماء، وهذه الرخصة في نكاحهن إنما هي للذين لا يقدرّون على كبح غريزتهم، وامتلاك زمام شهوتهم، ويلقون عناء ومشقة في الانتظار، ويجدون عنتاً في الاصطبار، ويخافون الوقوع في المحذور ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾.

ولكن التذرع بالصبر، وانتظار الميسرة، التي تنهياً فيها القدرة على الزواج من الحرائر أفضل؛ لأن مقاومتهم للإغراء أقوى، وحفظهن للفراش أتم، وشعورهن بالعزة والإباء أوفر، وأنسالهن أكثر نجابة، وأكرم خؤولة، وقدرتهن على تنشئة الأجيال الصالحة أكمل، ويكفيهن فخراً أنهن يلدن الأحرار، ولا يضعن الأرقاء ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

والله غفور لمن فقد الصبر، وجمحت به غريزته، واضطرتته شهوته لنكاح غير الحرائر رحيم بعباده، لا يعنتهم، ولا يشق عليهم، ولا يكلفهم ما لا طاقة لهم به ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.



ثالثاً:

١ - لنقف ملياً عند قوله - تعالى - : ﴿فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ إنه تعبير فَوَاحِ الشَّذَا، تنبعث منه أنفاس التكريم لإنسانيتهن، وأريج الشرف لآدميتهن وإيمانهن.

أ - فلا يسميهن إماء، ولا يدعوهن رقيقات، ولا يطلق عليهن جوارى، ولا يقر التفرقة بينهن وبين سائر الفتيات، وإنما يحدد نظرته إليهن في أمرين:

١ - في الكينونة الإنسانية.

٢ - في العقيدة الإيمانية.

ب - ثم إن القرآن الكريم لا ينعت الذين يملكونهن بأنهم سادتهن، ولكنه ينعتهم بأنهم ﴿أَهْلِهِنَّ﴾، وما أروع هذا النعت الذي يرفع هاماتهن إلى عنان السماء ويشعرهن بأنهن ذوات أهل، ويوحى إلى سادتهن أن يكونوا لهن بمنزلة الأهل في الحثو والعطف، والعناية والرعاية.

ج - وليس هذا فحسب، ولكنه يسوي بينهن وبين الحرائر مرة أخرى في الحصول على إذن الولي، وموافقته.

د - ويضرب في أعماق المساواة الحقيقية، فيفرض لهن المهر، ويوجب أن يكون المال الذي يدفع إليهن ملكاً لهن لا لغيرهن.

هـ - ومن ثمَّ يُلْزَمُهُنَّ بأن يتخلقن بأخلاق الحرائر، وأن يتغين في الزواج الإحصان وحفظ النسل، والكفّ عن البغاء، ونسيان الخدين.

٢ - ثم ما أعظم عدل الله - تعالى - وما أوسع رحمته، وقد علم ما يحيط بالإماء من أجواء تضعف مقاومتهن للإغراء، وأوضاع توهن من قدرتهن على الثبات في مواجهة الإغواء، وتوهن من حصانتهم

النفسية، وتقلل من شعورهن بالمعزة والإباء، فلم يهمل واقعهن هذا، وخفف عنهن العقوبة، ولم يجعل لهذا الواقع كل الاعتبار، ويلغ العقوبة كلها، ويعفيهن منها برمتها.

ومن هنا تختلف نظرة التشريع السماوي إلى كل من الحرية والأمة عن نظرة القوانين الأرضية، فبينما نجد القوانين الأرضية تقسو على الضعيف، وتحامل عليه، وترحم القوي، وتحني رأسها بين يديه نجد القانون الإلهي يحاسب كلا منهما بمقدار ما توفر له من أسباب الحماية؛ فالأمة ممتهنة لا تتوفر لها الصيانة، ولا تتحصن في قلعة من الكرامة، ولا تتمتع بحظ من الإباء والشمم، ولهذا لم تُعامل معاملة الحرية التي تتوفر لها كل أسباب الحصانة والحماية، والعزة والكرامة.

٣ - تفيد الآية الكريمة أن الزواج من الحرائر أسمى مراتب النكاح، وأن التجميل بالصبر أفضل من تزوج الإماء، وأن نكاح الإماء لا يبرره إلا خوف العنت.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي مَنِتَّ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

يريد الله - تعالى - بكم الخير، ويرضى لكم اليسر، ويودّ لكم السعادة، ويحب أن يقدم إليكم هذه المنن:

أ - أن يبين لكم منهجه الذي تسمو به نفوسكم، وترقى أخلاقكم، وتزكو قلوبكم وتصفو أرواحكم، وتستقيم أموركم، وتصلح حياتكم، وتنجح أعمالكم، ويقوى مجتمعكم، ويعز شأنكم، ويرتفع سلطانكم، ويسود حكمكم ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي مَنِتَّ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ب - وأن يرشدكم إلى الطريق الذي اختاره لمن سبقكم، وبعث به رسله إليهم، وهدى إليه الصالحين من عباده،



ووفق المؤمنين إلى الاستمسك به، وفيه وقايتكم من الانحراف عن سنن الحق والعدل، وحمايتكم من العثرات المردية، وسلامتكم من تعقد المشكلات، واستفحال الأزمات، ونجاتكم من التخبط في كل وادٍ، وحفظكم من تصادم الأهواء، واختلال الآراء ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

ج - وأن يخرجكم من الظلمات إلى النور، فتشقوا طريقكم إلى تقواه وعبادته؛ ليكفر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم ذنوبكم، ويتوب عليكم من معصيته ومخالفته ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

والله - تعالى - وسع كل شيء علماً، فهو العليم بخلقه، وبما يصلح حياتهم ويعالج قلوبهم، ويداوي نفوسهم، ويكفل سعادتهم في الدنيا والآخرة، وهو الحكيم في كل ما حدّ من الحدود، وشرع من النظم، ووضع من الأحكام، ورسم من المناهج ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن يُمْلَأُوا مَلَأًا عَظِيمًا﴾.

والله - تعالى - يريد بما سنّ لكم من تشريعات مالية؛ تصون الأموال، وتضبط حركتها، ومما رسم من تنظيمات اجتماعية، تحفظ كيان الأسرة، وتوثق عرى الروابط فيها، وتقيم قاعدتها على الطهر، وتعزل عنها كل فساد، وترفع من طريقها جميع العقبات. يريد الله - تعالى - بهذا الدين أن يتوب عليكم من حيف الجاهليين على اليتامى، وجورهم على الضعفاء، وهضمهم حقوق النساء، وتمزيقهم كيان الأسرة، وتضييعهم الأبناء، وتلويثهم الأعراض ويريد الذي يحادون الله ورسوله، ويصدون عن سبيله، ويحاربون منهجه ويتخذون آلهة من دونه، يزينون لهم الشهوات أن تميلوا عن الحق والهدى ميلهم، وأن تنحرفوا عن منهج الله

- تعالى - انحرافهم، وأن ترتدوا على أديباركم كفاراً مثلهم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

والله - تعالى - أرحم الراحمين، لا يريد بهذا الدين أن يشق عليكم في أمر من الأمور، ولا أن يضيق عليكم بحكم من الأحكام، ولا أن يرهقكم ببيان الحلال والحرام، ولكنه يريد بكم اليسر في كل ما جاءكم به الإسلام، ويريد أن يكملكم بالعفة، ويصونكم بالإحصان، ويخفف عنكم ما لا تحتملونه ولا تطيقونه من كبت الغريزة، ومقاومة دوافع الفطرة، فما أعتكم بتشريع من التشريعات، وما كتب عليكم رهبانية، ولا فرض عليكم أن تقطعوا صلتكم بالحياة، فكل أحكامه وسط بين الشدة واللين، وإن أعدل الأمور أوسطها ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وليس اليسر في منهج الله - تعالى - مقصوراً على ما رخص فيه الإسلام من نكاح الإماء إذا اقتضت الضرورة، ولا ما أباحه من التيمم، والإفطار في السفر، ولكن اليسر يعم هذا الدين؛ عقائده وأخلاقه، وعباداته ومعاملاته، وقوانينه ونظمه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ودعامة هذا اليسر عقيدة التوحيد التي تقوم على الخضوع للإله الواحد، الذي لا شريك له، ينازعه سلطانه على خلقه، فإذا استقرت عقيدة التوحيد في القلب اطمأن الإنسان، وأدرك أنه مكلف بأن يطيع رباً واحداً لا أرباباً شتى، وعلم أن أمره خاضع لمشيئة واحدة، لا تتنازع مشيئات كثيرة، وآمن أن حسابه سيكون أمام محكمة واحدة تحاسب الناس جميعاً، وعرف أن حماه الذي يلوذ به، وكنفه الذي يأوي إليه لا حمى غيره، ولا كنف سواه، والقرآن الكريم يعرض هذه الحقيقة في إقناع وإعجاز فيقول: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

نعم إن الدين قيود، ولكنها قيود تحمي من الرذيلة، وتبعد عن الفساد، وتحول دون التردّي في مهاوي الهلاك، وهو حواجز وسدود،



ولكنها الحواجز التي تعصم من تيارات الدمار، والسدود التي تقف في وجه الخراب والوبار.

وإن نظرة واعية إلى ما أحدثه التحلل من قيود الدين في الأمم التي تدعي الحرية لترينا كيف عمتها الفوضى في العلاقات الجنسية، وكيف دمرت الشهوات، وكيف انتشرت فيها الجرائم، وكيف اصطلحت عليها العلل وعصفت بها الأمراض. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾.

وهذا التخفيف صادر من الخلاق العليم، الذي خلق الإنسان، وعلم ما فيه من مركبات الضعف؛ فهو ضعيف العزيمة والإقدام، ضعيف المقاومة للرغبات والشهوات، وإغراءات النساء والمال، ضعيف الاحتمال للأعباء والمسؤوليات، ضعيف الصبر على تقلبات الدهر، ومشكلات الحياة، ضعيف إذا غضب أو رضي، ضعيف إذا جاع أو شبع ضعيف إذا لذعه البرد أو لفحه الحر، أو مسّه الضر. ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

٤ - بهذا الوحي السماوي الخالد يتودد العزيز الذي لا يذل، والغني الذي لا يفتقر إلى عباده، وكلهم أدلة بين يديه، فقراء إليه، يتودد إليهم، ويتلطف بهم، ويكشف لهم عن غيبه الذي يريده لهم، وهو يريد أن يبين لهم الحق بياناً لا تثبت معه شبهة، وأن يهديهم سبل السلام، هداية لا يغشاها ضلال، وأن يتوب عليهم توبة لا تبقى معها خطيئة، وأن يخفف عنهم المتاعب، ويذلل لهم المصاعب، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فما أرحمك ربّي!، وما أكرمك!.

٥ - ويكرر الحق - تبارك وتعالى - أنه يريد ثلاث مرات في ثلاث آيات متتالية، ليهز مشاعر المؤمنين، ويستميل قلوبهم، ويستحث همهم إلى أن يكونوا طوع هذه الإرادة التي لا تزيد بهم إلا الخير، وما أصدق ما قاله ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما -

«إن هذه الآيات الثلاث خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت»؛ ذلك أنه من فضل الله - تعالى - وإحسانه أن يصرح لعباده بالحكمة الكامنة في تشريعه، والسر الذي تدور عليه أحكامه.



سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ
بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا تِجَارَةً عَنْ رَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا
أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا
وِظْلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ
وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَعْلَانَهُمْ
 نَصِيحَتُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾
 الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِلَّا فَضَّلَ أَحَدُكُمْ
 عَلَى الْآخَرِ فَلْيَقْضِ الْفَضْلَ الَّذِي أَنْفَقَ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
 لَا تَجَاوِزُهَا شُحُّ رِجَالٍ كَثِيرٍ وَهُوَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
 وَأُخْرَى لَهُمْ فَإِنْ أَطَعْتُمْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَحَدَّيْكُمْ
 بَيْنَهُمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ
 يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾	لا يأخذ بعضكم مال غيره بطريق لم يشرعه الله - تعالى - .
﴿إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحِكْمَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾	ولكن اعتمدوا على الكسب الحلال، واستعينوا بالتجارة التي يكون الربح فيها عن تراض منكم.
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾	ولا يقتل بعضكم بعضاً بسبب العدوان على المال، أو لأي سبب آخر.
﴿عُدْوَانًا﴾	اعتداء تتوفر فيه النية؛ كمن يقتل دفاعاً عن نفسه.
﴿و ظُلْمًا﴾	اعتداء لا يتوفر فيه القصد، كمن يأخذ مالا وهو يظن أنه له، ثم يتبين أنه ملك لغيره.
﴿فَصَلِّهِ تَارَةً﴾	تدخله، ونحرقه فيها.
﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾	إن تتركوا أسباب الذنوب وبواعثها، وتبتعدوا عن فعل كل إثم يدفع إلى ارتكابه شعور الاستهانة بالدين، والاستخفاف بحدوده وتعاليمه.
﴿سَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ﴾	صغائر ذنوبكم.
﴿مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾	دخولاً محفوظاً بالتكريم، أو مكاناً كريماً وهو الجنة.
﴿وَلَا تَنَّمِنُوا﴾	ولا تطلبوا مستحيلاً، لا سبيل لكم إلى إداركه.
﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾	الذين عاهدتموهم على النصرة والتوارث عهد موالاة.
﴿فَصَلِّبَهُمْ﴾	سهمهم المتفق عليه، وهو السدس.
﴿فَوَآمُوتْ عَلَى أُنْسَاءٍ﴾	دائموا القيام على رعايتهن، وكفائتهن، وحمايتهن، وقيادتهن.
﴿فَنَبِّئْتِ﴾	عابدات ربهن، مؤديات حقوق أزواجهن.
﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾	صائنات أسرار الزوجية، حافظات حقوق أزواجهن في غيابهم.

الكلمة	تفسيرها
﴿يَا حَفِظَ اللَّهُ﴾	بما شرع الله - تعالى - من أحكام حفظها من التبديل والضياع.
﴿شُؤْهُنَ﴾	خروجهن عن طاعة أزواجهن، وإضاعتهم ما لهن عليهن من حقوق.
﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾	واعتزلهن فراشهن وحده.
﴿فَلَا يَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾	فلا تلتمسوا وسيلة لظلمهن.



التأويل والبيان:

فرض الإسلام احترام الأموال المملوكة ملكاً شرعياً لأصحابها، وقرر حرمتها، وجعلها كحرمة الدماء والأعراض، وكرر القرآن الكريم النهي عن أكلها بالباطل:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وتجاوز النهي عن أكلها إلى النهي عن التطلع إلى ما يتمتع به المترفون من زهرة الدنيا ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقد تأذن الله - تعالى - أنه من أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه، ومن أخذها ينوي أداؤها أدى عنه، وفي سبيل حفظ الأموال لأربابها نفر الدين من الاستدانة، ووصفها بأنها همّ بالليل، ومذلة بالنهار، واستعاذ الرسول الكريم - ﷺ - من غلبة الدين، وقهر الرجال، وكان - ﷺ - لا يصلي على من مات مديناً، ويقول: «صلوا على صاحبكم»، وهو القائل: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم»، والقائل: «من غصب شبراً من أرض طوّقه من سبع أرضين» والقائل: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين»، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٢٧]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك.

وقد نهت الآيات السابقة الأوصياء والأزواج خاصة عن أخذ أموال اليتامى والأزواج بغير حق؛ لأن ذلك كان شائعاً في المجتمع الجاهلي الذي جاء الإسلام لاقتلاع جذوره، وإنهاء وجوده، ثم جاء النهي عن أكل أموال الناس عامة، سواء أكانت ملكاً لليتامى أو الزوجات أم لغيرهما، وجعل العدوان على أموال الناس من كبائر الذنوب، والآية الكريمة تبدأ ببدء المؤمنين بالصفة التي تربطهم بخالقهم، وتوهمهم للتلقي عن ربهم الذي آمنوا به، وأيقنوا بأنه مصدر التشريع والسلطان، لتحفزهم على الامتثال، وتدفعهم إلى الاتباع، وتوجههم إلى القبول ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

وإذا كان إيمانهم قد وصلهم بربهم؛ فهو الذي آخى بينهم أكرم مؤاخاة، وألف بين قلوبهم أوثق تأليف ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وجعل بعضهم أولياء بعض، وهذه الولاية، وتلك المؤاخاة تقتضيهم الأمانة، وتلزمهم عفة الطعمة، وتفرض عليهم احترام الحقوق ورعايتها، تأكيداً للمؤاخاة، وترسيخاً للموالاتة، ودعماً للمحبة في الله - تعالى -، ومجانبة لكل ما يثير الشقاق، ويورث الخلاف وهذه الأموال التي يعمل الإسلام على صيانتها، ويحرص على حمايتها ليست في الحقيقة ملكاً لأصحابها وحدهم، ولا نفعها مقصوراً عليهم دون غيرهم، ولكنها ملك للجماعة التي هم من أفرادها، وأعضاء في جسمها، ولبنات في بنائها، وعلى قدر قوتهم تكون قوتها، فالعدوان عليها فوق كونه ظلماً لأصحابها المؤمنين، الذين قضوا أعمارهم في الحصول عليها، وامتلاكها بالطرق المشروعة، هو كذلك ظلم للجماعة التي تملك هذه الأموال ملكاً عاماً، وتدخرها لحاجتها إليها، وظلم لأصحاب الحقوق المقررة فيها من الأقارب والمساكين، وأبناء السبيل، هذا الظلم يحمل طابع خيانة الجماعة، ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾.



ومما يجعل هذا الظلم شديد المضاضة، متناهيًا في البشاعة أن يحدث في الوسط المؤمن، وأن تكون الأطراف فيه من الأمة الواحدة، وأن يتم بين الإخوة بعضهم وبعض، فلو حدث بين مؤمن وكافر لهان الخطب، وقيل: ليس بعد الكفر ذنب، ولكنه ﴿يَنكُمُ﴾ وأكل الأموال بالباطل يشمل كل وسيلة لسلبها، والاستيلاء عليها بطريقة لم يأذن الله - تعالى - بها، كالربا، والسرقة، والقمار، والغصب، والرشوة، والاحتيال، والغش، وبيع ما يحرم بيعه؛ كالخمر، والخنزير، والتمثيل، وكتب الجنس، وكل ما يجني على الصحة، ويفسد الأخلاق، ويذهب بريح الأمة، وما يتصل ﴿بِالْبَطْلِ﴾ من قريب أو بعيد.

وإذا كانت التجارة تقوم على الاستيلاء على جزء من أموال الناس في مقابل جلب السلعة من مكان إنتاجها، وبذل الجهد في تيسير الحصول عليها، وما يتبع هذا من توفير الزمن، وتحقيق الأمن، فإن هذا لا يعدّ أكلاً للأموال بالباطل، فإن التاجر أنفع وسيط بين المنتج والمستهلك، وعليه يتوقف إعداد السلعة وترويجها، وبجهوده ينعم الناس بالراحة والرخاء، وهو يكد ويشقى، ويتعرض للربح والخسارة والمعول عليه أن يجتنب التاجر الغشّ، واليمين الكاذبة التي تنفق السلعة، وتمحق البركة، فإن التاجر الصادق الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين يوم القيامة، كما أنه يشترط أن تتم الصفقة عن تراض بين البائع والمشتري، لا شبهة فيه للإكراه؛ كأن ينتهز البائع حاجة الناس إلى سلعته، فيغالي في ثمنها مغالاة ترهقهم وتشق عليهم، أو ينتهز المشتري ضائقة مالية أصابت التاجر، فيبخس سلعته قيمتها. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِحَكْرَةٍ عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾.

والمجتمع الذي يتلي أفرادَه بالسطو على الأموال، ولا يتورعون عن العدوان على الأرزاق، ولا يجدون حرجاً في سلب حقوق بعضهم البعض، ولا ينصرفون إلى الكسب الشريف، ولا يستطيعون الحصول

على المال من وجوهه المشروعة، ولا يفرقون في جلب المال بين الحلال والحرام، ويمهرون في الغش، ويتعاملون بالرشوة، ويزاولون السرقة، ويمارسون القمار، وينحدرون في طريق الخيانة، ويتاجرون في الأخلاق والأعراض، إن أفراد هذا المجتمع فقدوا عاطفة الحب والتراحم، وحرموا فضيلة التعاون على البر والتقوى، وامتلأت قلوبهم بالأحقاد والأضغان، وقتلوا أنفسهم بأخبث العلل، وأفتك الأدوية، وحكموا على أنفسهم بالفناء، ودمروا حياتهم بالخلافات المردية، والاعتداءات الطاحنة ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

والله - تعالى - رحيم بكم حين دعاكم إلى تزكية نفوسكم من الطمع، وتطهير قلوبكم من الجشع، وإبعاد مجتمعكم عن التطاحن والتمزق، وحين نهاكم عن أكل أموالكم بينكم بالباطل، لكيلا تقعوا فريسة للعلل التي يستطير شرها، ويتفاقم خطرها، ويستعصي علاجها. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة أولاً:

- ١ - إضافة المال للمخاطبين في ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ يؤكد ما قرره الإسلام من نظام التكافل الاجتماعي في الأموال والمصالح.
- ٢ - فطر الإنسان على حب المال، والتفاني في امتلاكه ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبَّ جَمٍّ﴾ والعدوان عليه يُسَعِّرُ العداوة، ويثير الخلافات الدامية، ويدفع إلى التقاتل، ولهذا فرض الإسلام احترامه؛ ليصون وحدة المجتمع، ويحمي وجوده.
- ٣ - اشتراط التراضي في التجارة ﴿عَنْ رَاضٍ مِنْكُمْ﴾ يحث المتبايعين على توخي الاعتدال، ونبذ الطمع الذي يجعل المشتري يبخس البائع حقه، وترك الاستغلال الذي يحدو البائع إلى المغالاة في الثمن، ومضاعفة الربح.



وفوق ما ينتاب حياة الذين يمارسون أكل الأموال بالباطل من الشقاء، وما يحل بهم من الكوارث، وما يصيبهم من البلاء، وما ينزل بهم من تدمير، فقد توعد الله - تعالى - هؤلاء العادين على الأموال، الذين يظلمون أصحابها، ويفجعونهم في أرزاقهم، ويحرمونهم كدّهم، وينغصون عيشهم، ويملؤون حياتهم حزناً وألماً، ويقدمون على الجريمة التي تمزق كيان الأمة، وتشل حركة الحياة في المجتمع، وتنتهي به إلى الفناء، توعدهم بنار حامية، يذوقون عذابها الأليم ويصلون حرها الشديد. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ وما أهون هذا العذاب، وما أيسره على من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السموات وهو على كل شيء قدير ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وقد وعد الله - تعالى - الذين يعظمونه، ويوقرونه، ويستقر في قلوبهم احترام دينه؛ فيتقربون إليه بأداء ما افترضه عليهم من الطاعات، ويحلون ما أحل لهم من الطيبات، ويحرمون ما حرم عليهم من الخبائث، ولا يجاوزون حدوده التي تضمنتها أوامره ونواهي، ويجتنبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويتعدون عن الكبائر، فلا يشركون بربهم، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يشهدون الزور، ولا يعقون آباءهم، ولا يزنون، ولا يأكلون الربا، ولا يسلبون مال اليتيم، ولا يصرون على صغائر الذنوب، وعدهم الله - تعالى - أن يجعل عبادتهم كفارة تمحو سيئاتهم اليسيرة التي يصيبونها نتيجة الغفلة، أو بسبب النزوة العارضة، أو الغضب الطائشة، وأن تكون الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما، وأن يجعل الصوم جُنَّةً لهم من النار، وأن يطفئ بالصدقة لهيب خطاياهم، ففيما رواه أحمد والبيهقي والحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «الصلاة المكتوبة إلى الصلاة التي قبلها كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة التي قبلها كفارة لما بينهما، والشهر إلى الشهر الذي قبله كفارة لما بينهما إلا من ثلاث: الإشراف بالله، وترك السنة، ونكث الصفة، قيل يا رسول الله، أما الإشراف بالله فقد عرفناه،

فما نكث الصفة وترك السنة؟ قال: أما نكث الصفة فأن تباع رجلاً بيمينك ثم تخالف إليه فتقاتله بسيفك، وأما ترك السنة فالخروج عن الجماعة، كما وعد هؤلاء الطائعين أن يجعل ابتعادهم عن الكبائر في حد ذاته من الكفارات التي تحط الخطايا، وتمحو السيئات، ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

وبشرهم بدخول دار النعيم، محفوفين بالتكريم، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً. ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أ - قَسَمَ اللَّهُ - تعالى - بين عباده معيشتهم في الحياة الدنيا، وفضل بعضهم على بعض في العطايا والهبات. ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْيِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ١٧]، ومنح بعضهم من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، وسخر لبعضهم المنصب والجاه فالناس هذا حظهم علم، وذا حظهم مال، وذا له مكارم الأخلاق وجعلهم أنماطاً شتى في الهبة الواحدة: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئْنَا وَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠]، ولم يجعل عطاءه محصوراً في الحظوظ المادية وحدها، ولكنه جعله فيما لا يحصى من الحظوظ النفسية، والفضائل الروحية، والمزايا العقلية، والصفات القلبية.

خلق الخلق جماناً وحصى	خالق الإنسان من ماء وطين
فلأمر ما، وسرّ غامض	تسعد النطفة، أو يشقى الجنين
فوليد تبسم الدنيا له	ووليد في زوايا المهملين



هذا من جهة.

ب - ومن جهة أخرى خصّ الله - تعالى - الرجال بالقدرات التي تمكنهم من النهوض بمسؤولياتهم، وزودهم بالاستعدادات التي تعينهم على تحمل أعباء رسالتهم التي أهلهم بها، وهياهم لها، وجعلها لا تكتسب بالجَدِّ والسعي، ولا تدرك بالنشاط والتحصيل، ولا تنال بالرغبة والاختيار.

ومنح النساء من الخصائص الجسمية والنفسية ما يتفق مع رسالتهن في هذه الحياة، ويعدّهن للقيام بوظيفة الأمومة، ويعينهن على الوفاء بمسؤولية التربية، وفي برغبات الرجال فيهن، ويكفي حاجتهم إليهن، وأعفاهن من الجهاد؛ ليلدن المجاهدين، ولكنه لم يحرمه عليهن عندما تلجئ الضرورة إليه، ويصبح أمراً محتوماً، لا مفر منه، ولا محيد عنه. والآية الكريمة تصرّح بأن هذا التفاضل من صنع الله - تعالى - وحده. ﴿مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وهو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وتدعو الناس إلى الإيمان بما جرى به قضاؤه الذي لا راد له، وما دبره علمه الذي وسع كل شيء، وأرادته حكمته البالغة، وارتضاه عدله المطلق، وتنهاهم عن التطلع إلى تغيير سنته في خلقه ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، وتحرم على الرجال والنساء أن يتحاسدوا، وتحظر عليهم أن ينازع أحدهما الآخر خصائصه ومزاياه، أو يتشبه به فيها، أو ينساق وراء رغبة التمني التي تُغرم بالمستحيل، وفي استعمال كلمة ﴿تَتَمَنَّوْا﴾ إيماء إلى هذه الاستحالة.

وبهذا النهي أغلق الإسلام باب الأماني الكاذبة، والأحلام الواهمة، وحظر الشرود وراء الخيالات الهائمة؛ لأن الذين يقطعون ساعاتهم في التمنيات الحالمية، ليكونوا على هذا النحو أو ذاك، يَحْيُونَ

حياة معذبة، ملؤها التعاسة والشقاء، والتنغيص والآلام؛ يسخطون فيها على ما جرى به قضاء ربهم، ولا يرضون بحالهم، ويحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ويستكثرون عليهم ما أولاهم من برّه، وَيَحْقِدُونَ عليهم من غير جريرة ويسلّون عليهم سيف البغي بلا ذنب، وهم إلى هذا يحتقرون نعم خالقهم عليهم، ويستقلونها إزاء ما يرون من نعمه - سبحانه - على غيرهم، ومثل هؤلاء لا يتورعون عن أن يرموا الله - تعالى - في قرارة أنفسهم بالظلم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ومثل حالهم هذه تقعدهم عن السعي، وتشلّ حركتهم في الحياة، وتقتل رغبتهم في العمل، وتقضي على عوامل الخير والنشاط فيهم ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾.

والإسلام لا يغلق باباً من أبواب الفساد والشر إلا وقد فتح عوضاً عنه باباً من أبواب الإصلاح والخير، وها هو ذا يستحث خطى أتباعه إلى العمل، ويدعوهم إلى اتباع سنة الحياة في الحركة والسعي، والأخذ بأسلوب الجد والنشاط، وينبئهم أن الله - تعالى - كريم يحب أن يسأل، وأنه غني لا ينفد ما في خزائنه، ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾، وأن عباده جميعاً لو قاموا في صعيد واحد؛ بأولهم وآخرهم، إنسهم وجنهم، فسألوه، فأعطى كل واحد منهم مسأله ما نقص ذلك من ملكه شيئاً، فليتجهوا إذاً إلى سؤاله بدلاً من إضاعة أنفسهم حشرات ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾.

ومعنى أن يُسأل الله - تعالى - من فضله أن يأخذ المسلم بالأسباب التي شرعها، وأن يطرق الأمور من أبوابها، وأن يلبس لكل حال لبوسها، ويعد لكل شيء عدته، وألا يقعد عن طلب الرزق، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وما أحكم القائل:

ترجو النجاة، ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس



والله - تعالى - قسم الأرزاق بعلمه، وفضل بعضهم على بعض بحكمته، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، ليلوهم فيما آتاهم، وليسخر بعضهم في خدمة بعض ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

ثانياً:

١ - الكَيْسُ من نهض للعمل، واستعان بربه على بلوغ آماله، وسأله التوفيق، ورضي بما قسم له، وزهد فيما عند الناس، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني.

٢ - في قوله - تعالى -: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ تقرير لحق الملكية لكل من الرجال والنساء، وحق تحصيل الثروة عن طريق الكسب المباح، والعمل المشروع.

٣ - من النظرة الواعية، والموازنة المستأنية بين النهي: ﴿وَلَا تَكْمَنُوا﴾...، والأمر ﴿وَسَلُّوا﴾... يظهر لنا مبلغ حرص الإسلام على حفظ حياة البشر من أن تضع هباء في تمني ما لا سبيل إلى الوصول إليه، وعدم تركهم فريسة للأوهام التي تترأى لهم، كما يترأى السراب الخادع، ودعوتهم إلى أن يلجوا باب السعي ويسلكوا درب العمل ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُرَدُونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيَةِ فَتُنشَرُونَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

٤ - في قوله - تعالى -: ﴿مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إيجاز يصور قمة الإعجاز، فمعناه: -

أ - ما فضل الله - تعالى - به بعض الرجال على بعضهم الآخر.

ب - وما فضل به بعض النساء على بعضهن الآخر.

ج - وما فضل به نوع الرجال على نوع النساء.

د - وما فضل به نوع النساء على نوع الرجال .

وقد جعل الله - تعالى - ورثة لكل متوفى، رجلاً كان أو امرأة من الذين لهم نصيب مما اكتسبوا، واللائي لهن نصيب ممن اكتسبن، وهؤلاء الورثة يؤول إليهم ماله الذي كان في حوزته، وخلفه وراءه، سواء منه ما حصله بجهده وعرفه، وما انتقل إليه بدون كد، وأخذه ميراثاً عن والديه وأقاربه.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣].

وكانت تقاليد المجتمع الجاهلي تبيح لغير العربي الذي لا وارث له أن يعقد حلفاً مع أحد العرب، يسمّى العربي بمقتضى هذا الحلف: «مولى الموالاة»، ويسمّى الآخر «مُوالياً»، ويصبح الموالي فرداً في أسرة مولاه، له من الحقوق ما لهم، وعليه من الواجبات ما عليهم، فإذا ارتكب جنابة توجب الدية دفعها مولاه، وإذا مات ورثه، وقد أبقت الآية الكريمة على ما كان قائماً من عقود الموالاة عند نزولها، حتى تبلغ أجلها، ومنعت إبرام عقود جديدة، وهذا المنع يؤخذ من التعبير بالفعل الماضي ﴿عَقَدْتُ﴾، والإبقاء على ما كان قائماً يدل عليه صريح قوله - تعالى -: ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣].

روى ابن جرير عن قتادة قوله: «كان الرجل يعاقد الرجل في الجاهلية، فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك، وترثني وارثك، وتطلبُ بي وأطلبُ بك، فجعلَ له السدس من جميع المال في الإسلام، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم، ثم نسخ بقوله - تعالى -: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]. ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْنُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: ٣٣]. إن الله - تعالى - لم يزل مطلعاً على جميع أموركم، محصياً لكل أعمالكم، عالماً من يعطي ومن يمنع، مجازياً كليهما بالجزاء الذي يستحقه. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.



- في قوله - تعالى -: ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَاصِيَهُمْ﴾ أمر بإعطاء كل مستحق نصيبه كاملاً، وحث على تطهير النفوس من الطمع، وتحذير من الحيف على أحد الوارثين، وحرمانه حقه، وتأکید لوجوب اجتناب أكل الأموال بالباطل.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِذَا فَضَّلَتْ حِفْظٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ شُرُوهُمْ فَيَعْطُونَكَ فِعْظُوهُمْ وَأَفْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ إِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾.

يقصد الإسلام من تكوين الأسرة تحقيق عدة أهداف، منها: -

أ - الإبقاء على الجنس البشري، الذي يقدر على عمارة الأرض، والانتفاع بمقدراتها.

ب - أن يظفر الزوج بعد كدّه اليومي بالراحة التي يطلبها جسمه، وتنشدها أعصابه، وتتطلع إليها روحه في جو الألفة والمودة والمرحمة، وأن تظفر زوجه بالرعاية والحماية، والكفالة والكفاية.

ج - أن تتوفر الرعاية الكاملة للطفل الذي يظل رضيعاً مدة عامين، ويكون عاجزاً كل العجز عن تحصيل رزقه قبل العاشرة من عمره، وتستمر تربيته حتى يبلغ أشده، ويدرك رشده، وهذه التربية يتوقف نجاحها على ما يسود جوها من الهدوء والتعاون، ويتأتى لها من الاستقرار والتفاهم.

د - أن يجد كل من الزوجين الحصانة والصيانة، ويحظى بالعفة والستر. ورسالة الأم ضخمة، وهي مع ضخامتها هامة وخطيرة؛ فهي تحمل الجنين وهناً على وهن، تحمله كرهاً وتضعه كرهاً، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، ثم تتحمل كل مسؤوليات المدرسة الأولى، في الرعاية الصحية، والتربية النفسية وهي لا تستطيع بحال من الأحوال أن تقوم مع هذا بأعباء السعي والكد، وأن

تعمل على توفير المطالب الضرورية للأسرة، ويعفى الرجل من جميع المسؤوليات، فكان عدلاً ومرحمة أن يوكل هذا الجانب إلى شريكها في الحياة، ولهذا كان من المألوف بين الناس أن يلي الرجال أمر النساء، وأن يكفوهن مؤنة العمل، ومشقة الكسب وأن يرفعوا كل شؤونهن، وأن يقوموا بحمايتهن ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ والمبرر لهذه القوامة في منهج الإسلام أمران:

١ - أن الله - تعالى - خلق الرجال مهئين لها؛ فمنحهم من الاستعدادات في التكوين، والخصائص الفطرية ما جعلهم أقدر على القوامة، وأصلح لها، وزادهم بسطة في الجسم، وأمدهم بقوة الاحتمال، ورزقهم الصبر على الشدائد، وحباهم العزيمة القوية، وطبعهم على الخشونة، وأسبغ عليهم نعمة التروي، وإعمال الفكر، وقراءة العواقب ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

٢ - أن الله - تعالى - قرر حقاً مالياً يتقاضاه النساء من الرجال في مقابل دخولهن في طاعتهم، وهذا الحق يتمثل في صورة صداق مفروض، ونفقة واجبة كل يوم ﴿وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

والرجل في هذه القوامة ثقل الحمل، عظيم المسؤولية، مطلوب منه أن يكون أول من يشقى ويجوع ويعرى، وآخر من يسعد ويشبع ويكتسي، وهو مكلف أن يسهر على أمن الأسرة أمناً نفسياً وصحياً وغذائياً، وأن يحرس دينها ودنياها، ويحميها من النار في آخرها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوًّا أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَلَقَبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

إنها قوامة لا تتولى توزيع الاختصاصات على الآخرين، والتفرغ للسيادة والشرف، والتسلط والاستعلاء، وليست قوامة استعباد وتسخير معيب، ولكنها قوامة الاضطلاع بالمسؤوليات الضخام، والتعرض لكل



كريمة، والتصدي لكل نازلة، قوامة أساسها العطف والرعاية، والصيانة والحماية، والكفاية والولاية، كالقوامة بين الأب وأبنائه، والحاكم وشعبه، وللمرأة فيما عدا مسألة القوامة مثل الذي عليها ﴿وَكَهْنٌ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] والنساء تجاه قوامة الرجال صنفان: -

أ - مؤمنات صالحات، وهؤلاء يطعن أزواجهن، عن رغبة صادقة، وإرادة كاملة، وانقياد تام، ومحبة حقيقية، ويحفظن كل ما استتر من أمور الزوجية، وكل ما غاب من أسرارها وأحوالها، ويحصنه بسياج من الكتمان، ويصنّ أعراضهن في غيبة أزواجهن، ولا يبحن من أنفسهن ما لا يباح إلا لهن، عاملات بمقتضى شرع الله - تعالى - متبعات حدود منهجه، لا بمقتضى ما يتواضعان عليه من أعراف، ويرتضيانه من تقاليد ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

ب - مسلمات غير صالحات، يُخشى منهن التمرد والعصيان، ولا يؤمن منهن الخروج عن طاعة أزواجهن، وهؤلاء لا يهمل شأنهن، حتى يرفعن راية العصيان، ويجهرن بالخروج عن طاعة القوامة، ويعلن التمرد على أزواجهن، وإنما يعاجلن بالتقويم الوقائي الذي يحدده الوحي الكريم في الإجراءات التالية:

١ - النصح المخلص الأمين الذي يحمل طابع العطف والحب والمودة، ولا يأخذ طابع التهديد والتعنيف، ولا يتسم بالغلظة والقسوة، وإنما ينبثق من الوفاء للعشرة، والإخلاص للعشير، والحرص على مصلحته، والحفاظ على رباط الزوجية المقدس، والقصد إلى خير الأسرة، ويحمل طابع الاقناع، ويتخير الوقت الذي يتوفر فيه الإصغاء، ويكون بمعزل عن الآخرين، ومنأى عن الأسماع، وتظهر فيه كفاية الرجل، وقدرته على سياسة الأمر في

غير ضعف ولا عنف، فإذا بذل الرجل قصارى جهده في النصيح، وأحسن الموعظة، فاثمر النصيح ثمرته وآتت الموعظة نتيجتها، فيها ونعمت، وإن لم تُجد شيئاً لم يكن بد من اللجوء إلى الإجراء الثاني ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ﴾.

٢ - الهجر في المضجع الذي هو مكان للوصل، والجفوة في الفراش الذي هو محل للإيناس، والظهور بمظهر المعرض الذي يأبى الخضوع لسلاح الأنوثة، ويرفض غرورها وكبرياءها، ويتحدى أنفثها واستعلاءها، ويدوس جاذبيتها وإغراءها.

والهجر في حقيقة أمره ليس عقوبة جسدية للمرأة، هدفها الحرمان من تلبية شهوة الجسد، وإلا كانت عقاباً للرجل نفسه، ولكنه عقاب لغرور الأنوثة، وتشكيك في صميم جاذبيتها، وكسر لأمضى أسلحة المرأة التي تشهرها في وجه الرجل، وهو سلاح الإغراء والسحر والفتنة، فالهجر تأديب للنفس لا تأديب للجسد ولكي يحقق الهجر هدفه، ولا تترتب عليه آثار عكسية، وعواقب وخيمة كان في المضجع وحده، لا في البيت كله، وكان الجفاء في الخفاء، والإهمال في الخلوة لا في الجلوة، والإعراض بمعزل عن الأطفال، ومنأى عن الأهل، فإن شفى الهجر جموح الكبر، فزال العناد، وسلس القياد، وانقشعت بوادر التمرد رفع سوط الهجر، وذهبت الجفوة إلى غير رجعة، وانتهت مقاومة الاستعلاء بالاستعلاء والتصدي للإغراء بالرفض والإباء، وعادت المياه إلى مجاريها، وإن طاش هذا السهم، ولم يصب مقتلاً كان آخر الدواء الكي. ﴿وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ﴾.

٣ - التأديب بالضرب، وينبغي أن يكون في حال بعيدة عن ثورة الغضب، التي تدفع إلى حب الانتقام، وترمي إلى الإذلال والإرغام، وأن يكون مصحوباً بعاطفة التقويم والإصلاح، وأن



يكون في مكان غير الوجه الذي يجمع الحواس، حتى لا يصيب إحداها بعطب، فعن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: يا رسول الله، ما حق امرأة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت».

وليس معنى إباحة الضرب إيجابه، ففي الأثر: لا يضربهن إلا لثيم، وفي الحديث الشريف: «أما يستحيى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد؟، يضربها أول النهار، ثم يضاجعها آخره»، والرسول الكريم - ﷺ - لم يضرب زوجة قط، ولا خادماً، إنه أفضل من كظم الغيظ وقد أغضبته جارية مرة، فهزّ في وجهها السواك، وقال: «لولا أني أخاف الله لأوجعتك بهذا السواك».

وإنما أباح الضرب؛ لأن بعض النساء يتأدبن به، ولا يتأدبن بغيره، والذين يعترضون على إباحة الضرب كنوع من التأديب لا يصح اعتراضهم إلا على فرض واحد، وهو أن الله - تعالى - لم يخلق نساء قط يؤدبن بالضرب، ولا يجدي معهن في بعض الحالات غيره، ولن يصدر الاعتراض على حكم من أحكام الله - تعالى - من مؤمن أبداً.

فإن فاءت الزوجة إلى ظل الطاعة الوارف الظليل، وآثرت برد العافية، ورفعت راية السلام، ورجعت عن غيها ونهه التأديب من غرب كبريائها، وتبددت ظلمة العصيان، وانقشعت سحابة التمرد، واستجابت لأمر ربها، وحنّت رأسها لقوامة بعلها، بواحد من هذه الإجراءات رفع عنها سوط التأديب مباشرة، وعوملت بالمعدلة والمرحمة، وعوشرت بالمعروف، وحرّم التماس أيّ طريق يوصل إلى إيذائها بالقول أو الفعل، فإن استمرار العقاب بعد تحقق الغاية منه ظلم، ومجاوزة للحد في البغي والاعتداء، والله لا يحب المعتدين ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾. ولما كانت إمرة الرجال على النساء وقوامتهم قد تغري بعضهم

بأن يتعالوا عليهن، ويجروا وراءهم ذيل الخيلاء، ويندفعوا في البغي عليهن، ولا يرفعوا عن ظلمهن، لما كان الأمر كذلك ذكرهم العلي الكبير - سبحانه - بعلوه الفريد، وكبريائه المجيد؛ لتتكسر شوكة غرورهم، وتخضع نفوسهم، وتخضع قلوبهم، وتعنو وجوههم لسلطان قهره، ويتقوا الله في النساء، ولا يسلكوا طريقاً يوصلهم إلى ظلمهن ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾.

ثالثاً:

١ - في قوله - تعالى -: ﴿يَمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ تذكير بأصل النشأة الواحدة ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَطَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وإشارة إلى شدة امتزاج الزوجين، حتى يصبحا عضوين في جسم واحد، وكل منهما بعضه، وجزء منه، والجسم الواحد لا يعيبه، ولا يحط من قدره أن تكون بعض أعضائه أفضل من الأخرى، ولا أن يكون القلب أشرف من اليد، ولا الرأس أعلى من الرجل، وبهذا تكون القوامه وظيفه عضوية، لا يمكن استغناء الجسم عنها، ولا قيام عضو آخر بها، إلا أن تقوم العين بمهمة السمع أو الذوق.

٢ - في إثارة لفظ: قانتات في قوله - تعالى -: ﴿أَلْفَلِحَتْ قَانِتٌ﴾ على لفظ: طائعات دليل على أن الصالحات يخضعن لأزواجهن خضوعاً حقيقياً، لا خضوعاً ظاهرياً؛ لأن القنوت لا ينبعث إلا عن رغبة صادقة، ولا ينبع إلا من محبة حقة، بخلاف الطاعة، فإنها أعم من القنوت، وقد يكون منشؤها القسر والإكراه.

٣ - وفي قوله - تعالى -: ﴿يَمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ تأكيد لصلاحهن، فهن في حفظهن غيب أزواجهن، لا يفعلن هذا خوفاً من رقابة مفروضة، أو حراسة قائمة ولكنهن مستجيبات في ذلك لشرع الله - تعالى -



واقفات عند حدوده، معتصمات بأحكامه، متبعات تعاليمه، وفي هذه الشهادة لهن بشارة بأن الله - تعالى - يحبهن، ويرضى عنهن.

٤ - يفهم من قوله - تعالى - : ﴿تَخَافُونَ سُوءَ ظَنِّي﴾ أن الإسلام لا يقف مكتوف اليدين، حتى يطل النشور برأسه، ويعمل على تقويض أركان بيت الزوجية، ويهدد حياة الزوجية بالانفصال، وعشهما بالخراب، ولكنه يتصدى للقضاء على بوارده عند الشعور بالخوف من حدوثه، ويبدأ وصف جرعات العلاج عندما يلوح شبجه في الأفق البعيد، والعلاج الذي شرعه الإسلام لاستئصال داء النشور يصنف النساء أصنافاً ثلاثة:

أ - صنف معتدل، لا يجمع به الانفعال، ولا يعيث به الغرور، ولا تنتفخ أوداجه كبراً واستعلاء، ولا يطغى التمرد على عقله، وهذا تصلح حاله الكلمة الطيبة، وتهديه العظة الحسنة، وتعيده النصيحة إلى صوابه، وترده إلى رشده.

ب - وصنف يُدلُّ على البعل بحظ من المال أو الحسب أو الجمال، ويضع هامته في الثريا ويضيق ذرعاً بقوامة بعله عليه، وتُسوّل له نفسه أن القوامة غُلّ في يديه وطوق في عنقه، وسلب لحيته، وإهدار لكرامته، وهذا الصنف من النساء قلما يجدي معه القول السليم، والنصح القويم، والتوجيه الكريم، ولا علاج له إلا تجاهل أمره، وإهمال شأنه، والإعراض عنه، وعدم المبالاة به، وهجره في أشد حالات استعلائه، عندما يحس بنفسه، ويشعر بكيانه ويشهر سلاح جاذبيته وإغرائه، هجره في المضجع وحده، في مكان السحر والإثارة، حتى يدعن للقوامة، ويخضع لها.

ج - وصنف لا يتراجع عن غيّه، ولا يرعوي بهذا أو ذاك، ولا يثنيه عن عناده أن يرى السوط معلقاً دون استعمال، وهذا الصنف دواؤه العنف، وعلاجه الضرب في حدوده المرسومة، وضوابطه المعلومة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْصُرُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ، وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

فإذا لم يشف التقويم العلة، ولم يثمر واحد من أساليب التأديب التي شرعها الله - تعالى - في علاج الشوز، أو تعدى خبر الخلاف بين الزوجين نطاق الأسرة، فقد رسم الوحي الكريم بلسماً آخر للعلاج، لا يمارسه الزوج، وإنما تمارسه الجماعة المسلمة المتكافلة في جلب المنفعة بعضها لبعض، ودرء المفسدة بعضها عن بعض، ويشرف عليه الذين يهتمون بشؤون الأسرة المؤمنة، ويحرصون على أن تظلها راية الوثام، ويصفو فيها الجو من الأكدار.

والآية الكريمة تتجه بخطابها إلى هذه الجماعة، وتدعوها إلى أن تتحمل مسؤولياتها عند الخوف على كيان الأسرة من التمزق، والإشفاق على بنائها من التصدّع، وتأمرها أن تختار حكيمين، لمدارسة قضية الخلاف بين الزوجين، والفصل بينهما، على أن يكون أحدهما من أهل الزوج، والثاني من أهل الزوجة؛ فإن الأقارب أعرف بمكمن الداء، وأحفظ للسرّ، وأحرص على التوفيق، وقطع دابر الخلاف، ومهمتهما أن يتعرفا على بواعث الشقاق، وأسباب النزاع، وأن يستمعا لكلا الزوجين مجتمعين إن شاء، أو يستمعا لكل واحد منهما على حدة إن رآيا المصلحة في هذا، دون أن يخضعا لرغبة من يرفض مواجهة صاحبه، أو يأبى الانفراد عنه، ومن واجبهما أن يزجر الباغي، وأن يجبراه على إنصاف صاحبه من نفسه ولهما حق التفريق بينهما، إن وجدا المصلحة في التفريق، والتفريق في هذه الحال يكون طلاقاً بائناً ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ



شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴿١٠﴾.

ونجاح الحكمين في مسعاهما متوقف على ما يختمر في نفوسهما من الرغبة الصادقة في التوفيق، وما يتوفر عندهما من الإخلاص في إصلاح ذات البين، فإذا صحت عزيتهما في رأب الصدع، وصدقت نيتهما في جمع الشمل، كَلَّلَ الله - تعالى - سعيهما بالنجاح، وتكفل بهداية الزوجين، وبَدَرَ بذور التوفيق بينهما ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.

إن الله - تعالى - عليم بذات الصدور، يعلم ما تخفي نفوس عباده وما تعلن، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، وهو - سبحانه - يبارك جهود المخلصين، ويسدد خطاهم، وينجح مسعاهم، وهو الخبير بأنفع وسائل العلاج لمشكلات خلقه وأنجعها، وأصلح الطرق لتسوية خلافاتهم وأقومها. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة:

١ - من هذه الإجراءات الكثيرة المتنوعة، التي يستقل الزوج بممارسة أكثرها، وتتولى الجماعة بما لها من ثقل وفاعلية تنفيذ آخرها، يتضح حرص الإسلام الشديد على سلامة كيان الأسرة، وسعيه للإبقاء على وجودها، وصيانتها لمستقبل الناشئة، الذين يهدد الصراع بين الزوجين مستقبلهم بالبوار. ويحرقهم بناره، ولا ذنب لهم فيه.

٢ - يؤخذ من قوله - تعالى -: ﴿فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ مشروعية التحكيم بين المتنازعين، ودعوة المجتمع الإسلامي إلى حل المشكلات التي تقع بين أفرادها، وفض المنازعات التي تقوم بين أعضائه عن طريق التفاهم الودي، والاتفاق السلمي.

٣ - في تعليق الله - تعالى - توفيقه بين الزوجين على إرادة الحكيمين الإصلاح عدة إشارات جديرة بالتدبر والالتفات منها:

أ - أن الله - تعالى - لا يبيت لعباده شراً، ولا يحيك لهم مكرراً، ولا يضمّر لهم سوءاً ولكنه يكلهم إلى ما يريدون من إصلاح أو إفساد، فإن أرادوا الإصلاح كافأهم بالإحسان إحساناً؛ فأعانهم ووفقهم، وإن أرادوا الإفساد تبرّ جهودهم، وأضلّ أعمالهم.

ب - أن الله - تعالى - يختبر عباده، ويبلو أعمالهم، ويرتب نتائجها على نياتهم؛ ليجزي كل نفس بما كسبت، ويثيب الصادقين بصدقهم، ويعذب الكاذبين بكذبهم إن شاء، أو يتوب عليهم.

ج - أن إرادة الإصلاح قد تكون من المخلوق، ولكن التوفيق للخير لا يكون إلا من الخالق - تعالى - وحده. ﴿قَالَ يَقْوِمُ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

د - أن النية السليمة ذات أثر فعال في نجاح المقاصد، وأن مساعي الخير لا تفشل وجهود الإصلاح لا تضيع سدى إلا ووراءها نوايا سيئة، وإرادات خبيثة، ورغبات مفسدة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].



سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
 إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ
 ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
 وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
 كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
 النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَاءً آتَاهُمُ اللَّهُ
 مِنْ فَضْلِهِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾
 وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
 بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
 قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَانْفَقُوا

مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ
 أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
 وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
 اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
 وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي
 سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
 أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً
 فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ
 اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾	أفردوه بالعبادة والطاعة، وخصوه بالإجلال والتعظيم
﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾	والجار الذي له صلة قرابة بجاره.
﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾	والجار الذي لا تربطه وشيعة نسب بجاره.
﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾	يصدق على الزوجة، والقائم بالخدمة، والزميل في العمل أو السفر.
﴿وَأَنَّ السَّبِيلَ﴾	يشمل الضيف، والمسافر، واليتيم، واللقيط.
﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾	الأرقاء من فتية وفتيات.
﴿مَخْتَالًا﴾	المختال: من ملك الكبر نفسه، وظهر أثره في سلوكه.
﴿فَخُورًا﴾	ذاكرًا لمفاخره، متحدثًا بمزايده.
﴿رِثَاءَ النَّاسِ﴾	ليرى الناس إنفاقهم، ويطلعوا على برهم، فيعظموهم، ويحمدوا فعلهم.
﴿فَرِيًّا﴾	رفيقًا بالوسوسة والإغواء.
﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ﴾	لا شيء كان يصيبهم بمكروه.
﴿وَيُنْقَالُ ذَرَّةً﴾	وزن ذرة وثقلها، والذرة: أصغر الأجسام وأدقها.
﴿بِشَهِيدٍ﴾	برسولهم الذي بشرهم وأنذرهم، ليتبين من اتبع ممن خالف.
﴿لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾	لو يعودون ترابًا، فيكونون هم والأرض سواء.
﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾	لا تدخلوا المساجد، ولا تصلوا حال سكركم.
﴿عَارِي سَبِيلٍ﴾	مجتازي المسجد، ومتخذيه ممراً.
﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾	قضى حاجته، والغائط: المكان المنخفض من الأرض.
﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾	تراباً طاهراً من الأرض.
﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾	حتى تفهموا ما تقرؤون، وما تذكرون، وما تسبحون.
﴿لَمَسَّمُ النِّسَاءِ﴾	باشرتموهن، فصرتم جنبا.

التأويل والبيان:

بعد هذا الشوط الذي قطعته السورة الكريمة في تقرير منهج الله - تعالى - الذي شرعه للمجتمع المسلم، فيما يتصل بحقوق اليتامى والضعفاء، وفيما يتعلق بوضع سياسة المال، وفيما يهدف إلى حماية المجتمع من فساد الأخلاق، وانحراف السلوك، وفي طريقة العودة إلى مرضاة الله - تعالى -، وتوضيح حقوق النساء، وبيان المحارم منهن، وتنظيم الأسرة، وجعل القوامة فيها للرجال، ووصف أساليب العلاج لمشكلاتها.

بعد هذا الشوط العريض تعود السورة الكريمة مرة ثانية إلى التذكير بالأصل الأول الذي بدأت به، والأساس الذي تقوم عليه أركان الإسلام، والدعامة التي تعتمد عليها تشريعاته، والرباط الذي يشد المخلوق إلى خالقه، ألا وهو توحيد الله - تعالى -، وعبادته، هذا الأصل الذي يقوم عليه شرع الله - تعالى - ويرتبط به منهجه وأوثق ارتباط، ويستمد منه وجوده وقوته وفاعليته، تعود السورة الكريمة لتصل هذا المنهج بقاعدته الذي يجب أن يرتكز عليها، وألا ينفك عنها، وألا تنفك عنه، وأن يظل وثيق الارتباط بها، وأن تظل وثيقة التأثير فيه؛ فإنه لا قيمة لنظام يتجرد من قاعدته، ولا وزن لتشريع يكون بمعزل عن أساسه ومصدره، فالذين يستجيبون لمنهج ربهم، ويطبقون أحكامه في شؤون حياتهم، ويرتضون نظامه في سياسة أمورهم، هم الذين يخلصون بالوحدانية، ويفردونه بالتعظيم والتقدیس، ولا يشركون بعبادته أحداً، ويتجهون إليه بالطاعة، ويبتغون وجهه فيما يعملون، ويخشونه فيما يسرون ويعلمون.



فيا أيها الناس، اتقوا ربكم الذي خلقكم، والذين من قبلكم، وأخلصوا عبوديتكم لله. ومحضوا خضوعكم له بتطبيق منهجه، وتنفيذ دستوره، ولا تنحرفوا عما سنّه لكم من نظام، ولا تحيدوا عما ارتضاه لكم من الأحكام ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

هذا هو الأصل الذي يبدأ منه منهج الله - تعالى -، وترتكز عليه سائر التنظيمات، وجميع التشريعات التي يحتوي عليها هذا المنهج؛ إنه لا يأمر بإنماء العلاقة الاجتماعية وتوطيدها إلا بعد الأمر بتوثيق الصلة به أولاً؛ فلا يأمر بالإحسان إلى الوالدين، ولا إلى غيرهما أمراً مستقلاً قائماً بذاته، مبتوراً من أصله، لأن هذا البتر يفقده الاتصال بمصدر القداسة والهيبة والجلال التي يكتسبها من هذا الأصل المقدس المهيّب الجليل، ويجعله بقوانين البشر ألصق منه بمنهج الله - تعالى -، ولأن الإحسان إلى البشر لا يكون إحساناً عند الله - تعالى - إلا إذا نبع من توحيده، وكان ابتغاء وجهه.

وعلى هذا النهج الذي يحكم الارتباط بين القاعدة وما ينبثق منها، ويقوم عليها تطلع علينا آيات الكتاب عند الأمر بإصلاح ذات البين، فتصله بمصدره الأول الذي يجب ألا ينفك عنه، فتقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، وعند الأمر بالقول السديد: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، وعند الأمر بالصدق: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وعند الأمر بالاستعداد ليوم المعاد: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فكل أمر يبدأ بالقاعدة أولاً، وبالتشريع المطلوب ثانياً.

أ - ولعظم منزلة الوالدين، وجزيل فضلهما، وسابق معروفهما، وسابغ عطفهما على أولادهما أتبع الله - تعالى - الأمر بالعبودية الخالصة له، وتوحيده من كل ألوان الشرك، بالأمر بالإحسان إليهما أمراً مؤكداً، وأوجب شكرهما بعد شكره ﴿إِنْ أَشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾، لما لهما من عوارف لا يكافئها إلا استمرار شكره - سبحانه - وشكرهما.

فالذين يدينون بالتوحيد الخالص هم الذين يحسنون إلى الوالدين، ولا يسيئون إليهما، ويقومون بحقوقهما، ولا يقصرون فيه، ويذكرون معروفهما ولا ينسونه، وملاك برّ الوالدين تطبيق وصاة الله - عز وجل -: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾، وفي الحديث الشريف: «ما من رجل ينظر إلى وجه والديه نظرة رحمة إلا كتب الله له بها حجة مقبولة مبرورة» رواه الرافعي، وفيما رواه ابن عساكر عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الجهاد أن يضرب الرجل بسيفه في سبيل الله، إنما الجهاد من عال والديه...» ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

ب - ويتدرج الأمر بالإحسان من الوالدين إلى الأقارب الذين يلونهم في النسب، كالإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والإحسان إليهم يتأتى بتفقد أحوالهم، ورعاية مصالحهم، واستدامة محبتهم بالزيارة والهدية، وكفالة محتاجهم بالنفقة والعطية؛ فقد تأذن الله - تعالى - ألا يقبل صدقة من عبد، وفي أهله من يستحقها؛ فقد أوجب الله - تعالى - للأقارب حقوقاً، أقلّها معاونة فقرائهم، وزيارة أغنيائهم؛ ومواساة ضعفائهم، قال - تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾، ﴿وَبِذَى الْقُرْبَىٰ﴾.

ج - وتضيف السورة الكريمة إلى ما حشدته من الوصايا باليتامى في مستهلها أمراً آخر بالإحسان إليهم؛ كيلا يهمل المجتمع شأنهم، ويتجاهل وجودهم، وينسى أمرهم، ويعطل مصالحهم، ولا يلتفت إلى رعايتهم، ولا يهتم بتربيتهم، فتفسد نشأتهم وتسوء أخلاقهم، ويشقى المجتمع بشقائهم، حين يصبحون على كاهله أعباء ثقالا، إن لم يكونوا عليه نقمة ووبالا، وفيما رواه البيهقي: «أحب بيوتكم إلى الله بيت فيه يتيم مكرم» ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾.



د - والمساكين جماعة أصابهم الضعف، وقعد بهم العجز عن الكسب، وقد يكون من بينهم من فقد ماله في كارثة من الكوارث، وقد فرض الإسلام كفالتهم، وأوجب إعانتهم، ودعا إلى تفريج كرباتهم، وتخفيف الضائقة عنهم، وتجنبيهم الويلات، ومؤازرتهم في الأزمات، وشد عضدهم في الملمات، وشرع لهم حقاً في أموال الأغنياء ﴿وَأَتِذَا الْقُرُؤُا حَقَّهٗ وَالْمَسْكِينُ﴾.

هـ - وليصل إحسانكم إلى جيرانكم، قريبتهم الملاصق، وبعيدهم الميـجانب، وحدود الجار أربعون داراً من كل ناحية، وتتلخص حقوق الجار فيما رواه معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: قلنا يا رسول الله: ما حق الجار؟، قال: «إن استقرضك أقرضته، وإن استعانك أعنته، وإن مرض عدته، وإن احتاج أعطيته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيتته، وإن مات تبعته جنازته، ولا تستطل عليه بالبناء، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذ به بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فأهد له، وإن لم تفعل فأدخلها سرّاً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده. هل تفقهون ما أقول لكم. لن يؤدي حق الجار إلا القليل ممن رحم الله».

وفيما رواه البزار عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم به»، وشر الناس من يظلم جاره ويؤذيه، ويخونه في ماله وعرضه، فلأن يسرق السارق من عشرة أبيات خير له من أن يسرق من بيت جاره، ولأن يزني الزاني في عشرة أبيات خير له من أن يزني في بيت جاره، والرسول ﷺ ينفي الإيمان عمن يصب جأماً غضبه على جاره، فيقول: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: يا رسول الله، ومن؟ قال: «الذي لا

يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ» ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾.

و - وأحسنوا إلى أصحابكم الذين يرافقونكم في السفر؛ أو يزاملونكم في العمل، أو يشاركونكم طلب العلم، أو يجمعكم وإياهم مجلس ذكر وعبادة، أو مصحة للعلاج، أو متنزه أو منتدى، والإحسان إلى هؤلاء يهدي إليه الحديث الشريف: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم حسن الخلق وبسط الوجه»، ويوصى به الحديث الشريف: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»، وبينه سلوك النبي ﷺ حينما كان مع أصحابه في سفر، وحان وقت الطعام، فقال رجل: عليّ ذبح الشاة، وقال آخر: عليّ سلخها، فقال النبي ﷺ: «وعليّ جمع الحطب»، وأراد أحد أصحابه يوماً أن يحمل له طعاماً اشتراه، فأبى قائلاً: «أأنت تحمل عني أوزاري يوم القيامة؟» ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ﴾.

ز - وأحسنوا إلى الغريب الذي خرج يجد في طلب العلم، أو يسعى في كسب الرزق، فانقطعت صلته بأهله لسبب من الأسباب، ونفذ ما كان معه من المال، وليسعه برّكم، وليسعه معروفكم، حتى لا يفقد ثقته في أرباب المروءة، ويضيع أمله في أهل الفضل والإحسان ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾.

ح - وأولى الناس بعطفكم ورحمتكم وإحسانكم عبيدكم وإماءكم، فلا تكلفوهم من الأعمال ما لا يستطيعون، وإذا كلفتموهم بما يشق عليهم فساعدوهم، وأطعموهم من طعامكم، واكسوهم من كسوتكم، واعلموا أن أفضل نعمة يرجونها - بعد إيمانهم - أن ينالوا كرامتهم، ويسعدوا بحريتهم، فمُنُّوا عليهم بها، أو كاتبوهم عليها إن علمتم فيهم خيراً، ولا يقل أحدكم عبيدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.



إن الله - تعالى - يبغض من عباده كل من تأصلت في نفسه، وتمكنت من طبعه صفة الكبر، حتى انعكست على قوله فخراً وثناءً، وعلى عمله زهواً وخيلاً، وهو - سبحانه - يمقت كل من ملأه غروره بنفسه، ومباهاته بنسبه، واقتنائه بمنصبه، وبطره بماله، وفيما رواه أبو أمامة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا الكبر، فإن العبد لا يزال يتكبر حتى يقول الله - تعالى - لملائكته: اكتبوا عبي هذا في الجبارين» ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

من الدروس المستفادة أولاً:

- ١ - الحرية الحقيقية لأرباب الإيمان الصادق، وليست لأحد غيرهم، فعبادة الله - تعالى - وحده يتخلص المؤمن من ذل العبودية للخلق، ويتمتع بكامل حريته، ويشعر بإنسانيته، ويحس بكرامته، ويجد المساواة التامة بينه وبين إخوانه، ويذوق حلاوة الإيمان.
 - ٢ - من الآية الكريمة: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ . الآية .
- يتضح لنا أن الإسلام يجعل العقيدة السليمة، والإيمان النظيف قاعدة الآداب التي يشرعها، والنظم التي يسنها، وركيزة السلوك الذي يطالب به أتباعه؛ لتظل تلك الآداب والنظم قوية نشيطة، تعمل عملها، وتؤدي دورها، وتحقق غايتها، مستمدة بقاءها من قاعدتها الحية القوية، وليأخذ هذا السلوك طابع الأصالة، وتتوفر له صفة القداسة.
- ٣ - أسلوب الأمر والنهي في قوله - تعالى - : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ضروريان لتحديد حقيقة العبادة الصحيحة، لأن أحدهما لا يكفي في تحديد حقيقتها ولا يغني عن الآخر؛ فالأمر: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يفرض عبادة الله - تعالى -، والنهي: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ يحرم عبادة غيره معه.

وكلمة: ﴿شَيْئًا﴾ تشمل كل ما يعبد مع الله - تعالى - سواء أكان حجراً أو شجراً، أو إنساناً أو حيواناً، أو ملكاً أو شيطاناً.

٤ - الآية الكريمة تجعل الإحسان إلى الناس وبرهم تسع درجات، أعلاها برّ الوالدين فالأقارب، فاليتامى فالمساكين فالجار القريب أو الملاصق، فالجار البعيد، أو الذي لا يمت بصلة من القرابة، فالصاحب في حضر أو سفر، فابن السبيل، فالرقيق.

٥ - في الأمر بالإحسان إلى الوالدين والأقربين قبل غيرهم مسيطرة لفطرة الإنسان، ومجاراة لطبيعته، وموافقة لجبلته، فعاطفة الرحمة والحنو والبرّ يبتدئ وجودها وعملها في محيط الأسرة الصغيرة، ثم تنمو وتتسع يوماً بعد يوم لتشمل الأسرة الاجتماعية الكبرى، وهذا هو الاتجاه الذي يسير عليه نظام التكافل الاجتماعي في الإسلام، الذي يبدأ أولاً في نطاق الأسرة، ثم يمتد إلى خارج نطاقها؛ لأن الإسلام دين الفطرة، وعلى أساسها يقرر مبادئه، ويضع منهجه.

٦ - الفخر والزهو والاختيال أكبر معوّق للإنسان عن تكميل نفسه، وأعظم مثبط لهمايته عن اكتساب المحامد، والتحلي بالفضائل؛ لأنه يعميه عن عيوبه، ويُريه نقائصه مفاخر، وسوءاته حسنات، ويعكس الحقائق في نظره؛ ومن ثمّ كرهه الإسلام، وأوجب الله - تعالى - سخطه على كل مختال فخور.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

هؤلاء الذين لا ينالون رضا الله - تعالى - لاختيالهم وفخرهم قد أصيبوا بداء الشح، وطبع البخل على قلوبهم بطابعه، وانعقدت نفوسهم بعقدته، فعبدوا المال من دون الله - تعالى - واتخذوه إلههم، وضمنوا به على أصحاب الحقوق فيه من الأقارب واليتامى والمساكين، وعطلوه من



أداء رسالته في نشر العلم، ومكافحة الداء، وتحقيق الرخاء، وصدّ الأعداء، وإعلاء راية الحق، وقبضوا أيديهم في مواطن البر والتقوى، وبسطوها في مواضع السوء والفساد

ترى البخيل إذا يَمَّمَت ساحتَه للذقن مسترسلاً بين الملذات
أصم أبكم، إن حييته انتفضت منه الفرائص من خوف التحيات
ويستعيذ إذا ما جاء سائله وللغواية يرنو بالصُّبَابَاتِ
المال يرفعه حيناً ويخفضه حيناً، وبينهما كل المنيات
لغيره لم يعيش إلا على طمع كالذئب منتعشاً في أثة الشاة
وإذا تأصلت غريزة البخل في النفس أعمت صاحبها عن الهوى، وأصمته عن الإصغاء لنداء الحق، وقادته إلى استحلال المنكر، وبيع الضمير، وخيانة المجتمع، والتجارة في الأعراض، واستحسان كل موبقة، ولهذا كان البخيل بعيداً من الله - تعالى -، بعيداً من الناس، بعيداً من الجنة، قريباً من النار.

وقد ردَّ رسول الله ﷺ عن الدخول في الإسلام من أبى الجهاد في سبيل الله بنفسه وماله، قائلاً: «لا حاجة للإسلام في جبان بخيل»، ذلك أن الله - تعالى - اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، والبخل بماله لا يسخو بنفسه:

والبخل صفة جامعة، ينطوي تحت مفهومها إمساك اللسان عن شهادة الحق، والإحجام عن إسداء النصيح، والامتناع عن إهداء الكلمة الطيبة، والظن بالجهد، والكف عن السير في مصالح الناس، وقضاء حوائجهم، والبخل في جميع صورهِ مُزِرٌّ بالكرامة، مضيع للشرف، سأل النبي ﷺ الأنصار: «من سيُّدُكم؟» قالوا: الجَدُّ بن قيس على بخل فيه، فقال - ﷺ -: «وأيّ داء أدوى من البخل؟» أي لا داء أقبح من البخل.

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» وفيما رواه النسائي: «لا يجتمع شح وإيمان في قلب رجل مسلم أبداً» ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾.

وهؤلاء الأشحّة على الخير الذين استحوذ على قلوبهم حبّ المال يتزعمون الدعوة إلى البخل، ويعملون على نشر رذيلته في المجتمع، ويحرضون غيرهم عليه، ويأمرونهم به، ويخوفونهم الفقر، كما يفعل الشيطان ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾، وهم للحق خصوم وأعداء، وللباطل أعوان ونصراء، يقتفون أثر المنافقين الذين ﴿يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

أما غايتهم من قيادة الدعوة إلى البخل فإن تكون لهم فيه مندوحة حين يكشر حزب البخلاء، ويتضاعف عدد الحريصين على المال، وليصبح من السهل عليهم أن يغلوا أيديهم إلى أعناقهم حين يرون غيرهم يكاثروهم، وينافسهم في اكتناز المال، وليعرقلوا مسيرة المعوزين نحو التحرر من ذل الحاجة، وليستطيعوا أن يضربوا كل حركة ترمي إلى الإصلاح، وتعمل على سيادة الحق، وتسعى إلى إعلاء كلمة الله ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾.

وهم حرب على الثقافة والمعرفة والعلم، وأعداء للحرية والحضارة، ودعاة إلى الانحطاط والجهالة، لأنهم يكتمون ما آتاهم الله - تعالى - من العلم، ويخزنون في صدورهم ما وهبهم من العرفان، ويخفون عن الناس ما أعطاهم من فضله، كي يحجبوا عن القلوب نور الهداية، ويحولوا بين العقول وبين التحرر من ظلمات الجهل، ويحكموا على البشرية أن تعيش بغير زادٍ من الثقافة، وتحيا في ظلام الفكر، وخواء العقل، وعشواء الضلالة ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.



وهم بما اتصفوا به من البخل، والدعوة إلى الشح، وكتمان الفضل قد جحدوا نعمة الله - تعالى - عليهم، وأنكروا إحسانه إليهم، وأعرضوا عن شكر آلائه، ومنعوا الحقوق الواجبة في أموالهم، وقد أعد الله - تعالى - للبخلاء على عباده، الجاحدين فضله، الكافرين بشكر نعمه، المانعين حق غيرهم فيها عذاباً يذل كبرياءهم، ويهين كرامتهم، ويمتحن إنسانيتهم ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

ذم الإسلام البخل في جميع أشكاله، وجعله حليف الخيلاء والفخر، واعتبره صنو الكفر؛ لأنه يحول بين صاحبه وبين إظهار نعمة الله - تعالى -، وإنفاقها في الوجوه المشروعة، والمشاركة في مشروعات الإصلاح، ويغل يده عن تفريج ضائقة المكروبين، ويقبضها عن أن تقرض الله - تعالى - قرضاً حسناً. وكما ذم البخل الجاحد فُضّل الله - تعالى - الصّارف عن شكره ذمّ الإسراف الذي يأتي على المال، وقبح التبذير الذي يبده في غير طرقة المشروعة وجعل المبذرين إخوان الشياطين.

ومدح ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

ومن الذين لا يحبهم الله - تعالى -، ولا يرضى عنهم، ولا ينظر إليهم، ولا يزيكهم أولئك الذين ينفقون أموالهم تظاهراً ومباهاة، وطلباً للشهرة، ورغبة في أن يراهم الناس رؤاداً في مجال الإحسان، وحباً في أن يكسبوا ثناء الخلق، وينالوا إعجابهم، ويظفروا بتقديرهم، وقد أمرهم الله - تعالى - بأن ينفقوا في سبيله، وابتغاء مرضاته، وتثبيتاً للإيمان في قلوبهم، واعترافاً بنعمه، وشكراً لآلائه، ولكنهم يراءون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا لِلنَّاسِ﴾.

وليس الرياء من أخلاق المؤمنين، ولا صنيع الموحدين الذين يرجون لقاء ربهم، وينتظرون رحمته، ويخشون عذابه، ويحذرون الفضيحة على رؤوس الأشهاد، فإن الله - تعالى - يأتي بالمرائي يوم القيامة، ويعرفه نعمته عليه، فيعرفها، ثم يسأله: ماذا عملت فيما أنعمت عليك؟ فيقول: يا رب، كنت أتصدق أثناء الليل وأطراف النهار، فيقول الله - تعالى - كذبت، وتقول الملائكة كذبت، إنما فعلت ما فعلت ليقال: فلان جواد، ألا فقد قيل، والمراءون أول خلق تسعر بهم النار، يقال لهم: ابتغوا أجوركم ممن كنتم تراءونهم.

وروى أحمد في مسنده، عن شداد بن أوس أن النبي ﷺ قال: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك؛ فإن الله - عز وجل - يقول: أنا خير قسيم، لمن أشرك بي شيئاً فإن حشده عمله، قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، وأنا غني عنه» ﴿إِنَّمَا يَسْتَفْذِلُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٤٥].

والرياء يحبط ثواب الأعمال، ويبطل أجرها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوهَا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وهو ديدن من أغواه الشيطان فاتخذه ولياً يرهف السمع لوسوسته، واصطفاه قريناً يقتضي أثره، وينقاد لتزيينه، ويسير طوع أمره، وهو لا يزين إلا المنكر، ولا يأمر إلا بالفحشاء، فما أقبحه من قرين، وما أشأمه من خدين ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

ثانياً:

يبغض الإسلام الذين يتصدقون رياء، ويحسنون تظاهر الأسباب، منها:



١ - أنهم على ضرب من الشرك، ولون من النفاق، والتكذيب بيوم البعث، الذي تجزى فيه كل نفس بما كسبت، وتوفى أجرها، ولهذا فهم يريدون ثوابهم في العاجلة، ويبتغون أجرهم عند الخلق.

٢ - أنهم يؤثرون رضاء الناس عنهم، ويطلبون الحظوة لديهم، ويشترون ثناءهم بما رزقهم ربهم، ويخشون سخطهم عليهم، ولا يبتغون مرضاة ربهم ولا يخافون غضبه، وهو الرزاق ذو القوة المتين.

٣ - أنهم غير مفطورين على البذل والإنفاق في سبيل الله - تعالى - ولا مدفوعين إلى العطاء ببواعث نفسية خيرة، تجعلهم ينفقون في الأحوال التي يحسن فيها الإنفاق، ويبدلون في الوجوه المحموده، ولكنهم يجودون عندما تتجه إليهم الأنظار، وإن لم يصب الجود موقعه، والذين يراءونهم عباد أمثلهم، لا يملكون لهم شيئاً.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّٰهُ وَكَانَ اللّٰهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾.

ما كان ثمة ضرر يلحق المرائين، ولا خسارة تصيبهم، ولا شر ينزل بهم لو أنهم آمنوا بالله - تعالى - إيماناً خالصاً من كل شوائب الشرك، واعتقدوا اعتقاداً راسخاً أنهم مبعوثون ليوم عظيم، وأنهم مجزيون بما يعملون، وعلموا أنهم إنما ينفقون من رزق الله - تعالى -، لا من رزق أحد سواه، وتصدقوا تقرباً إليه، وشكراً له على ما أعطاهم من فضله، وأداء لما فرضه عليهم من الحقوق، وثقة بأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأن لديه كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّٰهُ﴾ [النساء: ٣٩].

إنهم لو أنفقوا مما رزقهم الله - تعالى - إيماناً واحتساباً لَنَالُوا

مرضاته، وَلَغَرَسَ محبتهم في قلوب خلقه، ولأطلق السنة عباده بالثناء عليهم، والدعاء لهم، ولم يضع عليهم شيء في هذه الحياة، وكانوا من الفائزين في الآخرة، حيث تضاعف لهم أجور نفقاتهم ﴿إِنْ تُقِرُّوا اللَّهَ فَرَضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧]، فهو وحده المطلع على الأعمال العليم بما وراءها من النيات ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

حرم الله - تعالى - الظلم على نفسه؛ لأنه لا مصلحة له فيه، ولا في غيره، ولأن الناس جميعاً عباده، لا تجمعهم بواحد منهم علاقة قريبة أو بعيدة من نسب أو مصاهرة، وإنما العلاقة بينه وبينهم تقوم على الخلق، وهم فيه سواء، وقد أنبأنا وحيه أنه لا يحب الظالمين ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، وأن لعنته تلاحقهم حيثما حلوا ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وعلم رسوله - ﷺ - أن يسأله مفارقة القوم الظالمين ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٣، ٩٤]، فهو مبرأ من الظلم، منزّه عنه.

وقد جعل العدل من أسمائه الحسنی التي أمرنا أن ندعوه بها، وأمر عباده المؤمنين بالعدل، لأنه أقرب للاستقامة ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] وجعل أول السبعة الذين تسعهم رحمته الإمام العادل، وطالب الآباء أن يعدلوا بين أولادهم، وهو - سبحانه - يوفي عباده أجورهم، ولا يضيع عمل عامل منهم، ولا يحيف عليهم، ولا ينقصهم وزن ذرة من الجزاء الذي يستحقونه على أعمالهم، ولا أقل منها، فلديه كتاب ينطق بالحق، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.



وهو الكريم الذي يكافئ على الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وهو يبارك للمنفقين في أموالهم، ويخلف عليهم فوق ما أنفقوا، ويعطيهم أجراً كبيراً، ويزيدهم من فضله أضعاف ما يستحقون من الثواب على إحسانهم، وإخلاصهم في الطاعة، زيادة بلا مقابل؛ لأن فضله أوسع، وكرمه أعظم من أن يضاعف للمحسن حسنته فقط ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

هذه الآية الكريمة، والآيات التي تتصل بموضوعها من كتاب الله العزيز تحمل إلى قلوب المؤمنين برد الطمأنينة، وراحة الأمن، وعظم الرجاء، فإن أخوف ما يخاف أحدهم، وأشد ما يفرعه، وأكبر ما يؤرقه أن يمثل في يوم من أيام حياته أمام قضاء ظالم أو محكمة جائرة، تتجاهل العدل، وتتكرر للحق، ومع أن الله - تعالى - ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فقد أبت رحمته، وهو الرؤوف بالعباد، أن يتركهم ضحية للمخاوف، وصرعى للهواجس، وأوحى إليهم أنه وحده هو الذي يقيم ميزان العدل، ولا يظلم الناس مثقال ذرة، وأن قضاءه يتحرى الإنصاف المطلق. ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وأخبرهم أنه يعامل المحسنين بالزيادة والفضل، ويؤتي من لده أجراً عظيماً.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

وإذا كان قضاء ربنا بالعدل الذي لا يظلم مثقال ذرة ولا أصغر منها، فكيف يكون حال الكافرين والمنافقين والظالمين إذا جمع الله - تعالى - الخلق ليوم لا ريب فيه، وجيء بالنبين والشهداء، وتقدم كل رسول من لدن آدم - عليه السلام - إلى خاتم الأنبياء محمد - ﷺ - تقدم كل واحد منهم ليشهد على قومه جميعاً؛ من أجابه مهتدياً، واتبعه

مقتدياً، ومن قاوم دعوته مُعتدياً، وألَّب عليه أعداء الحق، وصدَّ الناس عن إجابته، ثم عُرضت عليه أعمال أمته من بعده، فمن وافق عمله ما جاء به شهد له بالاستقامة على سنن الهدى، والمحافظة على حدود الله - تعالى - عقيدة وسلوكاً، ومن اجتالته الشياطين، فانقلب على عقبيه، وصار من أهل البدع والأهواء شهد عليه بالتفريط والإضاعة، ولم يكن له حظ في الشفاعة، ثم جاء دور الأمة الوسط؛ لتؤيد صدق شهادة الأنبياء، وتؤكد سلامتها وصحتها ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾.

وكيف يكون شأن أمة خاتم الرسل محمد ﷺ حين تقف بين يدي أحكم الحاكمين، يوم التلاقي، يومهم بارزون، لا يخفى على الله منهم شيء، وسألهم: لمن الملك اليوم؟ فأجابوا: لله الواحد القهار؟ وكيف يكون موقف المستكبرين البخلاء، والمنفقين أموالهم رياء، والذين اتبعوا الشهوات والأهواء، ولم يقيموا حدود الله - تعالى - فيهم؟ كيف يكون حالهم إذا جئنا بك - يا محمد - شهيداً عليهم، ورأوا مصيرهم الأليم، وعاقبتهم الوخيمة، ونهايتهم الخاسرة، وصفقتهم البائرة؟

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

وعندئذ يتمنى الذين كفروا، وصدوا عن سبيل الله - تعالى -، واتبعوا الباطل، وعصوا الرسول - ﷺ -، وخالفوا عن أمره، وطغوا في الأرض، وعاثوا فيها الفساد، يتمنون أن لو كانوا تراباً تذرؤه الرياح، وتطؤه الأقدام، ويودون أن لو عادوا للموت ثانية، ليدفنوا في الأرض، ويسوى عليهم ترابها.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾.

وهم في هذا الروح المذهل، والفرع الشديد يعترفون بكل موبقة



فعلوها، وكل جريمة ارتكبوها، وكل فاحشة نشروها، وكل ضلالة سنوها، ولا يستطيعون أن يخفوا شيئاً من أوزارهم؛ فهم يحملونها على ظهورهم، وقد شهدت بها عليهم أيديهم وأرجلهم، ونطقت بها أسماعهم وأبصارهم وجلودهم ﴿وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدَتْ بِهَا﴾ أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ﴾ أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴿[فصلت: ٢١، ٢٢]، ولأن الله - تعالى - عليم بما كان منهم، وقد أحصى عليهم ما قدموا في كتاب، ﴿لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَسْئُرُ﴾ [طه: ٥٢]. ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

ثالثاً:

١ - في أسلوب استفهام يتكون من عدة كلمات، وفي إيجاز معجز، صورت الآية الكريمة ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا﴾... ساحة العرض المترامية الأرجاء، التي لا يعلم سعتها إلا رب الأرض والسماء، والتي تحشر فيها الأمم كلها من بدء الخليقة إلى نهايتها، وتنصب عليها الموازين للحساب، وتساق الأمم إلى عرصات الفصل والقضاء، ومع كل أمة رسولها؛ ليشهد على ما كان منها موافقاً لما جاء به، وما كان مخالفاً، فكلمة «شهيد» تشمل كل رسول بعثه الله - تعالى -، سواء منهم من ذكر اسمه في القرآن الكريم أم لم يذكر وكلمة: «من كل أمة» تعم سائر الأمم التي خلا فيها نذيراً ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

٢ - في جملة مستقلة تدل على فضل الأمة الإسلامية، وشرفها وكرامتها: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ يجيء الحديث عن حساب الأمة المحمدية، مما يشير إلى أنها تعدل الأمم كلها، بل تربو عليها.

٣ - لعظم قدر الرسول - ﷺ - يتقدم ذكره على ذكر أمته في الآية الكريمة: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ ، على حين يتأخر ذكر الرسل - عليهم السلام - عن ذكر أمهم: ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ .

٤ - قال ابن مسعود - رضي الله عنه - فيما رواه البخاري ، وأحمد ، والترمذي: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ»، قلت يا رسول الله: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «نعم أحب أن أسمع من غيري» فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾... ، فقال: «حسبك الآن»، فإذا عيناه تذرفان. فإذا كانت الآية الكريمة تحمل من تصوير هول الموقف وشدته ما يبكي الشهيد - ﷺ - أفلا يعتبر المشهود عليهم؟ فيضحكوا قليلاً ويبكوا كثيراً، وتعتصرهم الحسرة على ما فرطوا في جنب الله - تعالى - ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

٥ - والآية الكريمة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ﴾... تعلمنا علم اليقين بحال الكفار الذين عصوا الرسول - ﷺ -، وبما يعتمل في صدورهم من الأماني، وما يراود خواطرهم من الرغبات، وما تتعلق به نفوسهم من العودة إلى أجدانهم؛ ليصيروا تراباً، حتى يتخلصوا مما يواجههم من الخزي العظيم، والأهوال الشداد، والكروب التي لا يستطيعون منها فكاكاً.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ .

دعت السورة الكريمة إلى اجتناب الكبائر: ﴿إِنْ تَجَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ، والخمر أصل



الخبائث، وأم الكبائر، وقد قيل: جُمع الشر في بيت فكان مفتاحه الخمر.

والخمر كانت شائعة في الجاهلية، وكان من النادر أن يوجد عربي لا يعاقرها، وقد بدأ الإسلام يمهد لتحريمها في مكة، عندما أشار القرآن الكريم إلى أن الخمر ليست رزقاً حسناً، في سورة النحل: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾.

ثم سلك أولى خطوات التحريم عندما سأل بعض الصحابة النبي ﷺ عن حكمها، فنزل قوله - تعالى - في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ فامتنع كثير من المسلمين عن معاقرتها، كراهة ما فيها من الإثم الكبير، وكانت الخطوة الثانية حينما نزلت الآية الكريمة التي نحن بصدد مدارستها، وفيها نهى الله - تعالى - المؤمنين عن أداء الصلاة، وعن الشروع في الطهارة لها في حال السكر الذي ينافي حضور القلب، ويجعل صاحبه لا يعي ما يقول، ولا يدري ما يفعل، مما يفسد أقوال الصلاة وأعمالها؛ لأنها صلة بالله - عز وجل - واتجاه كلي إليه، وتجرد عن سائر الشواغل التي تشغل عنه، وخشوع يسيطر على النفس، وخضوع يعمر جوانب القلب، ومناجاة تأخذ بمجامع الحسن، ودعاء تشترك فيه كل جارحة، ويهتف به كل عضو وينبض به كل عرق، ولها كیفيتها الخاصة، وشروطها المعينة التي لا تصح بدونها، وصلاة السكران ليست صلاة، لأنها عارية عن ذلك كله، خالية منه، وهي مقطوع بطلانها، فأئني له أن يدري ما صدر عنه من أقوالها، وما أدّى من أفعالها؟

وها هو ذا عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - قد صنع طعاماً، ودعا إليه نفرًا من المهاجرين والأنصار، فأكلوا، وأدبرت عليهم كؤوس الصهباء، فشربوا حتى ثملوا، وحضر وقت الصلاة فأثمهم واحد منهم، فقرأ: قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون. ونحن نعبد ما

تعبدون، فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾...، وعندئذ كف جماعة آخرون نهائياً عن شربها، فزاد عدد الذين لا يتعاطونها، واجتنب الباقون احتساءها قرب أوقات الصلاة، وكان أنسب الأوقات لاحتسائها عقب صلاة العشاء.

وكانت الخطوة الأخيرة عندما دعا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قائلاً: - اللهم بَيْنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا، فنزل تحريمها تحريماً قاطعاً؛ يَمْنَعُ عَصْرَهَا وَاعْتَصَارَهَا، وَسَقِيهَا وَشَرِبَهَا، وَإِهْدَاءَهَا وَالْإِتْجَارَ فِيهَا، وَالتَّدَاوِي بِهَا... في قوله - تعالى - في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾.

وهذا الأسلوب الذي سار عليه الإسلام في تحريم الخمر يدل على عظيم رحمة الله - تعالى - بعباده، التي اقتضت أن يأخذهم بسنة التدرج، والإقلاع شيئاً فشيئاً عما ألفوه من العادات السيئة، والكبائر الموبقة، وبهذا يسهل عليهم ترك ما اعتادوه.

والآية الكريمة وإن كانت بصدد تحريم الاقتراب من مقدمات الصلاة في حال الخُمار إلا أنها تضع شرط الصلاة التي يقبل الله - تعالى - ويرضاها من عباده، وهي الصلاة التي يفقه فيها المصلي ما يقرأ، ويفهم ما يتلو، ويعلم ما يردد. ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾، ومن هنا اتسع مفهوم الآية الكريمة للنهي عن الصلاة في سائر الحالات التي لا يعلم فيها المصلي ما يقول، بسبب الدھول، أو غلبة النوم، أو العجز عن فهم اللغة العربية، وما كان شيء من هذا ليؤخذ من الآية الكريمة لو قالت حتى تفيقوا من السكر. ولا تدخلوا المساجد، ولا تقربوا الصلاة عند الحدث الذي يوجب عليكم الاغتسال، وهو الاحتلام أو المباشرة، إلا إذا كنتم مضطرين لاجتياز المسجد، لا قاصدين المكث فيه، فإنه يباح



لكم عبوره مع الجنابة. ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾.

وإن كنتم مصابين بمرض يضره استعمال الماء، أو يخشى معه تأخر الشفاء، أو كانت بكم جراح أو قروح تستوعب أكثر جسد الجنب، أو أغلب أعضاء الوضوء من غير الجنب، أو كنتم مسافرين، ودخل وقت الصلاة، وأردتم التطهر من الحدث الأصغر أو الأكبر، ولم تجدوا ماء، ويستم من الحصول عليه، فاقصدوا تراب الأرض الجاف الطاهر، أو حصاها، أو رملها، أو حجرها، واضربوا عليه بالكفين، ضربة أو ضربتين، وامسحوا وجوهكم وأيديكم، وصلوا فرضكم ونافلتكم ﴿وَلِإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾.

إن الله - تعالى - جعل دينه يسراً، لا عنت فيه على القادر، ولا مشقة على الضعيف، ولا مسؤولية عند العجز، وهو عفو يتجاوز عن سيئات من صلى في حال السكر قبل التحريم، ويغفر له ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

وقد شرع التيمم في بعض أسفار النبي ﷺ، وكان يصحب معه أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -، فانقطع عقد لها، فالتمسه النبي الكريم والناس معه، وليسوا على ماء، ولم يكن معهم ماء، فأغلظ أبو بكر في القول على عائشة - رضي الله عنهما - وقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فنزلت الآية الكريمة تشرع التيمم، فلما صلوا بالتيمم جاء أسيد بن الحضير إلى مضرب خيمة عائشة - رضي الله عنها - فجعل يقول: ما أكثر بركتكم يا آل أبي بكر. رواه الستة، وفي رواية: يرحمك الله يا عائشة، ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله - تعالى - للمسلمين فرجاً فيه.

رابعاً:

١ - ينتهز الإسلام الفرصة الملائمة، والمناسبة الدقيقة لإصدار تشريعاته التي يقتلع بها جذور العادات الضارة، فهو ينتهز فرصة الخلل الذي حدث في الصلاة من الجماعة الذين صلوا، وكانت الخمر ما تزال تلعب برؤوسهم، لينهي عن أدائها في حال السكر، وهو بهذا العمل يلفت نظر أتباعه إلى حكمة التشريع، ويعينهم على استخلاصها في سر، ويكشف لهم عن وجه التعارض بين الطاعة والمعصية، ويبين لهم أن العمل الصالح يستدعي حضور الذهن، ويتطلب يقظة القلب؛ ليحقق هدفه المنشود، ويثمر ثمرته المطلوبة.

والإسلام بتحريم ما حرم من السلوك الفاسد، والعادات المرذولة، يربأ بالمسلمين عن أن تكون حياتهم عابثة، وينزه عبادتهم عن أن تكون عديمة الجدوى، مفقودة الأثر، وينأى بهم عن أن تضيع جهودهم سدى.

٢ - يفهم من قوله - تعالى -: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ النهي عن السكر الذي يمتد إلى وقت وجوب الصلاة، وتحريم الاتصاف بالسكر عند أدائها.

وفهم من قوله - تعالى -: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عدم النهي عن الجنابة التي تظل إلى دخول وقت الصلاة، وإلا لقال: وأنتم جنب، كما قال: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾، لأن زمن الاغتسال قصير، ولأن الجنابة سنة من سنن الفطرة، التي لا يريد الإسلام منع الناس منها، ولكنه يشرع لهم التطهر منها، بخلاف السكر الذي يعمل على صرف الناس عنه، وقد جاء هذا الفرق من دقة التعبير في القرآن الكريم دقة يعجز عنها البشر، إذ جاءت الحال في السكر جملة: ﴿وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ وفي الجنابة مفردة: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾، فامثال النهي في الأمر



الأول يكون بترك السكر، وامتناله في الجنابة يكون بالاغتسال .

٣ - تشرع الآية الكريمة التيمم في ثلاث حالات : -

أ - عند المرض الذي يمنع استعمال الماء .

ب - عند السفر الذي يصعب فيه استعمال الماء .

ج - عند فقد الماء .

ومن أسرار مشروعية التيمم، وحكمته : -

أ - أنه يحمل معنى الطاعة، وامتنال أمر الله - تعالى :- ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ .

ب - أنه يغذي ملكة المواظبة على الوضوء، والثبات عليه، ويذكر بأعماله .

ج - في الوضوء والاغتسال بعث للحياة التي انبثقت من الماء، وفي التيمم تذكير بالتراب الذي خلق الناس منه .

د - وفيه اطمئنان النفس بالبدل، وسكونها إلى العوض، واتقاء أن يألف المسلم ترك الطهارة .

هـ - وفي ترتيب الوجه إظهار لمذلة العبد لربه، وإعلان لانكساره، وخضوعه له .

سُورَةُ النَّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ
 الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
 مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ
 سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِأَلْسِنِهِمْ
 وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا
 لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا
 مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
 عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ



التأويل والبياب:

لما وضعت السورة الكريمة القاعدة الأساسية في تنظيم شؤون المجتمع المسلم من حيث علاقته بمبدع هذا الكون، وعبادته عبادة بريئة من كل شوائب الشرك، ومن حيث علاقة أفرادهم ببعض في محيط الأسرة والجماعة، ومن حيث الأخلاق والسلوك، وسائر المعاملات المالية، لما نظمت السورة الكريمة كيان المجتمع المسلم شرعت تفتح عينيه على أعدائه، وتعرفه بخصومه الذين يحسدونه، ويحقدون عليه، ويضمرون له الشر، ويتربصون به الدوائر، ويتآمرون على سلامته، ويدبرون له الكيد، ويبيتون الغدر به من اليهود الضالين، وأشياءهم المنافقين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا السَّبِيلَ﴾.

علمت أيها النبي - من أبناء اليهود ما يثير العجب، ولك أن تعجب أشد العجب، وأن يعجب كل مؤمن اتبعك من حال هؤلاء اليهود الذين نالتهم إثارة من شرف الوحي، ونفحة من بركته، وبقية من علومه، وقبس من نوره، وحظ من آدابه، وكان لهم نصيب من الكتب السماوية، فعلى رسولهم موسى - عليه السلام - نزلت التوراة إتماماً لفضل الله - تعالى -، وإكمالاً لنعمته على الذين تهتدي بصائرهم بنور الوحي، ويتخذونه شرعة ومنهاجاً، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى، واستبدلوا الغواية بالرشاد، وكفروا بخاتم الأنبياء الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، بما حملت إليهم التوراة من أخلاقه وعلاماته، وأعماله وسماته، وآثروا تكذيبه وعداءه على تصديقه واتباعه، ولم يكفهم ما

غرقوا فيه من الموبقات، وما أقروه بين أظهرهم من المنكرات، بل قادوا مسيرة الفساد والضلال في الأرض، وسعوا لفتنة المسلمين عن دينهم بشتى الأساليب، وحاولوا صرفهم عن كتاب ربهم، والانحراف بهم عن الصراط المستقيم إلى يدعهم الذميمة، وأهوائهم الضالة، وشهواتهم الجامحة، وفجورهم السافر. وقوله - تعالى -: ﴿نَصِيحًا﴾ يشير إلى ضلالة حظهم من فهم التوراة، وعدم فقههم جميع أحكامها.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.

والله هو الذي يعلم ما تنضح به قلوب أعدائكم من الحقد، وما تنطوي عليه من البغضاء، وما تموج به من الكراهية، وما تخفي نفوسهم من الخبث والمكر، وما تتميز به صدورهم من الكيد والغیظ، وما يتمنون لكم من الخسران والهلاك، وما يودون لكم من العنت والضيق، وهو المطلع على ما يحيكونه لكم من المؤامرات، وما يدبرونه من الدسائس، وهو - سبحانه - موفقكم إلى رد كيدهم في نحورهم، وناصركم عليهم، ومعينكم على إحباط كيدهم، ومهيء لكم أسباب دحرهم، ووسائل سحقهم، وكفى بربكم مدبراً شؤونكم، متولياً أموركم، مؤيداً خطواتكم، وكفى به ولياً لمن والاه، وخشي مخالفته، وراقبه في علانيته ونجواه، واتقاه حق تقاته، وتفانى في مرضاته، وكفى به نصيراً لمن نصر دينه، وأعز إسلامه، وأقام تعاليم كتابه، ولم يفرط في شيء من أحكامه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

ولكنه - سبحانه - يتخلى عن ولاية من يتخلى عن دينه، ويهمل أحكام شريعته، ويتعدى حدوده، ويهتك حرماته، ويتخاذل عن الجهاد لإعلاء كلمته.

المؤمن الصادق في يقينه يتلقى معرفته عدوّه عن وحي ربه، ويحفظ عنه سمات خصمه، فلا يركن إليه، ولا يمالئه، ويأخذ بالأسباب التي تعينه على اتقاء شره، ويبذل جهده في الاستعداد للتضحية والفداء،



ويتأهب للدفاع عن حوزته، وحماية وجوده، ويطمئن قلبه إلى حفظ ربه ورعايته، ولا يرتاب في نصرته وولايته.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعْ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

تكشف الآية الكريمة عن جريمتين من جرائم أحبار اليهود:

أ - جرأتهم العجيبة على الله - تعالى -، واستخفافهم الشديد بكلامه، وإقدامهم على العبث بالتوراة، وإفسادها، وطبعها بطابع أهوائهم، وتحريف عبارتها عن معانيها، وصرفها عن مقاصدها، وتحليل ما حرم الله - تعالى - من الربا والزنا والقتل، وإضاعة الصلاة واتباع الشهوات. ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

ب - سفاهتهم على رسول الله - ﷺ - ووقاحتهم معه، وجهلهم عليه، وقولهم له: سمعنا ما تدعونا إليه، وعصينا ما تأمرنا من طاعة الله، واتباع رسوله. ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

وقولهم على سبيل الإهانة وسوء الأدب والدعاء عليه: اسمع غير مسمع، وفي هذا التعبير إيهام بالتأدب معه، أي غير مأمور بالسمع، أو الدعاء له، بمعنى: لا سمعت شيئاً تكرهه، وهم - قبحهم الله في كل زمان ومكان - يقصدون ازدراءه، والدعاء عليه، أي لا سمعت ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾.

وقولهم له: راعنا، يوهمونه أنهم يرجونه الاهتمام بهم، ورعاية حالهم، ولكنهم في تحريفهم الكلم يريدون وصفه - ﷺ - بالرعونة والطيش، أو تحقيره أي يا راعي الغنم ﴿وَرَاعِنَا﴾.

وهم يلوون ألسنتهم بالكلام، ويميلون به عن وجه الصواب،

ويوهمون سامعه غير ما يحيك في صدورهم، ويعتمل في نفوسهم ﴿لَيَّا
بِالْأَسْنَنِ﴾. ويقدحون في دين الله - تعالى - ويذمون، ويعيبون أحكامه،
ويطعنون في صحة الوحي، وصدق الرسول - ﷺ - ﴿وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾
وكان الأولى بمن شرفهم الله - تعالى - بوحيه، وكلّم نبيهم تكليماً، وأنزل
عليهم التوراة، فيها هدى ونور، ورزقهم المنّ والسّلو، ونجاهم من آل
فرعون الذين ساموهم سوء العذاب؛ فقتلوا ذكورهم، واستحيوا إناثهم،
وضرب لهم في البحر طريقاً يَبْساً سلكوه، وأغرق فرعون وآله وهم
ينظرون.

كان الأولى بمن كان هذا شأنهم أن يذكروا آلاء الله - تعالى -
عليهم، وأن يشكروا له ما اختصهم به من فضل على سائر العالمين
الذين عاصروهم، ولم يدينوا دينهم، ولم يتبعوا رسولهم، وكان الأوفق
لما لديهم علم بالرسالات السماوية أن يقولوا لرسول الله الذي جاءهم
بالحق، مصداقاً لما بين أيديهم من التوراة، مظهراً لما أخفوه من
أحكامها، مبيناً لأكثر الذي هم فيه يختلفون من حدودها، أن يقولوا له
- ﷺ -: سمعنا كلامك، ووعينا ما تدعونا إليه، وقبلناه، وأجبناك إلى
الإيمان مذعنين، فقد كنا من قبل نستفتح على قومك، ونهددهم بأننا
سنسبّهم إلى الإيمان بك عند ظهورك، ونستعين بك عليهم. ﴿وَلَمَّا
جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ
كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾
[البقرة: ٨٩]. وكان الأجدر بهم أن يواجهوه بكلام صريح مستقيم،
وعبارات واضحة لا غموض فيها ولا التواء؛ فيقولوا: اسمع قولنا،
واعرف وجهة نظرنا، واراع شأننا، واهتم بحالنا، فلنا مزية على غيرنا،
وفضل على المشركين؛ لأننا أهل كتاب، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به
لكان أذكى لنفوسهم، وأقوى تثبيتاً للإيمان في قلوبهم، وخيراً لهم في
حاضرهم ومستقبلهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ
وَأَقْوَمَ﴾.



ولكنهم كفروا بربهم، وجحدوا آلاءه عليهم، وبدّلوا كتابه، واشتروا بآياته ثمناً قليلاً، وزادهم ما جاءهم من ربهم على لسان رسوله الصادق المعصوم طغياناً وكفراً، فكان عاقبة أمرهم خسراً، وباءوا بالطرد من رحمته، والحرمان من توفيقه وهدايته ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فلا يؤمن منهم إلا نفر قليل؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه.

من الدروس المستفادة أولاً:

- ١ - في وصف اليهود بتحريف التوراة ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ تحذير للمسلمين من أن يتبعوا سنن اليهود، وليعشثوا بالقرآن الكريم عبث الأخبار بالتوراة وأن يحرفوا كلامه على مقاصده كما حُرِفَت التوراة، وأن يشتروا بآياته ثمناً قليلاً، ويؤولوها على غير وجهها، كما أولت آيات التوراة.
- ٢ - وفي نعتهم بالسفاهة وسوء الأدب مع رسول الله - ﷺ - تحذير للمؤمنين من أن يسري فيهم مرض النفاق الذي يحمل اليهود جرثومته، وتدب إليهم عدوى الاستخفاف بنبيهم، وشريعة ربهم، فيعلنوا حربهم على الله ورسوله، فتكون الطامة الكبرى. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].
- ٣ - وفي قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ درس للمؤمنين في السمع والطاعة الواجبين عليهم، ليكون خيراً لهم وأقوم.
- ٤ - ليس من المعقول أن يقول يهود اليوم: سمعنا وأطعنا لأتباع النبي الذي قال له آبائهم من قبل: سمعنا وعصينا، ولا يحل لصاحب الإيمان أن يطمع في موالاة من وصفهم الله - تعالى - بالفسق. ﴿وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥] أو يطمئن إلى جانبهم، أو يأمن

غدرهم ومكرهم، ولا يمكن لأحفاد من قابلوا رسول الله - ﷺ -
بالوقاحة والسفاهة والالتواء أن يقابلوا أمته بالأدب والحلم
والاستقامة. ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ
بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آوُوا الْكُذِّبَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
نُطَمِسَ وُجُوهًا فَنَرَدَّهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

سبقت سورة البقرة وغيرها بدعوة بني إسرائيل إلى اتباع خاتم الرسل
الكرام؛ محمد - ﷺ - في قوله - تعالى -: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا
مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ ۖ﴾ [٤١] وَلَا تَلْسُوا
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْنُتُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٤١، ٤٢].

وتضيف هذه السورة الكريمة نداءً جديداً، ودعوة أخرى لأهل
الكتاب مشفوعة بالتهديد العنيف، والوعيد الشديد، فتناديهم النداء الذي
يستحث خطاهم إلى الإيمان، ويحفز عزائمهم إلى الاتباع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آوُوا الْكُذِّبَ﴾، وتطالبهم بأن ينضموا إلى موكب التوحيد؛ لأنهم يعلمون
أنه الحق من ربهم، وأنه جاء مصدقاً لما معهم، وليس لديهم عذر من
جهل، أو شك أو لبس يصددهم عن الإجابة ﴿ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا
مَعَكُمْ﴾.

لتلين قلوبكم التي قست، وترق أكبادكم التي غلظت، وتزكو
نفوسكم التي خبثت؛ فيأمن المجتمع البشري مكرهم، وينجو من شركهم،
ويسلم من فسادكم، وتطهر الأرض من رجسكم؛ ولئلا تكونوا فتنة
للمشركين الذين يرونكم أعرف منهم بالرسالات السماوية، وأقدر منهم
على فهم النبوة، والتفريق بين الحق والباطل لما عندكم من أخبار
الرسالة وأنبيائها، فيما بقي في أيديكم من الحق الذي لم يُمح، ونور



التوراة الذي لم يطمس، ولما يحمل الإيمان إليكم من خير، ويضمن لكم من عزة ويكفل لكم من سعادة ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فآمنوا بما جاءكم من البينات والهدى على لسان رسولنا، من قبل أن يحلَّ عليكم عقابنا الذي يمسخ فطرتكم، ويطمس بصيرتكم، فيمحو منها معالم الهداية، ويردها إلى الضلالة، ويعيدها إلى ظلام الشرك والوثنية، ويغلق قلوبكم، ويختم عليها، فلا يخرج ما فيها من الكفر والجحود، ولا يدخلها ضياء الهدى والتوحيد. هذا العقاب الذي تنعكس صورته، وتظهر آثاره على وجوهكم التي تبدو ملامح آدميتكم، وسمات بشريتكم، فيسلبها تلك الملامح، ويُعَرِّبُها من هذه السمات، ويمحو منها وضاعة الكرامة، وبهاء العزة، ويلبسها ثوب المذلة والصغار، ويردها إلى الورا خاسئة، قد عميت أبصارها عن رؤية آيات الربوبية الناطقة، وصمت آذانها عن الإصغاء لنداءات الحق الصادقة. أو نظردكم من رحمتنا، ونبدل خلقكم، ونغير إنسانيتكم، ونمسحكم قردة وخنازير، كما مسحنا أصحاب السبت من أسلافكم الذين عصوا أمرنا، واعتدوا في السبت، فصادوا الحيتان في هذا اليوم الذي حرمننا عليهم صيدها فيه ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾.

وكان حكم الله - تعالى - نافذاً بلا معقب، وقضاؤه جارياً بلا راد، وقدره واقعاً بلا صارف، وأمره حادثاً بلا مغير، ولا يرد بأسه عن القوم الفاسقين ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

وقد نفذ الله - تعالى - في الدين لم يؤمنوا منهم تهديده الأول ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ فمسح طباعهم، وجعلها إلى الوحوش الضارية أقرب منها إلى الإنسانية الرحيمة الحانية، وشوَّها نفوسهم، وملأها دناءة وخسة ونذالة، وقبح مشاعرهم، وأصابها

بالبلادة، وأمات ضمائرهم، فصاروا خصوصاً للحق، وأعداء للإنسانية، والذين يدرسون خططهم، ويتابعون أعمالهم، ويفحصون تحركاتهم يكشفون تجردهم من كل خصائص البشرية، وانقطاع صلتهم بأكرم شيات الإنسانية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

وهذا العقاب هو جزاؤهم في الدنيا، وهو لا يُغْفِي من عذاب الآخرة، لأمن الله - تعالى - لا يشمل بعفوه ومغفرته أناساً وهبهم العقول المفكرة، والأفهام المدبرة، والحواس المبصرة، فآلفوها، وعطلوا وظائفها، وأنكروا خالقهم وخالقها، واتخذوا من دونه أوثاناً، واختلقوا إفاكاً، وأشركوا به ما ليس لهم به علم ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١]، وقطعوا صلتهم بربهم، هذه الصلة التي تقوم على التوحيد النقي الذي لا يخالطه نفاق ولا رياء، ولا يشوبه لون من الشرك، والمغفرة مرجوة للعبد ما دام معتصماً بهذه الصلة، ممسكاً بحبلها، فإذا خرج من الدنيا مقطوع الصلة بالواحد الموجود، فقد حرم نفسه من مغفرة الله - تعالى -، ويئس من رحمته ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.

وهو - سبحانه - واسع المغفرة، يعفو عما دون الشرك من الكبائر لمن يشاء من عباده، تابوا عنها أم يتوبوا، حسبما يقتضيه علمه بأحوالهم، وإطلاعه على ثقتهم فيه، وظنهم به، وحسبما يمليه عدله، وتقتضيه حكمته، وفي الحديث القدسي عن النبي - ﷺ - قال: قال الله - عز وجل: «من علم أنني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئاً»^(١).

(١) رواه البخاري ومسلم.



وقد أخبر النبي - ﷺ - «أن جبريل - عليه السلام - لقيه فقال له : «بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» قلت : أيا جبريل، وإن سرق وزناً؟ قال : نعم، قلت : وإن سرق وزناً؟ قال : نعم، وإن شرب الخمر»^(١) ﴿وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ .

ومن أشرك بربه شيئاً، وأنكر موحيات الإيمان، وجحد دلائل التوحيد في صفحة الوجود، فقد ابتكر جريمة شديدة الفحش، وسنَّ أسوأ سُنَّة، وأتى أمراً إذا تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هداً، وارتكب إثماً عظيماً لا برهان له به، ولا حجة له عليه، يتضاءل دونه كل إثم، ويصغر بجانبه كل عصيان؛ لأن ارتكاب المعاصي أياً كان نوعها مع عدم الشرك بالله - تعالى - يترك في النفس بقية من الخير، ولا يمحو جميع ما فيها من الاستعداد للهداية، وبقية الخير ماثلة في الإيمان الذي هو محور الصلة بين العبد وربّه، والذي جعله الله - تعالى - سمة العزة لأصحابه، في قوله - تعالى - : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون : ٨]، ولهذا يغفر ربنا تبارك وتعالى - ما دون الشرك، أما الشرك فإنه يطمس فطرة صاحبه طمساً كاملاً، ويقطع صلته بخالقه، ولا يدع بصيصاً من النور في قلبه، ويسلبه كل خصائص الإنسان الذي يعقل، وينتفع بما يرى ويسمع ولهذا لا يغفر الله - تعالى - أن يشرك به ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٩] . ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ .

ثانياً:

في مجيء هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن اليهود، عقب

(١) رواه الطبراني عن ابن عباس .

دعوتهم إلى الإيمان بما نزل مصداقاً لما معهم إشعار بأنهم مشركون، وسورة التوبة تصرح بشرك أهل الكتاب جميعاً الذين ينسبون الولد إلى الله - تعالى -، ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنْتَ يُؤَفِّكُونَ ﴿٢٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١].

وقد دفعتهم هذه السورة الكريمة بالشرك والإيمان بالعبودية والطاغوت، ثم عادت لتقرر كفرهم بالله - تعالى - ورساله، وتفرقهم بين الله - تعالى - ورساله. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

واعجب - أيها النبي -، وليعجب معك كل من آمن بك من أمر اليهود الذين لم يتركوا جريمة في حق الله - تعالى - إلا فعلوها، ولا معصية إلا جاهرُوا ربهم بها، ولا جناية في حق الإنسانية إلا تعمدوها، ولا دماً زكياً إلا سفكوه، ولا طريقاً للغواية والفساد إلا سلكوه، فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلِ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

ومع هذه الأوزار التي هبطت بهم إلى سفح الشرك، وهوت بهم إلى الدرك الأسفل من الكفر يعلنون طهارتهم من الذنوب، ويدعون براءتهم من العيوب، ويثنون على أنفسهم الخبيثة، ويمتدحون أعمالهم



الآثمة، ويفاخرون بأنسابهم المدخولة، وأحسابهم المردولة، ويزعمون
 دونما حياة أنهم أبناء الله وأحباؤه. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ
 وَأَحِبُّواهُ فَلَمَّ يَعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ
 وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾
 [المائدة: ١٨]، ويتباهون بأنهم شعب الله المختار، ويعلنون أن النار لن
 تمسهم إلا بعدد الأيام التي عبد فيها آباؤهم عجل السامري من دون الله.
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤]، ويشيعون أن الجنة مسكن اليهود والنصارى
 وحدهم لا يشاركون فيها أحد، ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا
 أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
 [البقرة: ١١١]، ثم عادوا ليناقضوا أنفسهم، ويقولوا: إن النصارى ليسوا
 على شيء من الهدى والحق ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾
 [البقرة: ١١٣]. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٤٩]. إن تزكية
 الإنسان نفسه بالقول الزائف العاري عن الصدق، والشهادة لها زوراً وبهتاناً
 بالقبول عند الله - تعالى - مع الشرك البين، والفسوق السافر تطاول على
 حق الله - تعالى - وعدوان على اختصاصه، ومنازعة إياه سلطانه؛ فهو وحده
 العليم بعباده؛ محسنهم ومسيئهم، المطلع على ظاهريهم وباطنيهم، وهو
 وحده الذي يحكم بطهارة الأطهار، وخبائة الخبيثاء، وهو الذي يجزي
 الناس بأعمالهم دون اعتبار لآرائهم في أنفسهم، ودون اكتراث بوجهة
 نظرهم، وهو - سبحانه - لا ينقصهم شيئاً من أجورهم مهما كان ضئيلاً ﴿بَلْ
 اللَّهُ يُرِي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [تلمست: ٤٩].

ثالثاً:

- ١ - تفيد الآية الكريمة أن هناك نوعاً من الخلق، يعميه الهوى عن
 الحق، ويضله عن الواقع، فيستحسن القبيح، ويستطيب الخبيث،
 وينغمس في الباطل من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه، ولا يرى

منكراً إلا فعله، ولا معصية إلا ألم بها، ومع هذا يكبت في
تصوره، ويستقر في خياله أنه من الأطهار الأبرار. ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ
سُوُّ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

٢ - ويفيد قوله - تعالى - : ﴿بَلِ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَشَاءَ﴾ أنه ليس من حق
الإنسان أن يطري نفسه ويزكيها، ويشيد بمفاخرها ومحامدها،
ويحكم لها بالطهارة والاستقامة ﴿فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ
اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، فإن هذا الحق لله - تعالى - وحده الذي
يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ويطلع على ما يجري في
قرارة النفس، ويتحرك في أعماقها ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا
تُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

٣ - ويفيد قوله - تعالى - : ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أن العدالة المطلقة لله -
تعالى - وأنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئاً. وأن واجب العباد أن
ينشطوا للعمل وأن يسدّدوا ويقاربوا، واثقين أن الله - عز وجل -
لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأن يتركوا الحكم على أنفسهم
وأعمالهم لمن كل شيء عنده بمقدار - جل جلاله -.

٤ - وفي التعجيب من حال الذين يزكون أنفسهم وهم غائصون في
الأحوال تحذير لأتباع النبي الكريم - ﷺ - من الخروج عن دينهم
والمتنكر لكتاب ربهم، وتحكيم الأهواء في حياتهم بدل تحكيم
شرعة ربهم، والإخلاد إلى تزكية نفوسهم، والحكم بقبول
أعمالهم، كما صنع غيرهم.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرُونُ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِمْ إِثْمًا مُبِينًا﴾.

إن اليهود حين يتجاوزون حدّ المعقول، فيزعمون أن الله - تعالى -
طهرهم من كل دنس، وحفظهم من كل رجس، واصطفاهم على سائر
خلقه، وترك لهم الحرية في أن يفعلوا ما يريدون، لأنهم أبناءه
وأحبّاءه، وشعبه المختار، وهم يحرفون به الكلم عن مواضعه،



ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، إنما يفترون الكذب، ويختلقون الزور على الله - تعالى -؛ لأنه - سبحانه - منزّه عن الاتصال بخلقه بسبب غير سبب الإيمان، وبعلاقة غير علاقة الربوبية، فلا تربطه قرابة، ولا يمت بصلة نسب إلى هذا أو ذاك، وهو منزّه عن أن يزن بميزانين، مبرأ من أن يلقي عباده بوجهين - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾.

وكفى باختلاق الأمور الباطلة، وإصدار الأحكام الفاسدة، وافتراء الكذب على الله - تعالى - جرماً واضحاً، وإثماً بيناً ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً﴾.

فلا ذنب أقبح من افتراء الكذب على الله - تعالى - ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩]، لأن افتراء الكذب على الله - تعالى - صورة من صور الإشرak بالله رب العالمين، وهو من أخلاق الجاهليين ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وكل حكم ينسب إلى الله - تعالى - وهو غير صادر عنه، وكل تطاول على حق من حقوقه هو في الواقع افتراء للكذب عليه - سبحانه -.

﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّوْا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلاً﴾.

قررت الآيات الكريمة التي سبقت شراء اليهود الضلالة بالهدى، ورغبتهم في إضلال المؤمنين، وعبثهم بالتوراة، وتحريفهم كلامها عن مواضعه، وسوء أدبهم مع خاتم الرسل - ﷺ - إذ قالوا له: سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع، وراعنا، وأمرتهم باتباعه، وتوعدتهم بعاجل العقاب وآجله إن عصوه وخالفوه، واستثارت العجب من تركيتهم أنفسهم مع ضلالهم، وسجلت عليهم افتراء الكذب على ذي الجلال والإكرام وهذه الآية الكريمة تذكر شاهداً على إيغالهم في الكفر، وتقدم

دليلاً على شرائهم الضلالة بالهدى، وتستثير عجب الرسول - ﷺ - من أنسال الذين حملوا كتاب موسى - عليه السلام - وورثوا التوراة عن آبائهم، فما رعوها حق رعايتها، واتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله، يشرعون لهم الحدود والأحكام، ويسنون لهم الحلال والحرام، مما لم يأذن به الله - تعالى -، ثم تهادوا في النفاق والضلالة، فعظموا أصنام قريش، وخرروا لها سجداً، وشهدوا أن المشركين أهدي طريقاً من المسلمين، وأن وثنيهم أفضل من التوحيد الذي جاء به محمد - ﷺ -.

وقد كان هذا عندما تسَلَّل إلى مكة سبعون من يهود بني النضير الذين تربطهم برسول الله - ﷺ - معاهدة قائمة لدعم السلام، وإقراره؛ تسَلَّلوا إلى مكة لَواذاً، وفيهم كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب للاتفاق مع زعماء قريش، وتحريضهم على حرب الرسول - ﷺ -، وتنسيق الخطة معهم على مباغته المسلمين وقتالهم، وإبرام حلف معهم؛ فتفرقوا على دور المشركين، يوغرون صدورهم، ويحركون أضغانهم، ويحذرونهم من خطر المسلمين، فقال لهم أبو سفيان: إنكم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب، ولا نأمن ائتماركم مع محمد علينا، حتى تعظموا آلهتنا، وتسجدوا لأصنامنا، وتفصلوا في القضية التي لَجَّت بيننا وبينه؛ إن محمداً قطع رحمه، وهجر وطنه، وترك الكعبة، وخالف دين آبائه وأجداده، واستحدث ديناً جديداً، وأنتم أرباب العلم بالكتب السماوية، فأينا أهدي سبيلاً، وأقوم طريقاً؟ فقال كعب: أنتم والله أهدي سبيلاً مما عليه محمد، ومما عليه أتباعه. فأنزل الله - تعالى - على رسوله - ﷺ -: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

والآية الكريمة تقرر أن اليهود يعتقدون أنه لا حرج عليهم، ولا غضاضة على أشرافهم وزعمائهم أن يعظموا الأصنام، ويؤمنوا بالجبوت والطاغوت، ما دام هذا الإيمان سيمكنهم من القضاء على الإسلام الذي نشر مخازيهم، وأعلن جرائمهم، وسجل فضائحهم، وما دام عبدة



الجبت والطاغوت سيعملون معهم على تَمْزِيقِ شمل المسلمين، الذين أصبحت لهم راية خفاقة، وجمعتهم وحدة في الله - تعالى - وتكونت لهم حكومة منظمة، يدعمها جنود نذروا أرواحهم لله - تعالى - بعد أن لَمَّوا شتات أهل يثرب، ورأبوا الصدع بين الأوس والخزرج، ونجحت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

أولئك اليهود الناكثون العهد، الساعون في هدم صرح الحق، المتآمرون على تقويض بنيانه، وصدع أركانه، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بمؤازرتهم الباطل، واستماتهم في رفع أعلامه، وإيمانهم بالجبت والطاغوت، هم الذين طردهم الله - تعالى - من رحمته، وأبعدهم عن هدايته، واختصهم بنقمته ولعنته؛ بما شَوَّه من فطرتهم، وأعمى من بصيرتهم، وطبع على قلوبهم، وختم على سمعهم وأبصارهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.

ومن يخلق الله - تعالى - في وجهه باب الهداية، ويمسك عنه فضله، ويحرمه التوفيق، ويقبض عنه المعونة والنصرة، وَيُسْلِمُهُ لِهَوَاهُ، فلن يكون له من دون الله - تعالى - نصير يهديه، ولا حام يحميه من الضلالة، ولا معين يساعده على الخير ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

تقصر الآية الكريمة اللعنة على اليهود، وتختصهم بها، هذه اللعنة التي باء بها إبليس، ولا شك في أن هذه اللعنة تصيب كل من يمد يده إليهم، ويتخذهم أولياء من دون المؤمنين؛ فإن هذه الموالاة تسلخه من المؤمنين، وتسلكه في عداده. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ما زال اليهود يجدون النصير الذي يعينهم على الباطل، ولا يجدون النصير الذي يهديهم إلى سبيل الرشاد.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ما لهؤلاء اليهود لا يطيقون أن يروا رحمة الله - تعالى - تصيب عبداً من عباده؟ ولم يتألمون لمنظر النعم التي يسبغها على خلقه؟، أهم على فضله أوصياء؟ أم هم في ملكه شركاء؟ أم لهم سهم في خزائنه التي يعطي منها ويمنع، ويبسط ويقبض فيكون لهم بمقتضى هذه الوصاية والشركة أن يفرضوا إرادتهم على أفعاله؟ إنه - سبحانه - مالك الملك وحده، لا شريك له فيه، ولا رقيب عليه ولا حسيب، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ﴿أَمْ لَمْ نَصِيبْ مِّنَ الْمُلْكِ﴾. ولو كان لليهود نصيب في ملك الله - تعالى -، أو مشاركة في خزائن السموات والأرض لغلوا أيديهم عن الإنفاق، وقطعوا عن الناس الأرزاق، وحبسوا عن العباد العطاء، وضنوا عليهم بالنقيير والقطمير^(١)؛ لما ركب في طباعهم من الشح، وما غرس في نفوسهم من الأثرة، وما جبلوا عليه من عبادة المال، وما ابتلوا به من الحرص على جمعه وإنمائه بأخس الوسائل، وأحط الأساليب، وأقذر الطرق، فإنهم يرتكبون في سبيل الحصول عليه كل جريمة، ﴿يَقُولُونَ سَيَعْفُرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]، ويخونون من أجله كل عهد، ويسفكون أزكى دم، وحجتهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وما ظنك بقوم يعتقدون أنهم أبناء الله؟، أليس يصح في اعتقادهم أن يختص بهم الرزق، وأن تقتصر عليهم الحياة؟ ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾.

من فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده أنه تكفل برزقهم؛ فأعطى برّهم وفاجرهم، ورزق مؤمنهم وكافرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، ولو كانت مفاتيح الرزق بيد الخلق لأغلقوا بابه ﴿قُلْ لَوْ أَنَّمِ

(١) النقيير: النقرة تكون في ظهر النواة، والقطمير الغشاء الرقيق الذي يلتف حولها.



تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾
[الإسراء: ١٠٠].

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.

بل إنهم مؤرّقون، يصطلون نار الحسد، ويتقلبون على جمره، ويتلظى في صدورهم لهيبه، ويحرق قلوبهم وقُده؛ لما أصاب محمد - ﷺ - من رحمة ربه، وما أوتي من فضله العظيم، وما نال من شرف الرسالة، وكرامة النبوة؛ وما أفاء الله - تعالى - على المؤمنين من مغنم بهذا الدين الذي نقلهم من ذات الصدع إلى ذات الرجع، وبدّلهم بعبادة الأحجار عبادة الواحد القهار، وبتعظيم المخلوقين تعظيم رب العالمين، وبالفقر والمذلة غنى وعزة، وبالتفرق والشتات اتحاداً وائتلافاً، وبالتأخر والانحطاط تقدماً ورقياً، وبمرذول العادات، وقبيح الصفات، كريم الشمائل، وحميد الأخلاق، وبنضوب الفكر، وخواء العقل، ثقافة أصيلة، وعلوماً فاضلة، فكان لهم به ميلاد جديد، ووجود آخر، وحياة حقيقية، ذاقوا فيها حلاوة الإيمان، وأحسوا بكرامة الإنسان، وتفيئوا ظلال الحرية، وصاروا خير أمة أخرجت للناس ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وأيّ داع لهذا الحسد الذي تغلي به مراحل صدورهم، فيأكلها كما تلتهم النار الحطب؟؛ وأية نتيجة له إلا أن تذهب به أنفسهم حسرات؟، ولم يحسدون المؤمنين على ما منحهم الله من هدايته، وما أصابوا من رحمته، وما أفاض عليهم من آلائه، وما آتاهم من فضله، وما أغدق عليهم من إحسانه؟ ألم تغمرهم نعمنا ويشملهم برّنا، ويعممهم فضلنا، وينالهم عطاؤنا، وتسعهم رحمتنا؟، أليسوا من آل إبراهيم الذي آتيناه النبوة، وجعلناها في أبنائه وأحفاده، وأنزلنا عليه الصحف، وأنزلنا التوراة والإنجيل والزبور على أنبياء بني إسرائيل؛

ذرية إبراهيم الخليل - عليه السلام - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦]، ورزقنا هؤلاء الأنبياء الذين اصطفيناهم العمل بما أورثناهم من العلم، وما كشفنا لهم من أسرار الحكمة، ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

ومكنا لكثير من هؤلاء الأنبياء، وأتباعهم في الأرض، وبسطنا نفوذهم وسلطانهم عليها، وأيدنا ملكهم، وجعلناه ملكاً عظيم القوة، باقي الأثر، محمود العاقبة، خالد الذكر، يُتلى في آيات بينات من القرآن، في قصص يوسف، وداود، وسليمان، ﴿وَأَيَّدْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾. ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

وقليل من بني إسرائيل اهتدى، وآمن برسlnا، وأجاب دعوتهم، واتبع النور الذي أنزل معهم وسلك طريق الحق، واستقام على منهج الله - تعالى - وكان من المهتدين ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ﴾.

وكثير من بني إسرائيل آل إبراهيم لم يستديموا النعمة بالشكران، ولم يقابلوا الفضل بالعرفان، ولم يتلقوا الوحي بالإيمان، فكفروا برسlnا، وكذبوا دعوتهم، وأعرضوا عن الهدى، وصدوا عن الحق، فحقت عليهم الضلالة، وكانوا من الخاسرين، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾. ومن لم يفاء إلى ظل ظليل من رحمة الله - تعالى -، ولم يسعه الإيمان، ولم يكفه التوحيد فله ما يكفيه من العذاب، وما يغنيه من العقاب في نار جهنم المشتعلة، وفي سعيها المتلظى، ولهيبها المتقد. ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.



سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ
 جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا ظِلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ
 اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَقْرَبِينَ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ
 النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
 بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
 الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ
 تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
 وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
 وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ
 ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ
 اللَّهُ وَإِلَى الرُّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ
 صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا
 قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
 إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا
 فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
 أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾



التأويل والبيان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبِينَ سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

ذكرت الآية السابقة أن سعير جهنم يكفي من أعرض عن الرسالات السماوية، وصدّ عن الوحي. ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾، وهذه الآية الكريمة تبين الصورة الرهيبة المذهلة التي سيكون عليها هذا العذاب، وتؤكد لتنفى كل شك فيه.

إن الذين كفروا بكتبنا السماوية، وأنكروا أنها وحي يوحى، وكذبوا بآياتها، وصموا آذانهم عن نداءاتها، وأنكروا معجزات رسلنا التي أيدناهم بها واعتبروها نوعاً من السحر، وألغوا ألبابهم؛ فأعرضوا عن النظر في صفحة الوجود، والتأمل فيما أبدع الله - تعالى - من الخلق، والاسترشاد بما أودعه في الكون من دلائل ألوهيته، وما بثّه في الأنفس والآفاق من شواهد وحدانيته، وبراهين قدرته ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبِينَ سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

أعدنا لهم عذاباً رهيباً في نار جهنم كلما شوى جلودهم وأنضجها، وأحرق أبشارهم وأزالها بدلناهم جلوداً غيرها؛ ليظل إحساسهم بالألم دائماً، وذوقهم للعذاب مستمراً لا يُفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

إن الله غالب على أمره، قادر على تنفيذ وعيده، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء عن عقاب الكافرين، أو فعل ما يريد، ولا

يشق عليه تبديل جلود المعذبين كلما احترقت وزالت، وهو الحكيم الذي يحسن التدبير، ويجعل لكل أمر حكمته، ولا يسوي في الجزاء بين المؤمنين والكافرين ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة أولاً:

١ - كشفت الأبحاث التي تدور حول الطريقة التي يتم بها إحساس الإنسان بالمؤثرات الخارجية عن وجود مركز الإحساس في المخ، وانتشار شبكته التي تسمى: الجهاز العصبي في الجلد الذي ينعدم الإحساس بدونه، وهذا الكشف يساعد على فهم إعجاز القرآن الكريم الذي أشار إلى هذه الظاهرة، وسجلها عن طريق الوحي.

٢ - أُنذرت هذه الآية الكريمة الذين يكفرون بآيات الله - تعالى - بعذاب لا ينقطع ألمه عن طريق تبديل الجلود، وهذا يدل على أنهم مطرودون من رحمة الله - تعالى - وأن الجنة محرمة عليهم جزاء كفرهم وفسقهم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩]، وأن العذاب مطبق عليهم من كل جانب، يغشاهم من فوقهم ومن تحتهم، كما قال - سبحانه - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠، ٤١]..

٣ - تُختم الآية الكريمة باسمين لله - تعالى - ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، لو تأمل الناس مدلوليهما لوسعتهن الطاعة، ولم تسعهن المعصية، وآثروا السلامة والعافية، ولم يؤثروا الهاوية، وما أدراك ماهية؟ نار حامية.



﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

وفي إثر هذا العذاب المذهل، وقبل أن يزول أثره من الحسن المرهف، والوجدان اليقظ ترسم السورة الكريمة مشهد النعيم المقيم، ليتم التقابل بين الجزاءين ترهيباً وترغيباً، فالذين آمنوا بالله - تعالى - إيماناً كاملاً، مستوفياً شروطه وأركانه، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، ولم يشوبوه برياء، وصدقوا بما أنزل الله - تعالى - من كتاب، واتبعوا ما جاءهم فيه من الهوى، واستقاموا على سنن الحق، وعملوا عملاً صالحاً، ولم يحبط أثواب ما عملوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

سيشملهم رضانا، وتنالهم رحمتنا، ونسكنهم جنات عرضها السموات والأرض، تجري خلالها الأنهار، وتنساب المياه التي تبهج الخواطر، وتسر النواظر، وتشرح الصدور، يجدون فيها صنوف النعيم، ويظفرون بالتكريم، فيلقون فيها تحية وسلاماً، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً، لهم فيها أزواج عفيفات مطهرات، أنشأهن الله - تعالى - إنشاءً، فجعلن أبكاراً عرباً أتراباً، وهم في ظلال وغيون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون وحور وعين كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون.

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾. ولقلوبهم حظها، ولأرواحهم نصيبها من النعيم، فيما نصفه عليهم من عنايتنا، وما نحوطهم به من رعايتنا، وما نوليهم من إعزازنا وتكريمنا، وما ننشره عليهم من ظل رحمتنا الظليل ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

ثانياً:

١ - البشارة والندارة في كتاب الله - تعالى - يسيران جنباً إلى جنب، فكلما ذكر أحدهما ذكر الآخر؛ لأن الجزاء في الآخرة إما نعيم مقيم، وإما عذاب أليم، والتحذير من العذاب يدعم أثره الإطماع في الثواب، والترغيب في الثواب يشد عضده الترهيب من العقاب، فكلهما يخدم الآخر، وهذا الأسلوب هو أنجح أساليب التربية، وأنجع وسائل العلاج.

٢ - في آية التخويف جاء الحرف سوف ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ وهو يفيد البعد؛ للدلالة على بعدهم المعنوي من رحمة الله - تعالى - وحلول سخطه وغضبه عليهم. وفي هذه الآية جاءت السين: ﴿سَنَذِيْلُهُمْ جَنَّتِ﴾ وهي تفيد القرب المعنوي الذي يشعر برضا الله - تعالى -، ومحبه، فما أروع استخدام القرآن الكريم للكلمات وما أبلغ ما تحمله الحروف من إشارات!!

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

اثر الأمانة في المجتمع:

استقرار الحياة في المجتمع، وانطلاق مسيرتها فيه لتحقيق أهدافها الكبرى رهين بتوفر الأمانة في أفراد هذا المجتمع، وبقوة استمساكهم بها، وشدة حرصهم على التخلق بها؛ فكل مجتمع تُضَيَّع فيه الأمانة ولا تحفظ بعين أفرادها في قلق واضطراب. وخوف وانزعاج، لأنهم محرومون من الاطمئنان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأعراضهم.

الأمانة والإيمان:

هذا الاطمئنان لا يتحقق إلا بوجود الأمانة التي اشتقت من مادة



الإيمان، فأصبحت صِنْوَهُ، وتوثقت الصلة بينهما، وكان المؤمن حقاً من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وقد نفى رسول الله - ﷺ - الإيمان عن الخائنين الذين لا يراعون الأمانة، ولا يحفظون حقها، فقال فيما رواه أحمد والبخاري عن أنس - رضي الله عنه: «لا إيمان لمن لا أمانة له»، وجعل - ﷺ - خيانة الأمانة علامة من علامات المنافقين، فقال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق، حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

ألوان الأمانة:

وفي عنق المؤمن أمانات كثيرة لا حصر لها، كلفه الله - تعالى - بها، وفرض عليه رعايتها، والقيام على حفظها، وأدائها من غير تفريط أو إضاعة، وأولى الأمانات بالأداء:

أ - حقوق الله - تعالى - التي أوجبها علينا الإسلام، والتي تلخص في الإيمان الصادق، والاستقامة الكاملة، وهي الأمانة الكبرى التي أبت السموات والأرض أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان.

ولن ينهض المسلم بهذه الأمانة، ولن يُتَمَّ أدائها، ولن يخلي ساحتها من مسؤوليتها، حتى يصبح الإسلام فيه صورة حيّة، يطبقه في أقواله وأفعاله، وسائر أحواله، ويُصير إسلاماً متحركاً يمشي على قدمين، ويكون عنواناً لهذا الدين وداعية له بأخلاقه وسلوكه، قبل أن يكون داعية له بلسانه وبيانه، فكل معصية لله - عز وجل - هي في الحقيقة خيانة لأمانة الله - تعالى - وإضاعة لها.

ب - ثم من بعد الوفاء بحقوق الله - تعالى - رعاية حق النفس، وحقوق الآخرين، فأما حق النفس فيكون بتكميلها بالعلم، وتكريمها

بالأخلاق الحميدة، وإعفافها بالسعي والعمل، وعتقها من ذل الحاجة والمسألة، وصيانتها من كل الدنيا، وإعطائها حظها من الدنيا، والرفق بها في كل الأعمال الدنيوية، والتكاليف الدينية، عملاً بالوصية النبوية: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرض قطع، ولا ظهراً أبقى».

ج - وأما حقوق الآخرين فتتمثل في العناية بشؤون الأسرة، من الزوجة والأولاد، والإنفاق عليهم من المال الحلال الطيب، وصيانتهم من كل حرام خبيث، وتنشئة الأطفال تنشئةً إسلامية كريمة، وتربيتهم تربيةً فاضلة سليمة، وإقامة ميزان العدل بينهم في كل الأمور؛ صغيرها وكبيرها، وبخاصة إذا كانت الأم أكثر من واحدة، وخير دستور يطبقه المسلم مع أولاده دستور الله - تعالى - وأفضل ما ينصحهم به كلمات رسول الله - ﷺ - لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»^(١).

د - وتتمثل الأمانة في صيانة حقوق ذوي القربى، وأدائها إليهم، ورعاية حق الجار، والتودد إليه، وحفظ حرماته، والإسراع إلى نجده عند الصريخ، وكف الأذى عنه، فقد ذكرت أم المؤمنين عائشة لرسول الله - ﷺ - خبر امرأة تصلي وتصوم، ولكنها تؤذي جيرانها، فقال: وهي من أهل النار، وقد ظن رسول الله - ﷺ -

(١) رواه أحمد الترمذي.



أن الميراث سيكون للجار لَمَّا كرر جبريل - عليه السلام - توصيته به، فقال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

هـ - ومن الأمانات التي تجب رعايتها، والحرص على أدائها شد أثر المصلحين، ومتابعتهم على الحق، والوقوف في وجه الفساد، والسعي إلى تطهير الحياة الاجتماعية منه، والدعوة إلى الله - تعالى - بالحكمة، والكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، وإخلاص النصيحة للناس جميعاً، واحترام دمائهم وأعراضهم وأموالهم؛ فلا يسفك المسلم لهم دماً، ولا يهتك لهم عرضاً، ولا يكشف لهم سترأ، ولا يأخذ لهم مالاً بغير حق، وعليه أن يعاملهم معاملة تجعلهم يتفقدونه إذا غاب، وتنشرح له صدورهم إذا حضر، وأن يكون شعاره معهم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

و - ومن ألزم الأمانات التي يجب الوفاء بها رد الودائع المادية إلى أصحابها عند طلبها، فلقد بلغ من حرص الرسول - ﷺ - على ردّ الأمانات إلى أهلها أن خلف علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وراءه عند هجرته، وسلمه الأمانات التي عنده للمشركين - وهم ألد أعدائه، والمؤتمرون على قتله ليدفعها إليهم، وهو القائل: «أد الأمانة لمن ائتمك ولا تخن من خانك».

وقد حدث عندما فتح الله - تعالى - على المسلمين مكة، ودخل الرسول - ﷺ - المسجد الحرام، وكسر الأصنام، أن أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة، وفتحها، وصلى فيها ركعتين، وأخرج منها الحجر الذي كان يقف عليه الخليل إبراهيم - عليه السلام - عند بنائها، ثم طاف بها، فطلب منه عمه العباس أن يدفع إليه المفتاح، ليكون له مع سقاية الحجيج، فأنزل الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ

إِلَىٰ أَهْلِهَا»، فأعطى عثمان بن أبي طلحة المفتاح، وقال: «خذوا يا آل طلحة المفتاح، فأنتم سدنة الكعبة، لا ينتزعها منكم إلا ظالم» وما زال المفتاح في عقب آل طلحة إلى يومنا هذا:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾.

ز - وتحقيق العدل على أرحب مدى، وأوسع نطاق من أوجب الأمانات التي أمر الله - تعالى - بأدائها، فعلى كل من يتولى في المجتمع الإسلامي أمر من الأمور، ويرعى شأناً من الشؤون، حاكماً أو محكوماً، أن يسلك سبيل الإنصاف في معاملة الذين يخضعون لإمرته، وأن يتحرى العدل في أحكامه التي يصدرها، ونُشراته التي يكتبها، وبياناته التي يذيعها، وشهادته التي يدلي بها ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾، وألا يحيد عن سنن العدل، خضوعاً لعاطفة حب أو بغض، وألا يتأثر بقرابة في النسب، أو اتفاق في الدين، وأن ينأى عن الهوى في الفصل بين الخصوم، ويجتنب الميل إلى أحد المتنازعين ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾. إن الله - تعالى - لا يأمركم إلا بما يصلح نفوسكم، ويضمن سعادتكم، ولا ينصحكم إلا بما يكفل مصلحتكم، ولا يعظكم إلا بما يحقق لكم الخير في حاضركم ومستقبلكم، فنعم ما يعظ الله به، ويوجه إليه، ويطلبه منكم أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾.

إن الله - تعالى - لا يشغله شيء عن سماع ما يصدر عن عباده؛ أمنائهم وخائنيهم، عادليهم وظالمهم، من أقوال صادقة أو كاذبة، وأحكام عادلة أو جائرة، ولا يصرفه صارف عن رؤية ما يفعل هؤلاء وهؤلاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.



ثالثاً:

١ - هذه الآية الكريمة تستوعب الدين كله؛ عقائده وأعماله، عباداته ومعاملاته، وتجمع بين الفلاح في الدنيا والسعادة في الآخرة، وتضع أصول القضاء العادل، والسياسة الرشيدة، وهي دعامة لتأسيس الحضارة والمدنية، ومحور لبناء النهضة، وأصل لتحقيق الإصلاح والعمران؛ فالأمانة هي الحافز القوي على النهوض بالواجبات، وإبراء الذمة من المسؤوليات، وتوخي السلوك المشروع، وهي الحارس الأمين على دوام هذا النهوض واستمراره، والعدل هو الميزان الذي يزن الأعمال وزناً سليماً، ويقدرها قدرها، ويشهد لها أو عليها، فيشد عضد الأمانة، وينشر روح الأمن والاطمئنان على العاملين، ويذيقهم حلاوة إيمانهم وأمانتهم.

٢ - العدل في الإسلام عدل لا تعرفه الدساتير الأرضية، ولا تحلّم به القوانين الوضعية؛ لأنه عدل يشمل الناس جميعاً، ولا يقتصر على المسلمين وحدهم، ويقف دائماً إلى جانب الحق لينصفه من الباطل ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾، وهو ثابت لا يتأرجح ميزانه، ولا تميل كفته بسبب الدين أو القرابة أو المودة أو الجاه، وبهذا العدل قضى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - للقبطي المصري على ابن الوالي المسلم عمرو بن العاص، ولفزارتي شامل الذكر على رجل عريض الجاه، عريق السلطان، هو جبلة بن أيهم الغساني.

٣ - قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ يشير إلى المنزلة التي يجب أن يكون المسلمون فيها، ويضعهم في مكانهم الصحيح، ويدعوهم إلى أن يكون لهم السلطان على الناس، والسيادة على سائر الأجناس، والسيطرة على أهل الأرض، لأن من شأنهم أن

يكون لهم الحكم بين الخلق، والفصل في قضايا البشر، بما ورثوا من العدل المطلق الذي لا يتحيز لمؤمن على كافر، ولا يُحابي قوياً على حساب ضعيف، واستخدام إذا الشرطية دون إن الشرطية يدل على أن سلطان المؤمنين على غيرهم مُحَقَّقٌ مؤكد لا مجال فيه للشك، متى صدق إيمانهم، واستقام أمرهم، وصدقوا ما عاهدوا الله - تعالى - عليه، وكان بأسهم على أعداء الله - تعالى - وأعدائهم شديداً، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ولم يركنوا إلى القوم الظالمين.

٤ - لأهمية العدل، وشدة حاجة الناس إليه، وإتساع مجاله، واتصاله بشؤون الحياة كلها، وقيام الحقوق والواجبات عليه، وارتباط الأمن به خصته الآية الكريمة بالذكر، مع كونه إحدى الأمانات التي أمرت الآية الكريمة بأدائها إلى أهلها أمراً مؤكداً، وستقف السورة الكريمة معه وقفات أخرى قادمة.

٥ - في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْظُمُ بِكُمْ﴾.

أ - مدح لكل ما يأمرنا به الله - تعالى -، سواء منه ما يتصل بأداء الأمانات إلى أهلها، والعدل في الحكم، وما يتصل بغيرهما من سائر الأوامر التي يحفل بها الشرع الشريف، وهو مدح صادق مدعوم بالتوكيد الذي يزيل الشك، ويواجه التكذيب.

ب - وهذا المدح شهادة من الله - تعالى - تفيد أن أفضل النظم، وأعدل الأحكام، وأقوم التشريعات، هي التي جاء بها وحي ربنا - تبارك وتعالى - وكفى بالله شهيداً.

ج - كما تفيد هذه الشهادة أن غير هذه النظم والأحكام والتشريعات قبيح مذموم عند الله - تعالى -، وكفى بالمرء فسوقاً أن يهجر ما يحبه ربه وبرضاه إلى ما يبغضه ويأباه.



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

لا يترك الوحي الكريم قضية الأمانة المفروضة، والعدل الواجب لعقول البشر وأهوائهم، تتأرجح بتأرجحها، وتميل بميلها، ولكنه يضع لهذه القضية ميزانها الثابت، ومعيارها الدقيق، الذي يرضاه رب العباد لعباده، ويأمرهم بإقامته بينهم، ويتمثل هذا المعيار، وذلك الميزان في:

أ - طاعة الله - تعالى - التي لا تكون إلا باتباع منهجه، والاستقامة على صراطه المستقيم، وامثال أوامره، واجتناب نواهيه التي جاء بها قرآنه الحكيم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾.

ب - طاعة الرسول - ﷺ - التي لا تكون إلا بالعمل بسنته، والسير على طريقته، والأخذ عنه، فيما بين من حدود الله - تعالى - وأوضح من الحلال والحرام، وفصل من الأحكام؛ فقد فرض الله - تعالى - الصلاة، وكلف رسوله - ﷺ - أن يحدد أوقاتها، ويبين كيفيتها، وركوعها وسجودها، وعدد ركعاتها، فطاعة الرسول - ﷺ - في حقيقتها طاعة لله - تعالى - الذي أمده بالوحي، وأمره بالتبليغ، وعصمه من الخطأ ومن الناس ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

ج - طاعة أولي الأمر، وهم العلماء الراسخون في العلم، وأهل المشورة والحكمة والرأي وأرباب الحل والعقد بشروط ثلاثة:

١ - أن يكونوا من الجماعة المؤمنة بدلالة قوله - تعالى - ﴿مِنْكُمْ﴾، فإن لم يكونوا مؤمنين فلا طاعة لهم.

٢ - وأن يكونوا من الملتزمين بطاعة الله - تعالى - ورسوله - ﷺ -، الحافظين لحدود الله - عز وجل - المؤدين للأمانات إلى أهلها، القائمين بالقسط.

٣ - وأن يأمرُوا بما فيه طاعة لله - تعالى - ولرسوله - ﷺ - فإن أمرُوا بما يخالف كتابه، وسنة رسوله، ويخرج عن أحكام الإسلام فلا سمع لهم ولا طاعة: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَئِمَّةُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، فإنما الطاعة في المعروف، ولا طاعة في المنكر، وعندئذ تجب نصيحتهم، فالدين النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

مشروعية القياس والاجتهاد:

ولكن ما الحل عندما تعرض مسألة، أو تحدث مشكلة، أو يجد أمر ليس فيه نص صريح في القرآن الحكيم، ولا في السنة الشريفة؟

إن الحل لا يكون بالعودة إلى الاحتكام للآراء والأهواء التي يرفض منهج الله - تعالى - الاحتكام إليها رفضاً قاطعاً، ويعتبرها أحكاماً للطواغيت ﴿أَفَن كَانَ عَلَى يَتْنٍ مِّن رَّيْبٍ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]، ولكن الحل يكون بالبحث عن النظائر، والتماس الأشباه للمشكلة العارضة في الكتاب العزيز، والسنة المطهرة، فإن وجد العلماء المختصون النظر في المرجعين الكريمين أو في أحدهما ألحقوا المشكلة به، وأعطوها حكمه عن طريق القياس، فإن لم يُوجد للمشكلة الطارئة، أو للأمر المتنازع فيه شبيه في الكتاب المكنون أو السنة الكريمة يمكن القياس عليه جاء دور الاجتهاد الذي ينهض به العلماء القادرون على رده إلى القواعد الكلية، والمبادئ العامة في شرع الله - تعالى - ﴿فَإِنْ لَّمْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

وهذا الأسلوب هو مسلك الذين يؤمنون بالله - تعالى - ويوقنون بأنهم مبعوثون ليوم عظيم يقفون فيه بين يدي ربهم، ويسألون عن كل



صغيرة وكبيرة من أعمالهم، طبقاً لما قرره الكتاب المنزل، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ذلك النظام الذي شرعه الله - تعالى - باستعمال القياس، واستخدام الاجتهاد هو غير الأساليب لاستبانة وجه الحق، وأسلم حلّ للمشكلة، وأفضل عاقبة ومالاً؛ لأنه يحسم قضية الخلاف، ويقطع دابر التنازع، وهو كذلك أحسن نهاية، عندما تردون إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئكم بما كنتم تعملون. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

رابعاً:

- ١ - جمعت الآية الكريمة قواعد الشريعة، وأدلة الأحكام، ومراجع الاستنباط الأربعة؛ وهي الكتاب والسنة والقياس والاجتهاد.
- ٢ - الطاعة التي شرعها الإسلام في كل صورها؛ سواء أكانت طاعة للرسول - ﷺ - أم طاعة لأولي الأمر، أم طاعة للآباء من أبنائهم، أم طاعة للأزواج من زوجاتهم، أم للقادة من جندهم، أم للمربين من تلاميذهم، هي طاعة الله - تعالى -؛ لأنه هو الذي شرعها، وأذن بها، وحدّ حدودها، وأوضح أبعادها، وهي في كل أحوالها طاعة مبصرة لا طاعة عمياء.
- ٣ - في قوله - تعالى - : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾، إيماء إلى أن الذين يؤثرون الرجوع إلى كتاب الله - تعالى -، وسنة رسوله - ﷺ - فيما يحزبهم من الأمر على أهوائهم ورغباتهم هم الذين يؤمنون بأن الحكم لله - تعالى - وحده، إيمانهم بأن الحساب آت لا ريب فيه، وأن أصحاب الأهواء فاسقون.
- ٤ - حكمت الآية الكريمة حكماً صريحاً لا يقبل التأويل والجدال بأن خير منهج وأحسن أسلوب لعلاج المشكلات كائن في رد الأشياء

المتنازع فيها إلى كتاب الله - تعالى -، وهدى رسوله - ﷺ - وفي هذا الحكم دليل على أن أهواء الناس، وآراءهم لا تسوي مشكلة، ولا تنهي خلافاً، ولكنها تعقد المشكلات، وتختلق المنازعات؛ لما يكتنفها من الميل، وسوء التقدير، وضيق النظر، والعجز عن معرفة وجه الخير، والجهل بالمصلحة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

المناسبة التي نزلت فيها الآية الكريمة:

اختصم يهودي مع منافق يسمى بشرا، فاختار اليهودي أن يفصل رسول الله - ﷺ - في الخصومة بينهما؛ لما اتصف به من تحري العدل، ورعاية الحق وآثر المنافق التحاكم إلى كعب بن الأشرف؛ لما اشتهر به من قبول الرشوة، وممالة الظالم، كما هو ديدن أحبار اليهود، وأخيراً اتفقا على الاحتكام إلى رسول الله - ﷺ - وكان الحق إلى جانب اليهودي، فقاضى له على خصمه، فلم يقبل المنافق الحكم، وعرض على اليهودي أن يحتكما مرة ثانية إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فأنصف أبو بكر اليهودي، وهو لا يعلم أن القضية فصل فيها رسول الله - ﷺ - من قبل، وكما رفض المنافق حكم رسول الله - ﷺ - رفض حكم صاحبه، وقال لليهودي: سر بنا إلى عمر، ولما انتهى إليه قال اليهودي لعمر: إن الخصومة بينهما فصل فيها الرسول وصاحبه، فسأله عمر: أحدث هذا؟ قال: نعم، قال: فانتظرا لأحكم بينكما، ثم قام، ودخل بيته، وتقلد سيفه، وخرج فضرب رأس المنافق قائلاً: هذا قضائي فيمن رفض حكم الله - تعالى -، وحكم رسوله، ونزل جبريل - عليه السلام - بالآية الكريمة، وأخبر الرسول - ﷺ - بما كان من عمل عمر - رضي الله عنه - مع المنافق، وتفريقه بين الحق والباطل.



إن من أعجب العجب أن يدَّعي قوم الإسلام، ويزعموا أنهم آمنوا بالكتب السماوية، وصدقوا بما أوحيناه فيها، وبما جاءهم به فرقاننا على لسانك - يا محمد -، ثم تختمر في نفوسهم الرغبة، وتنشأ عندهم الإرادة - مجرد الإرادة - في أن يحلّوا الخلافات الناشئة بينهم بالتحاكم إلى القوانين الجائرة، والتقاضي أمام النظم الظالمة الطاغية التي وضعتها عقول البشر القاصرة، وصاغت أفكارهم المحدودة، ونظرتهم الضيقة وأملت أهاوئهم الضالة، وشهواتهم الجامحة، وأن ينكروا حق الله - تعالى - في الفصل بين عباده، ويرفضوا تطبيق منهجه، وتحكيم كتابه، والعمل به استوره، واتباع شريعته، وإقرار عدالته ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾. وإراداتهم الاحتكام إلى الطاغوت لم تنشأ من جهلهم بتحريم الاحتكام إليه، ولكنها نشأت من عصيان أمر الله - تعالى -، وتحدي حكمه، فقد أمرهم بأن يلتزموا بالعدل، ويدينوا به ﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، وأن يكونوا قوامين بالقسط، وأن يتعدوا عن كل ميل عن الحق، ويكفروا بكل ما فيه مجاوزة للحد، ومجانبة للقصد، وخروج عن الطريق السوي ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾.

والذين تمر بخاطرهم هذه الرغبة، وتراودهم هذه الإرادة إنما تنبع إرادتهم من إرادة الشيطان ويصدرون عن رغبته، ويستجيبون لوسوسته، وينصاعون لأمره، ويتبعون خطواته ﴿يَتَّبِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَّ يَبْغِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١] فهو يسعى لإضلالهم، ويجتهد في إغوائهم، ويعمل على إبعادهم عن منهج الله - تعالى - الذي يبشرهم بالخير، ويهديهم سبل الرشاد، ويكفل لهم الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

خامساً:

- ١ - إصدار الوحي الكريم حكمه على الذين يتحاكمون إلى غير ما أنزله الله - تعالى - عليهم بأنهم يتحاكمون إلى الطاغوت يفيد:
 - أ - أن القوانين التي يصنعها الناس شديدة الحيف، مبالغة في الجور والعسف، واغلة في الظلم، مجافية للعدل، وأنها طاغوت.
 - ب - أن فيها عدواناً على اختصاصه، وافتياتاً على حقه في أن يتولى الحكم بين عباده، ويشرع لهم في القوانين ما يقتضيه علمه بمصلحتهم، ويقيم بينهم من الأحكام ما ترتضيه حكمته.
 - ج - أن الذين يكون عندهم مجرد الإرادة في التحاكم إليها إسلامهم مزعوم، وإيمانهم موهوم، وأنهم ليسوا من المؤمنين في شيء، وأنهم ألصق بالمنافقين في كل شيء.
- ٢ - نعلم من قوله - تعالى -: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أن الله - تعالى - لا يحاسب عباده على خطيئاتهم، ولا يصيبهم بعقابه، ولا يضلهم عن هداه إلا بعد أن يُعرفهم حدوده ويوضح لهم أحكامه، ويبين لهم ما يتقون ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِمُ ﴿[التوبة: ١١٥]﴾.
- ٣ - وتعلم من قوله - تعالى -: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أن إرادتهم مبعثها إرادة الشيطان الذي يحسن لهم قبح أعمالهم، ويزين لهم أفعالهم، ويجتهد في صدهم عن الحق، وصرفهم عن الهدى، وإغراقهم في الضلال البعيد.
- ٤ - من الاستفهام المقصود به إثارة العجب والإنكار في الآية الكريمة نعلم أنه من حق المؤمن أن تأخذه الدهشة، ويملكه العجب، من الذين تناقض أفعالهم أقوالهم ويحادون الله - تعالى - ورسوله،



ويجورون على حقه، ويتناولون على اختصاصه .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ .

وإذا دعاهم المقسطون الذين لا يلتبس عليهم الحق بالباطل، ولا يشبه عليهم الظالم بالعدل إلى الاحتكام إلى منهج ربهم الذي أعلنوا إيمانهم به، وامثالهم له، وقالوا لهم: تعالوا نتقاضى إلى حكم الله - تعالى - المائل في كتابه، وإلى قضاء رسوله الذي لا يحيد عن الصواب، ولا يتنكر للعدل، ويقضي بما أوحاه إليه ربه انكشف نفاقهم، وتعرى خداعهم، وظهر أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وأعرضوا عن حكم الله - تعالى - ورسوله، وصرفوا الناس عنه، ولو كانوا من المؤمنين بما أنزل إليك من وحي، وبما أنزل من قبلك من كتاب لاحتكموا إلى ما آمنوا به، ولم يرفضوه، ولم يصدوا عنه، وكفروا بكل ما سواه .

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ .

فكيف يكون مبلغ خزيهم وصغارهم، ومقدار ذلهم وعارهم، إذا حلت بهم كارثة. أو انتابتهم مصيبة، أو عصفت بهم ريح الخلاف من جراء احتكامهم إلى الطواغيت، وتعرضوا لجورها، ووخامة عاقبتها، وسوء مصيرها، وحصدوا شرورها، وجنوا أخطارها، واقتضح أمرهم، واتضح نفاقهم. ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ .

فهرولوا إليك مسرعين، يعلوهم الخزي والعار، ويجللهم الذل والصغار، يبرؤون إليك من سوء النية، وفساد القصد، ويحلفون لك بالله كاذبين: ما أردنا بما فعلنا، وما قصدنا بما صنعنا من التحاكم إلى غيرك إلا التوفيق بين الخصوم، والإحسان إليهم، واجتياز المصاعب، والتغلب على المتاعب، التي تنشأ من تباين الاتجاهات، وتنجم عن

اختلاف الديانات، وتصادم الرغبات، وما كرهنا الاحتكام إليك، ولا رغبتنا عن حكمك إلى سواه ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يُخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَحْسَنًا وَتَوْفِيقًا﴾.

التعبير بإذا دون إن في قوله - تعالى -: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ﴾ يفيد أنه من الثابت المحقق أن تحلّ المصائب والنوازل، وتتوالى الكوارث والدواهي على الذين يرفضون شريعة الله - تعالى - ويستبدلون بها حكم الطواغيت الذي يوسع شقة الخلاف، ويزيد رقعة النزاع، ويشعل في الصدور نار العداوة والبغضاء، ويكون سيء المآل. وخيم العاقبة، مُنذراً بالشرور، مُهدّداً بالويل والثبور.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

أولئك الذي تناهى بعدهم عن الإيمان بربهم، وكفرهم بمنهجه، وإعراضهم عن حكمه يعلم الله - تعالى - وحده ما انطوت عليه ضمائرهم من النفاق، وما احتوت عليه من ألوان الشر، وضروب الكيد والمكر، وأساليب الخداع والختل، ويرى ما تخفيه صدورهم من الشرك الذي تمتد جذوره، وتنتشر شعبه، ويطلع على ما تكنه قلوبهم من الزيف والضلال، ويحيط به علماً في حاضرهم ومستقبلهم، ويومهم وغدهم، وكفى به عليمًا بما تخفي الصدور وما تعلن، وكفى به بذنوب عباده خبيراً بصيراً، فلن يهمل جزاءهم، ولن يترك عقابهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فاصرف وجهك عنهم، وغض الطرف عن أعمالهم، ولا تلتفت إلى كيدهم، ولا تلق بالآ إلى سلوكهم، ولا تحزن عليهم، ولاتك في ضيق مما يمكرون ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وتعهدهم بالعظة التي تهزّ مشاعرهم، وتحرك وجدانهم، وتلمس مكنن الداء في نفوسهم، وتطرق أفئدتهم، فتخشع لها قلوبهم، وقل لهم في علاج حالهم،



وإصلاح شأنهم، وفي الخفاء والسّر لا في الإعلان والجهر قولاً يبلغ غايته في العلاج، ويصل إلى نهايته في الإصلاح، ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِتْ أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

في قوله - تعالى - : ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إيجاز، لا تحيط بكنهه الأفهام، ولا تبلغ مداه الأوهام، ولكن تقف العقول خاشعة أمام إعجازه، وتخر القلوب ساجدة في محراب جيل.

٥ - في ترك التصريح بأسماء الذين رغبوا في التحاكم إلى الطاغوت من المنافقين عدة دروس من أهمها:

أ - الدعوة إلى التأسّي بأسلوب الوحي الكريم، في ممارسة الإصلاح المنشود، ومزاولة التقويم المحمود، والتأديب المقصود في إطار من السّتر الجميل، والبعد عن أسلوب التشهير والفضيحة الذي يوغر الصدر، ويجرح الكرامة، ويغري بالعناد.

ب - فتح باب التوبة للذين يحدون عن الحق، وينحرفون عن الصواب، وتهيئة الجوّ الصالح الذي يساعدهم على العودة إلى ساحة الخير، دون أن يجدوا حرجاً في صدورهم، ومن غير أن يقف شيء من العقبات في طريقهم.

ج - جعل الحكم الذي اشتملت عليه الآية الكريمة عاماً في كل الأزمنة والأمكنة، ومع الناس جميعاً، ونفى اختصاصه بهؤلاء النفر الذين نزلت فيهم الآية الكريمة.

٦ - أمر الله - تعالى - عباده في الآية الكريمة أن يكفروا بالطاغوت، بمعنى: ألا يتحاكموا إليه، وفي هذا دليل على أن تحكيم الطاغوت عبادة له، لأن التحكيم يحمل معنى التّأليه؛ لأن فيه خضوعاً للحكم ورضاً به، وامثالاً لأمر من أصدره، والطاغوت يُحلّ من الحرام ما يشاء، ويحرم من الحلال ما يريد، وهذا هو

الشرك الذي وصف به القرآن الكريم أهل الكتاب الذين اتخذوا
أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وساروا وراءهم، واتبعوهم
فيما أحلوا لهم، وما حرموا عليهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا
لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾
[التوبة: ٣١]، ولهذا لا يطلب الإسلام من أهله عدم عبادة
الطاغوت فحسب، ولكنه يطلب إليهم البعد عنها، واجتنابها كلية،
والرجوع إلى الله - تعالى - في كل شيء والإنابة إليه في كل حال
﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ
(٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ
وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].



سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ
 اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ
 فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا
 اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
 حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
 فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾
 وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ
 دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ
 بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيهًا ﴿٦٦﴾ وَإِذْ لَا تَينُهُمْ مِنْ

لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾
وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ
أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى
بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ
فَإِنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لِّيَبْطِئَنَّ
فَإِنْ أَصَبْتُمْ مُصِيبَةً قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ
تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِثَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾	إلا لِيُتَّبَعَ بأمر الله - تعالى - وتشريعه، لا لذاته، لأن الطاعة لله وحده.
﴿إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾	عَرَضُوا حقوقهم للظُّياع، وأنفسهم للخسران، بكرهاتهم حكمك، وإيثار حكم الطغيان.
﴿أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ﴾	عَرَضُوا للقتل بتلبية داعي الجهاد.
﴿أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾	هاجروا فراراً بدينكم، واخرجوا عن أموالكم وأولادكم.
﴿تَنْبِيئًا﴾	تقوية لإيمانهم، وترسيخاً ليقينهم.
﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾	عطاء واسعاً في الدنيا والآخرة.
﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ﴾	ولوفقناهم إلى السلوك الحميد، والعمل المقبول منّا.
﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾	الذين صفت قلوبهم، وطهرت فطرتهم، فالتزموا الصدق في جميع أحوالهم.
﴿وَالشَّهَدَاءَ﴾	الذين يشهدون للحق، ويساندونه، ويفتدونه بأرواحهم، ويتكبرون الباطل.
﴿الْمُصْلِحِينَ﴾	الذين أَرَبَتْ حسناتهم على سيئاتهم، ولم يصروا على المعصية وهم يعلمون.
﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا﴾	وما أحسن مرافقة هؤلاء الأبرار في دار القرار.
﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾	ذلك الإكرام والإحسان هو الزيادة من الله.
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا﴾	يعلم الأعمال، وبواعثها، وما تستحق من جزاء.
﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾	احترسوا من الغفلة، وتأهبوا لمباغطة أعدائكم، وأخذهم على غرة.
﴿لِيُطَاعَ﴾	ليشبطن همة غيره، ويضعفن عزيمته عن الخروج للجهاد.
﴿شَهِيدًا﴾	حاضراً ساحة القتال، ومشاركاً في المعركة.
﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾	فاخرجوا للقتال، ولعظائم الأمور جماعات.

الكلمة	تفسيرها
﴿جَمِيعًا﴾	في تعبئة عامة .
﴿مُصِيبَةٌ﴾	ما تكرهون من الهزيمة .
﴿مَوَدَّةٌ﴾	صلة روحية ، وألفة قلبية ، ورابطة إسلامية .
﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾	فأنال سهمي من الغنيمة المادية ، والأسلاب الحربية .



التأويل والبيان:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

هؤلاء الراغبون عن حكم الله - تعالى - إلى حكم الطاغوت يستوجبون غضب ربهم ومقتته، لأنهم عصوا رسوله، وما حمل واحد من الرسل - عليهم السلام - الوحي إلى الذين بعثه الله - تعالى - فيهم بشيراً ونذيراً؛ ليعصوا أمره، ويخالفوا حكمه، ويصدّوا الناس عن دعوته، ويقفوا منه موقف العداء، ويتعرضوا له بالسخرية والازدراء، ويعلنوا حربهم عليه، وعلى من آمن به، ويذيقوهم ألوان العذاب، ويمنعوا منهج رب العباد من تطبيقه على عباده، ويحولوا بين شريعة أحكم الحاكمين وبين إقرارها في ملكه، وينازعوا مالك الملك سلطانه على خلقه.

ولكننا بعثنا رسلنا جميعاً بالهدى والحق، وآتيناهم الآيات البينات، وأيدناهم بالمعجزات، وجعلنا لهم سلطاناً مُسْتَمِداً من سلطاننا؛ ليدين الناس لهم بالقبول والاستماع، ويذعنوا لأمرهم بالطاعة والاتباع، ففي طاعتهم طاعتنا، وفي عصيانهم عصياننا، لأنهم يحملون وحيّنا، ويبلغون رسالتنا، ويعملون بأمرنا، ويطاعون بحكمنا وقرارنا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ولو أن هؤلاء الذين جمحت بهم إرادتهم، فاختاروا التحاكم إلى الطاغوت، وأبوا قبول حكم الله - تعالى - ورسوله، لَمَّا دعوا إليه، وقيل لهم: ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾، لو أنهم حين آمنوا بالطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به، ولجوا في النفاق والفسوق،

وتعرضوا لغضب ربهم، وعرضوا حقوقهم للضياع، وأنفسهم للخسران والبنار، جاءوك - أيها الرسول - يعتصرهم الألم، ويسيطر عليهم الندم، ويعلمون توبتهم مما حدث منهم، ورضاهم بحكم الله - تعالى - ورسوله، وقبوله، ويسألون ربهم المغفرة، وعفا عنهم الرسول، وتنازل عن حقه قبلهم، وسامحهم في إساءتهم إليه، وطلب لهم المغفرة، كتاب الله - تعالى - عليهم وقبلهم، ووسعتهم رحمته، وشملتهم مغفرته، فهو - سبحانه - ثواب في كل آن على من يتوب، رحيم في كل حين بمن يرجع ويؤوب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

لم يقل الله - تعالى - : واستغفرت لهم، وقال: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ للإشارة إلى أن حق التحاكم إليه ثابت له بمقتضى رسالته - ﷺ - لا بصفته الشخصية.

الآية الكريمة تفرض للرسول - ﷺ - بقولها: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ سلطان ولي الأمر ونفوذه، وسيطرة الحاكم وإمرته، في حياته، وللكتاب الكريم، والسنة الشريفة هذا السلطان والنفوذ، والسيطرة والإمرة بعد وفاته، لأن التشريع الذي أرسله الله - تعالى - به منهج كامل للحياة في جميع أوضاعها ونظمها، وسائر عباداتها وآدابها، وعامة معاييرها وأخلاقها.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

يضع الله - تعالى - شرط الإيمان وضابطه، فيقسم بربوبيته لمحمد - ﷺ - تكريماً له، وتشريفاً لقدره: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ - يا محمد - لا تضدق عليهم صفة الإيمان في ميزان ربك العادل، ومعياره السليم، ولا يسلكهم في زمرة المؤمنين إيماناً صادقاً، ولا ينظمهم في عقد عباده المتقين إلا بشروط ثلاثة.



- أ - أن يمثّلوا أمرك، ويزدّعون لك بالطاعة، ويحتكموا إلى منهج ربك الذي جئتكم به، ويرجعوا إليه فيما يختلط عليهم من الأمور، ويستفتوه فيما يعرض لهم من المشكلات، وما يجدّ لهم من الحالات، وما ينشأ بينهم من الخلافات. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، فإذا كان من واجب الرسول البلاغ فمن حقه الطاعة والاتباع.
- ب - أن تستريح قلوبهم إلى حكمك، وأن تشرح صدورهم بفصلك في قضاياهم، وألا يشقّ على أنفسهم التحاكم إليك، وألا يضيقوا ذرعاً برّد الأمر إليك، وأن تطمئن نفوسهم إلى قضائك، ولا يخامرها شك في عدلك ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوكَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾.
- ج - أن ينقادوا لأمرك انقياداً تاماً، وأن يستسلموا لحكمك استسلاماً كاملاً، وأن يزدّعون لقضائك ظاهراً وباطناً ﴿وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة:

- ١ - في الآية الكريمة دليل على عصمة الرسول - ﷺ - في الأحكام التي يصدرها، لأن حكمه لو كان عرضة للخطأ لما فرض الله - تعالى - تحكيمه في كل صغيرة وكبيرة، والالتجاء إليه في كل نزاع، ولما أوجب عدم التبرّم والضيّق بقضائه، ولما ألزم عباده بالإذعان لأحكامه، وقبولها، والانشراح لها، والتسليم بها، ولما جعل إيمان المؤمنين متوقفاً على الاحتكام إليه، ولا تنسحب العصمة على الإذن الذي يعطيه لمن يستأذنه، ولا على الحكم الذي يصدره بعد مشورة أصحابه.
- ٢ - وفي الآية الكريمة دليل على أن نصّ الشارع الحكيم مقدم على أدلة الأحكام كلها، فلا قياس، ولا اجتهاد، ولا رأي مع وجود نص من الكتاب الكريم، أو السنة الشريفة.

٣ - وفيها دليل على بطلان التقليد مع وجود النصوص المخالفة، فمن ترك النصوص الواردة في كتاب الله - تعالى - أو في سنة رسوله - ﷺ - إلى الأخذ بقول غيرهما - مهما كان علمه أو منصبه - كان غير مطيع لله ولرسوله، وغير مؤمن بهما.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً﴾.

ما بالهم يُهرعون إلى حكم الطاغوت، ويرفضون حكمنا؟، وماذا كتبنا عليهم من التكاليف الصعبة، والأعباء الجسيمة، والأحكام المرهقة؟ إننا لم نكتب عليهم نظاماً شاقاً، ولم نلزمهم منهجاً صعباً، يعتنهم ويشق عليهم؛ لما نعلمه من ضعفهم، ونُبصره من عجزهم، ونُرِيده من الفرق بهم، والتيسير عليهم، ووضع الآصار والأغلال عنهم، وكل ما فرضناه عليهم أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وأن يحتكموا إلى ما جاءهم به رسولنا عن طوعية واختيار، ورضاً وتسليم، وأن يحب أحدهم لأخيه من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لها، وأن يصون له حرمة المال والدم والعرض، وأن ينصره مظلوماً، ويرده إلى الصواب ظالماً، وليس في هذا شيء من العنت؛ لأن شريعتنا تضع في اعتبارها مبلغ احتمال الناس، ومدى قدرتهم، وتراعي ضعف الضعفاء، وعجز العاجزين، ولو أننا أردنا إرهاب عبادنا وتعجزهم، وتنكيد عيشهم، وتحميلهم ما لا طاقة لهم به، ولا اضطبار لهم عليه لفعلنا، ولأوجبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم كبرهان على صدق الإيمان، وشرط لقبول التوبة، أو أمرناهم أن يخلعوا أنفسهم من أموالهم، ويخرجوا من ديارهم فراراً بدينهم، أو ما شاكل هذا من التضحيات الباهظة، والأعباء الثقيلة، ولكننا لم نفعل ذلك لأننا نعلم أننا لو فرضنا هذا عليهم ما امثل حكمنا، ولا نفذ أمرنا إلا نفر قليل من أرباب



العزائم الصادقة، والهمم القوية، الذين يصدقون إذا عاهدوا، ويفون إذا وعدوا، ويبتغون وجه ربهم إذا عملوا، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾، ولو أن المسلمين اتبعوا ما وعظهم به هذا الدين، ففعلوا الحلال، وتركوا الحرام وامتلوا المأمورات، واجتنبوا المحظورات، ونفذوا شريعة الله - تعالى -، وحافظوا على حدوده، وانتصروا على أهوائهم وشهواتهم، لنصرهم الله - تعالى - على أعدائهم، ومكّن لسلطانهم في الأرض، ولكان اتباعهم منهج ربهم أصلح لحالهم، وأجزل لخيرهم، وأعظم ترسيخاً لإيمانهم، وأشدّ تثبيتاً لعقيدتهم، وأكثر دعماً لوجودهم، وأعمّ نفعاً لحياتهم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾.

وإذا لأوليناهم فضلنا، وأسبغنا عليهم برّنا، وأغدقنا عليهم نعمنا، وفتحنا لهم أبواب رحمتنا، وأورثناهم جنتنا، يتبوءون منها حيث يشاءون، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وإذا لآلئناهم من لدنّا أجرًا عظيمًا. ولحفظناهم من الغواية والضلال، ووقيناهم الزيف والانحراف، ونجيناهم من الخسران المبين، وفرّقنا بينهم وبين القوم الظالمين، ورزقناهم الاستمساك بالعروة الوثقى لهذا الدين، وقويّناهم على طاعتنا، ووفقناهم إلى مرضاتنا، وهديناهم صراطنا المستقيم، المنير الواضح القويم، صراط الذين أنعمنا عليهم، فكانوا من الشاكرين ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.

مناسبة نزول الآية الكريمة:

عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله - ﷺ -، وهو محزون، فقال له النبي - ﷺ -: «يا فلان، مالي أراك محزوناً؟» فقال: يا نبي الله، شيء فكرت فيه، فقال: ما هو: «قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر إلى وجهك، ونجالسك، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يردّ النبي - ﷺ - شيئاً، فأتاه جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...﴾ الآية، فبعث النبي - ﷺ - إلى الرجل، فبشره. والذين يفعلون ما يؤمرون، ويتبعون ما يوعظون به، ويطيعون الله - تعالى - ويهتدون بنور وحيه، ويحافظون على حدود دينه، ويحلون ما أحله لهم، ويحرمون ما حرمه عليهم، ويطيعون الرسول - ﷺ - الطاعة التي فرضها الله - تعالى - له، ويجعلونه أسوتهم الحسنة، وقدوتهم الصالحة في حياته وبعد مماته، ويرجعون إلى حكمه فيما شجر بينهم من خلاف، ويردون إلى كتاب ربهم، وسنة رسولهم كل أمر التبس عليهم وجه الصواب فيه، ويرتضون حكمهما، ولا يتبرمون به، وينقادون له مختارين، هؤلاء الطائعون يبشرهم ربهم بالدرجات العليا في جنته، ويجعلهم في صحبة أنبيائه الذين اجتباهم لهداية خلقه، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا، وعصمهم من مخالفته، وآتاهم الكتاب والحكمة، وفضلهم على جميع البشر، وجمعهم مع الصديقين الذين صفت قلوبهم من أدران الشرك، وطهرت فطرتهم بالتوحيد، واستنارت بصيرتهم بنور الإيمان، وزكت نفوسهم بالعبادة، وأشرق أرواحهم بالطاعة، والتزموا الصدق في كل أحوالهم، واتبعوا الحق في جميع أمورهم، ويكرمهم ربهم بمرافقة الشهداء الذين شهدوا بأن دين الله - تعالى - هو الحق، وقاموا بالقسط، وبذلوا أرواحهم في سبيل الله، وجعلوا كلمته هي العليا، ويحشرهم في زمرة الذين تزودوا بصلاح الأعمال، واستكثروا من الحسنات، وما أحسن صحبة هؤلاء المقربين في مقام كريم، وفضل من الله عظيم، في جنات



ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.

هذا النعيم الذي يفوز به الطائعون مع النيين والصدقين والشهداء والصالحين وذلك العطاء الذي يكرمهم ربهم به هو الفضل من الله - تعالى - عليهم والزيادة منه على أجورهم التي يستحقونها بأعمالهم ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾.

وكفى بالله عليمًا بالأعمال، وبما يتوفر فيها من الإخلاص، وبما يبلغ صاحبها من مراتب الكمال، وبما يستحق العباد من المثوبة والجزاء ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾.

لما وضع الوحي الكريم للمجتمع المسلم ركائز وجوده، ومقومات حياته في مجالات: المال، والاجتماع، وسياسة الحكم، وكشف لهذا المجتمع عن صنفين من أعدائه:

- أ - أهل الكتاب الذين يريدون أن يردوه عن دينه، وأن يضلوه سواء السبيل، وأن يصرفوه عن طريق الحق، ويسلكوا به سبيل الغواية.
- ب - المنافقين الذين يصدون عن الهدى، ويرفضون حكم الله - تعالى - وحكم رسوله، ويريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وقد أمروا أن يكفروا به.

لما انتهى الوحي الكريم من علاج هذه النواحي الهامة شرع يُعِدُّ هذا المجتمع لمواجهة الأخطار التي تحيط به، ويهيئه للمعركة التي يخطط لها خصومه، ويدبرها أعداؤه، فأمر المؤمنين ألا يأمنوا جانب أعدائهم، وألا يغفلوا عن مراقبتهم، واتقاء شرهم وأن يفتحوا أعينهم، ويكونوا على أشد الحذر، وأعظم الاستعداد، وأتم الحيطة لمواجهة الأخطار الراصدة في النفاق المندس داخل صفوف المؤمنين،

والمؤامرات التي يحولها الحاقدون من أهل الكتاب، والهجمات التي يُعد لها المشركون من خارج المدينة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

وَأَخُذُ الحذر يتطلب منكم - أيها المؤمنون - ألا تنطلقوا في أموركم العظيمة، ومهامكم الحيوية، وألا تخرجوا للقاء أعدائكم، أو تبليغ دعوة ربكم إلا في جماعات؛ على هيئة سرايا وفصائل، أو على صورة تعبئة عامة؛ لتحموا وجودكم، وتحافظوا على بقائكم، وتدرءوا الأخطار عن عقيدتكم، وتردوا سهام أعدائكم في نحورهم ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾.

الآية الكريمة تعلم المؤمنين اليقظة التي تحبط كيد أعدائهم، والحذر الذي يتقون به شرهم، والخروج من المدينة في جماعة قوية، لها من البأس ما يُعجز الأعداء عن الإيقاع بها، والتَّيْل منها، وفي هذا التعليم صورة من عناية الله - تعالى - بأوليائه، ومعونته لهم، ولون من انتصاره لهم، وكفايته إياهم، وتفسير لقوله - سبحانه -: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾، فولايته أمرهم تظهر في تعليمهم الأساليب التي تحميهم من عدوهم، وتتجلى في إرشادهم إلى الوسائل التي تحفظ وجودهم، وتصون كيانهم، وتتضح في توجيههم إلى الأسباب التي تضمن الفوز لهم، وأول هذه الأسباب أن ينصروا ربهم، ويهزموا الشيطان في أنفسهم الأمارة بالسوء ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَلِيَبْتَ أَفْدَامُكُمْ﴾ [محمد: ٧].

من قوله - تعالى -: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ نعلم أنه يجب على المسلمين أن يسيروا على السنن المشروعة، وأن يأخذوا بالأسباب الموضوعة، وأن يلبسوا لكل حال لبوسها، وألاً يركنوا إلى التواكل والدعة، وألاً يعتمدوا على تسميتهم مسلمين، معتقدين أن هذه التسمية كافية في دحر أعدائهم، وتحقيق النصر لهم، فإن هذا وهم



باطل، وأمنية مخدوع، يهدمها ركن الجهاد في الإسلام، ونصوص القرآن الكريم؛ كقوله - تعالى -: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فليحذر المسلمون الغفلة والجهل وسوء الفهم، وجميع العلل التي تسول لأصحابها أن الحذر لا يُنجي من القدر، فصاحب القدر - سبحانه - هو الذي يأمرهم بالحذر ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

ونعلم أيضاً أن الناس جميعاً سواء عند الله - تعالى -، وأنه ليس بينه وبين أحدهم لُحمة نسب، أو صلة قرابة، تعفيه من الأخذ بتكاليفه، وتحابيه أو تستثنيه من امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأن أكرمهم عنده هو أشدهم خوفاً من عذابه، وأكثرهم رجاء لرحمته، وأصدقهم اتباعاً لشريعته، وخضوعاً لطاعته، وأنشطهم للأخذ بالأسباب، وأعرفهم بالسنن الكونية.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْغِطَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

واعلموا أن بين صفوفكم طائفة خائرة العزيمة، ساقطة الهمة، عارية من الإيمان، تتراخى عن الخروج للجهاد، وتعرض عن الاستجابة للنفير، وتبسط همم الآخرين، وتفت في عضدهم، وتوهن من عزائمهم، وتحملهم على الانضمام إليهم؛ ليكونوا مع القاعدين ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْغِطَنَّ﴾.

وهذه الطائفة أخلدت إلى الأرض، ووقعت في أسر الأهواء والشهوات فهي تستحب الحياة الدنيا على الآخرة، وتعد سلامتها مما يصيب المجاهدين من محن أليمة، ونجاتها من الاستشهاد نعمة عظيمة، وغنيمة أي غنيمة ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ

شَهِيدًا، وتعتبر حرمانها من الفيء الذي يقع في أيدي المجاهدين خسارة فادحة، وضربة شديدة، ولطمة قوية، وطامة كبرى، تُؤرقهم، وتقض مضاجعهم، وتحرك في نفوسهم كوامن الحقد والحسد، وتذوب منها قلوبهم أسى وحسرة، كأن صلتهم بالمؤمنين مقطوعة، والمودة بينهم وبين المجاهدين معدومة، فيتمنون أن لو كانوا مع الخارجين للجهاد، لينالوا مما أفاء الله - تعالى - على رسوله، وعلى المؤمنين، ويفوزوا بنصيبهم فوزاً عظيماً. ﴿وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.



سُورَةُ النَّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿٧٤﴾ فَيُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا
 وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
 وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
 الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
 نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
 الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُنِبَ عَلَيْهِمُ الْمُنَالُ إِذَا فَرِيقٌ

مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ
 كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْفِتْنَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا
 قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
 تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ
 حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا
 هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
 يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ
 سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿يَسْرُورَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾	يبيعون الفانية بالباقية، ويدفعون الرخيصة ثمناً للغالية.
﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	لرفعة الإسلام وعزته، ولتكون كلمة الله هي العليا.
﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾	هو أجر الشهداء في قوله - تعالى - ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا...﴾ الآية.
﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾	أي مانع يمنعكم القتال، ويحول بينكم وبينه؟
﴿وَالْمُضْمِرِينَ﴾	وإنقاذ العاجزين الذين حبسهم المشركون عن الهجرة، واستضعفهم.
﴿الطَّاغُوتُ﴾	كل ما عبد وأطيع من دون الله - تعالى - إنساً أو جنأ أو تقليداً.
﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾	هم جماعة من الأوس والخزرج الذين وضعت الحرب أوزارها بينهم بالإسلام.
﴿يَحْشَوْنَ النَّاسَ﴾	يخافون بأس المشركين، ويُحْجَمُونَ عن قتالهم.
﴿أَوْ أَشَدَّ حَشِيَةً﴾	بل أعظم خوفاً.
﴿لَوْ كَبَّتْ عَلَيْنَا الْغُلَالُ﴾	يتحسرون لفرض الجهاد عليهم، ويستتكرون وجوب قتال المشركين.
﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَبْرٍ﴾	هلا تركتنا نموت عند انقضاء آجالنا، وانتهاء أعمارنا.
﴿مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾	لذاتها محدودة موقوتة، ومسراتها كأحلام النائم.
﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾	لمن خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى.
﴿فَنِيلاً﴾	شيئاً قليلاً، الفتيل: ما يكون في شق النواة شبيهاً بالخيط.
﴿بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾	حصون منيعة، وقلاع شاهقة.
﴿حَسَنَةً﴾	خصب ورخاء، ونصر وغنيمة، ووفرة مال، ورواج سلعة.

الكلمة	تفسيرها
﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾	من عنايته بنا، ورضائه عنا، وكرامتنا عليه، ومنزلتنا عنده.
﴿سَكِينَةً﴾	قحط وجذب، وشدة وبأساء، وكل ما يسوء النفس.
﴿مِنْ عِنْدِكَ﴾	بسبب منك.
﴿كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾	كل من الحسنه والسيئة حادث بإرادة الله - تعالى - واقع بقضائه، لأنه هو الخالق للقوى، الواضع للسنن والأسباب.
﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾	لا يدركون أسرار الكلام، ولا يبلغون لباب الحديث وأغواره.



التأويل والبيان:

ثواب الجهاد عظيم، وأجره كبير، فإنه ما من كَلِمٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - تعالى - إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كَلَّمَ، اللون لون دم، والريح ريح مسك، وقد تضمن الله - تعالى - لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا إيمان به، وتصديق برسوله أن يدخله الجنة إذا مات، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر وغنيمة، ولكن الخروج للجهاد من أجل الغنيمة يحبط الثواب، والقتال بدافع العصبية والحمية، أو لطلب الشهرة والمجد، والقصد إلى أية غاية أخرى غير إعلاء كلمة الله - تعالى - يذهب بأجر المجاهدين، فليكن باعثكم - أيها المؤمنون - على الخروج إلى القتال نصرة دين الله - تعالى - وإعلاء كلمته: وابتغاء وجهه، والتضحية في السبيل التي شرعها، والتمكين لمنهجها من إصلاح الحياة، وتصريف شؤونها، وقيادة الناس إلى الرشاد، وحماية الحقوق المقدسة من وطن ونفس وأهل ومال، ولتكن غايتكم إيثار ما عنده، وبيع المتاع الرخيص الفاني بالنعيم الغالي الباقي ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾.

ومن كان خروجه على هذا القصد، وقتاله على هذا الوجه، وجهاده على هذه النية كان حقاً على الله - تعالى - أن يجزل ثوابه، ويعظم أجره، سواء خرج من المعركة منتصراً ظافراً، أو نال الشهادة محتسباً صابراً. ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة: أولاً:

١ - تجعل الآية الكريمة القتال، لحماية وجود المؤمنين، والذود عن أوطانهم، وحفظ ثرواتهم، وصون حرمتهم قتالاً في سبيل الله - تعالى - يكسبهم عزة الدنيا وسعادة الآخرة، لتحفز همهم، وتشحن عزائمهم، وتشعل حماسهم.

٢ - لا يخف للتضحية والجهاد، ولا يسرع للطعان والجلاد، ولا ينهض للبذل والفداء، ولا يقدم على القتال والنزال إلا الذين يُرخصون الحياة الدنيا، ويدفعونها ثمناً للحياة الخالدة ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾.

٣ - يفوز المجاهد في سبيل الله - تعالى - بالأجر العظيم، ويظفر بالثواب الجزيل سواء مات شهيداً، أو عاش عزيزاً كريماً. ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

وأي مانع يمنعكم قتال أئمة الكفر، وسدنة الباطل، وجبابرة الظلم، والتصدي لقوم نكثوا أيمانهم، وأخرجوكم من دياركم، وهم إن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة، وأولئك هم المعتدون؟

ولم لا تخرجون للغزو في سبيل الله - تعالى -؛ لترفع راية التوحيد في أرضه، ويسود فيها الحق والخير، ويظللها الوئام والسلام، ويعمها العدل والرحمة؟ وكيف تجبنون عن لقاء عدو لا ولي له ولا نصير، وتحجمون عن نزال الطاغوت لا معين له ولا ظهير، وتستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، وتزهدون في منازل الشهداء؟ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.



وأَيُّ عذر يحول بينكم وبين الجهاد، ويقعد بكم عن إنقاذ إخوانكم المستضعفين، وتخليصهم من جور العتاة المستكبرين، الذين يحاصرونهم في مكة، ويحبسونهم عن الهجرة، ويحاولون أن يُعيدوهم في مَلَّتْهم، بعد أن نجاهم الله - تعالى - منها؟ وإذا لم يستجب المؤمنون لأنات العاجزين من الرجال، وبكاء النساء، وصرخات الولدان، فمن يرثي لحالهم، ويستجيب لأناتهم، ويكفكف دموعهم، ويذهب صرخاتهم؟ وإذا لم تنقذوا هؤلاء الضعفاء الذين يُقْلَبون وجوههم في السماء، ويضرعون إلى ربهم بأحرَّ الدعاء، ويرجونهُ أَصْدَق الرجاء، ويتطلعون للخلاص من محتهم، فمن الذي يَهَبُّ لإنقاذهم، ويسعى لخلاصهم، ويُهْرِع لإسعافهم؟.. وإذا لم تغيثوا هؤلاء الملهوفين، الذين فقدوا كل راحم ومعين من الناس، ووقفوا على باب ربهم يناشدونه: يا ربنا أخرجنا من هذه البلدة التي ظلمنا أهلها، وبغوا علينا، ولم يرحموا ضعفنا، وصادروا حرية عقيدتنا، وأرادوا فتننا، وإكراهنا على العودة إلى شركهم وضلالهم، يا ربنا، تولَّ بفضلك أمرنا، وأحسن خلاصنا، ونجنا من القوم الفاسقين، وانصرنا على القوم الكافرين ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

ثانياً:

١ - إغاثة المؤمنين المستضعفين، وتخليصهم من ظلم الظالمين، وفتنة الكافرين، وإنقاذهم من القهر والعسف والتسلط لون من ألوان الجهاد في سبيل الله - تعالى - ﴿وَإِنْ أَسْتَضْعِفُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾.

٢ - إذا نفّض المؤمن يده من العباد كلهم، وضاع رجاءه في الناس جميعاً، وفقد أمله في سائر الخلق، بقي أمله في روح الله - تعالى - - حياً، ولم يفقد رجاءه في رحمته ولم تنقطع ثقته في ولايته، ولم

يتبدد أمنيته في نصرته ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾.

٣ - الله - تعالى - هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويُبْرِئُه إذا أقسم عليه، ويجعل له من كل كرب فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، وعبي لنصرته فَيَلْقَا من جنوده، وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.

٤ - دعا المستضعفون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، فوصفوا مكة وهي البلد الحرام، وفيها أول بيت وضع للناس بأنها وطن الظالمين، ودار المعتدين، وطلبوا من الله - تعالى - أن يهيئ لهم سبيل الخروج منها، وقد أمر - سبحانه - المؤمنين أن ينفروا في سبيل الله، بقتال الظالمين، وفك أغلال هؤلاء المستضعفين الذين يُفْتَنُونَ في دينهم، وَيُمْتَحَنُونَ في عقيدتهم.

ومن هنا نعلم أنه لا قداسة لمكان من الأمكنة، ولا حرمة لبقعة من البقاع، إلا إذا ارتفع فيها علم التوحيد، وأقيم فيها شرع الله - تعالى -، ونفذت أحكامه، وتمتع فيها المؤمن بحريته كاملة، واطمأن على عقيدته، فمكة الحرام حين ضاقت بالإسلام ذرعاً، ولم يتسع صدرها للتوحيد، ولم تحتضن الإيمان بالله رب العالمين، ولم تصدع بكلمة الحق، ولم تردد جناباتها أصداً: الله أكبر.

حينئذ أوجب الله - تعالى - الهجرة منها؛ لأنها لم تصبح ملاذاً للمؤمنين، وحصناً للمتقين، وإنما أصبحت مسكناً للبغاة الظالمين، والجبابرة المعتدين، الذين يجب جهادهم، والإغارة عليهم في عقر دارهم، لإنقاذ المغلوبين على أمرهم من برائتهم، وصارت يثرب داراً للمؤمنين ووطناً للإسلام، يصد عنه المؤمنون غارة الأعداء، ويبذلون أرواحهم لحمايته ويموتون في ساحته شهداء.



﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

تضم الحياة الدنيا معسكرين متباينين كل التباين، متخاصمين أشد التخاصم، متنافرين أبعد التنافر: معسكر المؤمنين، ومعسكر الكافرين ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٧٢].

والعليم الخبير - سبحانه - يحدد في هذه الآية الكريمة هدف كلا المعسكرين من خوض المعامع، ومن تسعير نيران الحروب التي تندلع ألسنتها قتلهم الأخضر واليابس، ومن إعلان القتال الذي لا تكف رحاه عن الدوران ما دام ثمة ظلم وعدوان.

أ - فالذين آمنوا هدفهم من القتال هدف مقدس، وغايتهم منه غاية مشروعة، ونظرتهم إليه نظرة عُلوية؛ لأن الإيمان جرّد نفوسهم من الأهواء، وخلصها من أطماع النفوس البشرية، وطهرها من أدران المآرب الشخصية، والأغراض التافهة، والمطالب الرخيصة، والمكاسب الفانية، وجعلهم يخوضون المعركة، وَيَلْجُونَ المعركة لله - تعالى - وحده؛ فهم لا يقاتلون لبسط نفوذهم، ولا لغرض سلطانتهم، ولا للسيطرة على الكنوز والثروات، ولا لفتح أسواق لترويج منتوجاتهم، وتصريف بضاعتهم؛ وإنما يقاتلون لبسط سلطان الله - تعالى - في ملكه، وحماية دينه فوق أرضه، والتمكين لعدالة السماء من تحرير رقاب المستضعفين من رق الإِسار، ومَهْد سبيل الحياة الكريمة للبشر، وإشاعة الأمن والاطمئنان في قلوب الناس، وتوطيد أركان السلام في ربوع الأرض، وتثبيت دعائم الإصلاح والعمران في هذا الوجود، وشق طريق الحضارة للإنسان.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

ب - ويقدر ما أَلْهَمَ الإيمانُ إربابه شرف الغاية، وأوحى إليهم نبل المقصد، وسمّوا الاتجاه بقدر ما أَلْهَمَ الكفر أصحابه خسة الهدف، ودناءة الغرض، ووضع الاتجاه، فهم يشنون الحرب الضارية، لاغتصاب حقوق الأفراد والجماعات، ومساندة البغي في الأرض، والتمكين للفساد في كل مجالات الحياة، وغرس بذور الشر في نفوس البشر، وزرع الأحقاد في قلوبهم، واقتلاع جذور الخير والفضيلة من الصدور، وهدم صرح الأخلاق الكريمة، وانتهاك شرف العرض، واستلاب حرية الأحرار، وسفك الدماء بلا حد، وتدمير القيم الصالحة بلا حساب، وترويع الأمنين بلا رحمة، وتمزيق شمل المجتمعين بلا هوادة وشل حركة الحياة الطيبة، وإشقاء الكثرة الكاثرة في سبيل إسعاد قلة قليلة، تريد الاستعلاء على الخلق، والفساد في الأرض ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾.

وكما اتخذ هؤلاء الشيطان وليّهم من دون الله، فقد فرض عليهم الشيطان سلطانه، واتخذهم أجناده، واختارهم أولياءه، وألف منهم حزبه، وكوّن نصرائه، فَقَاتِلُوا - جماعة المؤمنين - أعوان الشيطان الغاوين، وطهروا الأرض من دنسهم وفجورهم، وآثامهم وشرورهم، ولا ترهبوا لهم بأساً، ولا تخشوا منهم خطراً، ولا تأبھوا بِعُدَّةٍ لهم ولا عدد ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾.

فما لشیطانهم قوة يعينهم بها، ولا مدد يرسله إليهم، ولا كيد يكيده لهم، ولكن القوة بنا، والمدد منا، والكيد كله لنا ﴿سَكُنْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَنُهُمُ الشَّكْرُ وَيَسَّ مَتَوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١] واعلموا أن كيد الشيطان ضعيف، وهو مردود في نحور أوليائه ﴿إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.



من الدروس المستفادة ثالثاً:

١ - تبين الآية الكريمة أن القتال له سبيلان لا يلتقيان، ولا ثالث لهما؛ سبيل الله - تعالى -، وسبيل الطاغوت، فالمؤمنون يقاتلون لإقرار منهج الله - تعالى - في ملكه، وتثبيت سلطانه العادل في أرضه، وتحكيم شرعه القويم في شؤون خلقه، فإن قاتلوا لغاية أخرى، أو قاتلوا غير عدوهم الذي عرفهم الله - تعالى - به التقى سبيلهم مع سبيل عبدة الطاغوت الذين يقاتلون لرفع راية الفساد، واسترقاق رقاب العباد، ونشر الظلم في البلاد، ودعم سلطان الجبارين، وإقرار تنظيمااتهم الجائرة، والتمكين لأهوائهم الضالة.

٢ - يؤكد الله - تعالى - لعباده المؤمنين ضعف مكيدة الشيطان ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾؛ ليعرفهم مقدماً نتيجة المعركة التي يخوضونها ضد أولياء الشيطان، وليبشّرهم مُسبقاً أنها في صالحهم، وأن النصر فيها معقود لهم، حتى ترتفع روحهم المعنوية، ويطمئنوا إلى عناية الله - تعالى - بهم، ودفاعه عنهم، وتأييده لهم؛ وليبذلوا أقصى ما يستطيعون بذله لتحقيق هدفهم المشروع، وليبلغوا أعظم ما يقدرّون على بلوغه من الشدة والغلظة على أعوان الباطل والطغيان وليثقوا تمام الثقة من ضعف كيد الشيطان.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَىٰ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

دخل الإسلام يثرب، والحرب مستعرة الأوار بين الأوس والخزرج، لا ينطفئ لها لهيب، ولا تخمد منها الأنفاس؛ كلما سكنت عادت جذعة كما كانت، فقد كان من ورائها اليهود تجار الحروب في كل زمان ومكان؛ يشعلون نيرانها، ويسعرون لظاها، ويمدون بها بالوقود

الذي يؤججها، ويزيد من توهجها، ويتعهدونها بالدسائس والفتن، والمشى بين الأخوين بالوشاية، والسفارة بين الشقيين بالسعاية وبقدر ما بذل العقلاء من الفريقين لإحلال السلام بين الحيين المتنازعين من العرب، وبقدر ما بذلوا من الجهود المضنية للتغلب على أسباب الشحنة بقدر ما ظل لظاها متقددا، وجمرها محرقا، حتى دعاهم الإسلام إلى الاعتصام بحبل الله جميعاً، ونبد الشقاق والخلاف، فجمع القلوب على المحبة، وربط بينها برباط المودة، وبنى صرح الأخوة، وأمرهم أن يكفوا أيديهم عن استخدام القوة، وأن يستعينوا على أمرهم بمناجاة ربهم، والتضرع إليه في الصلاة المكتوبة، والنافلة الناشئة، التي تصفو بها أرواحهم، وتزكو نفوسهم، وتعينهم على التحرر من شهوات الطباع، وتطهرهم من غريزة الشح، وتعودهم السماحة والسخاء، وإنفاق المال في مساعدة البائسين والضعفاء، فاعجب - يا محمد - مما انتهى إلى علمك من حال هؤلاء النفر الذين أسلموا، وقيل لهم: طهروا نفوسكم من العداوة والبغضاء، ونظفوا قلوبكم من الأحقاد والأضغان، وادفنوا ما في صدوركم من العصبية للقبيلة، وتخلّوا عما في رؤوسكم من العداوة الآثمة، وانفضوا أيديكم من حروب الجاهلية، واغسلوها من ثاراتها المدمرة التي حصدتكم حصاد النار للهشيم، وأكلت فيكم الأخضر واليابس، وأهلك الحارث والنسل ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، ولا تصغوا إلى الذين يؤرثون بينكم الإحن، ويشعلون نار الفتنة من أهل الكتاب الذين يريدون أن يردوكم على أعقابكم فتقلبوا خاسرين، ولا تصطفوا في حلبة القتال، ولا تفروا إلى ساحة النزال، وفروا إلى رحاب الكبير المتعال، واصطفوا بين يدي رحمته قانتين، وأقيموا الصلاة قائمين خاشعين، وذوقوا حلاوة المناجاة لله رب العالمين، وخطبوه بلسان الصادقين المخلصين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وأدوا ما في أموالكم من حقوق ذوي القربى واليتامى والمساكين، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون، واجتنبوا الشر لعلكم ترحمون.



﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فلما تمت الهجرة إلى المدينة كتب الله - تعالى - على المسلمين أن يحرموا حوزتهم، ويذودوا عن حياضهم، وأن يتصدوا لبغي أعدائهم، وأن يلقوا القوة بالقوة، ويجالدوا السيف بالسيف، ويقارعوا السنان بالسنان، وتوالت الآيات التي تفرض الجهاد في سبيل الله - تعالى -، وتأمّر النبي - ﷺ - أن يحرض المؤمنين على القتال، وتدعو المسلمين إلى أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم، وأن يقتلوهم حيث وجدوهم، وأن يخرجوهم من حيث أخرجوهم، وأن يجدوا فيهم غلظة.

لما حدث هذا كان فريق من المسلمين قد ألف الدعة، وأخلد إلى حياة مستقرة، وفاء إلى عيش رقيق الحاشية، وأظله ظل وارف من الأمن والاطمئنان، فكره امتشاق الحسام، ونفر من الجلال والطعان، وداخله رعب شديد من لقاء عبدة الطاغوت، وعراه فزع قاتل من قتال المشركين، وكان مثار العجب أن يخاف هؤلاء النفر بأس أعدائهم كما يخافون بأس ربهم، بل أشد من خوفهم بطش خالقهم. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾.

وفاضت أنفسهم حسرات، واعتصرهم الأسى اعتصاراً، وخارت عزائمهم، وخانتهم شجاعتهم، وطاشت أحلامهم، وطار صوابهم، وفقدوا ثقتهم بربهم، وإيمانهم بخالقهم، واستنكروا أن يفرض الله - تعالى - عليهم القتال، وقالوا: يا ربنا لم فرضت علينا أن نقدم أرواحنا للموت طائعين مختارين؟ ولم كتبت علينا أن نضحى بحياتنا راغبين قابلين. ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾.

هلا تركتنا نجتني ثمار عيشنا الشهي، وننعم بحياتنا الرخيّة، وهلا أخرتنا إلى أن تنقضي أعمارنا، وتنتهي آجالنا، ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

أخبرهم - يا محمد - أن متاع الدنيا كلها من بدئها إلى نهايتها

قليل، لا متاع أعمارهم على قصرها، ولا متاع أيام معدودة، وسنوات محدودة، فكيف يتشبسون به، ويحرصون عليه، وهو مع تفاهته وضآلته مصحوب بالعناء، مرتبط بالشقاء، وليس متاعاً في الحقيقة، ولكنه مسكنات وقتية للآلام التي يتعرض لها الإنسان في هذه الحياة، وأي متاع في صحة لا تُعرف قيمتها إلا بالمرض، وشباب لا تدري بهجته إلا بالهرم، وسرور لا تُدرك حلاوته إلا بالحزن، وقرب لا يحس المرء راحته إلا بالبعد، وشبع لا تكون لذته إلا من جوع، وري لا معنى له إلا أن ينقع غُلة الظمأ؟ ولقد سماه الذكر الحكيم متاع الغرور ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]. ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾.

والدار الآخرة خير وأبقى، لمن اشتراها بالفانية، وراقب ربه في السر والعلانية، وعمل بكتابه في المنشط والمكره، وتوكل عليه، وفوض أمره إليه، وجعل هواه تبعاً لما جاء به رسول الله - ﷺ - وخاف بأس الله وانتقامه، وخشى بطشه وعذابه، ولم يخف عبداً من عباده، ولم يخش أحداً سواه. ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾.

والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله، وبذل الحياة ابتغاء مرضاته لن يضيع سُدى، ولن يذهب هباء، ولن يمضي بدون مقابل، ولن يكون بغير الجزاء العدل، ولن يُحرم صاحبه الزيادة والفضل، ممن لا يظلم الناس شيئاً قليلاً، ولا يبخسهم من أجورهم قليلاً، وإن تك مثقال حبة من خردل أتى بها، وكفى به حسيباً. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ قَلِيلاً﴾.

رابعاً:

أ - لا يستطيع مؤمن أن يقطع برأي في الحكمة التي اقتضت أن يأمر الله - المؤمنين بكف أيديهم عن قتال المشركين في مكة قبل الهجرة الشريفة، ولا أن يجزم بفهم في هذه المسألة؛ لأن الله - تعالى - لم يصرح لنا بحكمته فيها، ولا علم لنا إلا ما علمنا،



ولكنه لا حرج على العقل أن يبحث عنها، ويجتهد في التعرف عليها، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مستعيناً بالله - تعالى - معتصماً بالإيمان، شريطة ألا يجزم بأن ما وصل إليه نتيجة بحثه واجتهاده هو عين الحكمة التي أرادها الله - تعالى - والباحث المجتهد مأجور على نيته إن أخطأ، ومأجور عليها وعلى بحثه واجتهاده إن أصاب، ولعل من الحكمة في كف المؤمنين عن القتال بمكة في منطق العقل المؤمن:

١ - أن الدعوة الإسلامية في مكة كان طريقها مفتوحاً إلى القلوب، وأن حركتها كانت تسير إلى الأمام متخطية حواجز الحصار المضروب حولها، وأسوار السجن الذي يفرضه أعداؤها عليها، وأنها كانت بعيدة عن الخطر، محمية في شخص الرسول - ﷺ - الذي لا يجرؤ واحد من العرب أن يمسه بسوء في ظل نظام القبيلة الذي يفرض على بني هاشم حمايته، وشوكة بني هاشم قوية مشهورة؛ وهي التي شجّت رأس عمرو بن هشام المخزومي الملقب بأبي جهل من أجل كلمة في ظهر الرسول - ﷺ - قالها، ولم يقلها في وجهه، وبلغت الكلمة حمزة عم النبي - ﷺ - وهو عائد من الصيد، ولم يكن يومها قد اهتدى إلى الإسلام، فعدل عن طريقه إلى بيته، وانطلق إلى مجلس القوم، وضرب رأس أبي جهل فشجه، ولم يستطع مخرومي أن يقول لحمزة - رضي الله تعالى عنه - لم فعلت ما فعلت بعد أن استخزى أبو جهل، وقال: إنه غضب لابن أخيه؟

٢ - أن كل بيت من بيوت المشركين كان يستقل بتعذيب من آمن من أهله، ويتولى بنفسه تصفية حسابه معه، من غير أن يتدخل أجنبي في الأمر، ومعنى فرض القتال في هذه الحال أن تقوم معركة في داخل كل بيت، وربما انتهت هذه المعركة بالقضاء على القلة المؤمنة، وهذا منتهى ما يتمناه المشركون، ويسعون إليه.

- ٣ - أن دعوة الله - تعالى - ما زال جُلّ نشاطها محصوراً في نطاق مكة، وما جاورها من التخوم، ولمّا تغز الجزيرة العربية كلها، وبعض القبائل لم تتكشف له حقيقتها، والبعض الآخر يقف متربصاً، يرقب نتيجة الصراع الشديد بين الرسول - ﷺ - وقومه .
- ٤ - أن جماعة كثيرة من زعماء قريش، الذين يُشرفون على تعذيب المؤمنين، ويصدون العرب عن الإسلام قد سبق في علم الله - تعالى - أنهم سيكونون من الصفوة المؤمنة .
- ٥ - أن فترة مكة كانت لغرس العقيدة السليمة، والتربية على منهج الله - تعالى - ومن أهم أهداف هذه التربية أن يعتاد المؤمن الصبر، وأن يحتمل الأذى في نفسه وماله، حتى تهون عليه نفسه في جنب الله، ويرخص عنده ماله من أجل هدف أسمى، وغاية عظمى؛ من أجل عقيدته، وفي سبيل إعلاء كلمة ربه .
- ٦ - أن احتمال المؤمن قسوة التعذيب، واصطباره على الظلم، ووقوفه مكتوف اليدين، وهو قادر على أن يكيل الصاع صاعين يحرك النخوة العربية التي تأبى الضيم، وتثور للكرامة، وتغضب للمظلوم، وتقف إلى جانبه، وتهب للدفاع عنه، وإنصافه، هذه النخوة هي التي كانت الباعث على إقامة «حلف الفضول»، ووراء تمزيق صحيفة المقاطعة لبني هاشم، التي كتبتها قريش، وعلقتها داخل الكعبة .
- ب - يحتمل الاستفهام في قوله - تعالى - : ﴿لَمْ يَكُنْ عَلَيْنَا أَلْفَاكٌ؟﴾ وجهين: التحسر أو الإنكار، فإذا حملناه على معنى التحسر حكمنا على قائله بضعف الإيمان وإذا فسرناه بمعنى الإنكار حكمنا عليهم بالنفاق، وهاتان الطائفتان حيثما وجدتا كانتا نقمة وبلاء على الأمة الإسلامية .



ج - تفيد الآية الكريمة أن ظروف البيئة التي تحيط بالإنسان تؤثر في طباعه في كثير من الأحيان، وتغير نظراته للأشياء، وفلسفته في الحياة؛ فالعيش الرغد الهنيء، والإقامة في ظل الأمن والاستقرار، والإخلاد إلى الهدوء والراحة، أمور تطفئ جذوة الحماسة للدفاع عن الحوزة، وتذهب الحمية الدينية، وتحرك في النفس ديبب الخوف، وتبسط همّة المرء عن الإسراع إلى تلبية نداءات الواجب.

د - من دقة التعبير الذي يلحظها المتدبر في الآية الكريمة أن الله - تعالى - سمي حظوظ الدنيا متاعاً، ولم يسمها نعيماً وهذا يشعرنا بالفرق الكبير بينهما فالمتاع: انتفاع بالشيء لفترة قصيرة، ولو كان هذا الشيء كفراً وشرّاً. ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، وهو لا يصفو من الأكذار، ولا يخلص من المتاعب، ولا يتجرد من الشقاء، والله در الحكيم المعاصر:

ما أنت يا دنيا؟ أرؤيا نائم أم ليل عرس، أم بساط سلاف؟
نعمائك الريحان إلا أنه مسّت حواشيه نقيع زعاف

والنعيم: صفاء العين من كل تعكير، وخلوص الحياة من شوائب التكدير ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾، وبالنعيم سمي الله - تعالى - جناته. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٨، ٩]، وهو دائم لا ينقطع، وعطاء غير مجذوذ.

﴿أَيَنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدِينَ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

وقد قضى الله - تعالى - على كل نفس بأن تذوق الموت، وحكم

على كل حيٍّ بالفناء وكتب الهلاك على جميع الأشياء، ولم يكتب الخلود في الدنيا لأكرم الأنبياء. ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٤، ٢٥]. والآجال مقدرة موقوتة؛ فلا يُعجلها عن وقتها القتال والإقدام، ولا يؤخرها القعود والإحجام ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

ومن الخطأ البين أن يتصور مؤمن، أو يظن عاقل أن الذي قضى نحبه غازياً أو مسافراً، أو مات في حادث لو قعد في بيته، ولم يغادره لنجا من الموت، وأفلت من قبضة الهلاك، وقد نهى الله - تعالى - المؤمنين عن هذا التصور، وجعله من تصورات الكفار ومعتقداتهم ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٥٦] والله - تعالى - يحيي ويميت في كل مكان، وعلى أية حال، يحيي مع المرض، وإن لم يأمر بالتعرض له، وشرع التداوي منه، ويميت مع الرعاية الصحيحة، وإن لم يفرض إهمالها، وحث على الأخذ بها، يحيي في قلب النار المسعرة، وفي بطن الحوت ويميت في قلب البروج الشاهقة، وتحت أسقف البيوت القوية الحصينة ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُبَاتًا وَطَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، والله - تعالى - علام الغيوب، عليم بذات الصدور، وقد علم ما في قلوب الكافرين من حقد



على المؤمنين، وإصرار على قتالهم، وبُغض لكل خير يصيبهم، وسعى لصدّهم عن دينهم، ودّأب للظهور عليهم حتى يعيدوهم في ملتهم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْهَرَمِ الْقَرَارِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْبَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

ففرض عليهم القتال قبل أن يفرضه عليهم أعداؤهم، وأمرهم بالإعداد له حتى لا يؤخذوا على غرة، وأخبرهم أنه ناصرهم إن نصره، ووليّهم إن تولوه، وكفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً، وأنبأهم ضعف كيد الشيطان حتى لا تطير قلوبهم فرقاً، وبشرهم بأن الشهداء أحياء لا يموتون. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]. حتى ترخص عندهم الحياة، ويعشقوا الموت في سبيل الله. وإذا ساغ لأرباب الضلال أن يستमितوا في بسط سلطان ضلالهم، وطاب للمبطلين أن يدفعوا حياتهم فداء لباطلهم، أفلا يسوغ لأرباب الهدى أن يدعموا سلطانه، ولأصحاب الحق أن يثبتوا أركانه، ويعلموا بنيانه، ويُنطقوا لسانه، ويظهروا حجته وبرهانه، وقد وعدهم ربهم إحدى الحسينين: نصر وغنيمة، أو شهادة كريمة على أن الحرص على الموت ذودا عن الحق يهب الحياة العزيزة الأبية، وخلود الذكر. والتأخر لاستبقاء الحياة يسلم للموت الأبدي.

لَيْتَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ
ولقد وعى قادة الجيوش الإسلامية في العصر الأول هذه الحقيقة، وفطنوا إليها، فكانوا يقولون لأعدائهم: جئناكم بقوم يحرصون على الموت ويحبونه. كما تحرصون على الحياة وتحبونها.

﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾

ومهما حاول المنافقون أن يسترُوا نفاقهم، ويخفوا ما أبطنوه في أنفسهم من الكفر، فإن الله - تعالى - يبيده في مقالهم، ويكشفه في عثرات منطقهم، فما أضمر أحد شيئاً إلا أظهره الله - تعالى - في فلتات لسانه، وعلى صفحات وجهه وهؤلاء المنافقون كانوا إذا جاءهم خير، أو أصابوا سعة في الرزق، ورغدا من العيش، أو مستهم نعمة، أو وجدوا مغنماً، أو زكا عندهم الحرث والنسل، قالوا: هذا العطاء فضل خالص لله علينا، وإحسان إلينا من عنده يدل على كرامتنا عليه، ورضاه عنا، وعنايته بأمرنا، وقد خصنا به، لأننا أهل له دون سوانا، وأحق به من غيرنا ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهم لا يقولون هذا بوازع من الإيمان الصادق بربهم، ولا اعترافاً بفضله عليهم، ولا شكراً لإحسانه إليهم، ولكنهم يقولونه لدوافع أخرى منها:

١ - الجهل المطبق بحقيقة القضاء والقدر الذي جعلهم يعتقدون أن هناك متصرفاً آخر في هذا الكون غير الله - تعالى - يختص بتقدير الشر، وإنزال المكروه.

٢ - التعريض برسول الله - ﷺ - وتجريح شخصيته الكريمة، والقصد إلى أنه لا خير وراءه، ولا مصلحة في اتباعه.

٣ - ثقل أعباء الجهاد على نفوسهم، وعجزهم عن تحمل تكاليف التضحية جعلهم يخلقون مبرراً، وينتحلون عذراً يعفيهم من القيام بالمسؤوليات التي فرضها عليهم الإسلام. ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾.

وإذا ضيق الله - تعالى - عليهم في الرزق، فأصابهم قحط وعسر، أو نزل بهم جذب أهلك الحرث والنسل، أو مسهم الضر، وعشش في بيوتهم الفقر، أو فشا فيهم المرض، ونفقت الماشية، وكسدت التجارة، وعقمت النساء، ومُنُوا بالهزيمة قالوا - قاتلهم الله - هو الذي نزل بنا من شؤم محمد علينا، وهذا هو عين منطق الكفار لرسولهم؛ قالته ثمود لصالح



- عليه السلام: ﴿قَالُوا أَطِيعُوا بَنِيكُمْ وَيَمْنُ مَعَكُمْ قَالَ طَاعُوا اللَّهَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]، وقاله آل فرعون لموسى - عليه السلام -: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ سَيِئَتْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

قل لهم - يا محمد - إن كل ما يصيبكم من الخير أو الشر، وما ينزل بكم من السراء والضراء هو من عند الله - تعالى - وحده؛ فهو خالق كل شيء وموجده، وهو صانع الأسباب والمسببات، وهو الفعال لما يريد، والإصابة بالحسنة أو السيئة ليس لها إلا مصدر واحد، هو الله - تعالى -، والناس لا يملكون مع الله - تعالى - شيئاً من أمرهم، ولا من أمر غيرهم، وهو - سبحانه - يوليهم وجهتهم، ويعطيهم القدرة على الفعل ﴿وَالْكُلُّ وَجْهٌ هُوَ مُوَلِّئُهَا﴾^(١)، ولكن شيئاً ما لا يتحقق لهم إلا بإرادته وتقديره، ونسبة فعل من أفعال الله - تعالى - إلى واحد من البشر برهان على انطماس الفطرة، وعمى البصيرة، ودليل على الإغراق في الجهل، وسوء الفهم، وأمارات الكفر والنفاق، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾. فما الذي أصاب عقول هؤلاء القوم؟ وأي شيء أبعداها عن الفهم الصحيح لحقائق الأمور التي يجري بها قضاء الله - تعالى -؟، ولم تقف عند ظواهر الأحاديث التي تلقى إليها، ولا تكتنه أسرارها، ولا تغوص إلى أعماقها، ولا تدرك ما يقصد منها؟ ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

خامساً:

١ - تتخذ الآية الكريمة من الواقع المحتوم، ومن حقيقة الموت الثابتة التي لا تتخلف أبداً ولا تعصم منها البروج المشيدة دليلاً على فساد رأي الذين يسخطون على فريضة الجهاد، ويجبنون عن لقاء أعدائهم، ويقعدون عن القتال في سبيل الله - تعالى -، وإنقاذ

(١) البقرة: ١٤٨.

المستضعفين أينما كانوا، ومتى وجدوا ﴿أَتَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾.

٢ - تبطل الآية الكريمة عادة التطير والتشاؤم، وهي من عادات العرب السيئة، وخرافاتهم الشائعة، وأوهام الوثنية التي ينفر منها العقل السليم، وتصحح عقيدة الناس، وتردّهم إلى المؤثر الحقيقي، وتهديهم إلى الفهم الصحيح، وتعرفهم أن المتصرف في شؤون الخلق هو الله - تعالى - وحده ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

٣ - تبين الآية الكريمة أن الذين لا يفرقون بين خصائص الذات الإلهية، وخصائص البشر، ويخلطون بين ما تصنعه قدرة الله - تعالى - وبين ما يدخل في طوق البشر وينسبون أفعال الخالق - سبحانه - إلى المخلوقين قوم محرومون الفهم السليم، والإدراك الصحيح، لما يسمعون من الحديث، وما يبلغهم من الوحي.

وهي تدعو الناس جميعاً إلى تأمل الأحاديث التي تلقى إليها، وإدراك أهدافها، وفهم أسرارها، وتأمرهم بالبحث عن الحقائق، ومحاولة استخلاصها، والعمل على تمحيصها، وتنقّرها من السطحية، والوقوف عند الظاهر، والاستغناء بالقشور عن اللباب، والاكتفاء بالزبد الطافي عن النفس الغائص إلى القاع.

٤ - تكشف الآية الكريمة عن حلقة من حلقات الاتصال بين المنافقين واليهود، وتشير إلى خيط من الخيوط التي تربطهم بهم، وتجعلهم يقتفون أثرهم؛ فإن اليهود هم الذين أشاعوا قالة السوء في رسول الله ﷺ -، وأرجفوا في المدينة معلنين: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا مذ قدم علينا هذا الرجل وردد المنافقون مقالاتهم، وجاء الوحي الكريم يفضحهم، ويسفه عقولهم.

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.



ما أصابك أيها الإنسان من خير وبرٍّ، وما مسَّك من خصب ورخاء، وبركة ونماء، وما رزقته من نعمة التوفيق والهداية هو منحة من ربك، وهبة من خالقك. ومنَّة خالصة من إلهك، وإحسان محض من ذي الفضل العظيم، لا تستحقه لذاتك، ولا تستأهله لشخصك، ولا تستوجبه لمزية فيك؛ لأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم، وهو - سبحانه - يختص برحمته من يريد، وهو واهب الحياة بدءاً، ومنشئ السمع والأبصار والأفئدة أولاً. ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾.

وما يلمّ بساحتك - أيها الإنسان - مما يسوء نفسك، ويحزُن قلبك، في شؤون حياتك، وأمور عيشك، فالسبب فيه سوء اختيارك لما فيه مصلحتك، وتقصيرك في تعرف نوااميس الله الكونية، وتراخيك عن العمل لما ينفعك، وعودك من الأخذ بأسباب الخير، وانحرافك عن منهج الله - تعالى - الذي جاءك به وحيه، وعصيانك أوامره، واعتداؤك على حدوده.

وهو مع هذا امتحان من رب العباد يوقظ به الغافلين، ويكون حجته على المفرطين الذين ﴿أَوَّلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَآمٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]، ولو يعاقب الله - تعالى - الناس بأوزارهم، ويؤاخذهم بجرائرهم لأهلكهم جميعاً ولم يبق لهم باقية، ولكنه يتجاوز عن كثير من سيئاتهم رحمة منه وفضلاً. ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾.

وقد جرت سنتنا فيمن اصطفيناهم من رسلنا أن نبعثهم إلى أقوامهم خاصة، ولكننا أرسلناك - يا محمد - للناس كافة بشيراً ونذيراً، ولم نبعثك للعرب وحدهم، فما أعظم رسالتك التي تستمد عظمتها منا، وما

المؤمن، وانقسام الجماعة إلى معسكرين متعارضين.

٢ - من اختار الضلالة، وأثرها على الهدى، هياً الله - تعالى - له أسبابها، ومكّن له في وسائلها، وزيّن له سوء عمله، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، ولن يجد من دون الله - تعالى - هادياً يهديه، ولا مرشداً يرشده.

٣ - نعلم من قوله - تعالى - : ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟﴾ أنه يجب على المؤمنين أن ينفضوا أيديهم من الذين ثبتت غوايتهم، وظهرت علامات النفاق فيهم، وألا يشغلوا أنفسهم بأمرهم، وألا يعلقوا قلوبهم بهدايتهم.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَفْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

إن هؤلاء المنافقين الذين لم تقطعوا فيهم برأي، ولم تجمعوا تجاههم على موقف، ولم تقررنا نحوهم خطة، يضمرون لكم أشد العداوة، ويحسدونكم على نعمة الإيمان، ويحبون لكم الشر، ويودون أن ترجعوا إلى الكفر، الذي أرجعهم الله - تعالى - إليه بسوء نياتهم، وأوقعهم فيه بفساد أعمالهم، وقبيح مخالفتهم؛ لتكونوا جميعاً سواء في الكفر والضلال، وما يكون لكم أن تعودوا في ملتهم التي نجاكم الله منها. ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُوا سَوَاءً﴾.

وما فيهم من أحد يخلو قلبه من الحقد والموجدة، ويبرأ صدره من العداوة والبغضاء، فهم بقضهم وقضيضهم شائنون، فانبذوا ولايتهم، واقطعوا حبال مودتهم، ولا تتخذوا منهم أنصاراً ولا أعواناً، وإن تظاهروا بالإسلام، وكانت بينكم وبينهم وشائج نسب أو مصاهرة، ما داموا في أرض الشرك، وما أقاموا في دار الكفر، حتى ينطلقوا إلى الله - تعالى - ورسوله مهاجرين، فإن فعلوا كانوا مواليككم وإخوانكم في



الدين ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. فإن قعدوا عن الهجرة، ونكلوا عن الخروج وراءكم، وأعرضوا عن اللحاق بكم، فخذوهم أسرى إذا أمكنكم الله - تعالى - منهم، وأعلنوا عليهم القتال في كل مكان يحلّون فيه، واقطعوا رقابهم بسيوفكم، واقتلوهم حيث لقيتموهم، وابْتَرُوا صلات النسب، وعلائق القرابات بينكم وبينهم، ولا ترجوا منهم عوناً، ولا تبتغوا فيهم نصيراً ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعُدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

من الدروس المستفادة أولاً:

١ - ذاق المؤمنون حلاوة الإيمان، ولم يعد أحد أحب إليهم من الله ورسوله، ولا شيء أبغض إليهم من الكفر الذي طهرهم الله - تعالى - منه، ولا أشد قبحاً من رجس الجاهلية الذي أذهب عنهم، ولقد تحملوا الأذى في أبدانهم، وسيروا على البلاء في أنفسهم، وواجهوا العذاب الذي طحنتهم رحاه ومزقت أبشارهم سياطه، وأنضجت جلودهم ناره؛ ليسلم لهم هذا الدين الذي أخرجهم الله - تعالى - به من الظلمات إلى النور، وحوّلهم من عبادة الأحجار إلى تقديس الواحد القهار، ونقلهم من الضعة والمهانة إلى الحياة التي أحسوا فيها بإنسانيتهم، وشعروا بكرامتهم.

٢ - ولا شك أن محبة المنافقين أن يردوا المؤمنين عن دينهم، ورغبتهم أن يعيدوهم في ملتهم هي أكبر الجرائم التي لا يغتفرها المؤمنون لأهل النفاق، وشرّ المصائب التي يخشونها، وأشدّ ما يهيج سخطهم، ويثير غضبهم، ويحرك بغضهم لهذه الفئة المارقة؛ والعليم الخبير - سبحانه - يعلم أن هذه الحقيقة تزعج المؤمنين، وتلهب غيظهم، وتؤرث حقدهم، وتضرم حفيظتهم؛ ولهذا يكشف لهم عنها ويصرح لهم بها ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾.

٣ - في قوله - تعالى - : ﴿ كَمَا كَفَرُوا ﴾ دليل على أن النفاق باب من أبواب الكفر وحكم على المنافقين بأنهم كافرون .

٤ - تحدثت السورة الكريمة فيما سبق عن المنافقين الذين عاشوا في المجتمع الإسلامي ، وكان منهم من ثاقل عن الخروج للجهاد ، ومن بطأ غيره ، ومن أراد التحاكم إلى الطاغوت ، ومن تشاء برسول الله - ﷺ - ولقد وضح نفاق عبد الله بن أبي بن سلول في كثير من المناسبات ، وظهر نفاق من تبعه من قومه ، ولم يأمر الوحي الكريم بقتل هؤلاء المنافقين ، مما يدل على أن المنافقين الذين أمرت الآية الكريمة بأسرهم وقتالهم ، لم يؤخذوا بجريرة النفاق ، ولكنهم أخذوا بجريمة التخلف عن الهجرة المفروضة ، والانضمام إلى أعداء الإسلام ، ومظاهرتهم على قتال المسلمين .

٥ - يقوم التناصر بين الأمة المسلمة على أساس العقيدة ، والهجرة إلى دار الإسلام ، واتباع النظام الذي شرعه الله - تعالى - لها ، وفرضه عليها ، والخضوع لمنهجه القائم فيها ؛ فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، ولا تناصر بين المؤمنين والكافرين ، ولا بينهم وبين الذين يقيمون في دار الحرب من المسلمين .

٦ - تتوقف توبة المنافقين على انضمامهم للجماعة المؤمنة ، وتأيدهم إياها ، وقطع جميع علاقاتهم بأعدائها ، والكف عن مساعدتهم ، ومؤازرتهم .

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُغْلِبُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعَزَّ لُوكُمْ فَلَمْ يُغْلِبْكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَّمْ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ .

وهذا الأمر بأخذ المنافقين أسرى ، وقتلهم أينما وجدوا لا يشمل طائفتين منهم :



أ - الذين يدخلون في عهدكم وميثاقكم، فيلحقون بقوم ارتبطتم بهم، وأقمتم بينكم وبينهم حلفاً، وتعاهدتم معهم على السلم والموادة، كقبيلة خزاعة التي كان لها عهد مع المسلمين بعد صلح الحديبية؛ فمن لحق بها من المنافقين حرم أسره وقتاله. ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

ب - الذين تضيق نفوسهم، وتأبى قلوبهم أن يقاتلوكم، ويجدون مشقة وعنتاً، وتمتلئ صدورهم حرجاً بقتال قومهم؛ فيعلنون سياسة الحياد بينكم وبين قومهم ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾. ولا تنسوا فضل الله - تعالى -، ونعمته عليكم، ولا تغفلوا عن رحمته بكم، ولا تنكروا إحسانه إليكم؛ فقد صرف عنكم بأسهم، ورد كيدهم وكف أيديهم عن قتالكم، وألقى عن كاهلكم عبء قتالهم بمشيئته وحكمته، إنه كان بكم رؤوفاً رحيماً، ولو شاء لأوغر صدورهم منكم، وأغراهم بكم، وأثار حفيظتهم، وأشعل نار حقدهم، وسلطهم عليكم، ليقاتلوكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ﴾.

فإن التزموا الحياد الذي اختاروه لأنفسهم، واجتنبوا قتالكم، وتركوا حربكم، وأفسحوا طريقكم، ولم يعرضوا لكم بسوء، ولم يبدءوكم بالعدوان، فلا تبدءوهم به، وإن أخذوا جانب السلم فما جعل الله - تعالى - لكم سبيلاً إلى قتالهم. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

من الدروس المستفادة:

١ - تشهد الآية الكريمة بأن الإسلام لا يسعى إلى سفك الدماء، ولا يصطنع المبررات، ليعلن الحرب، ويشن الغارات، ولكنه يؤثر جانب السلم، ويهادن الذين لا يتعرضون له بسوء، ولا يقفون في طريقه، ولا يعينون عليه أعداءه.

٢ - وإنه لسلوك كريم، وموقف رائع نبيل، وقفه الإسلام من الجماعة التي ضاقت ذرعاً بقتال قومها، وخرجت صدورها بقتال المسلمين، ووقفت على الحياد، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، ولم يلزمها أن تتنكر لمشاعرها وتقاتل عشيرتها.

٣ - وإنه لتصرف حكيم أن يعتبر الإسلام من حلفائه هؤلاء الذين يدخلون في حلف محالفيه وعهدهم، وأن يجري عليهم بنود الاتفاقية التي أجراها معهم وقررها عليهم، ليحفظ الأرواح، ويحقق الدماء.

﴿سَتَجِدُونَ ءَآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى آلِفْنَةٍ أُزْكُسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

وستلقون طائفة أخرى من أهل النفاق، استبد بهم الخوف، وتمكن منهم الجبن، وسيطر عليهم الرعب، واشتد حرصهم على الحياة، وتعلقهم بمتاعها، ورغبتهم فيها، ليس لهم إربة ولا غاية إلا أن يأمنوا جانبكم، ويتقوا بأسكم، وتسلم رقابهم من سيوفكم، وسيوف قومهم ﴿سَتَجِدُونَ ءَآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ ولكنهم مردوا على النفاق، واستمرعوا الكفر والفسوق، كلما سنحت لهم فرصة للشرك عادوا إليه، وانغمسوا فيه، وكلما دعوا إلى الضلال ارتدوا على أعقابهم، ونكسوا على رؤوسهم عاتدين إليه ﴿كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى آلِفْنَةٍ أُزْكُسُوا فِيهَا﴾.

فإن لم ينتهوا عن قتالكم، وبهجروا نزالكم، ويعتزلوا لقاءكم وجلادكم، ويقفوا منكم مكتوفي الأيدي، ويتركوا الإيقاع بكم، ويكفوا أنفسهم عن مؤازرة أعدائكم، فخذوهم أسارى، وحكموا السيوف في رقابهم، وأغمدوا نصال الرماح في صدورهم، ولا تألونهم تنكيلا في كل موطن يرصدونكم فيه ﴿فَإِن لَّمْ يَعْزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْلُبُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾.



وأولئكم البعيدون عن رحمة ربكم وهده، قد جعلنا لكم في أسرهم، وقتلهم، والتنكيل بهم حجة واضحة، ودليلاً ظاهراً بسبب غدرهم، وخروجهم لقتالكم ﴿وَأُولَئِكَمَّ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ .

ثانياً:

١ - تشترط الآية الكريمة لعدم أسر هؤلاء القوم، وحقن دمائهم أن يعتزلوا قتال المؤمنين، ويسالموهم، ويكفوا أيديهم عنهم بالأذى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُواكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ﴾ . . .

وهذا الاتجاه يوضح مبلغ حرص الإسلام على إقرار السلام في دنيا الناس، وأن هدفه الحقيقي أن يسلم المؤمنون منبغي المستكبرين في الأرض بغير الحق.

٢ - كما أن سعي الإسلام لأن يسود السلام على وجه الأرض يؤكد أنه يزدهر في كنف الأمن، وينتشر في ظل الاطمئنان والسلم، لأنه غني بما أودع فيه ربنا - سبحانه من عوامل القوة، ومقومات الحياة، وأسباب الخلود، وأن عقيدة الإيمان تشق طريقها إلى القلوب في يسر، وتنفذ إلى العقول دون عناء إذا لم تقف في وجهها عقبة مصطنعة، وأنها منطق الفطرة التي فطر الله - تعالى - الناس عليها.

٣ - وتعلق الإسلام بأهداب السلام على هذا النحو الذي توضحه الآيات الكريمة السابقة يدل على خطأ الذين يزعمون أن الإسلام انتشر بحد السيف، وأن هذا الدين لا خطر عليه من السلم، بل إن السلم خير أعوانه على بلوغ غايته، وأمضى أسلحته في تحقيق هدفه، ومن أظهر الشواهد على صدق هذه النظرة، وصحة هذه القاعدة صلح الحديبية، أول صلح أبرم بين المسلمين والمشركين في أواخر السنة السادسة للهجرة؛ فإنه ما كاد يمضي عامان على

قيام هذا الصلح حتى ربا عدد الذين دخلوا في دين الله أفواجاً على عدد الذين أسلموا قبل هذه الهدنة؛ فقد سادت حرية الدعوة إلى الله - تعالى - في ظل السلام، وتُلي القرآن الكريم على أسماع المشركين، وجهر المسلمون بحوار المشركين ومناظرتهم في الإسلام، وأعلن الإسلام من كان يخفيه، وقد سمي القرآن الكريم هذا الصلح فتحاً، فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

٤ - والإسلام لا يلجأ إلى إعلان القتال إلا عند الضرورة القصوى، حيث لا يجد مفراً من إعلانه؛ ليزيل العقبات التي تقف في وجهه، وتحول دون تبليغه للناس، ويضمن حرية العقيدة، ويحمي حرية الإرادة، ويكفل أمن المؤمنين، ويهيئ لهم الجو الذي يتمكنون فيه من طاعة ربهم، وممارسة شعائرتهم في حرية تامة، واختيار صحيح.



سُورَةُ التَّائِبَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ
 مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى
 أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَ
 مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ
 إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
 فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ
 اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
 مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَأَيُّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا
 لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
 عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ
 كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَرَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
 فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾
 لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ
 وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ
 الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً
 وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا﴾	ليس من خلق المؤمن، ولا من شأن وواقع حاله أن يفكر في قتل المؤمن.
﴿إِلَّا أَخْطَأَ﴾	لكن يقع قتل المؤمن عن غير تدبير وقصد.
﴿إِلَّا أَنْ يَصْطَدَّ قَوْمًا﴾	إلا أن يتنازل أهل القتل عن الدية، ويعفوا باختيارهم.
﴿مِثْلَ﴾	عهد، ومصالحة.
﴿فَدْيَةٌ﴾	فمغرم مالي يدفعه القاتل لأولياء القتيل عوضاً لهم.
﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾	عتق عبد مؤمن، أو أمة مؤمنة.
﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾	فمن لم يجد الرقبة المؤمنة التي يرد إليها حريتها.
﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾	فعليه صيام شهرين قمرين لا يفطر يوماً فيهما لغير عذر شرعي.
﴿صَرِيحٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	خرجتم للغزو.
﴿فَقَتِلُوا﴾	فتمهلوا في قتل من اختلط عليكم أمر إسلامه.
﴿لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ﴾ السَّلَامَ	لمن استسلم لكم خاضعاً، وألقى إليكم زمامه طائعاً.
﴿عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾	متاعها ومالها، وزخرفها وزينتها.
﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾	كذلك كنتم تخفون إيمانكم من مشركي قومكم، أو كذلك كنتم تعلنون إسلامكم ثقية من القتل، أو تحاربون للمغنم في الجاهلية.
﴿الْقَائِدُونَ﴾	المتخلفون عن الهجرة، وعن الخروج للغزو من غير عذر.
﴿غَيْرِ أُولِي الْقَرَرِ﴾	غير العاجزين.
﴿عَفُورًا﴾	لمن يستحق المغفرة.
﴿رَحِيمًا﴾	بمن يرجو رحمته، ويخشى عذابه.

التأويل والبيان:

فصلت السورة الكريمة أحكام دماء المنافقين؛ ما يهدر منها، وما لا يهدر، ثم أخذت في بيان الدم المصون الذي يجب حقنه، وتفصيل الأحكام التي تتعلق بكل من القتل خطأ أو عمداً.

مناسبة النزول:

رُوي أن أبا جهل بن هشام، وأخاه الحارث قدما إلى المدينة، واحتالا على أخيهما لأمه: عياش بن أبي ربيعة، وأخبراه أن أمه آلت على نفسها ألا يظنها سقف حتى ترى ابنها عياشاً، ولما سمع عمر بن الخطاب الخبر فطن للحيلة، ونصح عياشاً ألا يستجيب لمكيدة عدوِّي الله، وذكر له أن أمه لو أحرقتها الشمس لاستظلت، ولكن قلب عياش رقَّ لأمه، فلما رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إصراره على المضيِّ معهما أعطاه ناقة له سريعة، وأوصاه أن يأخذ منهما حذره، وأن يفرَّ عليهما إن وجد منهما غدرًا به، فلا يدركاه، وفي بعض مراحل الطريق استعان أبو جهل والحارث برجل من كنانة على شدِّ وثاق عياش وجلده، وأدخلاه مكة مقيداً على ناقته، وطافا به أرجاءها، وأبو جهل يصيح في الناس: هكذا فافعلوا بسفهاكم، ثم أودعاه السجن، وآلى عياش على نفسه أن يقتل الكناني الذي أعان عليه أخويه، وأمكنته الفرصة بعد فتح مكة من قتله فقتله، ولم يكن يعلم أن الله - تعالى - قد هداه للإيمان، فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا...﴾ ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

الإيمان بالله - تعالى - يزكي نفس المؤمن، ويصون دمه، ويحقنه،



ويجعل له دماً غالباً محترماً، ويعصمه من أن يسفك عمداً، ويحفظه من أن يُهدَر قصداً، وقد جاء تحريم قتل النفس بغير حق بأسلوب النهي الصريح في بعض السور المكية، كالأنعام، والإسراء بقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وهذه الآية الكريمة تؤيد هذا التحريم بأسلوب آخر، أتى على غرار الأساليب التي نزه الله - تعالى - بها ذاته العلية عن اتخاذ الولد، وعن النسيان، وعن ترك المؤمنين دون محن تميز الخبيث من الطيب، وعن اطلاعهم على الغيب في قوله - سبحانه - ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾ [مريم: ٣٥] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَيِّئًا﴾ [مريم: ٦٤]، وقوله: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، ومن مزايا هذا الأسلوب.

- أ - أنه يوحي بأنه ليس من شأن المؤمن، ولا من واقع حاله، ولا من خلقه وسلوكه أن يفكر في قتل مؤمن مثله، أو يهجم بإزهاق روحه.
- ب - وأنه يشي ببشاعة هذه الجريمة وشناعتها، ويشير إلى بلوغها الغاية في القبح.
- ج - وأنه يؤكد في وجدان المؤمن، ويثبت في تصوره، ويُقرّ في حسه أن الإيمان يرفضها ويأبأها، ويتعارض وجوده معها، ويبرأ منها براءة كاملة.
- د - وأنه يهيب بالمؤمن أن يتنزه عن فعلها، ويعصم نفسه من ارتكابها، ويعتبر الإقدام عليها من الأمور المستحيلة، وأن يدرك أنه لا يوجد مبرر لأن يقتل مؤمن مؤمناً متعمداً في غير قصاص ولا حد؛ لأن من طبيعة الإيمان الصحيح أن يوجد التجانس الكامل، والاتفاق التام بين المؤمنين، وتجمع قلوبهم على الألفة، وصادق المحبة؛ فلا يبلغ المؤمن حد الإيمان، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، وبهذا تقوم الأخوة الحقيقية بين المؤمنين،

ويتحقق بينهم الولاء، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، ويشد بعضهم أزر بعض حتى يصبح أحدهما للآخر كالبنيان يمسك بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ومن أخص صفات المؤمن أن ينصف أخاه من نفسه ولا يظلمه، وأن يحميه من أعدائه، ولا يدفعه إليهم ولا يسلمه، وأن يعرف له قدره، ويوقره، ولا يحقره، والرسول - ﷺ - يقول: «كل المسلم على المسلم حرام دمه؛ وعرضه، وماله»، وقد قرر الله - تعالى - في كتابه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ﴾ [المائدة: ٣٢]، وفي الحديث الشريف: «المؤمن بنيان الله ملعون من هدم بنيانه» ﴿وَمَا كَانُ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾.

وقتل النفس المؤمنة بطريق الخطأ يمكن حدوثه، ومن العسير الاحتراز منه؛ فقد يرمي الإنسان ما يعتقده صيداً فيصيب إنساناً، أو يدهمه بسيارته غير قاصد، أو تنقلب الأم على طفلها في أثناء النوم، أو ما يشبه ذلك. وإذا وقع القتل خطأ فله ثلاث حالات: -

١ - أن يكون القتل مؤمناً من قوم مؤمنين يعيشون جميعاً في أرض الإسلام، وفي هذه الحال يجب إعتاق رقبة مؤمنة كتعويض للمجتمع الذي فقد واحداً من أفراده، وكاستحياء معنوي لنفس بدل نفس، ودفع ديتة إلى ورثته في مقابل دمه، تهدئة لحفيظتهم، وإطفاء لثائرة غضبهم، وتخفيفاً لآلامهم، وجبراً لكسرهم، إلا أن يتنازل الورثة عنها ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ ...



٢ - أن يكون المقتول مؤمناً يعيش في دار الحرب، وأهله من قوم يعادون المسلمين، ويحاربونهم، وحينئذ يجب إعتاق رقبة مؤمنة فقط عوضاً للمجتمع المؤمن عن النفس التي فقدها، ولا تدفع دية لأهل القتل المحاربين؛ لئلا يستعينوا بها على قتال المسلمين ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.

٣ - أن يكون المقتول المؤمن من قوم غير مؤمنين، ولكن قومه يرتبطون بالمؤمنين بعهد ذمة، أو ميثاق هدنة، وحينئذ يجب تحرير رقبة مؤمنة، ودفع ديته إلى أهله ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] ومقدار الدية: مائة من الإبل، أو ألف دينار ذهباً، أو اثنا عشر ألف درهم فضة.

فإن كان القاتل لا يجد الرقبة المؤمنة لتحريرها، وجب عليه أن يصوم شهرين قمرين متتابعين؛ فإن أفطر في أثناء الصوم من غير عذر شرعي لم يحسب له ما مضى من الصوم، واستأنف صيام الشهرين من جديد، تكفيراً له عن خطئه، وعقوبة له على التهاون والإهمال، وتوبة من إثم التقصير والتفريط. ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾. والله - تعالى - يعلم الوسائل التي تكفل حقن الدماء، وتُصلح حال خلقه. ويقرر العقوبة الرادعة، ويضع العلاج الحاسم، وقد جاءت أحكامه كلها، وتشريعاته على مقتضى الحكمة فهو - سبحانه - الحكيم في كل تدبير، وكل تقدير ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة:

١ - تشتمل الآية الكريمة على أحوال القتل الذي يقع بطريق الخطأ ونظام الكفارة في كل حالة.

- ٢ - يهدف الحكم بتحرير رقبة مؤمنة في جميع حالات القتل الخطأ إلى تعويض المجتمع عن النفس التي فقدها، باستحياء نفس أخرى مكانها، تسد مسدّها، وتؤدي دورها، وتحمل أعباءها، حتى يظل المجتمع محتفظاً بقدراته، ناهضاً بمسؤولياته، قائماً بتبعاته.
- ٣ - يتضمن تحرير الرقبة المؤمنة الإشارة إلى أن الحرية بمنزلة الحياة، وأن الرق بـمـثابة الموت، كما يتضمن الإشارة إلى شدة عناية الإسلام بتحرير رقاب الأرقاء من المؤمنين، وتكريم إنسانيتهم.
- ٤ - في تقرير عقوبة مالية عند وقوع القتل الخطأ: -
- أ - دليل على أن التردّي في الخطأ إنما يكون غالباً نتيجة الإهمال والتراخي، وترك الحيطة الكاملة، والاستهانة بأمن الآخرين ومصالحهم؛ ولهذا لا تخلو ساحة المخطئ من المسؤولية الجنائية.
- ب - دليل على إيجابية الإسلام، واهتمامه بوحدة الجماعة المؤمنة، وسعيه لرأب صدعها، وإصلاح ذات البين فيها، وإطفاء جذوة الغضب في قلوبها، ورحمته المنكوبين، وعمله على التسرية عنهم، وتخفيف وقع الفجعة عليهم، وعلاج آثار الصدمة التي أصابتهم.
- ٥ - وتبدو كلمة الإسلام جليلة في سقوط الدية في الحالة التي يكون فيها أولياء القتيل قوماً يحاربون المسلمين، حتى لا يستعينوا بها عليهم في الحرب.
- ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.
- الله وليّ الذين آمنوا، كان حقاً عليه أن ينصرهم، وأن يجعلهم خلفاء الأرض، وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم؛ فمن سوّلت له نفسه قتل واحد من المؤمنين الذين جعل الله - تعالى - ولايتهم إليه، وزين



ولكنك تحقن دمك، وتشترى حياتك، وتتقي حرَّ رأسك، بإظهار الإسلام، وكلمة الإيمان ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾. ولا تطلبوا بالغزو، وتبتغوا بالجهد ما لا يجوز أن يدخل في حساب المجاهدين من الرغبة في عرض الحياة الدنيا الفاني، ومتاعها الزائل، ولا تنحرفوا بالقتال عن مقصده الأسمى، وغايته الكبرى، فتتجه أطماعكم إلى الغنائم التي تفسد عليكم الرغبة الصادقة في الأجر، وتصبغ جهادكم المقدس بصبغة الغارات الجاهلية الأثيمة ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

فله خزائن السموات والأرض، وقد وعدكم الله مغنماً كثيرة تأخذونها، فلا تحصروا همكم في الأسلاب، ولا تميلوا برغبتكم إلى الفناء ﴿فَوَيْلٌ لِلَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ وعلى هذه الصورة من التصرف، وعلى هذا النحو من السلوك كنتم من قبل أن يؤويكم ربكم إليه، ويؤيدكم بنصره، فاذكروا حالكم إذ كنتم مستضعفين في قومكم، تخافون بطشهم، وترهبون سطوتهم، وتخشون بأسهم، وتكتمون عنهم إيمانكم، وتخفون إسلامكم، حتى أنعم الله - تعالى - عليكم بالهجرة، ومنَّ عليكم بالقوة، وأظهركم عليهم، واعلموا أن هؤلاء الذين يبادرونكم بتحية الإسلام، ويلقون إليكم أزيمة الاستسلام، يكتمون إيمانهم عن قومهم كما كنتم تكتمون، ويصنعون ما كنتم تصنعون، ويرجون من الله ما كنتم ترجون ﴿كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ يَكْفُرْ لِّلَّهِ عَلَىٰكُمْ﴾.

فلا تعجلوا بقتل من لقيكم خاضعاً، وجاءكم مدعناً متمثلاً، وأعلن الإسلام، وألقى إليكم السلام؛ لمجرد ظنكم أنه فعل ذلك خوفاً من بطشكم، وتفتكوا بطائفة مؤمنة وأنتم لا تشعرون ﴿فَتَيَّسَّرُوا﴾.

إن الله مطلع على أمركم كله، خبير بأعمالكم الطاهرة والخفية، وهو مجازيكم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

من الدروس المستفادة أولاً:

- ١ - أمران يبغضهما الإسلام، وينهى عن التلبس بهما:
أ - التسرع في الحكم، والاتهام بغير بينة واضحة، وحجة قاطعة، والعجلة والرعونة.
ب - الخروج للغزو طلباً لعرض الحياة الدنيا، والجهاد طمعاً في الغنيمة، والقتال جرياً وراء الأسلاب.
- ٢ - كل من أظهر الإسلام، وأعلن كلمة التوحيد يُقبل منه ما أظهره، ويُرضى منه ما أعلنه، ولا يلتفت إلى الباعث له على ذلك، ولا يتهم في صدقه وإخلاصه.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الذين لا ينشطون للجهاد في سبيل الله، ولا يسرعون إلى التضحية بالنفس والمال، ويقعدون مع نسائهم وأطفالهم وراء الكتائب التي خرجت للغزو، دون أن يكونوا من أصحاب الأعداء الذين رُفع عنهم الحرج بقوله - سبحانه -: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧]، وبقوله - تعالى -: ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]، والذين وصف الرسول - ﷺ - حالهم بقوله: «إن في المدينة لأقواماً ما سرتهم من مسير، ولا قطعتم من وادٍ إلا كانوا معكم فيه» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «نعم، وهم بالمدينة حبسهم العذر».

هؤلاء القاعدون عن الجهاد، المتخلفون عن الغزو من غير المعذرين لا يستوون عند الله - تعالى - في المرتبة والجزاء، ولا يتعادلون في الفضل والإحسان مع الذين هبوا للذود عن عقيدتهم، وخرجوا للدفاع



عن ملتهم، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، كما لا يستوي الذين تخلفوا في مكة عن الهجرة من المسلمين وهم قادرون عليها، وعزَّ عليهم أن يفارقوا أهلهم، ويتركوا ديارهم وأموالهم، وآثروا الراحة على تحمّل مشقة السفر، وأعباء الفرار إلى الله - تعالى - وأعرضوا عن الانضمام إلى الجماعة المؤمنة التي كتب الله - تعالى - لها العزة في يثرب، وعرضوا أنفسهم وعقيدتهم لفتنة المشركين وبلائهم؛ هؤلاء لا يستوون مع الذين ضحوا بالأهل والوطن والمال، وهاجروا إلى حيث آواهم الله - تعالى - وأيديهم بنصره، ورزقهم أهلاً بأهل، ووطناً بوطن، ومالاً بمال. ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾. فضل الله - تعالى - المؤمنين الذين يجاهدون في سبيله بأنفسهم وأموالهم على القاعدين من أصحاب الأعذار المشروعة الذين لا يجاهدون في سبيله بأنفسهم درجة؛ هذه الدرجة تعدل ما بين السماء والأرض، فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله - ﷺ - قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾.

وقد وعد الله - تعالى - كلاً من المجاهدين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وضحوا بأنفسهم وأموالهم في سبيله، والقاعدين العاجزين عن الجهاد الذين استقاموا على الحق، وأنفقوا مما رزقهم الله - تعالى -، وعملوا عملاً صالحاً المثوبة الحسنی، والإقامة الطيبة الآمنة في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر. ذلك الفوز العظيم ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

وقد تضمّن الله - تعالى - لمن خرج غازياً في سبيله، لا يخرج به إلا الإيمان به، والتصديق برسله، أن يدخله الجنة عند انتهاء أجله، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة.

وتكفل - سبحانه - ألا يُجرح مجاهد جرحاً في سبيله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم جرح اللون لون الدم، والريح ريح المسك، وبشّر الغزاة: ﴿يَأْتَهُمْ لَا يَصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠]. وفضلهم على القاعدين القادرين بالأجر العظيم الذي لا يعلم صفته ومقداره أحد سواه ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وهذا الأجر العظيم بأن يرفعهم على المتخلفين القادرين درجات كثيرة منه، ويرزقهم الحياة الخالدة، ويمنع وصفهم بالموت: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، وكتب على نفسه أن تتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويغفر لهم ذنوبهم، ويعممهم برحمته. ﴿وَدَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾.

والله - تعالى - كثير الغفران لمن ينصره، واسع الرحمة لمن يطيعه ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

ثانياً:

١ - لا يستوي في ميزان الله - تعالى - أجر الذين يجاهدون في سبيله بأنفسهم وأموالهم، وأجر غيرهم من ذوي الأعدار، فللمجاهدين على غيرهم درجة.

٢ - ولا تستوي في ميزانه درجة المجاهدين، ودرجة القاعدين القادرين فللمجاهدين أجر عظيم، ودرجات كثيرة يرفعهم إليها، ومغفرة ورحمة.



سُورَةُ النَّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ
 كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ
 أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً أَفُنْهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ
 وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
 وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾
 فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٩﴾
 وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسِعَةً
 وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ
 فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ
 فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ

أَنْ يَفْنِيَنَّهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾
 وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ
 مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا
 مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا
 فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
 عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ
 أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ
 وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾
 فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى
 جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ
 كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا
 فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
 تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
 حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿تَوَفَّيْهُمْ أَمْلَكِيكَةً﴾	تقبض أرواحهم ملائكة الموت عند انقضاء آجالهم، أصل الفعل: تتوفاهم.
﴿وَيَمِ كُنْتُمْ﴾	ما الذي ألهاكم، وشغلكم عن أمر دينكم؟ الاستفهام: للتقريع والزجر.
﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾	مستذلين مهانين محتقرين.
﴿ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾	عرضوا أنفسهم لعقاب الله - تعالى - بالإقامة في أرض الكفر.
﴿مُرْعَاةَ﴾	مكاناً يذهب إليه، ومتحولاً يُرغم أنوف الكفار فيه.
﴿ثُمَّ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾	ثم ينتهي أجله في الطريق فيموت قبل أن يصل إلى دار هجرته.
﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾	فقد تكفل الله - تعالى - له بالأجر، وضمن مثوبته.
﴿وَإِذَا صَرَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾	خرجتم غزاة في سبيل الله - تعالى -.
﴿جُنَاحَ﴾	ذنب أو إثم.
﴿أَنْ يَفْزِعَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾	أن يقتلوكم، أو يوقعوا بكم مكروهاً.
﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ﴾	وإذا كنت - يا محمد - حاضراً معهم.
﴿فَلَنْتَقِمَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾	فلتصل جماعة منهم وراءك، ولتقف الثانية للحراسة.
﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ رَآئِكُمْ﴾	فليأخذوا نوبتهم في الحراسة، وليقوموا بدورهم في المراقبة.
﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ﴾	فيهجمون عليكم، ويتقضون.
﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾	ولا إثم عليكم، ولا جريرة.
﴿مُهِينًا﴾	يسقط كرامتهم، ويحط أقدارهم، ويذل إنسانيتهم.
﴿فَإِذَا فَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ﴾	فإذا فرغتم من أدائها.

الكلمة	تفسيرها
﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُعُودًا﴾	اذكروا فضله ووعدته في كل حال تكونون عليها؛ اذكروه في أنفسكم.
﴿جُنُوبِكُمْ﴾	واحمدوه بقلوبكم، وسبحوه بألسنتكم.
﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾	ذهب عنكم خوف أعدائكم، وأمتتم مباحثتهم وغدروهم.
﴿كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾	فريضة محددة الوقت.
﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾	ولا تقصروا في طلب الكفار، ولا تضعفوا عن ملاحتهم.



التأويل والبيان:

المسلمون الذين يُعرضون أنفسهم لعذاب الله - تعالى -، ويظلمونها بالقعود عن الهجرة من دار الكفر، والإقامة في أرض لا يتمتعون فيها بحرية العقيدة ولا يتمكنون من إقامة شعائرهم بها، ولا يستطيعون المحافظة على حدود شريعتهم، ولا يأمنون من الفتنة في الدين، ويقضون حياتهم في معاناة القهر والتسلط، ويعيشون عمرهم في احتمال المذلة والمهانة، ويقطعون آجالهم في استرقاق واستضعاف، ويكون عيشهم صورة للخزي والصغار، تكون نهايتهم أشدّ خزيًا، وأعظم صغارًا ويكون مشهد وفاتهم رهيبًا محزنًا؛ فإذا جاءتهم ملائكة الموت، لقبض أرواحهم، فإنهم لا يؤنسونه، ولا يسلمون عليهم، ولا يتلطفون معهم، ولا يأخذون أرواحهم في صمت، ولكنهم يتلقونهم بالزجر والتوبيخ، ويسألونهم في احتقار واستصغار: فيم قضيتم عمركم، وأنفقتم حياتكم؟، وعلى أية حال كنتم من أمر دينكم؟، وما الذي ألهاكم عن الاستعداد لمعادكم، وشغلكم عن العمل لآخرتكم؟ وكيف أعطيتكم المذلة من أنفسكم راضين، وقبلتم أن تبرأ منكم ذمة الله مختارين؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ؟﴾.

فيجيبون في مذلة وانكسار، واستعطاف واعتذار، وهم يواجهون أهوال الموت، ويعانون سكرات الاحتضار: كنّا مستذلين في الأرض، غلبنا عبدة الطاغوت على أمرنا، وسلبونا إرادتنا، وكسروا شوكتنا، وامتهنوا إنسانيتنا، وأسقطوا كرامتنا، واسترقوا رقابنا، وجردونا من كل حول وقوة، فقضينا عمرنا لا نملك من أمر أنفسنا وديننا شيئًا، وأنفقنا

حياتنا في خضوع للجبارين المستكبرين، تدوسنا أقدامهم، وتطؤنا فعالهم، وتسوقنا سياطهم سوق الأنعام، ويسومونا سوء العذاب ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

يُذَلُّونَ بمقاتلتهم هذه، وهم يعتقدون أنهم مظلومون، وأنهم كانوا مقهورين على تفريطهم في حق الدين، وكانوا مكرهين، ولكن ملائكة الموت يبطلون حجتهم، ويُقْبِحُونَ معذرتهم، ويسفهون أحلامهم، ويسألونهم في توبيخ وتقريع: ألم يخلق الله - تعالى - أرضه فسيحة، ويجعلها واسعة، ويناديكم: ﴿قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ [الزمر: ١٠]؟ فلم ركنتم إلى الطاغين، وجاورتم الظالمين، ولم تضربوا في شعاب الأرض مهاجرين؟

﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا؟﴾

فهؤلاء المهزومون المقيمون على الضيم، الذين ضحوا بدينهم، ولم يضحوا برقعة ضيقة من الأرض، ولم ينطلقوا بدينهم في أرض الله - تعالى - أعزّة أحراراً مستقرهم في جهنم، ومصيرهم إلى عذابها، وقد ساءت جهنم مستقراً، وساءت مصيراً ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

من الدروس المستفادة:

- ١ - تفرض الآية الكريمة على المؤمنين أن يرفضوا الهوان، وأن يفروا بدينهم في فجاج الأرض، وألا يقبلوا الاستكانة والمذلة، ما داموا قادرين على الهجرة.
- ٢ - انشغال المؤمن عن أمر دينه، وتراخيه في إقامة شعائره، وتفريطه في أحكامه، وانسلاخه من طاعة ربه لا يبرره شيء ما، ولو كان عسف الظالمين، وجور المجرمين.



جبلت النفوس البشرية على حبّ السلامة، واتقاء المخاطر، واجتناب المخاوف، والبعد عن المشاق والمتاعب، والإخلاد إلى الراحة بكل وسيلة، وبأي ثمن. والآية الكريمة تعالج هذه الفطرة في الإنسان وتنشر على نفسه سمات نديّة من الأمن والاطمئنان، فتحدث إليه بما وعد الله - تعالى - عباده الذين يخرجون في سبيله مهاجرين، ولا يخرجون لدنيا يصيبونها، ولا لشهوة يبغونها، ولا لمصلحة يؤثرونها، وبما ضمنه - سبحانه - لهم من العيش الكريم، والنزول الطيب، والمأوى الواسع، والرزق الكثير، والعزة الكاملة، والحرية الحقّة، والحياة السعيدة التي ترغبم أنوف أعدائهم، وتكبّت صدور حاسديهم ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

والآية الكريمة تقرّر أن الله - تعالى - قد تكفّل بالأجر كاملاً، والثواب تاماً للمهاجرين الذين يفرون بدينهم خشية الفتنة، منذ الخطوة الأولى التي يخطونها من ديارهم، إذا وافاهم الأجل المحتوم الذي لا يتقدم عن مواعده لحظة، ولا يتأخر، وحال بينهم وبين الوصول إلى حماهم الآمن ﴿وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

وكان هذا الخروج وحده كافياً في مغفرة ذنوبهم، والتجاوز عن سيئاتهم، مستوجباً أن يدخلهم ربهم في رحمته، ويشملهم برضوانه، ويعمهم بفضله وإحسانه، ويشيهم على نياتهم؛ فإنما الأعمال بالنيات، والله - تعالى - غفور لمن يستحق مغفرته رحيم بمن يكون أهلاً لرحمته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة أولاً:

١ - تعالج الآية الكريمة ما يدور بخلد كثير من الناس، وما يستقر في أوهامهم من أن الرزق مرهون ببلد من البلاد، وتبين أن الله

- تعالى - كفيل برزق عباده في كل مكان، وأن الرزق المقسوم، وأسباب العيش الكريم، ووسائل الحياة الطيبة لا تنحصر في بقعة معينة من الأرض.

٢ - المهاجر الذي وعده الله - تعالى - أن يجعل له من الضيق سعة، ومن المذلة عزة وأن يخرج من الرق إلى الحرية، وأن يؤويه إليه، ويقع أجره عليه هو الذي تكون هجرته في سبيل الله - تعالى -، ولنصرة دينه، وإعلاء كلمته، ولا تكون هجرته لغرض آخر من الأغراض التي لا تمت بصلة إلى الغيرة على الحق، والتضحية من أجله.

٣ - أجر الهجرة كله محسوب للمهاجر منذ أن يخرج من بيته، ويخطو الخطوة الأولى في ممشاه، وإن لم تتم الهجرة نتيجة انتهاء الأجل، ونزول الموت.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

ومن رحمة الله - تعالى - بكم، ومغفرته لكم أنه رفع عنكم الإثم، ونفى الضيق، وأذهب الحرج ورخص لكم إذا سافرتكم لطلب العلم، أو التجارة، أو السياحة، أو خرجتم لغرض من الأغراض المشروعة، أو انطلقتم في الأرض قاصدين الهجرة أو الغزو، وساوركم الخوف من أعدائكم، وخشيتم أن يلحقكم منهم أذى أن تقصروا الصلاة الرباعية، وتؤدوها ثنائية، وأن تنقصوا من هيئتها، فتصلوا واقفين، أو سائرين، أو راكبين، بالإيماء للركوع والسجود، ومن غير جلوس للتشهد وبغير أن تؤذنوا لها، وتقيموا، وهذا القصر المزدوج في الصلاة الذي يتناول ترك بعض الركعات، ويلحق هيئتها مشروط بالخوف من الأعداء في حال السفر. ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.



وعداوة الكافرين لكم سافرة، لا يسترها ساتر، ولا يحجبها حجاب، وهي تفرض عليكم اتقاء شرهم، والحذر من غدرهم، والحيطة من مكرهم، والاستعداد لكيدهم ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

هذه الصلاة تكون في حال الخوف والسفر معاً، وهي بخلاف الصلاة في حال السفر بلا خوف، والتي تقصر فيها الصلاة الرباعية، وتؤدي ثنائية، وتظل فيها صفة الصلاة كما هي؛ بركوع وسجود وتشهد، ومن شروطها: نية السفر والمسافة التي تقدر بثمانية وأربعين ميلاً (واحد وثمانين كيلومتراً)^(١)، وهي ثابتة بالسنة الشريفة؛ فقد كان النبي - ﷺ - يصلي في السفر كلاً من الظهر والعصر والعشاء ركعتين، ولم يَرَبِّع في سفر قط، وتبعه على هذا الخلفاء الراشدون، وكبار الصحابة.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَجَدَ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

الصلاة واجبة على المؤمنين في جميع أحواله؛ لا تسقط عنه في مرض، ولا سفر، ولا قتال، وإذا كانت لازمة في السلم فهي في ساحة القتال أكثر لزوماً؛ لأنها أمضى أسلحة المعركة، وأشدّها فتكاً بالأعداء، وأقوى أداة يستعان بها على قهرهم وهزيمتهم. ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وهي أكبر معوان على الثبات والذكر الواجبين عند اللقاء. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَفِئَتُهُ فَكَهْ فَاقْتَبُوا وَذَكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] وبالمحافظة على أدائها يتحقق

(١) هذا هو المشهور عند الأئمة، وإن كان ظاهر بعض النصوص لا يوحي بها.

الشرط الأول من شروط النصر التي اشترطها الله - تعالى - على أوليائه المؤمنين ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَقِيبُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]، وقد بينت الآية السابقة صورة من صور صلاة الخوف، وهذه الآية الكريمة توضح كيفية الصورة الثانية؛ وهي التي تكون بأذان وإقامة. ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾، والإمام فيها واحد، إشارة إلى وحدة الهدف في الأمة المسلمة، ووحدة القيادة، ووحدة الولاء والطاعة لولي الأمر المسلم، وهذه الصورة تكون في أرض المعركة في الوقت الذي يجري فيه الإعداد للقاء العدو، ولا تكون في أثناء الاشتباك معه، ولا عندما تكون رحى القتال دائرة، فإذا لم يلتق الصفان جعل الجنود أنفسهم طائفتين: -

أ - إحداهما تَربِضُ أمام العدو، وتقف في مواجهته، ترقبه، وترصد حركاته، وتتقي بادرة المباغته، وتتولى مهمة الحراسة، وتتأهب لصده هجومه، والثانية تقوم وراء الإمام، حاملة أسلحتها الخفيفة التي تستطيع حملها، فيصلي بها ركعة واحدة، ثم يقف ذاكراً مستبحاً، حتى تأتي بالركعة الثانية، وتجلس للسلام، فإذا أتمت صلاتها انصرفت لتأخذ مكان أختها في المراقبة والحراسة والاستعداد والحذر.

ب - تجيء الطائفة التي لم تصل لتقتدي بالإمام الذي ما زال واقفاً ينتظرها، فيصلي بها ركعته الثانية، ويجلس للسلام، ولا تجلس معه، وإنما تقوم للإتيان بالركعة الباقية عليها، فإذا أتمتها، وجلست للسلام سلم بها الإمام، ومن واجب هذه الطائفة أن تضيف إلى السلاح الذي تحمله اليقظة، وأخذ الحذر من العدو الذي غالباً ما يكون قد تنبه بفعل الطائفة الأولى، ورتوعها وسجودها إلى أنها في الصلاة، حتى لا يستطيع الغدر بها، فإن يتحين سانحة الغفلة، ويود أن يصيب الفرصة التي تمنحها من



التهجوم العام، والحملة دفعة واحدة، والإغارة المستأصلة. ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَفْغَلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ ويكفي الحذر الشديد، واليقظة التامة للعدو في أثناء الصلاة عن حمل السلاح، إذا ساءت الأحوال الجوية، واشتدت العواصف، وهطلت الأمطار غزيرة، وترتب على حمل السلاح ضرر، أو أصيب الجنود بمرض يصعب معه حمل السلاح ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

وتطميناً للقلوب المؤمنة، وبعثاً للأمن في نفوس أصحابها تلوح الآية الكريمة بالبشرى في ختامها لجنود الله - تعالى - الذين أعدّهم للتكامل بأعدائهم، وهياهم للإيقاع بهم، وقدّر أن يذيقهم عذابه بأيديهم، وجعلهم أداة لإذلالهم، ووسيلة لإهانتهم في الدنيا، فوق ما أعدّه لهم في الآخرة من عذاب يمتحن كرامتهم، ويهين إنسانيتهم ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

ثانياً:

١ - إن حرص الإسلام على أن يناجي المسلمون ربهم في ساحة المعركة، وأن يصطفوا بين يديه راكعين ساجدين، وأن يلجأوا إليه خاشعين ضارعين، وأن يسألوه مضطرين مُلِحِّين، إنما هو تربية للنفوس المؤمنة على فيض الشعور بمصاحبة العزيز الغالب - سبحانه - والاطمئنان إلى نصرته وولايته، ومعيته ومعونته ﴿إِنَّ مَعَ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾. وهذا الشعور كفيل بأن يخلع على نفوس أصحابه في الأوقات العصيبة، والأزمات الخائفة برداً وسلاماً، ويلبسها ثوب الأمن، ويملاها بالخوف من الله - تعالى -، ويشغلها به عن خوف غيره.

٢ - المؤمنون في مواطن الجهاد يناشدون ربهم نصره، ويرجون إعراز جنده، وترك الصلاة من أكبر الكبائر، والذنوب أخطر على المجاهدين من أسلحة أعدائهم؛ لأنهم لا ينتصرون بعدد ولا عدة، ولكنهم ينتصرون بطاعة الله - تعالى - وتقواه، والاستعانة به، والاعتماد عليه، فإذا استَوَوْا بأعدائهم في المعصية كان لأعدائهم النصر عليهم؛ لأنهم أكثر عدداً، وأقوى عدة، والعقلاء لا يقولون: إن عدونا شرّ منا، فإنه ربّ قوم سلط الله - تعالى - عليهم من هو شرّ منهم.

٣ - من الأهداف التي يجاهد المسلمون أعداءهم في سبيل تحقيقها صدق الاتصال بالله - تعالى -، والاستعانة به، والتوجه إليه، والاشتغال بحبه ومناجاته ولا يجوز في منطق الإيمان أن يتخلى المسلمون عن مناجاة ربهم، وجهاد أنفسهم بالصلاة ليفرضوا على غيرهم ما تخلوا عنه، وأغفوا أنفسهم منه.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

فإذا فرغتم من أداء الصلاة، فلا تقطعوا صلتكم بربكم الذي خرجتم للجهاد في سبيله، واذكروه كما هداكم، واشكروه على ما علمكم من أمور دينكم، وقتال أعدائكم ما لم تكونوا تعلمون، واستشعروا حمده في البأساء والضراء، واشغلوا قلوبكم بالخوف منه عن الخوف مما سواه، واجتهدوا في الثناء عليه بما هو أهله، ولا تفتروا عن تسبيحه وتكبيره في سائر أحوالكم، وجميع أوضاعكم في القتال؛ قياماً تهجمون، وقعوداً تضربون وترمون، وعلى جنوبكم تتربصون، واسألوه أن يكف عنكم بأس الذين كفروا، وأن يثبت أقدامكم، وينصركم على القوم الكافرين ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.



فإذا خلع الله - تعالى - على قلوبكم الأمن، ورزقكم الاطمئنان، وأذهب عنكم الخوف، وأظهركم على عدوكم، وأيدكم بنصره، فأقيموا الصلاة على طبيعتها، وأدوها كاملة، وأتموا أركانها المفروضة، واستوفوا شروطها، كما كنتم تؤدونها في حال السلم ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

إن الله - تعالى - فرض الصلاة على المؤمنين، وحدد لها وقتها الذي تقام فيه، وطالبهم بالمحافظة عليها، وكلفهم بأدائها في أوقاتها ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

ثالثاً:

١ - طالبت الآية الكريمة المجاهدين إذا فرغوا من أداء الصلاة في أرض المعركة أن يشتغلوا بذكر الله - تعالى - على أية حال يكونون عليها، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم؛ لأن الله - تعالى - وعد أن يذكر برحمته وتوفيقه من يذكره ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وأن يكافئ صنيع ذاكريه بأفضل منه؛ فمن ذكر الله - تعالى - في نفسه ذكره في نفسه، ومن ذكر الله - تعالى - في ملاء من الناس ذكره في ملاء خير من ملئه.

٢ - والإسلام يُرَبِّي المؤمنين على أن يعيشوا دائماً مع ربهم يذكرون فضله، ويشكرون آلاءه، ويستعينون به، وألا ينسوه طرفه عين، وألا يقتصر ذكرهم إياه على الوقت الذي يؤدون فيه ما افترضه عليهم من عباده، فهو يأمرهم إذا أتموا مناسك الحج أن يذكروا الله - تعالى - كما يذكرون آبائهم، بل أشد من ذكرهم آبائهم. ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

٣ - لا تسقط الصلاة عن المؤمن في أية حال من أحواله، ولكنها

تؤدي في كل حال بالكيفية التي تناسبها؛ ففي السلم والإقامة تؤدي كاملة، وفي السفر تقصر الصلاة الرباعية بالشروط المعينة، وعند الخوف تختصر هيئته، وعدد ركعات، وفي أرض المعركة تقام على النحو الذي قرره الآية السابقة.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَىٰ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أنتم أيها المؤمنون تأوون إلى ركن شديد؛ فوليكم فاطر السموات والأرض، ونصيركم من بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير، والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير، فاحذروا أن يدب إليكم الضعف، ويدرككم الوهن، فتحبوا الدنيا، وتكرهوا الموت، وتخمد عزائمكم، وتفتر هممكم عن مطاردة الكافرين، وتعدوا عن تعقبهم، وتتوانوا عن ملاحقتهم حيثما حلوا، وتتباطؤوا عن السير في إثرهم أينما ساروا ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقُوَىٰ﴾.

ولا تلتمسوا الرخصة فيما أصابكم من الألم، وبسبب ما أثخنكم من الجراح فإنكم وإياهم سواء في الجروح والقروح ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾. ولكنكم الأعلون بالإيمان، والله معكم، وسيوفيكم أجوركم، ولن ينقصكم منها شيئاً، وهو يبلوكم ليخلص إيمانكم من الضعف، وليتخذ منكم شهداء، وليمحق بكم الكافرين، فأنتم أولى منهم بالصبر والاحتساب؛ لأنكم موصولون بربكم تبتغون وجهه، وترجون رحمته، وتأملون نصره، وتنتظرون جزاءه، وهم مقطوعون من ولايته، محرومون من رحمته ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾. والله - تعالى - يعلم ما أصابكم وما أصابهم، ويرى ما لقيتم وما لقوا، ويسمع ما شكوتهم وما شكوا، وهو الحكيم فيما أمركم به من مطاردة أعدائكم، وما نهاكم عنه من التقصير في طلبهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.



رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ
 وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا
 ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ
 يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ
 شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
 مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿يَا أَرْثَاكَ اللَّهُ﴾	بما أعلمك الوحي علماً يقينياً، كأنك رأيته بعينيك وأبصرته.
﴿لِلْعَاقِبِينَ خَصِيمًا﴾	مدافعاً عن الذين يخونون أماناتهم، ومخاصماً عنهم.
﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ﴾	وسله المغفرة للذين دافعوا عن الخائنين وأرادوا تبرئتهم، وإدانة غيرهم.
﴿يَحْتَاوُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾	يضررون أنفسهم بخياناتهم.
﴿لَا يُجِبُّ﴾	لا يعفو ولا يرضى.
﴿حَوَآئَا أَيْمًا﴾	مبالغاً في الخيانة كثير الإثم.
﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾	طبيعة الخائنين أن يستتروا من أعين الناس عند الخيانة.
﴿إِذْ يَبْئِثُونَ﴾	إذ يدبرون في الليل، ويخفون.
﴿هَآئِنٌ مَّا تَوَلَّوْا﴾	إلا إنكم يا هؤلاء.
﴿جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾	حاولتم تبرئة ساحتهم في الحياة الدنيا.
﴿وَكَيْلًا﴾	موكولاً إليه أن يدافع عنهم.
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾	ومن يرتكب سيئة يؤدي بها غيره.
﴿أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ﴾	أو يضر نفسه خاصة بترك واجب من الواجبات.
﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ﴾	ثم يشعر بقبح خطيئته، ويسأل ربه مغفرتها.
﴿إِنَّمَا﴾	الإثم: ما يرتكب عمداً.
﴿خَطِيئَتَهُ﴾	خطأ يعده عن الصواب الواضح.
﴿بُهْتَنًا﴾	كذباً يحير المجني عليه، ويجعله في دهشة.
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾	ولولا إنعامه عليك بسلامة الفطرة والعصمة من الخطأ.



الكلمة	تفسيرها
﴿وَرَحِمْنَاهُمْ﴾	بالوحي الذي يكشف لك وجه الحق والصواب .
﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾	باتباع أهوائهم ، واستبدالهم العي بالرشد .
﴿وَالْحِكْمَةَ﴾	وإدراك أسرار القرآن ، وفهم مقاصده ، واليقين بهدائه للتي هي أقوم .
﴿مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾	من أخبار الماضي ، والحاضر ، وأحوال الآخرة .

التأويل والبيان:

سبب النزول:

وقعت حادثة سرقة لسيف ودرع ودقيق بين الأنصار، وحامت الشبهة حول رجل من أهل بيت يقال لهم: بنو أبيرق، عرف بالنفاق، وكان شاعراً يهجو المسلمين، وينسب هجاءه إلى أحد المشركين؛ كأنه رآه له.

وتحرى رفاعه بن زيد الأنصاري صاحب المسروقات الحادث، وتتبع أثر الدقيق الذي انتثر على الأرض، فوجده قد انتهى إلى دار بني أبيرق، فلم يشك في أنهم الفعلة، فبعث ابن أخيه: قتادة بن النعمان إلى رسول الله - ﷺ - ليشكوهم إليه، فقال له: «سأنظر في ذلك» ولما ذاع الخبر عمد الجاني إلى السلاح، وطرحه في بيت يهودي يسمى: زيد بن السمين، ثم بعث إلى رسول الله - ﷺ - رجلاً يخبره أن قتادة وعمه يريدان الإساءة إلى بيت من البيوتات المسلمة؛ بتلفيق التهمة ضدهم.

قال قتادة: فلما جئت إلى رسول الله - ﷺ - قال: «عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت وبينة؟»، فرجعت فأخبرت عمي، فقال: الله هو المستعان، فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾... ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ الآيات. ورد رسول الله - ﷺ - السلاح إلى رفاعه، أما السارق ففر إلى مكة مرتدًا.

والآيات الكريمة توضح مدى حرص الإسلام على إقرار مبدأ العدل، ورعاية الإنصاف، وحماية الحق، وتبرئة البريء بغض النظر عن



دينه، ولو كان من قوم يحادون الله ورسوله، وإدانة الآثم، ولو كان ممن يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ولو ترتب على هذا الأخير أن يُستغل الحادث استغلالاً سيئاً في التشهير بالمسلمين. ومما يشهد بشدة هذا الحرص، ويصور أصالته وجديته أن اليهود لم يكونوا في يوم ما أهل مودة للمسلمين، ولا ذوي نصفة ورعاية للعهود والمواثيق، ولكنهم أهل غدر ومؤامرة، ونكاية وعداوة. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُهُمْ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ مِنْهُمْ قِسْيَسِيكَ وَرُهْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]، ولكن الإسلام لا يعنيه أمر العدو، ولا أمر الصديق، وإنما الذي يعنيه الحق الذي جاء ليقره وينصره، والباطل الذي جاء ليهدمه وينكره. والخطاب في الآيات الكريمة موجه إلى رسول الله - ﷺ - في لهجة مشوبة بالجد والصرامة، مشعرة بالغيرة على العدل، والغضب للحق، مدعومة بالتوكيد.

إنا أوحينا إليك يا محمد - هذا القرآن الذي يحق الحق بكلماته، ويبطل الباطل بآياته، وأنزلنا عليك فيه الحدود والأحكام، والأوامر والنواهي، وجعلناه تبياناً لكل شيء، لتفصل في قضايا الخلاف بين الناس على اختلاف مذاهبهم، بما جاءك فيه من مبادئ الحق، وما تضمنه من قواعد العدل، وما أطلعك الله عليه من وسائل الإنصاف، وما أرشدك إليه من محجة الصواب ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بِهِ نَاسٌ مِمَّا أَرْسَلْنَاكَ اللَّهُ﴾.

وعصمناك من الميل إلى الهوى، فلا تمالي أهل الخيانة، ولا تقف إلى جانبهم، ولا تدافع عنهم، ولا تنطق بحجتهم، وإن تظاهروا بالإسلام، وزعموا أنهم من المؤمنين فإن ربك حكيم عدل، لا يحب الخائنين، ولا يهدي كيدهم. ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾.

وسل ربك المغفرة للذين دافعوا عن أهل الخيانة، وأرادوا

تبرئتهم، وسعوا لإدانة غيرهم، واطلب منه أن يغفر لك ما قلت للشاكرين، من أنهم يلتمسون العثرات للبراء، ولا يثبتون في توجيه التهم للأمناء، واستغفره مما وقر في نفسك من براءة الآثم، وما هممت به من إخلاء ساحته؛ فإن هذا الهَمَّ وإن لم يكن ذنباً في حق عامة الناس، فإنه كالذنب في حق المعصوم من خاصتهم، ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾.

إن ربك يتجاوز عن ذنوب المؤمنين، ويغفر للمستغفرين، ويقبل توبة التائبين، ويرحم الأوابين، ويرضى عن النادمين الراجعين ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة أولاً:

- ١ - أنزل الله - تعالى - القرآن الكريم، ليوضح الحق في أمر العقيدة، والعبادة والطاعة، ويسن العدل في المعاملات والأحكام، وسائر شؤون الحياة، والحكم بغير ما أَرانا الله - تعالى - في كتابه جور وظلم، والله لا يحب الظالمين.
 - ٢ - المؤمن منهى عن الانحياز إلى جانب أرباب الخيانة، والدفاع عنهم، وإن كانوا من جلدته، وعلى دينه.
 - ٣ - تدعو الآية الكريمة المؤمنين إلى أن يلجؤوا باب الاستغفار، ولا يقيموا على الإثم بالعزم والإصرار، وقد كان الرسول - ﷺ - وهو المعصوم يكثر من الاستغفار، ويأمر به، ويقول: «توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة».
- ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ حَوَآنًا أَيْمًا﴾.

تقرر الآية الكريمة أن الذين يلوثون شرفهم بالجرائم، ويدنسون أعراضهم بالردائل هم في الحقيقة يخونون أنفسهم، ويجنون عليها، ويؤبقونها؛ بتعريضها لغضب الله - تعالى - وعقابه، ولا يدعون معها



واجب الأمانة الذي يفرض عليهم أن يَقُوهَا عَذَابَهُ، وَيُعْرِضُوهَا لِرَحْمَتِهِ،
ويزكُّوهَا بِطَاعَتِهِ.

وهي تنهي الرسول - ﷺ - عن الدفاع عن الذين يسيئون إلى
أنفسهم بالخيانة، ولا يحسنون إليها بأداء الأمانة، وعدم الجدل عنهم،
وما جادل الرسول - ﷺ - عن الذين ظلموا أنفسهم، وخانوا أماناتهم،
وهلكوا بالإثم والخطيئة، ولكن الوحي الكريم حين يوجه النهي إلى
صاحب الخلق العظيم - ﷺ - الذي بَغَضَ إليه ربه في نشأته الكذب
والخيانة، فكان الصادق الأمين، إنما يعني بهذا أتباعه، ويرشدهم إلى
أن مناصرة الخائنين، استجابة لعصبية النسب، أو انحيازاً للموافقة في
الدين من أعظم الجرائم، وأشدّها نكراً ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ
أَنفُسَهُمْ﴾. إن الله - تعالى - يمقت كل من يتصف بالخيانة، ويعرف بها
بين الناس، فلا يَتمنونه على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ويتعزى من
صفة الإيمان؛ فإنه لا إيمان لمن لا أمانة له، والمؤمن من أَمَنَهُ الناس
على دمائهم وأموالهم، وهو - سبحانه - لا يرضى عمن أَلَفَ المعاصي،
واعتاد الخطايا، ولا يرحم من رانت الذنوب على قلبه، وحجبت عنه نور
الهداية، وحالت بينه وبين التوبة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

وهؤلاء الذين يسارعون في الخيانة والإثم منافقون؛ يَتَوَارَوْنَ خَجَلًا
من العباد، ولا يدركهم الخجل من رب العباد ويغلبهم الحياء من الخلق،
ولا يغلبهم الحياء من بارئ الخلق، ويخشون أن يطلع الناس على
خياناتهم، ولا يخشون مَنْ لا تخفى عليه خافية مِنْ أمرهم، ويخافون أن
يعرفهم على حقيقتهم عبادُ أمثالهم، ليس لهم من الأمر شيء، ولا يخافون
ربهم الذي يعرفهم على حقيقتهم ويعلم سرهم ونجواهم أن يصيبهم
ببعض ما كسبوا ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ
الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾
أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥، ٤٦، ٤٧] وهم

يحبون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا، ولا يحبون أن يفعلوا ما يحمّدون عليه، ويدبرون مكائدهم، ويخططون لجرائمهم في ظلمات الليل، ويلفقون الاتهامات التي تدين الأبرياء، وتبرئ الأثمين، ويزورون القرائن التي تبعد الشبهة عن الخائنين، وتشير بأصابعها إلى غير الجناة المجرمين ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾.

والله - تعالى - رقيب عليهم، وهم يبيتون النية على ما يكره من الزور والباطل، ويوظفون العزم على ما يبغض من الخداع والتضليل، ويسعون في إخفاء الحقيقة عمن يفصل في منازعاتهم، ويقضي بينهم في خلافاتهم ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾.

وهو - سبحانه - محيط بمكرهم السيئ، مطلع على أعمالهم التي يستترون فيها عن أعين الناس، مجازيهم على كل صغيرة وكبيرة قدّمتها أيديهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

مما يستوجب مقت الله - تعالى -، ويستنزل غضبه أن يوقّر عبده المخلوقين، ويستشعر الحياء ممّن لا يملك له من الأمر شيئاً، ولا يوقّر ربه، ولا يستشعر الحياء ممّن له مقاليد السموات والأرض.

﴿هَآئِنْتُمْ هَآؤُلَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

ألا إنكم - أيها الأعوان على السوء والشر - دافعتم عنهم بالباطل في حياتكم الدنيا، وأيدتموهم على الفساد والمنكر، وساعدتموهم على الزور والبهتان، وساندتموهم في إخفاء الحق، ونفي التهمة بالباطل؛ لئلا يلحقوا جزاءهم العادل أمام القضاء في الدنيا الذي يحكم بالظاهر، ويقضي بما قامت البينة على ثبوته، وتظاهرت الأدلة على صحته، وأثبت الشهود رؤيته، ولا سبيل له إلى الإحاطة بالخفايا والغيوب. ﴿هَآئِنْتُمْ هَآؤُلَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ ولا أحد يستطيع أن يدلي بحجتهم، ويعينهم على البغي والعدوان، ويدافع عنهم بالباطل في ساحة القضاء



العدل، أمام الواحد القهار، الذي يُخرج لكل إنسان كتاباً يلقيه منشوراً، ويأمره: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

﴿فَمَن يُجِدِلِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

وإذا وجدوا في الدنيا من يتولى مصالحهم، ويُظاهرهم ويُناصرهم، ويكون وكيلاً في دفع العقاب عنهم، فإنهم لن يجدوا بين يدي الله - تعالى - يوم القيامة من يتكفل بأمر من أمورهم، أو يتولى شأنًا من شؤونهم، ﴿أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

ثانياً:

يؤخذ من قوله - تعالى - : ﴿فَمَن يُجِدِلِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أنه لا وزن لحكم الدنيا إذا صدر مخالفاً للحق، وأنه لا يجوز للمحكوم له بغير الحق أن ينتفع بالمحكوم به، أو يستحلّه، وأن المعول عليه هو حكم الله - تعالى - في يوم الفصل؛ لأن علمه محيط بأعمال العباد، وهو وحده الذي لا يظلم مثقال ذرة.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَحْدِ اللَّهُ عَفْوَاً رَّحِيماً﴾.

يدعو الله - تعالى - عباده الآبقين الذين استهوتهم الشياطين إلى الصلح معه، ويحرك مشاعرهم نحو العودة إليه، ويستحث خطاهم إلى تفيؤ ظلال رحمته التي لا تضيق على عبد من عباده، وينبههم إلى أن باب عفوه مفتوح، ويذكرهم بالتوبة، ويعدّهم القبول، ويناديهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، ويخبرهم أن من يقترب معصية يتعدى أثرها إلى غيره، ويصيب ضررها سواه، ويترتب عليها الإساءة إلى الناس، والمساس بحقوقهم، وإيذاؤهم، أو يرتكب إثماً يحق ضرره به وحده، وتقتصر آثاره عليه، ولا تتعداه إلى غيره، ثم يُقبل إلى ربه صادقاً



﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

المنافقون قوم مردوا على الكفر، وطبعوا على ضروب شتى من الفساد؛ فهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ويغلون أيديهم عن الإنفاق في طرائق الخير، ووسائل النفع، ويحبسون أموالهم عن المساهمة في البر، ولا يتورعون عن الخداع، ولا يحجمون عن التضليل، ولولا عناية الله - تعالى - بك - يا محمد -، وإحسانه إليك، وفضله عليك، ورحمته بما أوحى إليك من جليّة الأمر، وحقيقة الحادثة، وبما كشف لك من أساليب المكر والخيانة لسعت طائفة من المنافقين إلى أن يلبسوا عليك الأمر، ويطمسوا وجه الحقيقة، ويضلوك عن الصواب، وينحرفوا بك عن سنن العدل، ويبعدوك عن إنصاف المظلوم. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ ولكنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا، فقد عصمك ربك من الضلال، وحماك من كيدهم، وجعل مكرهم في بوار، فما يضلون إلا أنفسهم التي يتأون بها عن الحق، ويبعدونها عن الصواب، ويصرفونها عن الهدى ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ وهم ضعفاء عاجزون، مبرءون من الحول والطول، محرومون من القوة والعزة، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا لغيرهم ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١]. فلن يضررك في شيء أي شيء؛ لأن الله - تعالى - وليك، وهو حسبك، وقد برأك من اتباع الهوى، وفضح لك مؤامراتهم، وحفظك من كيدهم، وأحبط مكرهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وأنعم الله - تعالى - عليك وعلى أمتك بهذه المعجزة الخالدة، وهذا الكتاب المبارك الذي يصنع بالحق، ويجهز بالصدق، ويحمل مشعل النور والهداية، ويبدد ظلمات الكفر والجهالة، ويتعقب فلول

الغواية والضلالة، ويهدي للتي هي أقوم، ويشفي صدور قوم مؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً، حوى نبأ السابقين، وخبر اللاحقين، وفيه الفصل بين المتقاضين، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم؛ من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾. وآتاك الحكمة، ورزقك فقه مقاصد الإسلام، وإدراك أسرار القرآن الكريم، ووفقك للعمل بما علمك ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾.

وجعلك - وأنت الرسول النبي الأمي - بحراً زاخراً بالمعارف، وأفاض عليك من لدنه علماً، فوعيت هذا الدين، وعرفت من حولك، وفهمت ما حولك، واطلعت على ما يدبر وراءك، ومن خلف ظهرك ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ وأرسلك للناس كافة، وجعلك خاتم النبيين والمرسلين، وأعطاك الكوثر، ومنحك الشفاعة العظمى، وأحل لك الغنائم دون سواك، وجعل لك ولأمتك الأرض مسجداً وطهوراً، وأنطقك بجوامع الكلم، ونصرك بالرعب من مسيرة شهر، وقرن اسمك باسمه في كلمة التوحيد، وشرح لك صدرك، ووضع عنك وزرك، ورفع لك ذرك، وآواك يتيماً، وأرشدك حائراً، وأغناك فقيراً.

كفأك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية، والتأديب في اليتيم وعصمك من الناس، وجعل أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلها أمة وسطاً ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾.

ثالثاً:

يُعلم الوحي الكريم المؤمنين القاعدة العريضة، والمبدأ الأساسي الذي يعامل به الرب الكريم - جلّ جلاله - عباده؛ ليتلقوه عنه، ويأخذوه منه، ويتخلقوا به، ويجعلوه منهج المعاملة، وشعار السلوك فيما بينهم.

١ - فقد اقتضت رحمته أن يقبل الراجعين إليه في أية لحظة، وألا يغلق



دونهم باب مغفرته، وألا يجعل بينه وبينهم وسيطاً يتوقف قبولهم على شفاعته؛ فمن أذنب فليس له باب إلا باب ربه، فإذا استغفر وتاب وجد الله غفوراً رحيمًا.

٢ - واقتضى عدله المطلق في الآخرة ألا يؤاخذ نفساً بجريرة نفس أخرى، وأن يكون لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، وأن تكون المسؤولية فردية، والتبعة شخصية، ليثير في النفس الحذر والأمن، والفزع والاطمئنان معاً، الحذر والفزع من اقتراف الأوزار، واجتراح السيئات، والاطمئنان والأمن إلى أنه لن تحمل نفس عن غيرها آثامها وخطاياها.

٣ - واستوجب عدله - سبحانه - أن يجازي من يرتكب خطيئة أو إثماً، ثم لا يتوب ولا يكفر عن جريمته، وإنما يرمي بها بريئاً، أن يجازيه على فعلتيه اللتين جناهما:

أ - على ارتكابه الخطيئة أو الإثم.

ب - وعلى تليفه التهمة للبريء.

٤ - وإذا كان الله - تعالى - قد أنعم على رسوله نعمته الكبرى؛ فأُنزل عليه الكتاب، وآتاه الحكمة، وعلمه من لدنه علماً فإنها النعمة العامة على البشرية جمعاء ببعثة هذا النبي الذي رحمها الله - تعالى - به، وحفظها من أن يأخذها بذنوبها، ويتهربها تتبراً؛ فيرسل عليها حاصباً، أو يأخذها بالصيحة، أو يخسف بها الأرض، أو يغرقها بالطوفان، والذي أخرج الله - تعالى - به أمته من الظلمات إلى النور، وترك لها هذه المعجزة الخالدة من وحي الله - تعالى -.

سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

* لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
 أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ
 ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن
 يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
 سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
 مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
 ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا
 ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِن يَدْعُونَ
 إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ
 مِّنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِينَهُمْ
 وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُبْتَكَنَّ إِذَا نَالَ الْغَنَمُ وَلَا مَرْنَهُمْ



فَلْيُغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا
مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾
يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ
اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوًّا يُجْزَ بِهِ
وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ﴾	كثير من الجماعة الذين تحدثوا سرًا لتبرئة بني أبيرق لا خير فيهم.
﴿إِلَّا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾	لكن من تصدق، ونصح، وأصلح بين الناس فهو من الصالحين.
﴿أَتَتَعَاةَ مَرَضَاتٍ﴾	رغبة في إرضائه؛ لأنه لا يقبل من أعمال الخير إلا ما كان خالصاً له.
﴿يُسَاقِقِ الرَّسُولَ﴾	يعانده، ويبيت الغدر به، ويتناج بالشر والإثم.
﴿يَبِينَ لَهُ الْهُدَى﴾	ظهرت له معالم الهداية التي جاء بها، وعرفت فطرته الحق الذي يدعو إليه.
﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾	ويترك طريق المؤمنين في العمل بكتاب الله - تعالى - وسنة رسوله.
﴿تَوَلَّوْا مَا تَوَلَّوْا﴾	نوجهه إلى الطريق التي اختارها، ونُخلّ بينه وبين ما يريد، ولا نجرده من اختياره.
﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾	ومن يعتقد أن غير الله - تعالى - له أدنى تصرف في ملكوت السموات والأرض.
﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾	بعد عن الحق بعداً كبيراً، وجانب الصواب مجانبة بالغة.
﴿إِن يَدْعُونَ﴾	ما يعبدون، وما يدعون لتفريج كربهم، وقضاء رغائبهم.
﴿إِلَّا إِنَّا﴾	إلا أصناماً سموها تسمية الأنثى؛ اللات، العزى، مناة.
﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾	إلا خبيثاً مستطير الشر من الجن والإنس دأب على الإغواء.
﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾	أبعده عن مواطن رحمته، وأهانته وأخزاه.
﴿تَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾	عدداً محدداً، فرضه الله - تعالى - بالهداية إلى النجدين.



الكلمة	تفسيرها
﴿وَلَا ضَلَّ عَنْهُمْ﴾	ولأبعدنهم عن الحق، ولا أعميهم عن الهدى.
﴿وَلَا مُبِينٌ لَهُمْ﴾	ولأشغلهم عن العمل بالأمانى الخادعة، والتصورات الكاذبة.
﴿فَلْيَبْتَكَرْ أَذَانُكَ الْأَنْعَامِ﴾	فليَقْطَعْ أذَانَهَا، أو يُسَقِّفْهَا لأصنامهم؛ كالبحيرة.
﴿فَلْيَعْرِزْ خَلْقَ اللَّهِ﴾	فليحوّل خلقه الله - تعالى - وليشوّهتها حسياً ومعنوياً.
﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَفِيرًا﴾	ولا ينقص ثوابهم شيئاً مهماً كان قليلاً، النفير: النقطة في ظهر النواة.
﴿وَأَتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾	واقْتَدَى بِإِبْرَاهِيمَ فِي مِيلِهِ عَنِ الشِّرْكِ، وبرأته من الوثنية.
﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾	واصطفى الله - تعالى - إبراهيم، وجعل عبوديته خالصة لذاته، وحبّه كاملاً لوجهه الكريم.
﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطًا﴾	وسع ربنا كلّ شيء علماً.

التأويل والبيان:

للناس مجالسهم التي يسمرون بها، ويتجاذبون أطراف الحديث فيها، وأكثر ما يدور في هذه المجالس من أحاديث يتناول الأعراس بالقدح والتجريح، ويقصد إلى انتقاص الأقدار ويرمي إلى الفضيحة والتشهير، مما يدخل في عموم النهي: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بََعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

وهذا السلوك بالإضافة إلى أنه انتهاك للحرمت يضع الوقت، ويؤثر العداوة في الصدور، ويذكي البغضاء في القلوب، ويكُتُّ أصحابه على مناخيرهم في النار، كما أخبر الرسول - ﷺ - بهذا معاذ بن جبل - رضي الله عنه - «وَهَلْ يَكُتُّ النَّاسُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»، وكل مجلس ينعقد ثم ينفذ دون أن يذكر فيه الله - تعالى - يكون وبالاً على أصحابه، روى أحمد في مسنده أن أبا هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «ما اجتمع قوم ففترقوا على غير ذكر الله - تعالى -، وصلاة على النبي - ﷺ - إلا كأنما تفرقوا عن جيفة حمار، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة».

والحق - تبارك وتعالى - يأمر عباده المؤمنين الذي تنبض قلوبهم بمخافته أن يتحروا القول السديد الذي يثمر الخير، وينتج المصلحة، ويعمر الوقت بالطاعة ويعددهم على هذا القول الذي ينبعث من تقواه أن يسد خطاهم على طريق الصواب، ويصلح أعمالهم في حياتهم الدنيا، ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].



والآية الكريمة: تجعل التناجي بالبر والتقوى، والأمر بالصدقة، وأداء حق القريب والمسكين وابن السبيل، والقول الكريم الذي يسمو بنفس سامع، ويوجهه إلى الرشد، ويصرفه عن الغي، ويغرس فيه حب السعي والجهد، والكلمة الطيبة التي تهدف إلى الإصلاح بين الناس والقضاء على ما بينهم من خلاف، وغرس المحبة في القلوب، تجعل الآية هذا كله باباً من أبواب الخير التي تباح المُسَارَّة بها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المسارة بالإثم والعدوان كانت أسلوب المشركين الذين يجتمعون في دار الندوة ليلاً، ويدبرون ما يدبرون من شر ضد رسول الله - ﷺ -: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحَرَ وَأَنْتُمْ بُصُورٌ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقد سلك بعض المسلمين طريق النجوى، والاستخفاء عن الجماعة المسلمة، وتبليت ما يريدون من الأمر، وكشف هذا السلوك عن نفاقهم، حرم الله - تعالى - عليهم أن يتساروا بالإثم والعدوان، ومعصية الرسول - ﷺ -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْتَّقْوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وكشف عن الباعث عليها، وطمان الجماعة المؤمنة من جهتها ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ٩، ١٠] والآية الكريمة حين تنفي الخير عن كثير من نجواهم تفيد أن أكثر المتناجين لا خير فيهم ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

أما الذين ينتهون عن التناجي بالمنكر، ويقصرون نجواهم على دائرة الخير؛ فيحضون على الصدقة، ويخرجون الزكاة، ويأمرون بالمعروف، ويتواصون بالحق، ويعملون على إصلاح ذات البين، وتوثيق روابط المودة بين الناس، مبتغين مرضاة ربهم، فسوف تنالهم رحمة الله - تعالى - ويؤتيهم من لدنه أجراً عظيماً ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة أولاً:

١ - تبين الآية الكريمة أن الذين يعصون ربهم، ويسبيئون إلى مجتمعهم؛ فيُناجون بالإثم والعدوان والقطيعة، قادرون على مرضاة ربهم، والإحسان إلى أنفسهم وغيرهم، بالتناجي بالبر والتقوى.

٢ - وتفيد أنه لا بدّ من العمل الصالح، والطاعة المشروعة من إخلاص النية لله - تعالى - وصدق التوجه إليه، والتجرّد من كل رغبة إلى سواه؛ ليقع أجره على الله - تعالى - .

٣ - وتشير إلى اتساع دائرة الشر في محيط الناس، وغلبة شهوته على نفوسهم، وقوة سيطرته على سلوكهم، وتقلّص ظل الخير، وضعف سلطانه عليهم، وضيق آفاقه بينهم.

﴿وَمَنْ يُسَاقِ الرِّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

لحق الخائن من بني أبيرق بالمشرّكين في مكة مرتداً لما انكشفت خيائته، وعاند رسول الله - ﷺ - وعاداه، وقد بينت السورة الكريمة فيما سبق أن طاعة الله - تعالى - لا تكون إلا بطاعة رسوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرِّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، وأن الرسول - ﷺ - غير مسؤول عن هداية من تولى عنه، وغير مكلف بحفظه من عذاب النار ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

وتعود السورة الكريمة لتتناول موقف الذين أعرضوا عن الحق بشيء من التفصيل، ولتضيف إليهم موقف الذين ينسلخون من طاعة رسول الله - ﷺ -، ويرتدون عن دينهم، فتقرر أن كل من يخالف الرسول، وينبذ دعوته، ويرفض اتباعه، ويعصي حكمه، ويحاز إلى قوم يعادونه، ويكفرون به، ويتجه وجهة أخرى غير وجهة المؤمنين، ويتبع



ديناً غير دينهم، ويسلك سبيلاً غير سبيلهم، ويخرج عن الحق الذي اجتمعوا عليه، سواء أخذ هذا الاتجاه بادئ ذي بدء، أو ارتد عن الإسلام، ونفض يده من طاعة الرسول، من بعد معرفته الهدى الذي يدعو إليه، وعلمه الحق الذي جاء به، تعود السورة الكريمة لتقرر أن جزاء من يفعل هذا أن يتركه الله - تعالى - في الدنيا لهواه، يهيم على وجهه في الضلالة، ويمشي في الظلمات، وأن يهيئ له أسباب السير في السبيل التي رضىها لنفسه، وأن يعينه على المضي في وجهته التي اتجه إليها بمحض اختياره. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقْوِمُوا لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وأن تتلقاه جهنم في الآخرة مسوقاً إليها في الأصفاد؛ ليصلي نارها، ويدوق عذابها.

ثانياً:

١ - من يشاقق الرسول - ﷺ - في حياته كمن يشاققه بعد مماته؛ فإن موته لم يبطل طاعته فيما أنزله الله - تعالى - عليه، وأوحاه إليه، وليس المراد مشاقة شخصه وإنما المراد مشاقة رسالته، ورسالته قائمة دائماً.

٢ - منح الله - تعالى - عباده القدرة على الاختيار، وتركهم لاختيارهم، ولم يكرهم على سلوك سبيل الهدى أو الضلالة؛ فمن أثر الهداية أمدّه بوسائلها، ومن أثر الغواية هيا له مطاياها. ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

وهذا المصير إلى جهنم الذي يصير إليه من يشق عصا طاعة رسول الله - ﷺ -؛ لأنه بمشاقة الرسول قد أشرك بربه، والله - تعالى - لا يغفر أن يشرك به،

﴿حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]؛ ولأن العقل وحده كاف في إدراك حقيقة الألوهية، والاعتراف لله - تعالى - بالوحدانية، ولا يتوقف الإقرار بالربوبية على الوحي الذي أنزله الله - تعالى - على رسله؛ فأدلة التوحيد منبثة في صفحة الوجود بعدد المخلوقات، منتشرة في الأنفس والآفاق بعدد الأسرار المودعة في كل مخلوق، فالكون كتاب مفتوح يقرأ فيه العقل سطور الألوهية، وشواهد الوحدانية، وأدلة الربوبية، وما غابت حقيقة الألوهية عن عقول الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (١١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمٌ (١٢) وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٠، ٦٣]، وقد كشف حوار رسول الله - ﷺ - في فتح مكة مع أبي سفيان عن رسوخ هذه الحقيقة في عقول المشركين حين قال له: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟»، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان معه إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.

هذا بالإضافة إلى أن التوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها، والإنسان لا يقع في حبال الشوك، ولا يسقط فريسة في مخالف الكفر إلا بعد أن يلغي عقله أولاً، ويفسد فطرة الحق في نفسه ثانياً، وبهذا يصبح الشرك مقطوع الصلة بربه نهائياً وتتجرد نفسه من كل عناصر الخير، ويهبط إلى أسفل سافلين، وعندئذ يمسك الله - تعالى - عنه فضله، ولا يكون له مكان في رحمته إذا خرج من الدنيا على هذه الحال وهذا هو الضلال البعيد بخلاف من يفعل الكبائر، ويشهد لخالقه بالوحدانية، فله أمل في المغفرة، ورجاء في العفو، ومكان في الرحمة،



لأن علاقته بربه قائمة، وصلته به باقية، وهو أعلم بحاله إن شاء تجاوز عن سيئاته، وغفر آثامه، ومحا خطاياها، وإن شاء عاقبه بها، وآخذه عليها.

ثالثاً:

١ - توحيد الله - تعالى -، وتنزيهه عن الشريك أحب الأشياء إليه، وأعظم قربى يتقرب بها العبد إلى ربه، والإشراك به على أية صورة من الصور أبغض الأشياء إليه، وأكبر الكبائر التي تستوجب سخطه ومقته، وتغلق باب رحمته.

٢ - يغفر الله - تعالى - ما دون الشرك لمن يشاء من عباده، ومشيبته - سبحانه - بصيرة يدعمها علمه المحيط، ويضبطها عدله الدقيق، وميزانه القسط.

٣ - تجمع الآية الكريمة بين وعيد أهل الشرك بأنه لا مغفرة لهم، ووعد أرباب المعاصي بأن تتصرف مشيئته في أمرهم.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾.

ما يعبد المشركون من دون الله - تعالى - إلا تماثيل نحتوها من الأحجار، واتخذوها رمزاً للملائكة الذين جعلوهم إناثاً، ونسبوا نبوتهم إلى الله - تعالى -، وهم عباده وخلقه؛ ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَدُ الرَّحْمَنِ أَنْثَىٰ أَسْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وسموا أوثانهم بأسماء الأنثى: اللات، والعزى ومناة ثم تقربوا إليها بالعبادة، والنذور والقرايين، واتخذوها شفعاءهم عند الله. ﴿وَيَقْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمُ الَّذِينَ لَا تَعْلَمُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ شُبْحَنُكُمْ وَقَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، وما زين لهم عبادة الملائكة، وأركسهم في

حماة الشرك إلا الشيطان الذي اتبعوه، وانقادوا لغوايته، والملائكة براء من شركهم ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ بِمَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلَ جَنٍّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وهؤلاء الجن الذين اتخذوهم أولياء من دون الله - تعالى - وأطاعوهم زعيمهم الشيطان الذي رفض الإذعان لأمر ربه، وأعلن التمرد والعصيان، وامتنع عن السجود لآدم حسداً له، وحقداً عليه، واحتقاراً للحمى المسنون الذي خلقه ربه منه. ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِيَاسْجَدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُمْ مِنْ صَلَاسِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

وقد أخزاه ربه، جزاء علوه واستكباره، وطرده من رحمته، وأخرجه من جنته ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾.

فألى على نفسه أن يضل الناس عن الحق إلا من كان يؤمن متوكلاً ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، وأن يقعد لهم على الصراط المستقيم ليمنعهم الهدى، وأن يأتهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمنهم وعن شمائلهم؛ ليصرف أكثرهم عن الشكر، وأن يستحوذ على طائفة منهم، يكون منهم حزبه، ويخرجهم على يديه في ظلمات الضلال، ويجعلهم نصيبه المعين من البشر ﴿وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾.

وأن يلبس لهم الباطل ثوب الحق، ويزين لهم الإفساد في الأرض، ويرغبهم في الكفر والفسوق والعصيان، ويغريهم باللذات ويلهيهم بالشهوات، ويخدعهم بالآماني الكاذبة، والأوهام الحالمة ﴿وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا أُمْمِيَّتَهُمْ﴾.

وأن يُملي عليهم إرادته، ويخضعهم لمشيئته، ويفرض عليهم سلطانه، وينزلهم على أمره، فيوحي إليهم أن يجعلوا من الأنعام بحيرة يقطعون آذانهم أو يشقونها؛ ليحرم عليهم أن يأكلوها، ويحظر عليهم أن



يركبوها ﴿وَلَا مُرَّهَنَ فْلَيْبَتِكُنَّ إِذَا كُنَّ الْأَنْعَامُ﴾ [النساء: ١١٩] وأن يُفلسف حياتهم طبق منهجه، ويطمس في بصائرهم فطرة الخير، ويوجه تفكيرهم إلى تشويه خلق الله - تعالى - وتغيير سماته، ويطلق أيديهم في خصاء الرقيق، ووشم البدن، والتلقيح الصناعي وجراحات التجميل، وتفليج الأسنان ودشرها، وإزالة شعر الحاجبين وترفيعهما. ﴿وَلَا مُرَّهَنَ فْلَيْبَتِكُنَّ خَلَقَ اللَّهُ﴾.

وليس وراء الوقوع في حبائل الشيطان، والانقياد لغوايته، واتباع أمره، واتخاذ نصرته، والاستعانة به إلا الخسران الواضح، والهلاك البين بانتقام الله - تعالى - وعذابه، والحرمان من رضاه ورحمته ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

يعدهم الشيطان وعوده الكاذبة، ويخدعهم عن الواقع؛ فيلقى في روعهم أن الزكاة والصدقة والإنفاق في البر باب الفقر والإملاق، وأن التعامل بالربا، وأخذ الرشا، واحتراف المقامرة هو الطريق إلى الغنى والثراء، وأن نشر آرائهم الضالة، وترويج مذاهبهم الفاسدة، والتعصب لمبادئهم الأرضية هو السبيل إلى السيطرة والمجد والخلود، وأن تحديدهم أنسالهم، وقتلهم عيالهم هو الوسيلة إلى الرخاء والازدهار، وأنه لا حياة إلا الحياة الدنيا، وأن البعث والحساب، والثواب والعقاب خرافة. ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، وأن الزواج سجن واسترقاق، وأن السفاح حرية وانعتاق ﴿يَعِدُّهُمْ﴾.

ويمنيهم أمانيه الخادعة، ويجعلهم يعيشون على تصورات وهمية؛ فيُخيل إليهم أنه إن كان ثمة قيامة وجزاء فهم عن العذاب مبعدون، وفي النعيم خالدون؛ لأنهم أهل الكرامة في الدنيا، وأصحاب الجاه والسلاطان، وذوو المال والبنين، وأن سعداء الدنيا هم سعداء الآخرة، ويُسَوِّد لهم أن شركاءهم سيشفعون لهم يوم الدين ﴿وَيُمَيِّتُهُمْ﴾.

ولا يملك الشيطان من الوعود إلا باطلها، ولا يُري أولياءه الأشياء إلا على غير حقيقتها، ولا يُقدّم لهم الأمور إلا على خلاف واقعها؛ فما أُرِبت المقامرة ولا الرشوة ولا الربا مالا، ولا بدّدت الزكاة والصدقة ثراء، وما أصلحت المذاهب الوضعية شعباً من الشعوب، ولا سمت بروحه، ولا ارتقت بوجوده، ولا طهرت نفسه، ولا هذبت أخلاقه، ولا قومت سلوكه ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

أولئك الذين كفروا بما جاءهم من الحق، وأفسدوا فطرة الخير في نفوسهم، وألغوا عقولهم؛ فأشركوا بربهم ما ليس لهم به علم، وعبدوا من دونه ما ليس له به حجة واضحة، ولا برهان قاطع، واتخذوا الشيطان وليهم، يخدعهم بما في جعبته من الوعود الزائفة، والأمانى الباطلة، ويزين لهم سوء عملهم فيروونه حسناً، مثواهم جهنم، ومرجعهم إلى عذابها. لا يجدون محيداً عنها، ولا مهرباً منها. ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخُذُونَ عَنْهَا حِصْبًا﴾.

وفي الطرف المقابل لهؤلاء الأشقياء الذين باءوا بالخسران المبين، وحلّوا في العذاب المقيم نجد السعداء ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٣١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، فالذين حلت الهداية قلوبهم، واستجابوا بداعي الإيمان، وصدقوا بما جاءهم به من ربهم، واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، ونشطوا للعبادة والطاعة، وسارعوا إلى الأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله - تعالى -، ولم ينقادوا للأهواء والشهوات، ولم يقتربوا السيئات سيدخلهم ربهم جنات عرضها السموات والأرض، تتفجر فيها العيون، وتجري خلالها الأنهار، لا تمسهم فيها نصب، ولا ينالهم فيها لغوب، وما هم منها بمخرجين، ولهم فيها نعيم مقيم ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

وعدهم الله - تعالى - هذا النعيم وعداً حقاً لا مرية فيه، وكان



وعده مفعولاً، ولا أحد أصدق من الله - تعالى - قولاً إذا قال، ولا أوفى منه وعداً إذا وعد ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

من الدروس المستفادة:

- ١ - قطع آذان الأنعام أو شقها بقصد تحريم أكلها أو ركوبها، وتغيير خلق الله - تعالى - وتشويه صنعته عمل من إيهام الشيطان ووسوسته لأوليائه الذين اتخذهم نصيبه المفروض.
 - ٢ - لا شيء أبعد من الضلال، وأعمق في الغواية من الشرك؛ فمن أشرك بربه فقد ضل ضلالاً بعيداً، وحُرم المغفرة.
 - ٣ - للشيطان نصيبه المقدر، وحظه المعين من البشر، يجتالهم، ويخرجهم من النور إلى الظلمات، ويفرض عليهم سلطانه، ويصدر إليهم وعوده، ويلقي إليهم بأمانيه.
- وإذا كانت جهنم مثنوى الكافرين، ومأوى الظالمين، ولن يجدوا عنها حولاً، وكانت الجنة دار المتقين، خالدين فيها أبداً، فإن النجاة من العذاب، والفوز بالثواب لا يجري تبعاً لتقديركم - أيها المؤمنون - ولا وفق ما تشتهي أنفسكم، وليس متروكاً لرغباتكم، ولا موكولاً لما يراود خواطركم، ويداعب أفكاركم من أنكم خير أمة أخرجت للناس، ولا يجري كذلك حسب ما يتمنى اليهود والنصارى الذين يزعمون أنه: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ويقولون: ﴿وَحَنُّ أَتَيْنُوا اللَّهَ وَاجْتَبَوْهُ﴾ [المائدة: ١٨]، ويقولون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]. ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾.

ولكن الجزاء يرتكز على قاعدة ثابتة، ويجري طبقاً لميزان لا يتأرجح، وسنة لا تتخلف، ونظام لا يتغير يكون الخلق جميعاً أمامه سواء؛ فمن يكسب إثماً، أو يقترب سوءاً أو يعمل مثقال ذرة شراً أحصيت عليه أعماله، ونال العقاب العادل الذي يستحقه على ما سجله

كتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إلا أحصاها، ولم يجد له من دون الله - تعالى - ولياً يتولى أمره، ويدافع عنه، ولا نصيراً يخلصه من الجزاء الذي استحق بعمله. ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. ومن تزود بالأعمال الصالحة، واستكثر من الحسنات، وخاف ربه واتقاه، ووقف عند الحدود التي شرعها - سواء كان ذكراً أو أنثى - وتحقق فيه شرط الإيمان: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فأولئك يؤتون أجورهم، ويجزون على إيمانهم، وأعمالهم الصالحة قليلها وكثيرها، ولا يظلمون شيئاً من الثواب مهام كان ضئيلاً، ويدخلهم ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، نزلاً من عند الله، وما عند الله خير للأبرار ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

ولا أحد أفضل ديناً، وأحسن ملة، وأزكى طريقة ممن اهتدى إلى الإيمان، ورضي الإسلام مذهباً، واختار الحنيفية السمحة، وسلك المحجة الواضحة، واتبع الصراط المستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، وأسلم وجهه لله رب العالمين، وخضع له وحده، وانقاد إليه في أمره كله، ولم يبتغ غير الإسلام ديناً، ولم يؤثر غير هدى الله هدى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾.

ولا عمل أرفع درجة، وأسمى مرتبة، وأعلى منزلة من عمل المؤمن الذي يتوخى ويعمل، ويستحضر جلال ربه في قلبه، ويعبده كأنه يراه، ويراقبه في سائر أحواله مراقبة من يوقن أنه حاضر معه، شهيد عليه، مطلع على شأنه كله. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

واتبع الإسلام الذي اتخذه الخليل إبراهيم - عليه السلام - ديناً، واستقام على منهجه، ولم ينحرف عن شريعته، ولم يزغ عن هداية ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.



وقد امتحن الله - تعالى - خليله إبراهيم - عليه السلام - بذبح ولده، فلما قاده إلى المذبح، وصدّق الرؤيا وامتلأ، ولم يخالف عن أمر ربه، وضحّى بحبه لولده في سبيل حبه لربه، وذبح الحبّ لغير بارئه الذي فطره وهده، وأصفى حبه لوجه الله الكريم، وصار قلبه كله خالصاً لإلهه اتخذه الله - تعالى - صفيّاً ونجياً. ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾.

رابعاً؛

١ - لا شأن لأحد من العباد بمسألة الحساب في الآخرة؛ فللجزاء هناك قانونه الثابت، وميزانه العادل، الذي لا يخضع لرغبات المؤمنين، ولا يتأثر بأمني أهل الكتاب، ولا يعبأ بتخرصات المشركين ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]؛ ولكنه يرتبط بالعمل وحده، وقد اقتضت عدالة الله - تعالى - أن يكون الجزاء على الخير خيراً، وعلى السوء سوءاً.

٢ - غَضِبَ الله - تعالى - على الأنثى، ونقمته عليها، وإجحافه بحقها أسطورة موضوعة؛ فالأنثى في ميزان العدل الإلهي كالذكر سواء بسواء، إن كسبت خيراً فلها ثواب ما كسبت دون ظلم، وإن اكتسبت شراً فعليها وزر ما اكتسبت، فلا فضل ولا تفاضل بينهما إلا بالتقوى.

٣ - لا يصح في منطق العقل، ولا يجوز في عُرف الدين أن تُفهم مفاضلة بين الإسلام وغيره من قوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، فالمراد أنه ليس هناك ملة حسنة، ولا دين قيم، ولا شرعة صحيحة إلا الإسلام ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]..

٤ - أفضل درجات الطاعة والعبادة مرتبة الإحسان التي يعبد فيها

المؤمن ربه كأنه يراه، ويراقبه إذا تحرك أو سكن، ويخشاه في السر والعلن.

٥ - أدرك إبراهيم - عليه السلام - بفطرته السليمة، ورأيه السديد أنه هو وابنه ملك لربه، الذي له ما في السموات وما في الأرض، وأنه لا وجود إلا وجود خالقه، فلم ينازعه حكمه، ولم يناقشه في قضائه، وأسلم لمالك الملك وجهه، وفوض إليه أمره، فنال الحظوة عند خالقه، واتخذة صفيًا ونجيًا، وخليلاً ورَضِيًّا.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾.

وإذا علم الناس أن الله - تعالى - ما في السموات وما في الأرض، وعرفوا أن بيده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير أدركوا أنه يتصرف في الوجود تصرف المالك في ملكه، وأنه - سبحانه - صاحب التأثير والفاعلية في هذا الكون دون شريك، وسلّموا بأنه صاحب الحق في أن يبيّن لعباده حقيقة كل من الإيمان والشرك، وأن يضع الحدّ الفاصل بينهما، وأيقنوا بأنه القادر على أن يجزي كل نفس بما كسبت؛ بميزان العدل الدقيق الذي لا يحيف ولا يحابي.

على أنه - جلّ شأنه - ليس واحداً من المالكين، وإنما هو المالك وحده دون شريك، لأنه هو الخالق، فله الأمر، وليس لغيره شيء من الأمر؛ لأنه مستخلف بمشيئة مَنْ خلق ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُؤَلِّمُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّمُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وهو - سبحانه - لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قد أحاط بكل شيء علماً، فكل ما في الوجود خاضع لقهره، وتحت سلطانه، وفي قبضته، فَلَيْسَتْحِي العباد ممّن يُراقبهم، ويطلع عليهم،



ويحيط بهم خُبْرًا، ويعلم سرّهم كما يعلم جهرهم، ولا تخفى عليه خافية من أمرهم.

خامساً:

- ١ - في الآية الكريمة تذكير بقدرة الله - تعالى - على إنجاز وعده ووعيده، وبيان لأنه المستحق وحده للقصد والاتجاه، والعبادة والدعاء، والاستغاثة والنداء.
- ٢ - وفيها إشعار بأن إبراهيم - عليه السلام - الذي اتخذه ربه خليلاً ليس له من الأمر شيء، وإن هو إلا عبد ارتقى في سلم الطاعة والعبادة إلى مرتبة الكمال، فنال رضا ربه.
- ٣ - وفيها توجيه إلى الحياء من الله - تعالى - الذي يحيط علمه بأحوال العباد، ولا يستطيع واحد أن يستخفي من علمه، أو يستتر من رقبته.

سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ
وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ
الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى
بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾
وَإِنْ أُمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهَا أَنْ يُصَدِّقَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ
الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا
بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ



فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرِقَا يَعْزِبِ اللَّهُ كُلًّا
مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾
إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيْهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِكَافِرِينَ وَكَانَ
اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ
اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾	ويسألونك أن تفتيهم في شؤون النساء، وحقوقهن المالية؛ وجميع أحوالهن.
﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾	ويفتيكم في قضيتهن القرآن بما نزل فيه من آيات في هذه السورة وغيرها.
﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾	وأن تتحروا العدل والإنصاف في معاملة اليتامى، ورعاية حقوقهم.
﴿مِن بَعْلِهَا شُورًا﴾	من زوجها استعلاءً، عليها، وترفعاً عن معاشرتها، وإهمالاً في رعايتها.
﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾	أو انصرافاً وميلاً عنها.
﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾	أن يتفقا على خطة تدرأ الخوف، وتنتهي بالعشرة والوفاق أو الطلاق.
﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾	والإبقاء على الحياة الزوجية أفضل من قطعها.
﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾	وقد طبعت الأنفس على البخل بالمال الذي يعرقل مساعي الصلح.
﴿وَإِن تَحْسَبُوا﴾	وإن يحسن بعضكم إلى بعض بالعشرة الكريمة، والمعاملة الرحيمة.
﴿وَتَنَفَّوْا﴾	وتحذروا أسباب المغاضبة، وتجتنبوا الإعراض والترفع.
﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾	ولن تقدرُوا على تحقيق العدل بينهن في ميل القلب وإقبال النفس، والمؤانسة.
﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾	فلا تظلموا من لا تحبونها، وتركوها معلقة لا هي زوجة ولا هي مطلقة.
﴿وَإِن تَصْلِحُوا﴾	وإن تعدلوا بين النساء في الحقوق التي يمكن العدل فيها.



الكلمة	تفسيرها
﴿وَتَقَوُّوا﴾	وتبتعدوا عن ظلمهم، والترفع عليهم، وتفضيل إحداهن في النفقة والمعاملة.
﴿عَفُورًا﴾	لما لا تستطيعونه من ميل القلب، ووجدانات النفس، وانسراح الصدر.
﴿يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾	كان الله - تعالى - قادراً على أن يغني كلًّا منهما عن الآخر من فضله الواسع.
﴿وَكَيْلًا﴾	مسيطرًا ومهيمنًا ورقياً.
﴿يُذْهِبْكُمْ﴾	يستأصلكم بعذاب، أو يسلط عليكم من يستذلّ منكم الرقاب.
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾	من كان يبغي بعمله وسعيه متاع الدنيا، والشهرة فيها.
﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾	فعنده - سبحانه - ما يفني وما يبقى.
﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾	يسمع الأقوال، ويرى الأعمال.

التأويل والبيان:

سؤال المسلمين رسول الله - ﷺ - في أمور دينهم، وشؤون حياتهم، وأحوال نسائهم يدل على مقدار اليقظة التي أحدثها الإسلام في نفوسهم، ويشهد برغبتهم الصادقة في أن تطابق أساليب حياتهم منهج هذا الإسلام الذي وجدوا فيه المنقذ من شرور الجاهلية وظلمها وظلامها، ويبيّن مقدار خوفهم أن يمضي شأن من شؤونهم على غير ما يرضي ربهم، واستفتاؤهم في أمر النساء يشير إلى أنهم كنّ مستضعفات، وكن مغلوبات على أمرهن، وأن المجتمع الجاهلي كان يحيف عليهن، ويعضلهن، ويجرد بعضهن من إنسانيته. ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾.

والتصريح بأن الله - تعالى - هو الذي يصدر الحكم في العلاقات الاجتماعية، والمعاملات المالية، وهو الذي يفتي في شؤون النساء، ويقرر حقوقهن في المهر والميراث والكسب، ويبين أحوالهن عند الصلح والوفاق، وخوف النشوز والشقاق، والتسريح والفراق، وأن الرسول - ﷺ - مع عصمته ليس مفوضاً من ربه في أن يفتي في هذه المسائل، هذا التصريح يطبع أحكام الإسلام بالقداسة، ويخلع عليها الجلال، ويقطع بأن الذين أسلموا وجههم لله - تعالى -، واتبعوا دينه، وورثوا ملة إبراهيم - عليه السلام - ليسوا أحراراً في أن يأخذوا من منهج ربهم ما يشاءون، ويتركوا منه ما يريدون، وأنهم ملزمون بأخذه كله، والعمل به جميعه إن كانوا مؤمنين به؛ فلو كان التشريع من حق البشر، أو كان أمره هيناً يسيراً لترك لأفضل خلق الله - تعالى - وأشرفهم أن يرسى قواعده، ويصوغ بنوده، ويضع حدوده ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾.



وهو - سبحانه - يفتيكم فيهن بما تقرأون في هذه السورة وغيرها من القرآن الكريم، في شأن يتامى النساء؛ واليتيمة في الوسط الجاهلي كانت مضیعة، محرومة من الرعاية، مجردة من كرامة الإنسان، أهون من سقط المتاع، إن كانت محل رضا وليها ورغبته تزوجها بلا مهر، أو بخسها مهرها على الأقل، وإن رغب عنها، ولم يكن له فيها مطمع لدمايتها، أو لما عراه من المشيب، وما عُري من أفراس الصبا ورواحله منعها الزواج من غيره؛ ليظل مالها في قبضة يده، ينفق منه كما يشاء، فإن ماتت ورثها، وليظل جهدها وعرقها مبذولان لراحته، كفيلان بسعادته، وقد حرم الله - تعالى - ذلك، وأمر بإنصافهن، وتوخي العدل في معاملتهن، والقيام عليهن بالقسط، ورعاية مصالحهن، والمحافظة على حقوقهن المالية، وكرامتهن الإنسانية ﴿وَمَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ﴾. وكما كان المجتمع الجاهلي يحرم على النساء أن يرثن كان يحرم على الأطفال أن يرثوا آباءهم، استهانة بشأنهم، واستضعافاً لأمرهم؛ بحجة أنهم لا يشتركون في القتال، ولا يذودون عن العشيرة، ولا يحوزون الغنيمة، وهم لا يورثون إلا المقاتلين، فنهى الله - تعالى - عن إسقاط حق الصغار في الميراث، وأفتى في أمر الولدان المستضعفين، وبين لكل وارث نصيبه في قوله - تعالى -: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾... ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنْ أَوْلَادِنَ﴾.

وهو - سبحانه - يأمركم أن ترعوا حقوق اليتامى، وأن تعدلوا معهم، وتحسنوا القيام على شؤونهم، وتحفظوا لهم أموالهم، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا، ويفرض عليكم أن تقسطوا مع اليتيمات، وأن تعطوهن صداقهن إذا نكحتموهن، وألا تمسكوهن عن الزواج إذا رغبتن عنهن ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾.

والله - تعالى - يعلم ما يفعله أوصياء اليتامى من خير وشر،

وإصلاح وإفساد، وسيجازي كلاً منهم على عمله بما يستحق من الثواب أو العذاب ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

- يستحث الوحي الكريم خطا الأوصياء إلى الخير، ويرغبهم في الإحسان إلى اليتامى، ويحبهم في إنصافهم، فيذكر علم الله - تعالى - بما يفعلون من خير، ولا يذكر علمه - سبحانه - بما يفعلون من شر، حتى لا يخطر لهم على بال أن اليتيم المضيع في الدنيا عند الناس، هو كذلك مضيع في الآخرة عند الله - تعالى -، لا يكافئ من أحسن إليه، وعدل معه، ووفاه حقه.

﴿وَإِنْ أَمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

يعمل الإسلام على بقاء الحياة الزوجية، ويحرص على استمرار العلاقة المقدسة بين الزوجين، ويسعى لإنمائها، ويوجه إلى بذل الجهود للتغلب على شتى العقبات التي توهم من هذه العلاقة، أو تقف في سبيل دوامها، وقد عالجت السورة الكريمة بقوله - تعالى - ﴿وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَفْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَصْرِبُوهُمْ﴾ الحالة التي يخاف فيها الزوج نشوز زوجته، وهذه الآية الكريمة تعالج الحالة المقابلة التي تخاف فيها الزوجة نشوز בעلها، وهي لا تفرض عليها سلوكاً معيناً، ولا تلزمها تصرفاً خاصاً، ولكنها تجيز لها إذا أوجست في نفسها خيفة من تكبر زوجها، وتعالیه عليها، ورأت من أمارات الترفع والانصراف عنها ما أقلقها على مستقبل حياتها معه، وتوقعت أن يترتب على سلوكه هذا تهديد أمنها، أو امتهان كرامتها، أو إهدار حقها في النفقة، أو هجرها وتعريضها للفتنة، فإن الآية الكريمة تجيز لها في هذه الحال أن تتصرف بما ترى فيه مصلحتها؛ فإن رأت أنها تستطيع أن تصلح حال زوجها، وتعيده إلى الوضع الطبيعي إن تنازلت له عن بعض حقوقها المشروعة في



النفقة، أو تعهدته ببعض الهدايا، أو تركت له قسمتها، فلا إثم عليها أن تفعل ذلك، وأن يتفق الزوجان فيما بينهما على خطة تبعد شبح الخوف، وتحقق الصلح والوفاق، وإن لمست منه بُغضها، وأحست رغبته عنها، ورأت عجزها عن إصلاح أمره، ووجدت أن انفصالها عنه خير لها، فلا حرج عليها أن تفتدي نفسها ببعض مالها، وتصلحه على تسريحها بجزء من صداقها، أو بالتنازل عن نفقة عدتها، ومتعة طلاقها. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وإذا لم تقدر على هذا ولا ذاك كان على الزوج أن يوفيهما حقها كاملاً، أو يسرحها بإحسان ﴿فَإِمْسَاكُكُمْ يَعْرِوْفُ أَوْ تَسْرِحُكُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ﴿وَإِنْ أَمْرَاؤُكُمْ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ والصلح الذي يُبقي على الحياة الزوجية، ويدعم وجودها، ويُنقي جوها من الأكدار، ويساعد على استمرارها أفضل من الفراق الذي يقطع الرابطة المقدسة، ويجني على الأطفال الأبرياء، ويرهق نفوسهم بالحزن والأسى، ويعرض مستقبلهم للضياع، ويصيب المجتمع بأفدح الأضرار ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

وتنبه الآية الكريمة إلى أن ما عُرس في الأنفس، وما جبلت عليه الطباع من بخل ظاهر، وشح حاضر قد يعوق الزوجة عن التضحية ببعض حقوقها، أو النزول عن شيء من مالها أو حظوظها، وقد يمنع الزوج من التنازل عن كبريائه، والتخفيف من غلوائه، والعدول عن أعراضه، والعودة إلى المعاملة الجميلة، والمعاشرة بالمعروف وربما كان هذا الشح حجر عثرة في طريق الصلح الذي هو خير في جميع الحالات، ولهذا تحت الآية الكريمة الزوجين كليهما على اتقاء الشح: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وترغبهما في الإحسان، وفعل كل ما هو جميل؛ من الكلمة الطيبة، والبذل والسخاء، والوعد بالتسامح، والعفو والصفح، والإغضاء عما يهيج الغضب، وتدعوهما إلى اتقاء أسباب النفور ودوافع النشوز، وتطمعهما في مثوبة الله - تعالى - الخبير بأعمال العباد، الذي يكافئ أهل الإحسان والتقوى ﴿وَأُخْبِرَتْ

الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا.

من الدروس المستفادة أولاً:

١ - العدالة بين الزوجين في الإسلام أن يكون لكل منهما من الحق مثل ما عليه من الواجب. وكفاء ما يحمله من التبعة، وعلى هذا الأساس عالج لقضية النشوز في كلا الزوجين، بما يلائم وضع كل منهما في الأسرة، والعبء الذي يحمله، والتبعة المنوطة به فأعطى الرجل صاحب القوامة عند خوفه نشوز زوجته حق التأديب والتقويم، وأعطى المرأة عند خوفها نشوز زوجها حرية التصرف للحفاظ على حقها المشروع، ولم يعطها نفس الحق الذي أعطاه الرجل؛ لأنه غير مقبول وغير معقول.

٢ - يرى الإسلام الصلح بين الزوجين خيراً في جميع الحالات؛ يراه خيراً إذا أثمر الوفاق، وأذهب الشقاق، ويراه خيراً إذا انتهى إلى الطلاق على غير عداوة وخصومة وشحناء، ويراه خيراً إذا فتح باب العشرة بالمعروف أو التسريح بإحسان، ولهذا يحذر من الشح الذي يعرقل مساعي الصلح، ويحول دون التراضي.

٣ - ترغب الآية الكريمة كلاً من الزوجين في الإحسان إلى صاحبه، ومعاشرته بالمعروف، ومعاملته بالحسنى، واجتناب كل ما يكدر الصفو، ويشير الغضب، ويسبب الشقاق، وتعد الذين يعملون هذا حسن الثواب.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَمْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾.

تشير الآية الكريمة إلى لون من العدل تعجز القدرة البشرية عن تحقيقه بين الزوجات؛ وهو العدل بينهما في ميل القلب، وعاطفة



العلاقات الزوجية، وهو خالق هذا الوجود الذي لا يحيط التصور بأبعاده، ومالك هذا الملك الذي لا تدرك العقول مداه، وهو المهيمن على هذا الكون، والمتصرف فيه كما يشاء، وله ما في السموات من أملاك وأفلاك، وما في الأرض من مخلوقات، وله القيام على أمرهما، وتدبير شؤونهما، وإحكام نظامهما، وما من إله غيره، وما من خالق سواه؟

إنه صاحب الحق بلا منازع في أن يرسل رسله مبشرين ومنذرين، وينزل عليهم الآيات البينات، ويضع لخلقه دستور حياتهم، ويشرع لهم من العبادات ما يطهر نفوسهم، ويزكي أرواحهم، ويسنّ لهم من الأحكام ما يصلح مجتمعهم، ويقدم إليهم من الوصايا ما يسعدهم في دنياهم وأخراهم؛ لأنه صاحب السلطان، ومالك الملك، وله الأمر كله ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٣١].

ولقد وصى الله - تعالى - الأمم السابقة فيما أوحى إليها على السنة رسلها بما وصانا به في القرآن الحكيم من تقواه، والإيمان به، واتباع هداه، وإقامة حدوده، والاستقامة على دينه، واجتناب الكفر الذي يُسخطه، والبعد عن العصيان الذي يغضبه؛ فإن تقواه تعالج أمراض القلوب، وتداوي علل النفوس، وتشفي أدواء الحياة، وقد وعد الله - تعالى - المتقين أن يسبغ عليهم فضله، ويجعل لهم في حياتهم الدنيا نوراً يميزون به الحق من الباطل، ويغفر لهم خطاياهم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاٰمِنُوا بِرِسُوٰلِهِۦٓ بُؤَيِّكُمْ كِفٰلَيْنِ مِّن رَّحْمَةِٖ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

ووعدهم أن يجعل لهم من كل ضيق فرجاً، ومن كل كرب مخرجاً ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ووعدهم أن يرزقهم رضاءه ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُجِبُ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وَأَنْ يَسْكُنَهُمْ جَنَّتَهُ ﴿٥٤﴾ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٥﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ ﴿٥٦﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥]. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

وإن تكفروا - أيها العباد - بما وصاكم به من تقواه، وما فرضه عليكم من توحيده، وتعرضوا عما جاءكم من الحق، وتتخذوا من دونه أولياء، فما أهون أمركم، وما أحقر شأنكم، وما أنفه وجودكم عند بارئكم الذي له ما في السموات وما في الأرض، وهو الغني عنكم وعن غيركم، لا تنفعه طاعتكم، ولا تضره معصيتكم، وهو المحمود في كل حال، وبكل لسان ﴿وَأَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

ولله ما في السموات وما في الأرض؛ يملكه ملكاً حقيقياً أساسه الخلق من العدم، لا ملكاً رمزياً يعتمد على الاستخلاف والانتفاع، وأنتم - أيها البشر - ممن خلق، حياتكم بإرادته، وموتكم بمشيئته، ونواصيكم في قبضته، وحركاتكم وسكناتكم بقدرته، وتدبير أموركم بحكمته، وحفظكم بالليل والنهار وكلاءتكم بعنايته، وشأنكم كله موكل إلى قوامته؛ فإذا فرض عليكم الإسلام ديناً، وأنزل القرآن منهاجاً ودستوراً، وفصل الآيات تفصيلاً، ووضع الأحكام، وأرسى دعائم النظام، فذلك شأنه، وذلك حقه في ملكه، لا شريك له فيه، وإذا كان يتصرف في الوجود كله فكيف لا يتصرف في جزء منه؟ وإذا كان يضع النظام العام الشامل للكون في حاضره ومستقبله، فكيف لا يضع منهج الحياة لحفنة من البشر، لا يمثلون إلا ذرة من خلقه، ولا يعدون أن يكونوا قطرة في محيط، أو نقطة في كتاب؟ وما أغنى من له ما في السموات وما في الأرض عمن ليس له شيء فيهما، وما أقدره على



التصرف في شؤون خلقه، وما أحقه بأن يكون الحفيظ والوكيل، وكفى به وكيلًا، ووليًا وكفيلاً.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾.

إن مشيئة الله - تعالى - طليقة، وإرادته حرة، وليس على مشيئته وصاية، ولا على إرادته قيدٌ أو حجرٌ، وهو الغني عن الخلق جميعاً مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، وهو إن شاء قطع دابر الكافرين، وأذهبهم إلى غير رجعة، واستأصل شأفة الذين يحادونه، ويتطاولون على حقه، ويدسّون أنوفهم في اختصاصه، ويصدّون عبادته عن منهجه، ويحولون بين دستوره وبين إصلاح حياة البشر، ويشرعون القوانين التي تفسد حياة الناس، وتجّرهم إلى العنت والشقاء، وتؤرث بينهم العداوة والبغضاء، نعم هو القادر على محوهم من صفحة الوجود، والإتيان بقوم آخرين يحبهم ويحبونه، ويؤمنون به ويتقونه، ويعتصمون بكتابه، ويطيعون الله ورسوله، وهو الفعال لما يريد، لا يستعصي عليه أمر، ولا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

ثانياً:

يُفهم من تكرار قوله - تعالى - : ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة النساء: ١٣٢] في أثناء الحديث عن جزاء من يعمل سوءاً، ومن يسلم وجهه إلى الله - تعالى -، وفي أثناء تقرير الأحكام التي تنظم شؤون الأسرة، وفي سياق الوصية بالتقوى عدة دروس:

١ - أن الله - تعالى - هو صاحب الحق وحده في أن يسنّ قانون الجزاء، وأن يصوغ حياة عباده كيفما شاء، وأن ينظم علاقاتهم بعضهم مع بعض كما يريد؛ لأنه مالك الملك، وله وحده الحكم والأمر ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠].

٢ - أن الحق في الإسلام واحد لا يتعدد؛ فالحق في الفروع والجزئيات من أحكام الدين هو نفس الحق في الأصول والكليات، لا فرق بينهما، والله - تعالى - هو الذي يحق الحق بكلماته فيهما على حد سواء؛ لأن الحق دائماً كبير، وهو - سبحانه - لا يكله إلى أهواء مملوكيه وعبيده، الذين ليس لهم من الأمر شيء ولا علم لهم بالحق إلا من الله الحق. ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَلَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

٣ - أن الوجود كله وحدة واحدة، لا انفصال فيه بين كلياته وجزئياته، وهو بهذه الوحدة يرمز إلى وحدة خالقه، ويهتف بأنه واحد لا شريك له، والله - تعالى - لا يسمح بتمزيق الوجود الواحد بينه وبين من ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

يعلم الله - تعالى - أن من عباده جِبَلًا كثيراً يبتغون عرض الحياة الدنيا، وتستهويهم زينتها، ويخدعهم بريقها، ويسحرهم زخرفها، ويجذبهم متاعها، ويرضونها ويفرحون بها، ويطمثون إليها، ولا يبتغون عنها حِوَلًا، وتنحصر فيها رغبتهم، وتدفعهم نيتهم إلى الكد في تحصيلها، وبذل الجهد في نيلها؛ فإذا طلبوا العلم طلبوه طمعاً في المنصب والجاه، وإذا سعوا إلى المنصب سعوا إليه رغبة في الشهرة، وإذا جروا وراء المال جروا وراء طلباً للتمتع بالملذات، والاستغراق في الشهوات، وإذا تَمَنَّوْا قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم.



والآية الكريمة تخبر هؤلاء وأشباهم أن ملك الله - تعالى - لا يقتصر على هذه الحياة الناصبة، التي تفتى وتمرّ في سرعة خاطفة، وأن وراء هذه العاجلة الزائلة آجلة خالدة، هي خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وأنه لا عيش إلا عيش الآخرة، ولا ثواب إلا ثوابها، وأن الاتجاه إلى الحيّ الباقي في السعي والكسب لا يفوت عليهم شيئاً مما قسم الله - تعالى - لهم من حظوظ الدنيا، بل إنه يهيئ لهم فيها أطيّب حياة، وأرغد عيشة، وأكرم استخلاف. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

والذين يقصرون همهم على طلب الدنيا وحدها قوم ضالون، لا يوقنون بالآخرة، ولا يؤمنون بأن للوجود رباً رحيماً كريماً يجزي العاملين، ولا يضيع عنده أجر المحسنين؛ فإن برهان الإيمان الصادق أن يكون العبد أوثق بما عند الله - تعالى - منه بما في يده، ومن كانت وجهته الدنيا فرّق الله عليه شمله، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتها منها إلا ما كتبه الله - تعالى - له: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لِمُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لِمُ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

ألا فليذكر الغافلون أن الله - تعالى - عنده ثواب الدنيا والآخرة، وليجدوا في طلبهما معاً، وليقصدوا إلى ثواب الآخرة الذي لا يحرم من ثواب الدنيا ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لِمُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لِمُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. وليعلموا أن الله - تعالى - يسمع ما تتحدث به الألسنة، ويبصر ما تتجه إليه النيات.

سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ
 وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا
 أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن
 تَلَوْنَهَا أَوْ تَعْرِضُوهَا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٥﴾ يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَاكُتِبِ الَّذِينَ نَزَّلَ
 عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَاكُتِبِ الَّذِينَ نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ
 بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَاخِرُ فَقَدْ ضَلَّ
 ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا
 ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
 سَبِيلًا ﴿١٢٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢٨﴾ الَّذِينَ



يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُّونَ
عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي
الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ أَيْتَ اللَّهِ يُكْفِرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ
إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾
الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ
نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى
الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرِيدُونَ

أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
 فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
 إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا
 دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ
 الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ
 إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿قَوْمِينَ يَلْقَسُوا﴾	مبالغين في تحريي العدل، مجتهدين في القيام به، ساهرين على رعايته.
﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾	مؤدين الشهادة ابتغاء وجهه - تعالى - متوخين فيها الحق الذي يرضاه.
﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾	ولو اقتضى إحقاق العدل أن تقرّوا على أنفسكم، وتكونوا خصومها.
﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِرِيعَاةِ مَصَالِحِهِ﴾	إن يكن المشهود له موسراً أو فقيراً فأحكام الله - تعالى - أولى برعاية مصالحه.
﴿أَنْ تَحْدِلُوا﴾	لثلا تنحرفوا عن الحق إلى الباطل، وتميلوا عنه.
﴿وَأِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا﴾	وإن تحرفوا الشهادة عن الصواب، أو ترفضوا أداها.
﴿أَمَانُوا﴾	اثبتوا على إيمانكم، واستقروا على التوحيد.
﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾	والكتب السماوية التي نزل بها الوحي الكريم قبل القرآن المجيد.
﴿بَشِيرِ الْمُنْفِقِينَ﴾	أخبرهم خبراً يظهر أثره على بشرة وجوههم، أو هو للسخرية والتهكم.
﴿أَيَبْنَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ﴾	أيطلبون الغلبة، ويرجون النصر من مخلوق ضعيف، وعبد ذليل؟
﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾	يرسم طريقها، ويبين أسبابها، ويخص المؤمنين بها.
﴿يَكْفُرُ بِهَا﴾	يسخر منها، ويستهزأ بها.
﴿مَثَلُهُمْ﴾	شركاؤهم في الكفر والاستهزاء، ومثلهم في الإثم والمعصية.
﴿يَرَبُّونَ بِكُمْ﴾	ينتظرون في ترقب وترصد ما تحوزون من نصر، أو يصيبكم من هزيمة.

الكلمة	تفسيرها
﴿يُخَذِّعُونَ اللَّهَ﴾	يضلُّون بسلوكهم الماكر، والتوائهم، وخداعهم رسوله وأولياءه.
﴿وَهُوَ خَذِيعُهُمْ﴾	وهو مجازيهم على مراوغتهم وتلويهم، وماذَّ لهم في غيهم حتى يحيق بهم الخزي.
﴿كُفَّالِي بُرَاءِ وَنَ النَّاسِ﴾	متناقلين متباطئين، يتظاهرون بها، ليُرضوا المؤمنين.
﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾	لا يصلون إلا في الأوقات القليلة التي تجمعهم بالمؤمنين.
﴿مُذَبِّذِينَ﴾	حائرين مترددين.
﴿الَّذِينَ الْأَسْفَلِ﴾	الطبقة السفلى؛ لأنهم جمعوا بين الكفر والنفاق، والغش والمخادعة.
﴿وَأَصْلَحُوا﴾	واجتهدوا في الطاعات.
﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾	وتمسكوا بأحكام كتابه، وتخلقوا بأدابه، وجعلوه عصمة من الضلال.



وتصل هذه الجزئيات بمحورها الأساسي، وقانونها العام، وتبين للمؤمنين أن الله - تعالى - لا يرضى لهم إلا العدل الذي رضى له لذاته العلية، واختاره اسماً من أسمائه الحسنى. ولا يحرم عليهم إلا الظلم الذي تنزه عنه، وحرمه على نفسه فيما أوحى إلى رسوله - ﷺ -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤]، وفيما جاء في الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه -: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا». والآية الكريمة توقظ حس المؤمنين، وتحرك شعور الاستجابة فيهم؛ فتناديهم بأكرم الصفات التي ربطتهم بربهم، وأعز النعوت التي وصلتهم بخالقهم، ومنحتهم ولايته، وجعلتهم أهلاً لحمل الأمانات، وأدائها لأهلها، وكانوا بها خير أمة أخرجت للناس، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

اجعلوا العدل دستور حياتكم، وملكة راسخة من ملكاتكم، واحرصوا على رعايته في كل حال من أحوالكم، وتحروا في كل شأن من شؤونكم، وحافظوا على القيام به في كل أمر من أموركم، ولا تركوه في لحظة من لحظاتكم.

أ - اعدلوا مع ربكم، فعظموه ووقروه، واقدروه حق قدره، واتقوه ما استطعتم، واخشوا بأسه وانتقامه ما قدرتم، ولا تخشوا أحداً سواه ما عشتهم، وأدوا ما فرضه عليكم من الطاعات، واجتنبوا ما نهاكم عنه من السيئات.

ب - واعدلوا مع أنفسكم، فاخرجوها من ظلمات الجهل والضلال، ولا تحجبوا عنها نور العلم وبيعوها للرحمن، وزكوها بالعبادة والطاعة، ولا تدنسوها بالإثم والفسوق والعصيان، واعملوا صالحاً لتكونوا في أصحاب الجنة، وكونوا من الذين إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم، واحذروا أن تتوفاكم الملائكة ظالمي أنفسكم.

ج - واعدلوا مع غيركم من الأهل، وأنصفوا ذوي القربى والأرحام، وأدوا حقوق اليتامى، والمساكين، وأقسطوا مع الناس أجمعين، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، وخذوا على أيدي الظالمين، وانصروا المظلومين، ولا تبغوا الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين؛ فإن العدل أقرب للإصلاح، وأعون على تحاشي الأضرار، واتقاء الأخطار، وهو يقرّ عين المظلوم، ويظهر قلبه من الضغينة، ويغسل نفسه من الشر، وينمي ثقته في المجتمع، وطاعته للقائمين على أمره، وهو يردع الظالم، ويرده إلى جادة الصواب، ويلقنه درساً في احترام الحقوق، وينشر في القلوب برد الطمأنينة، وفي النفوس راحة الأمن، والمجتمع الذي يقيم ميزان العدل بين أفراد مجتمعه ينشد الحياة الكريمة، ويسلك طريق العزة والقوة، ويسعى إلى أن يسلم من الضعف والانحلال، وأن ينجو من الفناء والزوال؛ لأن الظلم يقتل في النفوس الأنفة والإباء، ويطبّعها على المذلة والخنوع، ويصيبها باليأس والقنوط، ويغرس الطمع في نفوس الظالمين، ويعودهم الاستغلال، وينشئهم على البطالة، ويضعف سلطان الحق في المجتمع، ويقوض أركانه، ويشد أزر الباطل، ويقيم بنيانه ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾.

ومن القسط الذي يجب أن تُديموا القيام عليه أداء الشهادة التي تساعد على إظهار الحق، ووضوح محجة الصواب، وعدم كتمانها، والإدلاء بها على وجهها الصحيح دون تغيير فيها بزيادة أو نقص، وابتغاء وجه الله - تعالى - وحده من وراء الالتزام بأدائها، والرغبة في مشوبته، والتجرد من الرغبة في مظهر أو شهرة. ﴿شُهِدَاءَ لِلَّهِ﴾، وأن تنتصروا على أنفسكم في سبيل إحقاق الحق، وأداء الشهادة لله - تعالى -؛ فتقروا عليها، وتشهدوا لخصومكم بما ينصر حقهم، ويدحض ظلمكم ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، وأن تتجاهلوا عواطفكم تجاه أحب الناس إليكم من الوالدين والإخوة والأقارب، فلا تكتموا ما يدينهم من الوقائع، ولا تفتروا



ما يبرئهم من الأقاويل ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، وأن تتجردوا من كل المؤثرات التي تحول بينكم وبين الإدلاء بالشهادة على وجهها الصحيح، وألا تحيدوا عن العدل، وتميلوا عن الصواب بسبب من الفقر أو الغنى، أو الحب أو الشنآن، أو الكفر أو الإيمان، فإن الحق أحق أن يتبع، والله - تعالى - أولى منكم برعاية مصالح عباده، وأوسع رحمة بخلقه ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾، فلا تتبعوا أهواءكم، ولا تنحرفوا عن سنن العدل في قضاء أو شهادة ممالة لغني أو إشفاقاً على فقير ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾.

وإن تحيدوا - أيها الشهداء - عن الحق في شهادتكم، أو تحرفوها استجابة لأهوائكم، أو تكتموها، وتمتنعوا عن أدائها فاعلموا أنكم آثمون ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ واعلموا أن الله - تعالى - خير بما تعملون، وسيجازيكم عليه وفق ميزانه الذي لا يحيف: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

من الدروس المستفادة أولاً:

- ١ - تفيد المبالغة في كلمة: ﴿قَوَّيْنِ﴾ أن العدل يجب أن يكون خلقاً من أخلاق المؤمنين، وصفة بارزة من صفاتهم، وسلوكاً لازماً لا يفارقهم، ولا ينفك عنهم.
- ٢ - تفرض الآية الكريمة أداء الشهادة حسبة لله - تعالى -، ونصرة للحق الذي يرضاه، وإزهاقاً للباطل الذي يبغضه، وتحريم تحريفها، وكتمانها، والإدلاء بها حباً في الشهرة، ورغبة في الحظوة عند الناس.
- ٣ - رعاية العدل في الإسلام، والانتصار للحق فوق مصلحة النفس، وأهم من جلب المنفعة لها؛ فالمؤمن من ينصف الناس من نفسه، وينتصر للحق عليها.

- ٤ - تكشف الآية الكريمة عما اعتاده كثير من الناس من العبث بالشهادة، وإخضاعها للعلاقات الاجتماعية، وتسخيرها للميول والأهواء، وتبين أن خدمة الناس، والقصد إلى نفعهم لا يكون بالتفريط في إظهار الحق، والإهمال في التزام الصدق.
- ٥ - توضح الآية الكريمة أن برّ الوالدين، وصلة الرحم لا تكون بالإعانة على هضم الحقوق، والممالة على الظلم، وإنما تكون في ردّهم إلى كنف الحق، وهدايتهم إلى طريق الرشاد، وحملهم على جادة الصواب.
- ٦ - في إلزام المؤمنين إقامة العدل، وأداء الشهادة على هذا النحو الفريد، والسهل على رعايتهما دليل على سمو مبادئ الإسلام، وشرف أهدافه، ونبيل مقاصده، وشهادة بأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله - تعالى - غيره، ولا يرضى لعباده سواه.
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ؕ وَالْحِكْمَةِ الَّتِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ؕ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ؕ وَيُوَلِّهِمُ الْآخِرَ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝﴾
- بعد أن أمرت السورة الكريمة المؤمنين بأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله - تعالى - قدمت صورتين متقابلتين:
- إحداهما الأسمى صور العدل الذي يتمثل في الإيمان الصحيح، والثانية لأقبح ألوان الظلم الذي يتمثل في الكفر والنفاق، فالإيمان الحق هو أبرز صور العدل، الذي يتفق مع الواقع، ويطابق الحقيقة، ويضع الشيء في موضعه، وله مقومات رئيسية لا بدّ من اجتماعها، وهي:
- أ - التصديق الكامل بربوبية الله - تعالى - ووحدانيته، والإيقان القاطع بأن له الخلق والأمر، والاقتران بأن له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم، وهو الفعال لما يريد، وأنه لا إله إلا هو - سبحانه وتعالى - عما يشركون.



تصور الآية الكريمة أبعد ألوان الضلال، وأقبح صور الظلم؛ وهي صورة تنطبق على بني إسرائيل الذين اتبعوا موسى - عليه السلام - وآمنوا به، فلما ذهب إلى ميقات ربه - جل وعلا - عادوا إلى الشرك، وعبدوا العجل، فلما رجع إليهم هادوا إلى الإيمان، فلما بعث عيسى - عليه السلام - كفروا به، ثم ازداد كفرهم بخاتم النبيين محمد - ﷺ -، والآية الكريمة تؤكد بوجه عام أن الذين يخرجون من ظلمات الكفر إلى نور الهدى، ويُبعثون من الموت إلى الحياة، ثم ينقلبون على أعقابهم؛ ليعودوا إلى ظلمات الضلال التي خرجوا منها، ثم يظلون في حيرة لا تنتهي، وتردد لا ينقضي، إنما يقيمون الدليل على أنهم ألقوا الضلال، وسكنوا إليه، وصاروا لا يطمئنون إلى غيره، ولا يستريحون إلى سواه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٠]، وهؤلاء الضالون قد برهنوا على أنهم ليسوا أهلاً للهداية ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦]، الذين يكفرون بعد الإيمان ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢].

وهؤلاء الذين كشفوا عن معدنهم الخبيث، وجبلتهم الظالمة قد طردهم الله - تعالى - من رحمته، وحرّمهم مغفرته، وحجب عنهم نور هدايته، ولم يكن ليقبلهم، ولا ليوصلهم إلى سبيله.

﴿بَشِّرِ الْمُتَفَقِينَ يَا نَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

والوحي الكريم ينعت هؤلاء الذين يترددون في ريبهم بالنفاق الذي هو خُلُقهم وشأنهم، ويأمر الرسول - ﷺ - أن ينذرهم إنذاراً يفعل فعله في نفوسهم، ويطلع أثره على وجوههم بأن الله - تعالى - سيجزيهم أسوأ ما كانوا يعملون، وقد أعدَّ لهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، وهياً لهم في الآخرة عذاباً وجيعاً شديد الإيلام ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ



يُطَهِّر قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾
[المائدة: ٤١].

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئَظُنُّوكُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

وهؤلاء المنافقون الذين لم يرزقهم الله - تعالى - خشيته، ولم يطهر قلوبهم من خوف الناس، ولم يجردوها من المطامع والأهواء، ولم يخلصها من حب الدنيا، وعبادة الحياة يسيئون الفهم، ويخطئون التصور، ويظنون غير الحق؛ فهم يتصورون أن الكافرين أحمى أنوفاً، وأقوى شكيمة، وأشد مراساً للحرب، وأسرع نجدة عند الصريخ، فيرهبون بأسهم، ويخشون صولتهم، ويحذرون سطوتهم، ويضعون فيهم ثقتهم، ويتخذونهم أعوانهم؛ يطلبون لديهم القوة والغلبة، وينشدون عندهم الحماية والمنعة، ويرجون منهم العزة، وينفضون أيديهم من المؤمنين، ولا يجعلونهم أنصارهم، ويقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة، ولو كانوا مؤمنين حقاً لعرفوا أن العزة لله - تعالى - جميعاً، لا مصدر لها سواه، فطلبوها منه، ولم يطلبوها عند أحد من خلقه. ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ أَيْتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا شَأْنُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

والمنافقون قوم لا يغضبون الله - تعالى -، ولا يغارون على حرمانه أن تنتهك؛ فهم يقعدون في مجالس الكافرين، ويستمعون إلى حملاتهم المسعورة على الإسلام، وطعنهم في الدين، وذمهم القرآن الكريم، وخوضهم في آياته بالباطل، وسخريتهم منها، وكفرهم بها، فلا يحركون ساكناً، ولا ينكرون على أوليائهم وحلفائهم فسقهم وفجورهم، ولا يقاطعون مجالسهم التي تغشاها لعنة الله - تعالى - وينزل عليها غضبه،

ولا يستجيبون لما جاءهم من أمر ربهم ﴿وَإِذَا رَأَتْ الَّذِينَ يَخُونُونَ فِيَّ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُونُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] وهم مع بلادة طبعهم، وموت ضميرهم مصابون بالجهل والغباء، إذ يلبسون تصرفهم هذا ثوب الحكمة، وينتحلون لأنفسهم سعة الأفق، ويدعون المرونة، ويزعمون التحلي بفضيلة التسامح، وما حملهم على صنيعهم إلا اشتراء رضاء الناس بغضب الله - تعالى - وهم حين لا ينفذون أمرهم الله - تعالى - به من هجر مجالس المفتريين على الله الكذب، الذي يقدحون في آياته، ويرضون بمجالسة السفهاء الساخرين من كلامه - سبحانه - يكونون شركاءهم في الإثم، وأمثالهم في الجرم، ونظراءهم في العقاب الذي يسوي بين المنافقين والكافرين في المصير إلى النار، والخلود في عذاب الجحيم.

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ يَكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

إن هؤلاء المنافقين الذين يتظاهرون بالانتماء إليكم، ويعلمون لكم مودتهم هم في دخيلة أنفسهم، وحقيقة أمرهم يتلهفون شوقاً إلى اليوم الذي تدور فيه الدائرة عليكم، وتحل الهزيمة بكم، وينال عدوكم منكم نيلاً بليغاً؛ ليشفوا صدورهم الحاقدة، وقلوبهم الحاسدة، وليداووا نفوسهم التي برح بها الداء، ورغبت أن تكونوا أنتم وهم في الكفر سواء؛ فإذا حدث عكس ما يشتهون، وأيدكم الله بنصره، وجاءكم منه الفتح المبين طلبوا حظهم من الغنيمة، وقالوا: لقد كنا معكم في ساحة المعركة، نشد أزركم، ونحمي ظهورهم، ونقاتل عدوكم، ونصنع صنيعكم ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ؟﴾.

وإن جاء اليوم الذي تطير به أنفسهم فرحاً، وترقص له قلوبهم طرباً، ونال منكم الأعداء، واتخذ الله - تعالى - منكم شهداء راحوا



يباركون للكافرين، وأقبلوا في ركب المهنتين، وقالوا لأوليائهم: لقد كنتم في متناول سيوفنا، وكان في وُسْعنا أن نقلب نصركم هزيمة، ولكننا ملنا عنكم، وحميناكم من المؤمنين، وبثنا في قلوبهم الرعب منكم، وألقينا في ردعهم أنكم أشد منهم بأساً، فخارت عزائمهم، وأدركهم الوهن، وكان لكم النصر عليهم، فنحن شركاؤهم في الفَيْءِ ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ؟﴾

وحسابهم على موقفهم منكم، وعقابهم على إساءتهم إليكم، والفصل في أمرهم موكول إلى الله - تعالى - حين يرجعهم إليه، فافهموا مواقفهم، وخذوا حذرهم منهم، وأعرضوا عنهم ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

والله - تعالى - يبعث الطمأنينة في قلوب أوليائه الذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان، ولا يَكْتَفُونَ بالشعارات يُرَدِّدُونَهَا، ولا بالمظهر يتحلَّون به، ويُزجى إليهم البشري بأنه لن يتخلى عن نصرتهم، ولن يتركهم يخسرون المعركة ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ولن يجعل للكافرين والمنافقين وسيلة إلى الإضرار بهم، والظهور عليهم، واستئصالهم ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

إن المنافقين يعتقدون في قرارة أنفسهم أنهم يستطيعون أن يخدعوا الله - تعالى - عن حقيقتهم، وأن يُموِّهوا عليه أمرهم، وأن يستتروا عن عينه بثوب الرياء الذي لا يحجب شيئاً.

ثوب الرياء يشقّ عما تحته فإذا التحفت به فإنك عاري

فهم يتظاهرون بالإيمان، وتلوك ألسنتهم كلمة التوحيد؛ ليعصموا دماءهم، ويحموا أموالهم، ويقومون إلى الصلاة، لا اقتناعاً بها، ولا

تقرباً بها إلى ربهم، ولا رغبة في ثوابه، ولكن ليخدعوا بها المؤمنين، ويشعروهم أنهم منهم؛ ولهذا فهم يقومون إليها متثاقلين، ويؤدونها مكرهين، وقد عاقبهم الله - تعالى - على سوء ظنهم به، وفساد رأيهم فيه، والتوائهم معه بما يليق بهم، ويتفق مع مكرهم، ويناسب أسلوبهم، فعصم إلى حين دماءهم وأموالهم، رعاية لظاهر حالهم، وفضح مؤامراتهم، ونشر سوءاتهم، وكشف مخازيهم، وأملى لهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، واستدرجهم إلى قضائه المحتوم، ومصيرهم المعلوم ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾.

وقد وجد النفاق في قلوبهم تربته الخصبة، وبيئته الصالحة، وجوّه الملائم، وحرمة الآمن، فاستقر فيها، وحال بينها وبين ذكر الله - تعالى - إلا في الأوقات القليلة التي يلتقي أصحابها بالمؤمنين، فيصلون مرائين، ويجري ذكره على ألسنتهم، وتتحرك بحمده شفاههم مخادعين ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ومما يصور غباء المنافقين، ويحكم بجهلهم أنهم ألغوا وجودهم، وأسقطوا اعتبارهم، بهذا الوضع الذي اختاروه لأنفسهم، وهذا الأسلوب الذي ارتضوه لحياتهم، وصاروا به كابن اللبون: لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب، وأصبحوا به أشقياء حائرين بين معسكر المؤمنين ومعسكر الكافرين، تعساء ضائعين غير محسوبين من هؤلاء ولا معدودين في أولئك، أذلاء محتقرين من الفريقين، عاجزين عن حسم مشكلتهم، واتخاذ قرار وضعهم بالانحياز إلى المؤمنين أو الكافرين.

﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾.

ومن حلت عليه الضلالة أمسك الله - تعالى - عنه فضل رحمته، وسدّت في وجهه سبل الهداية، ولم يجد له من دون الله - تعالى - هادياً يهديه، ولا مرشداً يرشده ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.



ها أنتم أولاء - أيها المؤمنون - قد وقفتم على ما تجرّه موالاة الكافرين، والارتقاء في أحضانهم على أصحابها من بشارة بالعذاب الأليم، وعار وفضيحة، وخسارة كبيرة في الدنيا والآخرة، فاجتنبوا موالاة الكافرين التي تفسد عليكم أموركم، وتسقط اعتباركم، وتلغي وجودكم، وتذهب كرامتكم، وتفقدكم عزتكم، وتضلكم عن الإيمان بربكم، واتخذوا إخوانكم المؤمنين شيعتكم، واجعلوهم نصراءكم، بعضكم من بعض ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنما يتولى القوم الكافرين، ويستنصر بهم أمثالهم من الكافرين والمنافقين الذين وعدهم الله - تعالى - خذلانه، وأعدّ لهم عذابه ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿[التوبة: ٦٧، ٦٨]، ومن يتولهم منكم فقد ارتد عن دينه، وخلع ربة الإيمان من عنقه، وصار من الضالين، وجعل لله - تعالى - عليه حجة واضحة، تبرّر أن يبطش به، وينتقم منه، ويذيقه بأس الكافرين. ﴿أُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾؟

إن الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ويطلبون عندهم العزة، ويجالسون الساخرين من كلام الله - تعالى -، ويقرّونهم على الاستخفاف بوحيه، ويجرون وراء المغانم حيثما وجدت، ويخادعون الله - تعالى - ورسوله وأولياءه المؤمنين جزاءهم يوم القيامة أن يهوا في قعر جهنم، وأن يهبطوا إلى الدرك الأسفل من النار، عقاباً لهم بعكس ما كانوا يشتهون في الدنيا من العلو الكاذب، والمجد الزائف، والسيادة في الأرض بغير الحق ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

وإذا كانوا في الدنيا قد وجدوا من أوليائهم من يأخذ بناصرهم، ويعينهم على أمرهم، ويقف بجانبهم، فإنهم لن يجدوا في الآخرة من ينصرهم من الله - تعالى - وينجيهم من عذابه، وما لهم من شفيع، ولا صديق حميم ﴿وَلَنْ نَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾. لكن المنافقين حينما وجدوا لن تضيق عنهم رحمة الله - تعالى - التي وسعت كل شيء، ولن يقصُر دونهم فضله، ولن يعيا بهم عفوه ولطفه، إذا راجعوا أنفسهم، وتدبروا أمرهم، وعادوا إلى ربهم وفق منهج التوبة الذي قرره لهم:

أ - فنفضوا أيديهم من أيدي الظالمين، وقطعوا علاقاتهم بالكافرين، ورجعوا عن موالاته الضالين، ومودة الخاسرين، وخداع المؤمنين، وارتقوا بسلوكهم إلى مصاف الصالحين، وفتحوا صفحة جديدة تشهد لهم بصدق التوبة، وصحة الأوبة إلى الله - تعالى -، وغلسوا بدموع الندم ماضيهم الأثيم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾.

ب - وتداركوا بالإصلاح ما أساءوا من ظنونهم، وما أخطؤوا فيه من تدبيرهم، وما أفسدوا من أعمالهم، وما خبثوا من نفوسهم، وما دنسوا من أعراضهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾.

ج - واحتموا بالله - تعالى -، واعتزوا بسلطانه، واستمسكوا بدينه، واعتصموا بكتابه ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾.

د - وتوجهوا بطاعتهم إلى الله - تعالى - وتجردوا من الرغبة في إرضاء خلقه، وابتغوا بصلاتهم ونسكهم، ومحياهم ومماتهم وجهه الكريم، وطهروا قلوبهم من أدران النفاق التي رانت عليها بالإخلاص لله رب العالمين ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

فإن هم فعلوا ذلك كان حقاً على الله - تعالى - أن يتوب عليهم، ويبدل سيئاتهم حسنات، ويلحقهم بعباده الصالحين، ويسلكهم في زمرة أوليائه المؤمنين، وسيُعظم الله - تعالى - أجر المؤمنين، ويضاعف



ثوابهم، ويجزل عطاءهم، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، ويصيبهم برحمته في الدنيا والآخرة. ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

والله - تعالى - لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضره معصية من عصاه، ولا تضيق رحمته على من اتقى، ولا ناره على من طغى ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، ولا حاجة به - سبحانه - إلى عذاب عباده، ولا مصلحة له في عقاب خلقه، ولا شهوة عنده للانتقام من الناس، إن شكروه على نعمه، واستغلوا آلاءه فيما خلقت له، وأنفقوها في أبوابها التي شرعها لها، وآمنوا به ولم يكفروا، واهتدوا ولم يضلوا، وأحسنوا ولم يسيئوا ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾.

وقد أعلم الله - تعالى - أنه يجزي الشاكرين، ويوليهم رضاه، ويزيدهم من فضله، ويضاعف لهم أجر إحسانهم، ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وهو العليم بمن يشكر أو يكفر، وبمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وسوف يجزيهم بمقتضى علمه الذي أحصى كل شيء عددا ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة: ثانياً:

١ - إطلاق كلمة الكتاب في قوله - تعالى -: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ على الكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن الكريم يدل على أنها كتاب واحد في مضامينها وأهدافها. وأنه لا خلاف بينها في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، لأن مصدرها واحد.

٢ - ندرك من خلال الوقفة التي وقفتها السورة الكريمة مع المنافقين

آنفأ، ومن خلال عودتها إلى التنديد بهم أن الوحي الكريم كان لهم بالمرصاد؛ يتعقب مسيرتهم، ويرصد نشاطهم، ويراقب كيدهم، ويسجل تحركاتهم، ويطلع عليها الرسول - ﷺ - ومن تبعه أولاً بأول؛ ليبث الأمن في قلوبهم، ويبعث الطمأنينة في نفوسهم، ويشعرهم بأن عين الله - تعالى - ساهرة على رعايتهم، وأن عنايته ظهير لهم، وأنه لا خوف عليهم ما دام الله - تعالى - وليهم.

٣ - ونعلم أن المنافقين لم يكن لهم حظ من الإيمان الصحيح، ولا نصيب من الإسلام الصادق الذي يوجه سلوك صاحبه إلى الخير، ويخطو به في طريق الرشاد، وينأى به عن الغواية والضلال، وأن إيمانهم كان زائفاً مدخولاً وإسلامهم كان زعماً باطلاً.

٤ - وأنهم كانوا يتربصون بالمؤمنين الهزيمة التي يتربصها بهم الكافرون، ويودون لهم الكفر الذي يوده لهم الكافرون ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾.

٥ - وأن المنافقين كانوا أحياناً يخرجون مع المؤمنين الغازين في سبيل الله - تعالى - بتخطيط من أوليائهم الكافرين؛ لتثبيط همم المجاهدين، وتفتير عزائمهم، وبعث الرعب في قلوبهم، والنكاية بهم والشماتة فيهم.

٦ - وتبين من خلال ما أوردته الآيات الكريمة من علامات المنافقين وسماتهم أن المؤمن الصادق وهو الذي يثبت على عقيدة التوحيد، ويستقيم على نهج المؤمنين، ولا يقلد الضالين الذين يتبعون أهواءهم، فيتأرجح بين الإيمان والكفر، ويتردد بين الهدى والضلال.

٧ - وهو الذي يطلب العزة من مصدرها الوحيد التي لا مصدر لها



سواه؛ فيستعز بربه، ويحتمي بخالقه، ويستعين بمولاه، ويعول عليه في أمره كله.

٨ - وهو الذي يغار على كلام الله - تعالى -، ويغضب لكتابه، ويبغض الذين يخوضون فيه، وينالون منه، ويستهزئون به، ويهجر مجالسهم.

٩ - ونأخذ من قوله - تعالى -: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أن الله - تعالى - يعدّ الذين يستكملون حقيقة الإيمان شعوراً وتصوراً، وينزلون على ما يقتضيه من طاعة الله - تعالى - ورسوله، والإخلاص في العبادة والعمل، وتكون حياتهم صورة حياة للإسلام الذي رضىه الله - تعالى - لهم ديناً، وترجمة عملية لمنهجه الذي وضعه لهم، يعدهم الله - تعالى - أن يرفع عنهم سلطان الكافرين وسيطرتهم، وألا يمكن لهم من رقابهم.

١٠ - وفي اعتبار أساليب المنافقين المضللة، ومكرهم السيء، وسلوكهم الملتوي خداعاً لله - تعالى - الذي يستحيل أن يخدعه أحد عدة دلالات:

أ - التنبيه إلى شرف منزلة الرسول - ﷺ - وعظيم قدره عند ربه وإلى كرامة أوليائه المؤمنين عليه - سبحانه -، وأن الذي يحاول أن يُغَرِّبهم ويخدعهم، فإن محاولته موجهة إلى الله - تعالى -، وأنه لن يترك أصحابها دون عقاب رادع، وانتقام شديد.

ب - تقبيح تصرفات المنافقين، وتهجينها، وبيان شناعتها، وإثارة النفور والإشمئزاز منها، وتحقير شأن الذين يزاولونها، وتبغيضهم إلى المؤمنين.

ج - الإشارة إلى ما يستحقون من الإجراءات الرادعة التي

سوف يتخذها الوحي الكريم في المستقبل حيالهم؛ من
مثل قوله - تعالى - : ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ
وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة :
٧٣]، وإلى أنهم يستوجبون أسوأ ألوان العذاب في
الآخرة.



سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

❁ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ
 اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفَّوْا عَنْ
 سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
 بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
 وَيَقُولُوا نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ
 أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ
 حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
 بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ
 يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾	حرم الله - تعالى - على المؤمن إعلان عيوب إخوانه، وإذا عتقت سقطاتهم.
﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾	لكن يحق للمظلوم أن يرفع عقيرته بمظلمته لمن يقدر على إنصافه.
﴿سَمِيحًا﴾	يسمع إعلان قول السوء، وإخفاءه.
﴿عَلِيمًا﴾	يعلم ما وراء الأقوال من بواعث، وما وراء الأعمال من مقاصد.
﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾	ويرغبون في الإيمان بالله - تعالى - والكفر برسله كلهم أو بعضهم.
﴿وَأَعَدَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾	وأعدنا لهؤلاء الكافرين عذاباً يذل كرامتهم، ويمتهن آدميتهم.
﴿عَفُورًا رَحِيمًا﴾	يتجاوز عن سيئات المؤمنين، ويعاملهم بالفضل والإحسان.



هذه الآية الكريمة ترغب في فعل الخير، وتُغري بالعفو عن الإساءة، والصفح عن الظالم، وتقرر أن السلوك السوي الذي ينبئ عن صدق الإيمان، وطهارة النفس، وسلامة الطوية، وسماحة الخلق، وتُترجمه إرادة الخير عملاً صالحاً، أو كلمة طيبة، وقولاً معروفاً، ومتطقاً سديداً، أو عفواً عن المساءة في موطن القدرة على القصاص، سواء تمّ هذا التصرف في السر أو العلانية، فإنه ينم عن حبّ صاحبه لصفات ربه الذي يعفو عن كثير من زلات عباده، ولا يأخذهم بالعقاب الأليم، والانتقام الشديد، وهو عظيم القدرة، عزيز ذو انتقام، كما يرشح هذا السلوك صاحبه لعفو ربه الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

بيّنت السورة الكريمة فيما سبق طريق الضلال البعيد الذي يتمثل في الكفر بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتعود في هذه الآية الكريمة لتبطل أوهام الذين يزعمون أنهم مؤمنون، ولتؤكد أن طبيعة الكفر واحدة، وحقيقته ثابتة، مهما اختلفت صورته، وتعددت أشكاله، وأنّ تستوي فيه: -

- أ - أسلوب الضلال البعيد الذي يجحد ألوهية الله - تعالى -، ووحدانيته، وينكر الرسالات السماوية، ويكذب بالغيب.
- ب - ومن يعترف بالألوهية، ويأبى الإيمان بالرسول، والاعتراف بالرسالات، وينكر على ربه حق اصطفاء الأنبياء، وإمدادهم بالآيات.

- ج - ومن يتخذ منزلة وسطا بين هاتين المنزلتين، ويذهب إلى التفرقة بين الرسل، ويعلن إيمانه ببعضهم، وكفره بالبعض الآخر، ومن هذا

الصف اليهود والنصارى، فقد آمن اليهود بموسى - عليه السلام -، وبعض أنبياء بني إسرائيل، وكفروا بعيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام -، وآمن النصارى بعيسى - عليه السلام - وبعض أنبياء بني إسرائيل، وكفروا بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد - ﷺ - فهؤلاء جميعاً هم الكافرون كفراً حقيقياً في ميزان الله - تعالى - الذي لا يقرّ التفرقة في الإيمان بينه وبين رسله، ولا بين الرسل بعضهم وبعض، كما لا يقرّ الإشراك به، والتكذيب برسالاته، وقد أعد الله - تعالى - لهؤلاء الكافرين عذاباً يخزيهم ويذلهم في الدنيا والآخرة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وللإيمان الذي شرعه الله - تعالى -، ورضيه، وبعث به رسله صورة واحدة لا تتعدد، وحقيقة واحدة لا تختلف؛ تتمثل هذه الحقيقة في الإقرار بربوبية الله - تعالى - والاعتقاد بأنه لا إله إلا هو، والاعتراف بكافة الرسل الذين اصطفاهم ربهم للتبليغ عنه، من غير تفريق بينهم، والتصديق بوحدة الدين الذي جاءوا به، والذين يقوم تصورهم الاعتقادي على هذا النحو، كل منهم آمن بالله - تعالى - وملائكته، وكتبه، ورسله دون تفريق بين رسله، وصدق بالغيب، فهؤلاء هم المؤمنون إيماناً حقيقياً، وسوف يسبغ الله - تعالى - عليهم فضله، ويجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون، ويُعظم لهم أجورهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويجزل لهم المغفرة فيما قَصَّروا فيه، وتنازلهم رحمته في الدنيا والآخرة.



سُورَةُ الشُّبُهَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بَيَّانَتْ اللَّهُ وَقُلُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ

رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
 اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّنِّ
 وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
 ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ
 الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا
 حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ
 بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَٰكِنِ
 الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
 أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
 وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾	يسألونك للتعجيز والتعنت والعناد لا رغبة في الهداية
﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى﴾	سأله أسلافهم الذين رضع هؤلاء لبنهم، واقتفوا أثرهم.
﴿أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾	أصعب من سؤالك كتاباً.
﴿جَهْرَةً﴾	عياناً في وضوح النهار.
﴿اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾	عبدوه، وكانوا بعبادته مشركين.
﴿بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ﴾	بسبب ميثاقهم؛ ليأخذوا التوراة، ويعملوا بأحكامها.
﴿ادْخُلُوا الْبَابَ مُجْتَدِعِينَ﴾	ادخلوا مدينة إيليا خاضعين لله - تعالى - مطأطيء الرؤوس في ذلة وانكسار.
﴿لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾	لا تعتدوا، ولا تخالفوا ما أمركم الله - تعالى - به من ترك الأعمال الدنيوية فيه.
﴿يَمِثُّنَا غُلِيظًا﴾	عهداً موثقاً بالأيمن الغليظة، ليأخذن التوراة بجد وقوة.
﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ نَمِثُّهُمْ﴾	فبسبب نكثهم عهدهم، وتحليلهم الحرام وتحريمهم الحلال.
﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾	قلوبنا مغلقة محجوبة عن إدراك الحق، لا ينفذ إليها ما تأمرنا به.
﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾	بل ختم الله - تعالى - على قلوبهم، فاستحال أن يخرج منها الكفر، وأن يدخلها الإيمان.
﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾	فلا يؤمن إلا نفر قليل منهم كعبد الله بن سلام وأمثاله.
﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾	وما قتلوه موقنين أنه عيسى - عليه السلام -؛ لأن الذين طاردوه لم يكونوا يعرفونه.
﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾	بل أنقذه الله - تعالى - من القتل؛ فقبضه ورفعته إليه.
﴿وَلَنْ يَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا﴾	وما من يهودي ولا نصراني إلا ليصدقن بأنه عبد الله ورسوله حين يكشف.

الكلمة	تفسيرها
﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾	له الحجاب عند موته .
﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا﴾	وبسبب استحلالهم الربا الذي حرمه الله - تعالى - عليهم .
﴿وَالْبَطُولِ﴾	بدون وجه حق، وبغير مقابل كالرشوة، والسرقة، والقمار .
﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾	الثابتون على الحق، وأهل العلم الصحيح القائم على الدليل والبرهان .
﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾	إيمان إيقان وإذعان، وخضوع وتسليم وانقياد .
﴿وَالْمُفْسِمِينَ الصَّلَاةَ﴾	وأمدح الذين يؤدون الصلاة كاملة الأركان في خشوع .



التأويل والبيان:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

قررت السورة الكريمة فيما سبق اشتراء اليهود الضلالة بالهدى، وإرادتهم صد المؤمنين عن سبيل الله، وعبثهم بالتوراة، وتحريفهم كلامها عن مواضعه، وتبديلهم أحكامها، وسوء أدبهم في خطاب الرسول - ﷺ -، وإصرارهم على عناده؛ إذ يقولون: سمعنا وعصينا، وإيمانهم بالجبت والطاغوت، وشهادتهم للمشركين بأنهم أهدى سبيلاً، وما باءوا به من اللعنة، والطرده من رحمة الله - تعالى -.

ويضيف الوحي الكريم في هذه الآية الكريمة وما بعدها إلى ما سجله من مخازيهم، وما سطره من مفاსدهم ألواناً أخرى من جرائمهم، وأول هاتيك الجرائم موقف أسلافهم من نبي الله - تعالى - موسى - عليه السلام -، والخطاب موجه إلى رسول الله - ﷺ - تسلياً وإيناساً له، وتثبيتاً لفؤاده، ونصحاً له بألا يطمع في هداية من اتبعوا أهواءهم، وأضلهم الله - تعالى - على علم، وختم على أسماعهم وقلوبهم، وجعل على أبصارهم غشاوة؛ فاليهود وهم أهل كتاب سماوي كانوا يجاهرون المشركين بالعداوة والبغضاء، ويرجفون فيهم، ويتوعدونهم بأنهم سوف يسبقونهم إلى الإيمان بالنبي العربي الذي قصّت عليهم التوراة نبأه، وسوف ينضمون إليه، ويؤازرونه في قتالهم، وينتصرون به عليهم ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْخِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

[البقرة: ٨٩]، فلما بعث النبي - ﷺ - الذي بشرتهم به التوراة تقاعسوا عن تصديقه، ونكصوا على أعقابهم، وراحوا يراوغونه، ويؤلبون عليه المشركين، ويتعاونون مع المنافقين، ويحاولون تعجيزه؛ فيطالبونه بما ليس من اختصاصه، وما لا يدخل في شؤون الرسالة، ويسألونه أن يأتيهم بكتاب مرقوم، ينزل عليهم من السماء جملة واحدة، وتراه أعينهم نازلاً منها، ليكون هذا الكتاب آية على صدقه، ودليلاً على نبوته، ولم يكفهم أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولم يُغنهم ما عندهم من آيات بينات تشهد بصحة رسالته، وصدق نبوته ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَنَّادٌ وَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ طُحُورِهِمْ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]، وهذا الكتاب الذي سألوه سألوه إخوانهم المشركون. ﴿حَتَّىٰ تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ﴾، وهذا دليل اتفاقهم معهم في الجبله ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٢].

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

وليس عجيباً أن يطلب اليهود إليك أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فهم أحفاد من عاندوا نبيهم الذي بعثه الله - تعالى - فيهم، لينقذهم من بطش فرعون، الذي سامهم سوء العذاب، وذبح أبناءهم، واستحيا نساءهم.

لقد تعنتوا مع موسى - عليه السلام - وحاولوا تعجيزه فسألوه ما ليس في طوق البشر، وطلبوا منه ما لا يمكنه تحقيقه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى ترينا الله الذي أرسلك رأي العين، وننظر إليه جهاراً نهاراً، ولم يكفهم للإيمان أنه جاءهم بتسع آيات بينات، وأراهم كثيراً من المعجزات ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَنْ يُّبَدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾.

أرنا من ليس كمثل شيء ليكون شيئاً له أشباه وأمثال، أرنا من لا



تدركه الأبصار لتدركه الأبصار كما تدرك غيره من المخلوقات، وإن لم تفعل فما نحن لك بمؤمنين ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

إنه مطلب ينبئ عما انطوت عليه نفوسهم من خبث، وما التأمت عليه ضلوعهم من لؤم، وما رُكِبَ في طباعهم من شراسة، ويدل على مدى ما وصلوا إليه من الاستخفاف بحق الخالق العظيم، والاجترار على جلاله، وعلى أن كفرهم به قد بلغ أقصى آماده، وأن جحودهم إياه قد تجاوز كل حدّ، ويكشف عن أقبح صور الفجور، وأفحش ألوان الظلم، وما كان الله - تعالى - ليُمهلهم بعد أن تطاولوا على ذاته، وكذبوا برسوله، وأصروا على تعجيزه، وجحدوا نبوّته، وصادروا دعوته، فأرسل عليهم شواظاً من نار، وأذن لإحدى صواعقه أن تسلبهم رشدهم، وتأخذ جسّهم، فأخذتهم وهم ينظرون، ففقدوا الإدراك، وغابوا عن الوعي، وعراهم الذهول، وصاروا كالموتى، ثم مَنَّ الله - تعالى - عليهم، فأيقظهم من غشيتهم، وبعثهم من موتهم؛ ليفيئوا إلى رشدهم، ويتوبوا إلى بارئهم، ويكونوا من الشاكرين.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾.

والذين آمنوا بموسى - عليه السلام - منهم كان إيمانهم مدخولاً، وعقيدتهم زائفة، وتوحيدهم زائفاً، فما لبثوا - حين أتيت لهم الفرصة - أن قَدَّسُوا العجل الذهبي الذي أخرجهم لهم السامري، ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌّ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]، فعبدوه عن قصد وإصرار، وعلم ويقين بأن عبادته باطلة، وأنهم بعبادته ضالون؛ فقد جاءتهم الآيات الناطقة بالوهمية الله - تعالى - الشاهدة بوحدانيته، الدالة على قدرته، وأنتهم المعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - ورأوا عصاه التي تدب فيها الحياة، إذا ألقيت على الأرض، وتلقف ما يأفكون، وتضرب البحر فيفلق ماؤه، ويصبح كل فرق كالطود العظيم،

وعاينوا يده التي يخرجها من جيبه فتصير بيضاء للناظرين، ولم يكن تقربهم إلى عجل السامري بالعبادة فحسب، ولكنهم اتخذوه سنداً وظهيراً، وجعلوه ملاذاً ونصيراً. ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وقد حدث هذا عندما ذهب موسى - عليه السلام - لميقات ربه - جلّ وعلا - ولبث على جبل الطور أربعين يوماً؛ يصوم نهارها، ويتحنن ليلها، ويستعدّ في أثنائها، كيما يتلقى وحي ربه، ويستقبل التوراة، واستخلف أخاه هارون عليهم ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِمَّنْ رَّبِّهِ أَزْوَاجٌ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ولكن ما إن تهيات لهم الفرصة للشرك حتى اهتبلوها. ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾.

ففتحنا لهم باب العفو والمغفرة، ودعوناهم إلى التوبة، وأمرناهم أن يذنبوا أنفسهم في العبادة، وأن يفنوها في الطاعة، وأن يقتلوا في الاستقامة ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٥]، حتى ينالوا عفونا، ويستحقوا مغفرتنا. ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾.

وآتيناهم موسى الحجة القوية التي تدحض الأوهام، والنور الذي يبدد الظلام، والسلطان المبين الذي يهزم جحافل الضلال، والحق الذي يدفع الباطل فإذا هو زاهق، وآتيناه التوراة، فيها هدى وشفاء، ونور وضياء، ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

من الدروس المستفادة أولاً:

- ١ - إذا قال الوحي العظيم للرسول الكريم - ﷺ -: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ فإنه لا يريد أن يُعلمه شيئاً سبق له علمه، ولا أن الله - تعالى - يعلم ذلك، ولكنه يقصد إلى أن يسري عن نفسه الشريفة ما ينتابها من ضيق، وأن يذهب عنها ما يساورها من



العجب، وأن يشعره بأن العناية الإلهية تتولى أمره، وتسند ظهره، وأن عين مولاه ترعاه، وتسدد خطاه ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

٢ - قول الله - تعالى - ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ يفيد أن الأشياء

التي لا تتأتى للبشر، وتخرج عن طوقهم، ولا تقع في دائرة إمكانهم، ويستحيل فعلها عليهم درجات بعضها أصعب من بعض، وأن محاولة التعجيز مراتب بعضها أشد إعناتاً من الآخر، وأن بني إسرائيل في تحديهم موسى - عليه السلام - ومحاولتهم تعجيزه كانوا أشنع ضلالة، وأفدح ظلماً من مشركي قريش الذين لم يسألوا رسول الله - ﷺ - أن يريهم الله - تعالى - جهرة.

٣ - يرشد قوله - سبحانه - : ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْقَةَ بِظُلْمِهِمْ﴾ أن بعض

الجرائم التي تدل على الإسراف في الظلم، وعلى أن صاحبها يضرب في أعماق الكفر السحيقة تستوجب العقاب العاجل، وتستدعي الانتقام السريع، وتستحق التأديب المباشر.

٤ - أ - ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ في إيثار الوحي الكريم استخدام كلمة :

﴿اتَّخَذُوا﴾ على : عبدوا إشارة إلى ما يشعر به الاتخاذ من معان أعم وأشمل من العبادة، وأنهم قد اتخذوه إلهاً يعبد، وملاًذاً يقصد، وجعلوه عدّتهم عند الشدائد، ومعقد آمالهم، ومحط رجائهم.

ب - يؤخذ من تقديس بني إسرائيل عجل السامري، واقتداءهم

بقدماء المصريين في تقديس عجل أبيس أن نفوسهم لا تطمئن إلى الإيمان الحق، وأن قلوبهم لا تشرح للتوحيد الصحيح، وأن فطرتهم لم تعد مستعدة لقبول العقيدة السليمة، وأنهم ما زالوا يتصورون الإيمان كما يتصوره خلطاؤهم الذين سلخوا معهم دهرًا طويلاً.

أ - أنهم لم يلبثوا بعد أن استقرّ جبل الطور مكانه، وأغمد سيفه الذي كان مصلتاً على رؤوسهم، وذهب عنهم الروح، وعاودهم الأمن أن نسوا بأس الله - تعالى -، وأمنوا مكره، فنقضوا الميثاق الذي قطعوه على أنفسهم، ونكثوا العهد الذي أبرموه مع نبيهم، وحنثوا في الأيمان المؤكدة التي أقسموا بها؛ فلم يقيموا أحكام التوراة، ولم يأخذوا بأحسنها، ولم يدخلوا الباب سجداً، واعتدوا في يوم السبت، ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾.

ب - أنهم كفروا بما جاءهم من الوحي، وأخضعوه لأهوائهم، وأخفوا كثيراً من الحدود والأحكام التي جاءتهم فيه، وحرّفوا آياته عن مواضعها، وكتبوا بأيديهم كتباً، ونسبوا إلى الله - تعالى - افتراء عليه ﴿وَكُفِّرْهُمْ بِثَابِتٍ إِلَهِ﴾.

ج - أنهم جحدوا آثار القدرة الإلهية في أنفسهم وفي الآفاق، وكانت أعينهم في غطاء عن رؤية أدلة التوحيد في خلق السموات والأرض، وصدّوا عن سبيل الحق، وصادروا الدعوة إلى الإيمان، واتبعوا أهواءهم، وكذبوا الرسل - عليهم السلام - وفرقوا بينهم، وقالوا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وقتلوا فريقاً منهم ظلماً.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠]. ﴿وَقَتَلَهُمُ الْآلِئِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

د - أنهم قالوا: قلوبنا محجوبة بأغطية كثيفة، ومغلقة بأغشية سميكة، فهي لا تعي شيئاً من دعوة الرسل - عليهم السلام -، ولا يصل إليها شيء مما يقولون، والواقع أن الله - تعالى - سدّ منافذها، وختم عليها، فلا يخرج ما فيها من الزيف والضلال، ولا يدخلها الهوى والإيمان، وأصبحت لا تستجيب للحق، ولا تدرك الرشد، بسبب ما امتلأت به من الكفر. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ



عَنِهَا يَكْفُرُهُمْ ﴿فَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ - تَعَالَى -، وَلَا يَدْخُلُ فِي دِينِهِ، وَلَا يَتَّبِعُ خَاتَمَ رَسُولِهِ - ﷺ - إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنْهُمْ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَأَسَدِ بْنِ سَعِيدٍ، وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ مِنْ ذَوِي الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

هـ - أنهم استحلوا كبائر الإثم، ولم يجدوا في فعلها حرجاً، ولا في الإقدام عليها مائماً؛ فقد افتروا على مريم البتول فرية عظيمة، ولوثوا عرضها، واتهموها في عفافها زوراً وبهتاناً، ورموها بارتكاب الفاحشة إفكاً، وهي التقية النقية التي اصطفها الله - تعالى - على نساء العالمين، وطهرها من سوء، وأنبتها نباتاً حسناً.

﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ .

و - أنهم تمادوا في الغي، وأمعنوا في الوقاحة، وأوغلوا في الباطل، وأسرفوا على أنفسهم، فادعوا أنهم قتلوا المسيح - عليه السلام -، وزعموا أنهم صلبوه، وقالوا متهمين به ساخرين من رسالته: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، فنسبوا إليه الرسالة على سبيل الاستخفاف بها، وجحدوا ما أجراه الله - تعالى - على يديه من الخوارق، كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله - تعالى -، وإخبارهم بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم، وخلقه من الطين على صورة الطير، فينفخ فيه، فيصير طيراً بإذن الله ﴿وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ .

والوحي الصادق يدفعهم بالإفك، وينعتهم بافتراء الكذب، وينفي أنهم قتلوه أو صلبوه، ويبين أن القتل والصلب وقع على رجل يشبهه، فاختلط عليهم الأمر، ووقعوا في لبس واشتباه؛ لأن الذين كلفوا بمطاردته، والإجهاز عليه لم يكونوا ممن يعرفون شخصه، ويميزون ذاته ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ .

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين تحدثوا في هذه المسألة

اختلفت رواياتهم، وتضاربت آراؤهم، وتناقضت أقوالهم؛ فاليهود وجماعة كثيرة من النصارى يدعون القتل والصلب، ونفر قليل من النصارى ينفون هذه الواقعة، وهؤلاء الذين اختلفوا حول هذه الحادثة لم يكن اختلافهم قائماً على علم بما حدث، ولكنه كان نتيجة لجهلهم بالحقيقة، ورجمهم فيها بالغيب. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَيَشْكُرَنَّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾.

والحق الذي لا مرية فيه، واليقين الذي لا يشوبه شيء من الظن أن الله - تعالى - عصم المسيح عبده ورسوله - عليه السلام - منهم، ولم تمكنهم قدرته القاهرة من قتله، ولا صلبه؛ فقد رفعه إليه، ونجاه من كيدهم، بعد أن قضى حياته بينهم وسلخ عمره فيهم، ولم يتركهم يسفكون دمه كما سفكوا دم غيره من الأنبياء لحكمة عليا، وسرّ خفي لا يعلمه غيره، وهو - سبحانه - غالب على أمره، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، وله العزة جميعاً، وله الحكمة البالغة في كل ما قضى.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

ولحكمة استأثر الله - تعالى - بعلمها لم تبين الآية الكريمة الحال التي تم عليها رفع عيسى - عليه السلام - إلى السماء، أرفعه الله - تعالى - حياً أو ميتاً؟ ولكن آية سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تصرح بأن الرفع حدث بعد الوفاة، وكذلك آية المائدة: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، فإنها تبين أن عيسى - عليه السلام - لم يفارق قومه إلا بالوفاة.

وما من كتابي من اليهود الذين كفروا بعيسى - عليه السلام -، وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه، أو من النصارى الذين ألوهوه، ونسبوا بنوته إلى الله - تعالى - إلا ليتضح له الحق، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويعالج سكرات الموت، ويتبين له أن عيسى - عليه السلام - قد جاء



بالهدى والبيئات من ربه، وأنه لم يك كاذباً في دعواه الرسالة؛ فيؤمن به حينئذ، ويصدق بأن رسول الله - ﷺ - وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، ولكنه إيمان لا ينفع صاحبه، ولا يسلكه في عداد المؤمنين. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وسيكون شهيداً على هؤلاء الذين كفروا به، ولم يؤمنوا إلا ساعة النزع، وعلى قومه الذين آمنوا به يوم ينزع الله - تعالى - من كل أمة شهيداً، ويقول: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [القصص: ٧٥].

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

﴿فَيُظَاهَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

ولما أبطل الوحي الكريم ما زعمه اليهود من قتل عيسى - عليه السلام -، ودحض فرينتهم، وأثبت الحق في هذه القضية عاد إلى سياق الحديث عن سلسلة الجرائم التي انتهكوا بها حرمت الله - تعالى -، واستحقوا بها عقابه، وتحريم بعض ما أحل لهم من الطيبات.

فبسبب ما وقع منهم من الظلم، وما شاع فيهم من البغي والعدوان، ومجاوزتهم الحدود التي رسمها لهم وحيناً، وإضلالهم الناس عن سبيلنا، وصددهم العباد عن ديننا حرماً عليهم طيبات كانت حلالاً لهم. ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي طُفْرٍ وَمِنْ الْبَقَرِ وَالْفِئَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَاكِيَ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وكان تحريم الطيبات أيضاً بسبب استحلالهم التعامل بالربا، وفشوه فيهم، بعدما حرمه الله - تعالى - عليهم، ونهاهم عن أخذه ﴿وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾.

وبسبب ما ابتكروه من أساليب الرشوة، والغش، والاحتيال لسلب أموال الناس، والاستيلاء عليها دون حق، وأكلها بالباطل ﴿وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْإِطْلَاقِ﴾. وقد أعددنا للذين يكفرون منهم بما أنزلنا من الآيات على خاتم رسلنا محمد - ﷺ - عذاباً شديداً بالإيلام. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً﴾.

والوحي الكريم يستثني من قوم موسى - عليه السلام - جماعة تعلق أفرادها بأهداب المعرفة، ونهلوا من معين الثقافة الأصيلة، وارتبوا من رحيق العلم الصحيح، ونبعه الصافي، ووعت عقولهم حقائق الأشياء، ورسخت أقدامهم في فهم سنن الوجود، وانتفعوا بآيات ربهم في الآفاق والأنفس، ولم يكونوا ممن: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧]، وقد جمعوا إلى هذا النضج العقلي صفاء الروح، وطهارة القلب، وسلامة الفطرة، ونور البصيرة ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

وبما سبقه من الكتب، ويخرون سجداً إذا تليت عليهم آياته ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً ﴿١٧٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٧٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُوتُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [الاسراء: ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩]. ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.



ويحافظون على أداء الصلاة التي يتكرر فيها اتصالهم بالله - تعالى - ووقوفهم بين يديه خاشعين، على طهارة ظاهرة وباطنة، وانسلاخهم من مشاغل الحياة، واستنتاجهم بحلاوة المناجاة، وظهورهم في مظهر العبودية الحقة، والمذلة الكاملة حين يضعون جباههم على الأرض، وتغنو وجوههم للحي القيوم سجداً وقياماً ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾.

وقد برئوا من الشح والطمع، وسلموا من البخل والجشع؛ فهم يؤدون زكاة أموالهم، ابتغاء وجه ربهم، طيبة بها نفوسهم، منسجمة لها قلوبهم ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾. وهم يؤمنون بالله - تعالى - رباً واحداً لا شريك له، ويعتقدون أنهم إليه راجعون، ليجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. أولئك ستنالهم مغفرة من ربهم، ويغنمون رضوانه، ويظفرون بجنات ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢] ﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة ثانياً:

١ - هذه الآيات الكريمة بينت للمؤمنين حقيقة طائفة من أهل الكتاب، وكشفت لهم عن معدنهم الرديء، وعنصرهم الخبيث، وفضحت تاريخهم الحافل بالجرائم؛ ليعرف المؤمنون عدو الله - تعالى - وعدوهم، وليكونوا على بينة من أمره، وليأخذوا منه حذرهم، ولا يتخذوه ولياً لهم.

٢ - من خلال ما فسرته الآيات الكريمة من أخلاق اليهود وأعمالهم يتضح للجماعة المؤمنة السلوك الذي يحبه الله - تعالى - من عباده، ويرضاه لهم، والسلوك الذي يوجب مقتته، ويستنزل سخطه، ويبعد أصحابه عن ساحة الرحمة، ورحاب الرضوان.

٣ - مما يشهد بكفر اليهود، ويدل على أنهم ليسوا على شيء من الإيمان الصحيح:

- أ - إبراء قصتهم بعد تحديد صور الكفر، وبيان حقيقة الإيمان في قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾... الآيات.
- ب - ما تضمنه الحديث عنهم من إشارة إلى نقضهم العهد وكفرهم بآيات الله - تعالى - وقتلهم أنبياءه.
- ج - التنويه بشأن الراسخين في العلم منهم الذين صدقوا بالقرآن الكريم، واتبعوا رسول الله - ﷺ - ، وسَوَّقُ البشرى لهم بالأجر العظيم.
- ٤ - إذا أمعنا النظر فيما أوردته هذه السورة الكريمة عن اليهود من الحقائق، عرفنا الأسباب التي جعلتهم يبعدون عن الحق وملأت قلوبهم بغضاً للإسلام، وعداوة لخاتم النبيين محمد - ﷺ - . وحقداً على أمين الوحي جبريل - عليه السلام - ، فجبريل لسان صدق، ومحمد - ﷺ - مبلغ الوحي الذي أنزل عليه من ربه بحذافيره؛ لم يتكلم منه شيئاً، ولم يزد فيه شيئاً، والقرآن الكريم يقرر في صراحة أن النبي - ﷺ - لن يبلغ موطن الرضا من أهل الكتاب عامة إلا إذا تخلّى عن دعوة ربه، واتبع ملتهم ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].
- ٥ - في تنديد القرآن الكريم بموقف اليهود من النبي الأمي - ﷺ - ، وفضح مسلكهم مع رسولهم موسى - عليه السلام - وتسجيل مفاصلهم، وإعلان مخازيهم شهادة بأن هذا الكتاب تنزيل من رب العالمين الذي يصدع بالحق، ويقول الصدق ويقرر الصواب دون أن يأبه بالساخطين، أن يجامل الفاسقين، أو يداري الخائنين، أو يحسب حساباً للناقمين.



سُورَةُ النَّبَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ
 وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَى وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ
 وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ
 مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى
 تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
 لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
 ﴿١٦٥﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ
 وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا

١٦٧ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
 لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ١٦٩ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ
 الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا
 فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧٠



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾	إنا بعزتنا وعظمتنا اصطفيناك للرسالة، وخاطبتناك بالوحي على طريقتنا.
﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾	كما خاطبنا نوحاً وغيره، دون أن ننزل كتاباً تراه الأعين، أو تلمسه الأيدي.
﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾	أبناء يعقوب العشرة: رؤيين، شمعون، يهوذا، بساكر، زبولون، بنيامين، دان، نفتالي، جاد، أشير، وابني يوسف: افرايم، منسى والمراد بالوحي إلى الأسباط هو الوحي إلى الأنبياء الذين بعثوا فيهم.
﴿زُبُرًا﴾	كتاباً، من الزبر وهو الكتابة.
﴿مِنْ قَبْلُ﴾	من قبل إنزال هذه السورة.
﴿لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾	لم نخبرك بهم، لجهل العرب تاريخ أممهم.
﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾	أفهمه ما يريد من بطريقه خفية لا حرف فيها، ولا صوت.
﴿مُبَشِّرِينَ﴾	بما أعد الله - تعالى - للمؤمنين الطائفين من نعيم مقيم.
﴿وَمُنْذِرِينَ﴾	ومخوفين الكافرين العصاة مما أعد الله - تعالى - لهم من عذاب أليم.
﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾	لكيلا يثبت للناس عذر، ويقوم لهم دليل على أن ضلالهم كان بسبب جهلهم التكليف التي يريد الله - تعالى - منهم.
﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾	فلا يضيرك إنكارهم رسالتك الثابتة في وحيه إليهم، وسؤالهم كتاباً من السماء.
﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾	الذي لم يكن لعلمه أحد من خلقه.
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾	وفي شهادة الله - تعالى - ما يُغني عن شهادة غيره.

الكلمة	تفسيرها
﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ﴾	وكانوا قدوة سيئة لغيرهم بالكفر، وافتراء الكذب، وإنكار الحق..
﴿وَزَلَمُوا﴾	أنفسهم بحرمانها الخير، وغيرهم بالإضلال والإغواء.
﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾	ولا يسلك بهم طريقاً آخر غير الذي سلكوه باختيارهم، وأثروه برغبتهم.
﴿فَأَمَّنُوا خَيْرَ الْكُفْرِ﴾	لأن الإيمان يزكي نفوسكم، ويصلح حالكم، ويسعدكم في حاضركم ومستقبلكم.
﴿عَلِيمًا﴾	يعلم حال عباده، ولا يخفى عليه أمر المؤمنين والكافرين.
﴿حَكِيمًا﴾	في تقرير الجزاء على ما يكون من الإيمان والعمل، أو الكفر والعصيان.



التأويل والبيان:

اقترح اليهود على رسول الله - ﷺ - لكي يؤمنوا به، ويتبعوا رسالته أن يأتيهم بكتاب ينزل أمام أعينهم من السماء جملة واحدة، تلمسه أيديهم، وتقرؤه ألسنتهم، والوحي الكريم يرد على اقتراحهم مبيناً لهم أن طريقة الوحي إلى الرسل جميعاً - عليهم السلام - واحدة، وأن سنة الله - تعالى - في خطاب أنبيائه سنة مطردة، لا تختلف من نبي إلى آخر.

فَلِمَ يكفر أهل الكتاب برسالتك - أيها النبي -، ويجحدونها، ويقولون: نؤمن ببعض الرسل، ونكفر ببعض؟ ولم يسألونك أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، تراه أعينهم، وتلمسه أيديهم؛ ليكون هذا شاهداً بصدق نبوتك، وما كنت بدعاً من الرسل، ولا شاذاً عن قاعدة الوحي، ولا غريباً عن سنة الاصطفاء؟

لقد أوحينا إليك هذا القرآن بالطريقة التي أوحينا بها إلى رسلنا، واتبعنا معك الأسلوب الذي سلكناه مع نوح، ومن جاء بعده من النبيين، وسرنا معك على سنتنا مع إبراهيم؛ وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وأنبيائنا الذين بعثناهم في أولاده وأحفاده، ومع عيسى، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وهؤلاء جميعاً جاءهم الوحي على نمط واحد، من مصدر واحد، لغاية واحدة، اقتضتها رحمتنا بعبادنا. ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهُارُونَ وَسَلْيَمَانَ﴾.

وأنزلنا عليك الكتاب كما آتينا داود كتاباً مسطوراً ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ رُجُورًا﴾.

وبعثنا رسلاً من قبلك؛ منهم من أخبرناك به، وزودناك بنبيه،

وقصصنا عليك سيرته مع قومه، فيما أوحينا إليك من قبل هذه السورة، ومنهم من لم نحدثك عنه، ولم نقصص عليك تاريخه. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾. وخاطب الله - تعالى - موسى الكليم - عليه السلام - خطاباً مباشراً بلا واسطة، وأفهمه ما يريد أن يفهمه، بغير حرف ولا صوت، ومن وراء حجاب يحجب موسى عن رؤية ربه، ولا يحجب ربه عن رؤيته، فليس ثمة حجاب يحجب الله - تعالى - عن خلقه، ولم ينزل على موسى كتاباً كهذا الذي طلبوه عناداً وتعجيزاً ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾.

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

العقل الإنساني وحده غير كاف في هداية الناس إلى سبيل ربهم، وهو عاجز عن تحديد معالم العقيدة الصحيحة تجاه عالم الغيب، وعاجز عن اختراق حجب المستقبل ليتصور كينونة الحياة الآخرة على ما هي عليه، وغير قادر على وضع النظام الثابت لحياة الناس، وغير مستطيع أن يصوغ القوانين التي تكفل العدالة المطلقة، وتظفر بالرضا، وتنال التقدير والاحترام؛ لأنه يصيب آونة، ويخطئ أخرى، ويعلم حيناً، ويجهل حيناً، ولا يثبت على حال واحدة؛ فينقض ما أبرم، ويستحسن ما استقبح، وهو محدود النظرة، ضيق الأفق؛ ولهذا اقتضت رحمة الله - تعالى - عباده ألا يكل دينونتهم له إلى عقولهم، وألا يعلق صلاح أمرهم في الدنيا، وسعادتهم في الآخرة على ما تُمليه أفهامهم، وألا يترك لتصوراتهم مهمة هدايتهم إلى سبيله الذي يرضاه؛ كما اقتضت عدالته ألا يحاسبهم على عمل يعملونه إلا بعد أن يرسل إليهم رسله بالتكاليف الواجبة، والأحكام المفروضة، والحدود المشروعة،



والمنهج المطلوب، وأن يقوم رسله بتبليغ الناس ما أنزل إليهم من ربهم، ويبشروا الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً، وينذروا الذين يكفرون بآيات الله - تعالى - ويعصون الله ما أمرهم بأن لهم عذاباً أليماً. ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾.

وبهذه البشارة والندارة يُسقط الله - تعالى - تعلات عباده، ويُبطل معاذير خلقه، ويقيم الحجة على الناس، ولا يقيم لهم حجة عليه. ﴿لِيُثَبِّتَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

والله - تعالى - قادر على اصطفاء رسله، وعلى تمكينهم من تبليغ وحيه، وعلى أن يجزي كل نفس بما عملت، وهو غالب على أمره، حكيم في تدبيره وصنعه؛ لم يرسل رسله عبثاً، ولم يخلق الكون باطلاً. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ اللَّهُ عَنْهُ لَفَاشَتِ الْفِتْنَةُ أَفَإِن لَّا يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ يَبْذُلْهُمَ الْبَاطِلَ﴾. ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ اللَّهُ عَنْهُ لَفَاشَتِ الْفِتْنَةُ أَفَإِن لَّا يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ يَبْذُلْهُمَ الْبَاطِلَ﴾.

فلا يضيرك، ولا يحزنك أن ينكل أهل الكتاب عن الاعتراف لك بالرسالة، وأن يُعرضوا عن اتباعك، وأن يكفروا بما عرفوا من الحق، وأن يكتنوا ما عندهم من الشهادة على صدقك، وأن يحاولوا تعجيزك بسؤالهم كتاباً من السماء، فحسبك أن يجتبيك ربك، وأن يشهد لك بالرسالة وحيه إليك، وأن يُنزل عليك الآيات بعلمه، وأن يشهد الملائكة على صدق نبوتك، وليس وراء شهادة الله - تعالى - شهادة، وما بك حاجة إلى شهادة غيره، بعد أن أيدك بمعجزة تحدت الإنس والجن، وقهرت العلماء والحكماء، وأفحمت الفصحاء والبلغاء، وحملت إليك ما لم تكن تدري من علمه المعصوم في فن الاجتماع، وسياسة الحكم، وشؤون المال، وأصول القضاء، وقانون السلم والحرب، وعالم الغيب والشهادة فكانت منهجاً كاملاً للحياة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

تؤكد الآية الكريمة أن الذين أوغلوا في الضلالة إلى أبعد

حدودها، وأمعنوا في الغواية إلى أقصى آمادها، وساروا في طريق الباطل إلى نهايته، وبعدت الشقة بينهم وبين الرشاد بُعداً شاسعاً، وأسرفوا على أنفسهم في الظلم هم الذين كفروا بالله - تعالى - ورسوله، واتبعوا أهواءهم؛ فكذبوا بما جاءهم من الحق، ولم يؤمنوا بالكتاب الذي نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل، وأنكروا أنهم إليه راجعون، وجحدوا أنهم مبعوثون ليوم عظيم، وقعدوا بكل صراط يوعدون، ويصرفون غيرهم عن الحق، ويحملونه على الإعراض عن الهدى، ويصدون عن سبيل الله من آمن به، ويسنون له القدوة السيئة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

إن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وأجرموا في حقها بالشرك، وحرموها رحمة ربهم ورضوانه، وعرضوها لغضبه وانتقامه، وظلموا غيرهم وأساءوا إليه بما زينوا له من الشر، وكانوا له قرناء سوء، ودعاة غواية، ورفقاء فسق ومعصية، وقادوه معهم إلى دار البوار، أن هؤلاء الظالمين أنفسهم وغيرهم لن ينالوا رحمة الله - تعالى - ولن يظفروا بالهداية إلى طريق الفلاح، ولن يستحقوا مغفرة ذنوبهم، وعفو ربهم.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

لكن هؤلاء الظالمين على الله - تعالى - أن يُزَيِّنَ لهم أعمالهم، ويمهد لهم في الغواية، ويمد لهم في طغيانهم، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويسلك بهم طريق العذاب الأليم ويهديهم إلى طريق الجحيم، ما كثرين فيها أبداً، وكان هذا الإملاء والاستدراج والخلود في العذاب على قدرة الله - تعالى - التي تقول للشيء: كن فيكون شيئاً سهلاً.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وإذ أشرفت السورة الكريمة على النهاية، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من مسك الختام تلتفت إلى ما بدأت به في أول آية منها؛ لتعلن مرة



ثانية عالمية الدعوة الإسلامية، في طي هذا النداء ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، وعالمية هذه الدعوة تنطق بها آيات كثيرة من كتاب الحق - تبارك وتعالى -، منها ما يتجه الأمر فيها إلى رسول الله - ﷺ -، ليبلغه. ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

ومنها ما يتحدث بهذا العموم، وهذه العالمية. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وكما طلعت السورة الكريمة في أول آية تطالب الناس بتقوى الله - تعالى - ها هي ذي تخبرهم الخبر المحقق، وتنبئهم النبأ اليقين بأن خاتم الرسل محمداً - ﷺ - قد حمل إليهم الهدى من ربهم، وجاءهم بالحق الذي يدفع الباطل، واصطفاه الله - تعالى - بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً؛ لئلا يكون للناس عذر بالجهل، أو يقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين، ولئلا تقوم لهم على الله - تعالى - حجة بعد عموم رسالته، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

وتأمر الناس جميعاً أن يلبوا الداعي إلى الله - تعالى -، ويؤمنوا به، ويستجيبوا له؛ ويتبعوا النور الذي أنزل معه؛ ففي الإيمان به ربح لهم ومفازة، ومنجاة لهم من ظلم أنفسهم، وخسارتها في العاجلة، وعذابها في الآجلة، ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾. وتنذرهم بأنهم إن عرضوا عن دعوة الحق التي حملها إليهم من ربهم رسول الحق، ويكفروا بها، ويتولوا عنها مدبرين، فلن يخرجوا من قبضة الله - تعالى - الذي له ما في السموات والأرض، وهو آخذ بنواصيهم، ولا شريك له في ملكه يحميهم من بطشه إذا بطش بهم، ويرد عنهم أخذه الأليم إذا أخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. فهو الذي

قدر كل شيء بعلمه تقديرًا، ودبر كل أمر بحكمته تدبيرًا، وهو العليم في تقدير، الحكيم في كل تدبير ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

من الدروس المستفادة:

- ١ - أسلوب الوحي إلى جميع الرسل - عليهم السلام - واحد، وسنة الله - تعالى - فيه لا تختلف، ولا عذر للمعاندين الذين يقترحون على الله - تعالى - أن يبدل سنته، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.
- ٢ - الكتاب العزيز نزل به الوحي الكريم إلى رسول الله - ﷺ - على نمط الزبور الذي آتاه الله - تعالى - داود - عليه السلام -، وعلى نمط غيره من الكتب، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها.
- ٣ - اقتضت العدالة الإلهية ألا يحاسب الله - تعالى - عباده على ما كسبت أيديهم إلا بعد أن يبعث فيهم من أنفسهم رسلاً مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.
- ٤ - تكذيب أهل الكتاب وغيرهم برسالة خاتم النبيين محمد - ﷺ - يضرهم وحدهم؛ لأن رسول الله - ﷺ - في غنى عنهم بشهادة الله - تعالى - الثابتة له بما أوحاه إليه.
- ٥ - الملائكة يشهدون للرسول - ﷺ - بالرسالة؛ لأنهم يعلمون صحتها، وهم يدينون بالطاعة، ولا يخالفون عن أمر ربهم؛ فمن شاء من الناس فليقتد بهم، ومن شاء فليسلك سبيلاً غير سبيلهم.
- ٦ - أهل الكتاب الذين كفروا بما أنزل على محمد - ﷺ - أضافوا إلى كفرهم برسالته الصدع عن دعوته؛ لأنهم سنُّوا السنة السيئة لغيرهم، ونشروا القدوة الفاسدة في الناس، وهم بهذا السلوك ظلموا أنفسهم التي أهلكوها بالضلال البعيد، وظلموا الحق الذي حالوا بينه وبين أداء دوره في دنيا البشر، وظلموا غيرهم من الناس الذين فتنوا بهم، وضلوا بضلالهم.



سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
 عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
 اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ
 وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ
 وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ
 الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
 وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ
 إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ
 اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
 يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٣﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿يَتَّخِذَ الْكَذِبَ﴾	يأبها النصارى، أصحاب الإنجيل.
﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾	لا تجاوزوا حدَّ الصواب في عقيدتكم ألوهية عيسى أو نبوته.
﴿إِلَّا الْحَقَّ﴾	إلا الصدق الثابت فيما أوحاه إلى عيسى - عليه السلام -.
﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾	اصطفاه الله - تعالى - وبعثه إليكم.
﴿وَكَلِمَتُهُ﴾	مصادق كلمته للشيء: كن فيكون، وصورة من صورها.
﴿أَلْقَيْنَا إِلَى مَرْيَمَ﴾	أنبأها بها، وبشرها.
﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾	أيده بروح منه، كما أيد عباده المؤمنين ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة]. وجعله رحمة منه ﴿وَلَنَجْجِلكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنْنَا﴾ [مريم].
﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾	ولا تعتقدوا أن الآلهة ثلاثة، أو أن الإله الواحد ثلاثة أقانيم،
﴿أَنهَؤُنَا﴾	كفوا عن باطلكم، وارجعوا عن إشراككم بالواحد الذي لا شريك له.
﴿سُبْحَنَهُ﴾	بريء وتنزه.
﴿يَسْتَنْكِفَ﴾	يأنف، ويتعالى.
﴿الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾	حملة العرش، ومن حوله، وجبريل وإسرافيل، وميكائيل وعزرائيل.
﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾	فسيحاسبهم ويجزيهم.



التأويل والبيان:

بعد أن دفع الوحي المعصوم باطل طائفة من أهل الكتاب؛ طائفة اليهود الذين رموا مريم البتول - عليها السلام - بالفاحشة إفكاً، وزعموا أنهم قتلوا ابنها المسيح - عليه السلام - وصلبوه، وجلا الحقيقة في أمره، وبين موقفهم المعاند مع رسولهم الذي أنقذهم الله - تعالى - به من جبروت فرعون، وتذبيحه أبناءهم، واستحيائه نساءهم، وقولهم له: أرنا الله جهرة، وعبادتهم عجل السامري، وحملهم التوراة تحت سلاح التهديد المصلت فوق رؤوسهم، ونقضهم عهد الله - تعالى -، وقتلهم أنبياءه بغير حق، وتأسيس حياتهم الاقتصادية على الربا، والسحت، وأكل أموال الناس بالباطل.

بعد أن دفع الوحي المعصوم باطل تلك الطائفة من أهل التوراة التفت إلى طائفة النصارى، حملة الإنجيل، الذين زيفوا الحق، وأفسدوا عقيدة التوحيد السمحة، وانحرفوا بها إلى الوثنية، وأغربوا في التصور، وأفرطوا في الخيال؛ فجردوا عيسى ابن مريم - عليه السلام - من بشريته، وأنكروا عبوديته لخالقه - سبحانه -، وكذبوا بأنه مخلوق من التراب، يأكل ويشرب، ويذهب إلى الغائط ويجيء منه، وزعمت طائفة منهم أنه وأمه - عليهما السلام - إلهان، وقد سجل الوحي المعصوم الرد على هذه الطائفة بلسان عيسى - عليه السلام - في مشهد القيامة. ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٧١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ

أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٦﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

وزعمت طائفة أخرى أنه ابن الله تأسيساً باليهود الذين قالوا: عزير ابن الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَتَلَاهُمُ اللَّهُ أَنْفَ يُؤَفِّكُونُ﴾ [التوبة]. وما مثل عيسى ابن مريم إلا كمثل آدم الذي خلقه الله - تعالى - من تراب. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران].

وإذا كان تكوينه وإنشاؤه، وإخراجه إلى الحياة من غير أب عجيب غريب فإن تكوين آدم وإنشاءه، وإخراجه من العدم إلى الوجود بلا أب ولا أم أعجب وأغرب، وما زعم زاعم أن آدم - عليه السلام - إله.

والآية الكريمة تناديهم: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ﴾ مذكرة بالإنجيل الذين استُحفظوا عليه، واثبتوا على ما فيه من الحق، فلم يكونوا عليه أمناء، بل ضيعوه، وأسرفوا فيه تغييراً وتبديلاً، وهي تنهاهم عن الشطط، ومجاوزة الحق إلى الباطل، وافتراء الكذب على الله - تعالى - بنسبة صاحبة والولد إليه. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَكُمْ قِنْدُونٌ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧]. ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾. وتقرر أن المسيح عيسى ابن مريم - عليهما السلام - اختاره الله - تعالى - رسولاً إلى بني إسرائيل، وأنه أخرجه إلى الوجود كما يشاء، وجعله صورة لكلمته التي تقول للشيء: كن فيكون، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وأنه بشارته إلى أمه، حملها إليها روح القدس جبريل - عليه السلام - جزاء لها على تبتلها، وانقطاعها للعبادة في المحراب، وأن شأنه في نفخ الروح فيه هو شأن آدم - عليه السلام -.. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]. ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.



وتأمرهم أن يكفوا عن الشرك، ويرجعوا عن الضلال، ويعودوا إلى الحق، ويؤمنوا بالله - تعالى - رباً واحداً، وبرسوله الذي يجدونه مكتوباً عندهم في الإنجيل، ويصدقوا بجميع رسله الذين اصطفاهم من البشر للتبليغ والهداية ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

وتنهاهم عن أن يقولوا: الآلهة ثلاثة: الآب، والابن، والروح القدس، وأن يقلعوا عن عقيدة التثليث الكافرة، وتخبرهم أن في الانتهاء عن التثليث خيراً لهم؛ ففيه تصحيح لعقيدتهم الفاسدة، وتخليص لها من الوثنية، وتنقية لها من الخرافة، وعودة بها إلى حقيقة التوحيد السليمة، التي تدين بأن الله - تعالى - واحد ليس معه إله غيره، وأن وحدانيته تشهد بها وحدة صناعته، وتدل عليها وحدة النواميس الكونية، ويرشد إليها انتظام أمر الوجود، وصلاح حال السموات والأرض، وعدم اختلال نظامهما؛ إذ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]؛ حيث ينفرد كل إله بتصريف شؤون ملكه، ويستقل برعاية أمر خلقه، ويمنع غيره من التدخل في اختصاصه، ويتعالى بعضهم على بعض ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾.

تنزه عن أن يكون له شريك، وتقديس عن أن يتخذ صاحبة، وأن يكون له ولد، يبتغي به الامتداد والبقاء، وسبحانه أن يشبه خلقه في الفناء، أو في شيء من الأشياء. ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].
﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

وهو الغني عما سواه، الذي يملك ما في السموات وما في الأرض ملك خلق وإيجاد، وتكوين وإنشاء، لا ملك وراثة واستخلاف، وكل من فيهما عبده وخلق، وما من شأنه أن يحتاج إلى معين من عبده

وخلقه، وهو الوكيل عليهم، الذي يدبر أمر الوجود، ويتولى تصريف شؤون الخلق، ويرعى مصالح عباده، فليكلوا أمرهم إليه، فهو حسبهم ونعم الوكيل ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهِهُ جَمِيعًا﴾.

مناسبة النزول:

أتى جماعة من نصارى نجران في اليمن إلى النبي - ﷺ -، وقالوا له: لم تنتقص قدر صاحبنا، وتعيبه؟، فسألهم: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى قال: وكيف عبته؟ قالوا: تقول: إنه عبد الله ورسوله، فقال: إنه ليس عاراً أن يكون عيسى ابن مريم عبداً لله ورسوله، ونزل قوله - تعالى -: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾... الآية.

والآية الكريمة تشير إلى أن قمة الشرف، ومنتهى السمو والرفعة أن تتحقق للمرء صفة العبودية لربه - سبحانه -، وأن يرضاه خالقه عبداً له، يحبه، ويتولى برحمته تدبير أمره كله، ويسخره لطاعته، ولا يتركه أسيراً لشهواته، وعبداً لهواه؛ يتخذه إلهاً من دون الله، وهي تنفي عن عيسى - عليه السلام - أن يأنف من العبودية لله - تعالى -، وأن يجد غضاضة في الخضوع لربه الكبير المتعال، وأن يخجل من المذلة لخالقه القوي القادر، وأن يستكبر عن عبادة من اصطفاها، وعصمته من المخالفة والعصيان، وقد أنطقه الله - تعالى - بهذه العبودية أول ما نطق. ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، وهو يوقن بعبوديته الكاملة لبارئه، ويعتز بها، ويعلم الفرق الشاسع بين حقيقة الألوهية وكنه العبودية، وما مثله في ذلك إلا مثل الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ولا يأنفون أن يكونوا عبيداً أذلاء، خاضعين خاشعين لربهم، لا يستكفون عن عبادته، ولا يستكبرون عن



طاعته؛ لأنهم من خلقه ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ومن يأنف من الخضوع لخالقه، ويتعاضم عن طاعة مولاه، ويأب أن يكون عبداً لله، فمصيره إليه ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]؛ ليجد جزاء إباطه واستعلائه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَخَّرْنَاهُ إِلَيْنَا جَمِيعًا﴾.

ويعد الله - تعالى - الذي تخشع قلوبهم لعظمته، وتعنو وجوههم لعزته، وتذل أنفسهم لصولته، ولا يترفعون عن الخضوع لربوبيته، ويؤمنون به إيماناً خالصاً من كل شوائب الشرك، ويقيمون بأعمالهم الصالحة برهاناً على صدق إيمانهم، ويكون سلوكهم الرشيد ترجمة لصحة يقينهم، يعدهم الله - تعالى - بالجزاء الأوفى على ما كسبوا من العبادة، وما أدوا من الطاعة وما صنعوا من الخير، والأصناف المضاعفة زيادة في الفضل والإحسان. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ ويتوعد الذين يريدون العلو في الأرض والفساد، ويشمخون بأنوفهم عن الخضوع لربهم، ويأنفون من العبودية لوجهه الكريم، ويسارعون في الكفر، ولا يؤمنون بالله ورسله، ولا يستجيبون لدعوة الحق، يتوعدهم بأن يصرفهم في الدنيا عن آياته التي تهديهم إليه، وتدلهم عليه ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَابَتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وأن يصلحهم في الآخرة عذابه الشديد، وعقابه الأليم. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ولن يجدوا لهم من دون الله - تعالى - موالياً يهتم بأمرهم، ويدفع عنهم عذاب ربهم، ولا مناصراً يقف إلى جانبهم، ويشد أزهرهم،

ويعفيهم من عقاب خالقهم. ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

من الدروس المستفادة:

- ١ - أهل الكتاب جميعاً أخطأهم الصواب، وتجاوزوا الحق إلى الباطل في قضية المسيح - عليه السلام -؛ فاليهود أنكروا شرعية ولادته، والنصارى اختلفوا في حقيقته؛ فمنهم من اعتقد ربوبيته، ومنهم من نسب إلى خالقه بنوته، ومنهم من زعم أنه أحد آلهة ثلاثة.
- ٢ - نهت الآيات الكريمة عن الشطط والمغلاة في تقديس النبي عيسى - عليه السلام - وافتراء الكذب على الله - تعالى - باتخاذ صاحبة الولد، وبينت للذين يغفلون في دينهم، ويقولون على الله - تعالى - غير الحق أن خلق عيسى - عليه السلام - من غير أب مظهر من مظاهر القدرة المبدعة.
- ٣ - قررت الآيات الكريمة أن عيسى - عليه السلام - رسول الله - تعالى -، وأثبتت بشريته، وأعلنت خضوعه لخالقه العظيم، وأشارت إلى اعتزازه بشرف العبودية لربه الكريم.
- ٤ - تحمل الآيات الكريمة وعيداً بالعقاب للذين يكفرون بربهم ويستكبرون عن طاعته ووعداً بالثواب للذين يؤمنون بما أنزل إليهم من ربهم، ويعتصمون به.



سُورَةُ النَّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أُمِرُوا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ ﴿١٧٦﴾

يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾	يا أيها المكلفون من البشر كافة.
﴿بُرْهَانٌ﴾	شاهد حق، ودليل صدق؛ هو اصطفاء محمد - ﷺ - وبعثه.
﴿نُورًا مُبِينًا﴾	هدى كاشفاً ظلمات الباطل والضلال؛ هو القرآن الكريم.
﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾	واستمسكوا بدينه، واحتموا بحمي ربهم، ولجؤوا إلى جلاله.
﴿فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾	في رضاه وعفوه في الدنيا والآخرة.
﴿وَفَضَّلَ﴾	وزيادة إنعام وإحسان على الشكر والطاعة.
﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾	الإسلام القويم.
﴿الْكَلَلَةُ﴾	الذي لا وارث له من أصله ولا فرعه.
﴿أُخْتُ﴾	شقيقة، أو لأب.
﴿يَرِثُهَا﴾	يأخذ جميع تركتها.
﴿يَعْلَمُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾	يعلمكم الله - تعالى - حكم ميراث الكلاله كيلا تظلموا.



- ٢ - القرآن الكريم نور واضح؛ يجلو عن القلب حجب الضلالة، ويكشف عن العقل ظلمات الجهالة، ويهدي للتي هي أقوم في الدنيا والآخرة.
- ٣ - وعد الله - تعالى - عباده المؤمنين، الذين يعتصمون بحبل الدين أن تسعهم رحمته في الحياة وبعد الممات، وأن يزيدهم من فضله، وأن يهديهم صراطه المستقيم.
- ٤ - لولا الأحكام التي قررها القرآن الكريم، والنظم التي سنّها في الشؤون المالية وغيرها لجهلت العقول وجه الصواب، وضل الناس طريق الحق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النور

- ١ - سورة النور من السور المدنية، وعدد آياتها أربع وستون آية.
- ٢ - بدء نزولها:
- ابتدأ نزولها في النصف الثاني من العام السادس للهجرة المباركة، بعد غزوة بني المصطلق، وتسمى: غزوة المريسيع، والمريسيع اسم ماء.
- ٣ - ترتيبها:
- سبقها في النزول خمس عشرة سورة هي:

١ - البقرة.	٦ - النساء.	١١ - الرحمن.
٢ - الأنفال.	٧ - الزلزلة.	١٢ - الإنسان.
٣ - آل عمران.	٨ - الحديد.	١٣ - الطلاق.
٤ - الأحزاب.	٩ - محمد.	١٤ - البينة.
٥ - الممتحنة.	١٠ - الرعد.	١٥ - الحشر.

عرض عام لموضوعات السورة:

سورة النور سماء من النور الباهر، تنتظم الآيات في أفلاكها كواكب درية، وتتألق فيها الآيات تألق النيران الساطعة، وتومض الحروف وميض البروق المضيئة اللامعة. وإنها لبحر زاخر بالنور، آياتها



عباب من النور، وعباراتها لُجج من النور، وكلماتها أمواج من النور، وحروفها قطرات من النور.

وإنها لنبع فياض، يتفجر بالنور الوهاج. الذي يغمر سناه آفاق الوجود ويومئ إلى النور الأزلي، ويوحى بنور الحق المبين، الذي يصدر عنه كل نور، وتنقشع به كل داجية، وتنجلي غياهب كل ظلمة، ويتلأأ ضياؤه في بيوت أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، ويهدي إلى سواء السبيل، فيكشف للمؤمنين طريقهم، ويبين للضالين ضلالهم، ويظهر للتائبين باب توبتهم، ويجلو للأبصار قدرة الواحد القهار - جل جلاله - وهي تمسك الطير في جو السماء صافات، وتزجي السحب مثقلات مسخرات، وتقلب الليل والنهار عبرة لأولي الأبصار، وتذراً كل كائن يزحف على بطنه، أو يخطو على رجلين، أو يمشي على أربع، ويرشد البصائر إلى تسبيح الكائنات، وصلاة من الأرض والسموات.

هذا النور الذي تبدو فيه للبيوت حرمتها، وللعيون وظيفتها، وللزينة كيفيتها، ويضيء للأزواج الطريق إذا رأوا خيانة زوجاتهم، ويسلط شعاعه على الحد الفاصل بين الطيبين والخبيثين، ويرى فيه المؤمنون وعد الله - تعالى - بالاستخلاف في الأرض مثلاً للعيان.

وتتهادى أشعة النور في السورة الكريمة في سبع موجات متآخية مترابطة: ففي الموجة الأولى التي تبدأ بالآية الكريمة الأولى، وتنتهي بالآية الكريمة العاشرة:

١ - تقرر السورة الكريمة في آية الافتتاح أن جميع ما فيها من الأحكام، والعقوبات، والآداب النفسية والسلوكية والاجتماعية مفروض، وكله على درجة واحدة من الأهمية ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾.

٢ - وتقاوم تيار الفاحشة البغيضة، وتصدّ تيارها المدمر بلونين من العقاب الخشن، والتأديب العنيف هما:

- أ - الجلد الذي يتجرد من الرأفة، ويخلو من طابع التهاون والأهمال ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾.
- ب - مقاطعة الزناة والزانيات، وعزلهم عن الجماعة المؤمنة، وتحريم الأصهار إليهم، والزواج منهن ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.
- ٣ - وتفرض على اللسان الصدق والعفة، وتتصدى لافتراءه على البراء بثلاث عقوبات زاجرة:

- أ - جلد ثمانين جلدة ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾.
- ب - إسقاط عدالتهم، ورد شهادتهم في جميع الحقوق مالية وجنائية إلى أن يتوبوا ﴿وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا﴾.
- ج - إصدار الحكم بفسقهم تبشيعاً لجريمتهم إلا أن يتوبوا ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.
- ٤ - وتسنّ حكماً خاصاً للأزواج حين يرون بأعينهم خيانة زوجاتهم، وتعتبرهم شهداء إن لم يكن لهم شهداء، وتجري الملاعة بين الزوجين.

- ٥ - وتنتهي هذه الموجة إلى شاطئ النور بتسجيل ما ينطوي عليه هذا التشريع الإلهي من فضل الله - تعالى - على المؤمنين، ورحمته بهم، حيث يطهرهم من الفساد، ويقيمهم الهلاك.
- والموجة الثانية من الآية الكريمة رقم ١١ إلى الآية الكريمة رقم ٢٦، وتبدأ:

- ١ - بالحديث عن قصة الإفك المخزية للذين دبروها وروجوها، وإعلان الوحي الكريم براءة العفيفة الطاهرة أم المؤمنين عائشة - رضي الله تعالى عنها -، وتوكيد أن الذين رتبوا الإفك جماعة منافقة ستلقى جزاءها، وتأخذ عقابها، وأن الله - تعالى - حمى المؤمنين من عاقبته الوخيمة، ووقاهم شره المستطير، وخطره



الكبير، وجعله خيراً وبركة، وأن صاحب الرأس المدبر للإفك له عذاب عظيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالِإِفْكِ﴾.

٢ - عتاب المؤمنين على غفلتهم عن الأدب الذي يجب مراعاته عند محاولة النيل من أعراض أهل الإيمان، والخط من كرامتهم، ولومهم على عدم تغليبهم حسن الظن بإخوانهم، وتوبيخهم على فقدان حاسة التمييز بين الصدق والافتراء، وانعدام برهان التفرقة بين الحق والباطل. ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

٣ - بطلان الاتهام إن لم يكن ثمة أربعة شهداء، حفظاً للحرمان، وصوناً للأعراض من التخرصات، ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾.

٤ - تنبيه المؤمنين إلى عظيم فضل الله - تعالى - عليهم، وواسع رحمته بهم حيث نجاهم من غضبه، ولم يعاقبهم على إهمالهم تدبر ما يسمعون، وخوضهم فيما يجهلون، واستهانتهم بما يقولون، وفي هذا التنبيه تأديب وزجر، وإحياء بوجوب الشكر ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾.

٥ - تبكيت المسلمين على إغفالهم الأدب الواجب مع رسولهم ومربيهم وهاديتهم - ﷺ -، وتقريرهم على عدم إدراكهم قبح الجريمة التي أقدموا عليها وتوبيخهم على شناعة الفرية التي روجوها. ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾.

٦ - تحذير المؤمنين من العودة إلى الإثم الذي يؤدي رسول الله - ﷺ - أو يسىء إلى واحد من المؤمنين، وبيان للسلوك السوي الذي ينبغي أن يكون، والأدب الذي يجب أن يراعى. ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ...﴾.

- ٧ - وعيد بالنكال في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة للذين يحبون أن تنتشر الفاحشة في المجتمع المسلم، ويمهدون الطريق إليها بتعويد الناس الحديث عنها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.
- ٨ - تذكير المؤمنين - مرة ثانية - بفضل الله - تعالى - عليهم، ورحمته بهم، وعفوه عن زلتهم، وإقالته عثرتهم، ومغفرته خطيئتهم؛ ليتوبوا وينيبوا، ويقيموا على الشكر ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.
- ٩ - نهى المؤمنين عن الاستجابة لوساوس الشيطان الذي يزين القبائح، ويأمر بالفحشاء والمنكر، والإشادة بفضل الله - تعالى - الذي لولاه ما تطهر مؤمن من رجس الشيطان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.
- ١٠ - دعوة الموسرين الذين كانوا يصلون أرحامهم الفقراء، ويعطفون على اليتامى والمساكين، ثم عزموا على أن يقطعوا إحسانهم عنهم، وأقسموا على أن يحرموهم عطاءهم بسبب اشتراكهم في إذاعة حديث الإفك، دعوة هؤلاء الموسرين إلى العفو والصفح والمغفرة ابتغاء وجه الله - تعالى -، ورغبة في مغفرته ﴿وَلَا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا﴾.
- ١١ - جزاء الذين يرمون العفيفات المؤمنات الطرد من رحمة الله - تعالى - في الدنيا والآخرة، والعذاب الأليم يوم تشهد عليهم جوارحهم بما عملوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ...﴾.
- ١٢ - نظم الطيبين والطيبات في سلك، والخبيثين والخبيثات في سلك آخر، إذ لا يتم الوفاق والاتلاف إلا بين الأشباه والنظراء، وذوي المشرب الواحد ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾.



وتبدأ الموجة الثالثة بالآية الكريمة رقم ٢٧، وتنتهي بالآية الكريمة رقم ٣٤، وقد تضمنت:

- ١ - سنّ أدب الاستئذان من أهل البيوت عند إرادة الدخول عليهم، ومشروعية التسليم عليهم؛ إيقاظاً لنزعة الخير في النفس، واستشعاراً لرقابة الله - تعالى -، ومنع دخولها ولو كانت خالية من أهلها إلا بإذن، والرجوع عن عدم الإذن ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَدْرُونَ الدِّينَ﴾... ﴿تَدْخُلُوا بُيُوتًا...﴾.
 - ٢ - إلزام المؤمنين والمؤمنات غض البصر، والعفة عن الفاحشة، ونهي المؤمنات عن إبداء زينتهن لغير محارمهن ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾...
 - ٣ - حث المؤمنين على تزويج العزاب، والتغلب على عقبة المال، فإن يكونوا فقراء يغنهم الله - تعالى - من فضله ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَلِمَا بَيْنَكُمْ﴾...
 - ٤ - أمر الذين يعجزون عن تذليل العقبات المادية بالاستعفاف والاصطبار حتى يجعل الله - تعالى - لهم من أمرهم يسراً، وفتح باب المكاتبه للذين يرغبون في الحرية من الأرقاء الأخيار، والدعوة إلى مساعدتهم على نيل الحرية بدفع الزكاة إليهم، وتحريم إكراه الإماء على مزاوله البغاء سعيّاً وراء جمع المال الخبيث ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا﴾...
 - ٥ - تأكيد أن القرآن الكريم يفصل الأحكام للمؤمنين، ويبين لهم الحق، ويقدم إليهم قصص الأمم الغابرة، ويسوق العبر والعظات للذين يتقون الله - تعالى -، ويخافون عذابه، ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.
- وتبدأ الموجة الرابعة بالآية رقم ٣٥، وتنتهي بالآية رقم ٤٠، وقد قررت:

١ - إشراق الوجود، واستضاءة الكون بفضل النور الإلهي، وضربت للنور الأزلي الكامل الذي لا تدركه الأبصار، ولا تعرف كنهه الأفهام، ولا تتصوره الأوهام مثلاً مصغراً - على سبيل التقريب - من المشكاة، والمصباح، والزجاجة، ومادة الوقود، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْقَا فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ...﴾.

٢ - لفتت انتباه المؤمنين إلى نور الهداية الذي يغمر بيوت الله - تعالى - في الأرض، ويملأ المساجد، فيهتدي به الصادقون، وينجذب إليه المخلصون الذين لا يشغلهم عرض الدنيا عن عبادة ربهم، ولا تلهيهم لذة فانية عن معادهم، وبشرتهم بأكرم الجزاء، ومزيد الفضل ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُؤُا يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا...﴾.

٣ - ألقت أشعتها الكاشفة على مشهد من مشاهد القيامة، أوضحت فيه حال الكفار الذين خداعهم سراب الباطل في الدنيا، وهم يعدون وراء السراب الخادع في الآخرة ليلقوا جزاءهم، وحال الذين لفتهم ظلمات الضلال في حياتهم الدنيا، وهي تغشاهم في الآخرة، وتطبق عليهم في ظلمات كثيفة بعضها فوق بعض ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَمَكْرِكِ بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمُونَ مَاءً...﴾.

وتبدأ الموجة الخامسة بالآية الكريمة رقم ٤١ وتنتهي بالآية الكريمة رقم ٤٦؛ لتقرر:

١ - أن للكون إلهاً واحداً، هو خالقه بقدرته، ومدير أمره بحكمته، وأن السموات السبع والأرض وما فيهن يسبحون بحمده، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، وأن على المؤمنين أن يتدبروا إحدى آيات القدرة في منظر الطير الصافات أقدامها وأجنحتها في جو السماء ما يمسكنهن إلا الله - تعالى - الذي ألهم كل كائن تسبيحه، وعلمه



صلاته، وهو المحيط علماً بما يفعله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ لَكُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ﴾.

٢ - وأن السيطرة على هذا الوجود له وحده، وإليه مرجع خلقه، ومصير عباده ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

٣ - وأن قدرته شاخصة في تكوين السحاب، وتوليته وجهته، ظاهرة في سوقه إلى غايته في ائتلاف وتجمع وتراكم، واضحة في إنزاله وابلاً يحيي به الأرض من بعد موتها، ماثلة في إسقاطه برداً يتلف زرع الآثمين، ويهلك ضرعهم، ناطقة في إحداث ظاهرة الرعد والبرق ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ﴾...

٤ - وبقدرته يتراكم الليل والنهار، وتتعاقب الظلمات والنور؛ ليدلاً على ما في سنة الوجود من تغير وتبدل، وليرشداً إلى ما تنتهي إليه الدنيا من زوال وفناء.

إنما الدنيا فناء ليس للدنيا ثبوت

إنما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

٥ - وبقدرته فجر الحياة من الماء، وخلق كل دابة تتحرك زاحفة على بطنها، أو تخطو على قدمين، أو تمشي على أربع، وله المشيئة المطلقة في الخلق، وهو القادر على كل شيء. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾...

٦ - ويعود السياق إلى تأكيد أن القرآن المنزل على الرسول - ﷺ - آيات تبين الحق، وتهدي بإذن الله - تعالى - ومشينته إلى الصراط المستقيم. ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مُبِينًا وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وتبدأ الموجة السادسة بالآية الكريمة رقم ٤٧، وتنتهي بالآية الكريمة رقم ٥٦، وفيها:

١ - تلقي السورة الكريمة الضوء على مسلك المنافقين المخادع، الذي يكذب أقوالهم، وينفي إيمانهم، وتسجل كراحتهم العدل، وإعراضهم عن حكم الله - تعالى - ورسوله ما لم يكن في صالحهم وتقرر مرض قلوبهم، وتستنكر ارتيابهم في وحي الله - تعالى -، وشكهم في عدالة حكمه، وتوازن بين موقفهم هذا وبين موقف المؤمنين الصادقين الذين يعلنون السمع والطاعة لحكم الله - تعالى - إذا دعوا إليه، وتبشر المؤمنين بالفلاح، وتعد بالفوز كل من يطيع الله - تعالى -، ويتزود بالتقوى ﴿وَيَقُولُوا ءَأَمْنَا بِاللَّهِ﴾...

٢ - وتذكر موقف المنافقين من الجهاد في أسلوب يحتقر سلوكهم، ويزدري كيدهم، ويسخر من أيمانهم الكاذبة، وهم يقسمون أنهم لو أمرهم الرسول - ﷺ - بالخروج إلى الغزو لخرجوا معه، ومع هذا تفسح لهم رحمة الله - تعالى - صدرها، وتفتح لهم باب التوبة، وتدعوهم إلى طاعة الله - تعالى -، واتباع رسوله - ﷺ -، وتحملهم مسؤولية الإعراض عن إجابة هذه الدعوة، وتخلي ساحة الرسول - ﷺ - من أية تبعة قبلهم، وتذكرهم بأن هدايتهم في الطاعة، وأن مهمة الرسول - ﷺ - البلاغ، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أُمِرُوا﴾.

٣ - وتلتفت السورة الكريمة إلى المؤمنين الذين يعملون الصالحات لتزف إليهم البشارة بما وعدهم الله - تعالى - من نصر، وقيادة لأهل الأرض، وإظهار لدينهم على الدين كله، ومنحهم الأمن من بعد الخوف، جزاء إخلاصهم في توحيده، وصدقهم في طاعته، وبراءتهم من الشرك، وتصريح بأن الذين يكفرون بعد الإيمان هم الفاسقون ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.



٤ - وتوجه المؤمنين إلى ما يفتح لهم أبواب رحمة ربهم؛ فتأمر بإقامة الصلاة التي تزكي أرواحهم، وتصل قلوبهم بخالقهم، وأداء الزكاة التي تطهر نفوسهم من الشح، وتحصن أموالهم من التلف والضياع، وطاعة الرسول - ﷺ - التي تحفظهم من الضلال، وتعصمهم من النفاق ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

وتبدأ الموجة السابعة بالآية الكريمة رقم ٥٨ منتهية بانتهاء السورة الكريمة، وفيها:

١ - تشريع أدب الاستئذان من داخل البيوت؛ فتوجب على الأرقاء، والأطفال الذين لم يبلغوا سن التكليف أن يستأذنوا على أهلهم في ثلاثة أوقات تمثل ثلاث عورات، فإذا بلغ الأطفال الحلم وجب عليهم الاستئذان في جميع الأوقات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾.

٢ - تجيز للنساء اللاتي أخدمت السنون جذوة أنوثتهن، وعزفت نفوسهن عن الزواج، وانصرفت عنهن رغبة الرجال أن يتخففن من ثيابهن الخارجية داخل مساكنهن، ويكتفين بثيابهن الداخلية إذا كانت ساترة فضفاضة، وترشدهن إلى أن التحفظ بالثياب الخارجية أفضل لهن من طرحها ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

٣ - وترخص لأصحاب الأعذار من الفقراء أن يأكلوا من بيوت الأغنياء، وللأقارب والأصدقاء أن يطعموا من بيوت أقاربهم وأصدقائهم مجتمعين معهم، ومنفردين عنهم، وأن يلقي القادمون السلام على من في البيوت ﴿لَيْسَ عَلَى الْآعْمَى حَرَجٌ﴾.

٤ - وتبين أن سمة المؤمنين الصادقين أن يلتزموا بأدب الاستئذان من الرسول - ﷺ - إذا دعتهم الضرورة إلى الانصراف من الاجتماع معه، وتترك للرسول - ﷺ - الحرية في الإذن وعدمه، وتطلب إليه

أَنْ يَسْتَغْفِرَ اللَّهُ - تعالى - لِمَنْ يَأْذَنُ لَهُمْ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ . . .

٥ - وتنزل الرسول - ﷺ - منزلته اللائقة به بين أتباعه، وتخصه بأسلوب من النداء يتسم بالتوقير والاحترام، ويرقى عن طريقتهم في مناداتهم بعضهم بعضاً، وتوقظ ضمائر الذين ينسلخون من مجلس الرسول - ﷺ - وينفضون من حوله متسللين مستخفين دون استئذان، وتحذرهم من رقابة الله - تعالى - عليهم، ومن عاقبة مخالفة أمره، خشية أن يحل عليهم غضبه في الدنيا والآخرة. ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾.

٦ - وتقرر السورة الكريمة في آية الختام انفراد الله - تعالى - بملك ما في السموات والأرض، وعلمه كل ما يجري فيهما، وإطلاعاه على أحوال عباده وأعمالهم، وإعادتهم إليه للحساب والجزاء، تذكيراً بالعقيدة، وتثبيتاً لمفهومها، وتنبيهاً إلى أهمية دورها، ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.



سُورَةُ الْبُورَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَلْتَمِسُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
 ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ
 بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ
 عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
 مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
 فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ
 فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾

وَالْخَمِيسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرُؤُ
عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ، وَلِمِنَ الْكَذِبِينَ
﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾
وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿سُورَةٌ﴾	السورة: المنزلة العظيمة، وتطلق على المجموعة المستقلة من الآيات المرتبة بأمر الوحي الكريم ذات البدء والختام؛ لمنزلتها العظيمة.
﴿وَفَضَّلْنَاهَا﴾	وانزلناها منجمة، وأوجبنا العمل بجميع أحكامها وآدابها.
﴿بَيِّنَاتٍ﴾	واضحات الدلالة على معانيها، كاشفات طريق الهدى والحق.
﴿تَذَكَّرُونَ﴾	تنفذون ما جاء تكم به.
﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾	كل زانية من الأبيكار الحرائر البالغات، وكل زان حر بكر بالغ.
﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾	ولا تغلبكم رحمتهما؛ فتعطلوا حد الله - تعالى - أو تخففوه.
﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾	في طاعة شرعه، وتنفيذ جزائه الذي قرره، وحكمه الذي أصدره.
﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾	تشكيك في إيمان من تغلبهم الرأفة بالمعتدين على محارم الله - تعالى -.
﴿عَلَابَهُمَا﴾	عقابهما زجراً، ونكالاً، وخزياً.
﴿طَائِفَةٌ﴾	جماعة أقلها اثنان، ولا حد لأكثرها.
﴿لَا يَنْكِحُ﴾	لا يتزوج.
﴿ذَلِكَ﴾	نكاح البغايا.
﴿يَرْثُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾	يسبون بالفاحشة، أو نفي النسب عفيفات النساء، أو الأنفس العفيفات.
﴿فَاجِدُوهُمْ﴾	الخطاب موجه إلى القائم بتنفيذ أحكام الإسلام، وإلى السيد في مملوكه.
﴿الْفَاسِقُونَ﴾	الخارجون عن طاعة ربهم.
﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾	ويدفع عن الزوجة حد الرجم.

التأويل والبيان:

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

تبدأ سورة النور بالإخبار من الله - تعالى - بأنها سورة من الكتاب العزيز، منزلة من رب العالمين، قيوم السموات والأرض، نزل بها الروح الأمين على قلب خاتم النبيين محمد ﷺ - ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾.

وأن الله - تعالى - قد أوجب العمل بالأحكام التي جاءت بها، والحدود التي شرعتها، والآداب التي سنتها، والوصايا الواردة فيها، وفرض تنفيذها، واتباعها، ولم يجعلها خاضعة لرغبة خلقه، ولا لاختيار عباده المؤمنين ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وأن الأحكام التي تشتمل عليها، والتشريعات التي تسنها، والنظم التي تقررها واضحة بينة، خالية من اللبس والغموض، بريئة من الخفاء والإبهام ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ﴾. والهدف من الإخبار بأنها سورة منزلة، ذات أحكام مفروضة واضحة دفعكم - أيها المؤمنون - إلى الأخذ بأحكامها، وحملكم على الاستمسك بآدابها، وحثكم على تذكر ما فيها من العبر تذكراً ينأى بكم عن إهمالها والتفريط فيها، ويعصمكم من نسيانها وإضاعتها، ويبعدكم عن الافتقار على معرفة حقائقها، والاكتفاء بدراستها وفهمها ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

تنص هذه الآية الكريمة على عقوبة الزنا لغير المحصن؛ فالزانية والزاني يجلد كل منهما مائة جلدة، إن كانا مكلفين، وارتكبا جريمتهما بمحض اختيارهما، ولم يتعرضا للون من ألوان التهديد أو الإكراه، وثبتت عليهما الجريمة بإقرارهما، أو بشهادة أربعة شهداء من المسلمين



المعروفين بالصدق، والأمانة، والعدالة؛ لقوله - تعالى - : ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أو بظهور الحمل على امرأة لا زوج لها .
﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ .

وفي تقديم ذكر الزانية على الزاني دلالة على أن جنايتها على نفسها أكبر من جنايته، وأن مسؤوليتها عن حدوث الفاحشة أضخم من مسؤوليته؛ لأنها منشأ الفتنة والإثارة والإغراء ففي الحديث الشريف : «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»، وقد قيل : النساء حباثل الشيطان، ولأنها هجرت خدرها، وباعت عرضها، وفرطت في شرفها، ومكنت ذابحها من نفسها، ولولا موافقتها على الجريمة لما تمت؛ ولأنها استجابت للذة يسيرة تجلب عليها حسرات كثيرة. فهي التي تحمل جسم الجريمة، وتظهر عليها آثارها، ويطاردها عارها، وربما اضطرت إلى التخلص من هذا العار فتخلصت من الحياة وبقي العار.

والله - تعالى - الذي وسعت رحمته كل شيء يغلق على المؤمنين باب تعطيل هذه العقوبة، ويسد عليهم طريق التجاوز عن إقامتها، ويقطع عليهم انتحال المعاذير لإلغائها؛ فيدعوهم إلى الشدة والقسوة على مرتكبي الفاحشة، وينهاهم عن رحمتها، والرفقة بهما بأية وسيلة من الوسائل؛ كاستبدال عقوبة أخرى - من حبس أو غرامة مالية - بها، أو انقاص العدد المقرر فيها، أو التخفيف من الجلد، وجعله صورياً، ففي الحديث الشريف عن بعض مشاهد القيامة : «يؤتى بوالٍ نقص من الحد سوطاً، فيقال له لم فعلت ذلك؟، فيقول : رحمة لعبادك، فيقال له : أنت أرحم بهم مني؟ فيؤمر به إلى النار، ويؤتى بمن زاد سوطاً، فيقال له : ولم فعلت ذلك؟، فيقول : لينتهوا عن معاصيك، فيقال له : أنت أحكم بهم مني؟، فيؤمر به إلى النار» .

والرفقة التي يشرعها الإسلام في هذا المجال هي الرفقة بالجماعة

التي يقوض الزنا بناءها، ويدمر السفاح وجودها، ويصادر مشروعية الزواج فيها، ويفك روابطها الاجتماعية، ويبتليها باختلاط الأنساب، وفساد الآداب، وانحطاط الأحساب، وانتهاك الحرمات، وانتشار الأمراض، ولهذا تذكر الآية الكريمة عقب النهي عن الرأفة بهما أن هذه العقوبة المقررة هي الجزاء في شرع الله - تعالى - ودينه الذي لا فرق فيه بين التعبد بالنسك والشعيرة، والتعبد بتنفيذ حدود الشريعة، فتقول: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾.

وتضيف الآية الكريمة أن الذين يؤمنون بالله - تعالى - إيماناً يجعلهم يعتقدون أن شرعه واجب الطاعة، وأن قانونه ضروري التنفيذ، ويجعلهم يوقنون أنهم سوف يبعثون للحساب، وعلى ربهم سوف يعرضون، ويسألون عن أعمالهم. هؤلاء الذين يكون إيمانهم على هذا النحو لا تغلبهم العواطف الجياشة، ولا تتقاذفهم الأهواء الطائشة، ولا يبدلون أحكام الله - تعالى -، ولا يغيرون ما سنّه من الحدود، ولا يتهاونون في طاعة ما أمرهم به، واثقاء ما نهاهم عنه، فتقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

والله - تعالى - يسمي هذه العقوبة عذاباً، حتى لا تضفي الرحمة عليها ثوبها، أو تصبغها بصبغتها، ويأمر المؤمنين أن يتم توقيع هذا العذاب على مرأى جماعة منهم؛ لا ليكونا عليهما متفرجين، أولهما مستغفرين، ولكن لتقرّ أعينهم، وتطيب نفوسهم، وتشتفي صدورهم؛ فإن مما يشفي صدور المؤمنين أن يروا شريعة الله - تعالى - مطبقة على عبادته، وأحكامه تؤدي دورها في إصلاح الحياة، وأن يجدوا حدوده تقام على المعتدين عليها، وليكون حضور هذه الجماعة فضيحة لمن خلعا ثوب الحياء، وتشهيراً بمن أقدموا على الفاحشة، وزجرا لغيرهما، وليكون وجودها إعلاناً لطاعة الله - تعالى -، إظهاراً لتنفيذ حكمه، ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وعقوبة الجلد هي حد الزنا للعزاب



من الرجال والنساء الذين لم يحصنهم الزواج أما الذين سبق لهم الزواج فعقوبتهم الرجم الذي ثبت في السنة الصحيحة، فإن نص الآية الكريمة لما كان عاماً في كل زان وزانية، فقد خصصه فعل رسول الله - ﷺ - حين رجم ماعز بن مالك والمرأة التي تسمى «الغامدية»، وهما محصنان، وبين فعله هذا أن الجلد خاص بغير المحصن.

وعقوبة الجلد والرجم في جريمة الزنا هي آخر الخطوات، وأشد الإجراءات التي اتخذها الإسلام في مقاومة هذه الجريمة البشعة، والقضاء عليها، وتطهير المجتمع منها؛ فقد ظل الإسلام منذ فجر الدعوة يحاربها بمختلف الوسائل، ويوصد دونها المنافذ والأبواب، ويقاوم ما يؤدي إليها من المقدمات والأسباب، ويسن طرق الوقاية منها:

أ - ففي العهد المكي بدأ القرآن الكريم يرغب في اجتنابها، فأثنى على أصحاب العفة والصيانة، وعدهم من المفلحين، فقال في سورة «المؤمنون»: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَفِظُونَ﴾ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾.

ب - وقرر الإسلام أن هذه الجريمة تتنافى مع عقيدة التوحيد التي تطهر النفس من الرجس، وتصون الفطرة من الانحراف، فأخبر الرسول - ﷺ - أن نور الإيمان ينطفئ في القلب حين يرتكب صاحبه الفاحشة، فقال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» وقال فيما رواه الحاكم: «الحياء والإيمان قرناء جميعاً فإذا رفع أحدهما رفع الآخر».

ج - وقد كان من الحكمة في فرض الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

د - ثم جهر الإسلام بتحريم الزنا، فنزل قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانُمْ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا أَلْفَاكِحَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ﴾

[الأنعام: ١٥١]، وقد فهم من النهي عن الاقتراب اتقاء كافة الأسباب التي تؤدي إلى ارتكاب هذه الجريمة؛ ولهذا كان محرماً على الرجل أن يختلي بامرأة أجنبية، وكانت النظرة إليها سهماً مسموماً من سهام إبليس - لعنه الله -، من تركها خوفاً من الله - عز وجل - رزقه إيماناً يجد حلاوته في قلبه.

هـ - وأمر القرآن الكريم النساء أن يصفين عليهن ملابسهن، ويدنين من جلابيبن، وأن يخفين زينهن، ويقررن في بيوتهن، وألا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى.

و - وحث على اجتناب الكبائر، ورغب في الزواج، وجعل شرار الناس الأعزاب، ونبه إلى عدم المغالاة في المهر، وأخبر الرسول ﷺ - أن أقل النساء مهراً أكثرهن بركة، وأن الدرهم الذي ينفق على الأسرة أفضل الدراهم المبذولة في سبيل الخير.

ز - وجاء النهي عن الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد: ﴿وَلَا تَقْنُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾.

ح - وكانت أول عقوبة بعد هذه الإجراءات الوقائية هي العقوبة التي قررتها سورة النساء، بحبس اللاتي يأتين الفاحشة حتى يتوفاهن الموت، وإيذاء الرجال الذين يأتونها، وكان السبيل الذي أشارت إليه سورة النساء: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ هو ما قرره آية النور من جلد غير المحصن.

من الدروس المستفادة:

- ١ - لا يجوز تعطيل أحكام الله - تعالى - وتشريعاته، فتعطيل أحكام الله - تعالى - يفتح أبواب الفساد الذي يشري في المجتمع فيدمره، والله - تعالى - يحرم تعطيل منهجه الذي أنزله لإصلاح المجتمع الإسلامي.



- ٢ - يجب التزام تنفيذ الحدود كما أمر الله - تعالى - ، فإذا أمر بجلد الزاني غير المحصن أو الزانية مائة جلدة، فالوقوف عند هذا العدد أمر واجب، فلا تجاوز في العدد بزيادة أو نقص.
- ٣ - الذين يؤمنون بالله - تعالى - واليوم الآخر يقفون عند حدوده، ولا يعتدون عليها، ويلتزمون أحكامه ولا يبدلونها.
- ٤ - الحكمة في تنفيذ العقوبة على مرأى طائفة من المؤمنين الشعور بسلطان الله - تعالى - والهيبة لقوانينه التي سنّها، وردع المجترئين على حدوده.
- ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

سبب النزول:

روى أحمد والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كانت امرأة يقال لها: أم مهزول، وكانت تسافح - تحترف البغاء - فأراد رجل من أصحاب رسول الله - ﷺ - أن يتزوجها، واشترطت له أن تنفق عليه، فأنزل الله - عز وجل - : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾.

الزاني خبيث النفس، دنيء الطبع، ميت الشعور، ساقط الكرامة، ضائع الشرف فاقد الحياء، معدوم العفة، مجرد من الغيرة، لا يقنع بالحلال، ولا يشبع من الحرام؛ فهو لا يصلح أن يكون زوجاً إلا لزانية تشاكله في خصاله، أو مشركة تجانسه في أفعاله، وليس كفوّاً لأن يتزوج المؤمنة العفيفة؛ لأن فطرتها النظيفة لا توافق طبيعته الدنسة، ولأنه غير أمين عليها، ولا يستطيع أن يوفر لها الصيانة المطلوبة، ويكفل لها الحماية الواجبة بعد أن فقد الغيرة على العرض، وتجرد من الأمانة. والزانية فاجرة عاهرة، ألفت الرذيلة، واعتادت الفاحشة؛ فلا يجوز أن يتزوجها إلا زان تناسب جبلته جبلتها، أو مشرك يكون معدنه من معدنها.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

وجريمة الزنا تقطع صلة فاعلها بالمؤمنين، وتعزله عنهم، وتلحقه بالمشركين، وتجعله منهم؛ ولهذا حرم الله - تعالى - على المؤمنين أن ينكحوا المسافحات، وعلى المؤمنات أن يتزوجن المسافحين، وإذا وقع هذا الزواج فإن المؤمن لا يأثم فحسب، ولكن عقد الزواج يكون باطلاً، ويجب التفريق بين الاثنين؛ لأن الله - تعالى - سوى بين الزاني والمشرک، والزانية والمشركة، ومقتضى هذه التسوية أنه لا يحل للمؤمن أن يتزوج زانية كما لا يحل له أن يتزوج مشركة، ولا يحل للمؤمنة أن تقتن بزنا كما لا يحل لها أن تقتن بمشرك، والله - تعالى - يقول: ﴿وَحَرَّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، فمن استحله لم يكن مؤمناً.

وقد حدث أن مرثد بن مرثد الغنوي أراد أن يتزوج امرأة بغياً يقال لها: عناق كانت تربطه بها صلة قديمة، فاستأذن رسول الله - ﷺ - في زواجها، فقال له: «يا مرثد، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها»^(١).

وما دام الإسلام قد وضع للإنسان منهجاً غير منهج الحيوان، وأباح له أن يتزوج أكثر من واحدة عند الضرورة، ولم يهمل الدوافع الفطرية، ولم يغفل الميول البشرية، وعمل على بقاء النوع الإنساني، وأقام بناء الأسرة على نظام يحفظ الأنساب من الاختلاط، ويصون الأعراض من الانتهاك، ويحمي السلوك من الانحراف، ويبقي الصحة غائلة المرض، فلا مبرر لهذه النكسة الحيوانية التي تنتهي العلاقة فيها بانتهاء الشهوة، ولا تفرق بين امرأة وامرأة، ولا تبني أسرة، ولا تقيم حياة مشتركة ولا تلتقي من أجل نسل صالح، أو ذرية طيبة.

(١) رواه الترمذي وأبو داود والنسائي.



- حرم الإسلام زواج المؤمن من البغي، ليصون عرضه، ويحفظ سمعته، ويحمي نفسه من الوسوس، وبيته من سوء، وليهيئ له الحياة النظيفة الطاهرة التي ينصرف فيها إلى العمل النافع الذي يصلح دينه ودنياه.

﴿وَالَّذِينَ يَمُونُ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

كما عنى الإسلام بتنظيف المجتمع من البغاء، وتطهيره من الفاحشة، عنى بحماية أعراض المؤمنين والمؤمنات من الافتراء الكاذب، وحرمة قذف العفيفات الغافلات بالفاحشة، واتهام البراء والبريئات بالسفاح؛ فليست الأعراض كلاً مباحاً يسرح فيه السارحون، وليس التحدث عن العلاقات المريبة، ونشر أخبار الاتصالات غير المشروعة، والاتهام بالبغاء من الأمور التي يغضي عنها الإسلام؛ ولهذا نراه لا يسمح بتشويه السمعة، ولا بتلويث الأعراض؛ فإن كَلَّمَ اللسان أنكى من كلم السنان، وقد قيل:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان
وحين يسمح المسلم لنفسه أن يخوض في أعراض الأعفاء والعفاف، وأن يسلق الشرفاء والشريفات بلسان حاد فإن منهج الله - تعالى - لا يتركه يمضي ناجياً من الحساب، معافي من العقاب، غير مسؤول عما اجترح من جريمة في حق الجماعة، وما أثار في نفوس المؤمنين من شكوك، وما حرك في صدورهم من وسوس، أقلقته راحتهم، وسلبتهم الهدوء والاستقرار، وهيجت مخاوفهم، وقضت على الثقة المتبادلة بينهم، ولو كان ما قاله تعريضاً وتلميحاً لا تصريحاً وتوضيحاً؛ كأن يقول لمخاطبه: أنا ما خرجت من سفاح، أو ما أنا بمجهول النسب، وإنما يطالبه الإسلام بأن يأتي بأربعة شهود عدول يشهدون بصحة ما قال، ليخلي سبيله، وتبرأ ساحته، ويؤخذ الجاني بجنايته، فإن لم يفعل نُفِذَتْ فيه عقوبات ثلاث مجتمعة:

- ١ - أن يجلد ثمانين جلدة للتأديب والزجر والعبرة ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾.
 - ٢ - إسقاط شهادته، وإلغاء عدالته، وإهدار روايته، ورد أقواله ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾.
 - ٣ - أن يدخل في عداد الفاسقين، وأن يعتبر من الخارجين عن طاعة ربهم، وأن يصبح من الذين تختص بهم صفة الفسوق، وتنحصر فيهم؛ هذه الصفة التي صدقت على فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]، وعلى الجاحدين بآيات الله - تعالى - المكذبين بكلامه ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩] ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.
- لكن الفساق الذين كفوا ألسنتهم عن الطعن في الأعراض النظيفه، وحولوا أعينهم عن تتبع عورات المسلمين، وأقصرُوا عن السعي وراء فضيحتهم، وأصلحُوا ما أفسدته ظنونهم السيئة بأهل الخير والاستقامة، وعالجوا ما سببته اتهاماتهم الباطلة لأصحاب العفة والكرامة، وأعلنوا براءة الأعراض المقدوفة، وأقروا بخطئهم، واعترفوا بذنبهم، وحسنت حالهم، واستقام أمرهم، فإن هؤلاء التائبين تتسع لهم رحمة الله - تعالى -، ويشملهم عفوه، وتناهم مغفرته، وتسقط عنهم صفة الفسق التي علقت بهم، وتقبل شهادتهم، ويصيرون في عداد المؤمنين الذين حبب الله - تعالى - إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم.
- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٥].

من الدروس المستفادة: أولاً:

- ١ - يتبين من تقرير ثلاث عقوبات في حد القذف:
- أ - أن العرض في نظر الإسلام بالمكان الأسمى، والمنزلة



الرفيعة، وأنه إذا انثلّم أو خدش ضاع شرف صاحبه،
 وحكم عليه بالموت، وما أصدق القائل:
 أصون عرضي بمال لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض في المال
 أحتال للمال إن أودى فأجمعه ولست للعرض إن أودى بمحتال
 ب - أن أمن المسلم على سمعته ضروري؛ لتستقر حياته،
 وينطلق في جهاده وعمله مطمئناً، ويتسم سعيه بالنشاط
 والقوة.

ج - أن كيان الأسرة، وبناءها ينبغي أن يحاط بسياسات متين،
 وأن يصان من العوادي التي تقوض أركانه، وتنسف
 بنيانه.

٢ - في تحريم القذف كفّ للأعين عن تتبع العورات، والتجسس على
 الحرمات، وصرف للنفس عن الاشتغال بإحصاء السقطات،
 والبحث عن العثرات، وصيانة للسان من حصائده المهلكة،
 واقتراءاته الموبقة.

٣ - التوبة من جريمة القذف لا بد فيها من شرطين:

أ - الإقلاع عنها نهائياً.

ب - إصلاح ما أفسده القاذف من روابط، وما تسبب في إتلافه
 من بيوت.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ
 بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٨﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

لما كانت مطالبة الذين يتهمون نساءهم بالبغاء، أو ينفون نسب ما
 في بطونهن من الحمل إليهم بأن يأتوا بأربعة شهداء لإثبات دعواهم جدّ
 عسيرة، وفيها إعنات لهم، وقد ينالهم منها حرج وضرر شرع المنهج
 الإلهي الحكيم إجراء مستقلاً، وحكماً خاصاً للأزواج الذين يرمون
 نساءهم بالفاحشة يسمى «اللعان».

فإذا تكشف للزوج سلوك زوجته المريب، واطلع على خيانتها، وأيقن بجنيتها، وشاهد جريمتها، ولم يكن منقاداً للظنون، ولا واقعاً تحت تأثير السلوك ولا قانعاً بمجرد العلم، ولكنه رآها تزني، وجب عليه أن يقسم بالله - تعالى - أربع مرات على أنه صادق فيما قذف به امرأته، يقول في كل مرة: أشهد بالله لقد رأيته تزني، أو أشهد بالله إن هذا الحمل ليس مني، وفي الخامسة يبرأ من الافتراء عليها، ويستنزل لعنة الله - تعالى - عليه إن كان من الكاذبين، فيقول: لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فإن فعل هذا سقط عنه حد القذف، وانتفى نسب الحمل إليه، ونسب إلى أمه، وبانت منه زوجته.

﴿وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ۖ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

ويسقط الرجم عن الزوجة أن تباهل زوجها، وأن تقول أربع مرات: أشهد بالله ما رأي أمني، وفي نسبة الحمل إليه تقول: أشهد بالله ما زني، وإن هذا الحمل منه، وفي المرة الخامسة تستنزل غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

سبب نزول الآيات:

لما نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْخُصَصَاتِ...﴾، قال سعد بن عباد: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله - ﷺ -: «يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟ فقالوا: يا رسول الله، لا تلمه؛ فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرأ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها لشدة غيرة، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها لحق، وأنها من عند الله، ولكنني قد تعجبت أني لو وجدت لكأعاً - زوجة خبيثة - قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه أو أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته، فلم تمر إلا فترة يسيرة على ما قال سعد حتى جاء هلال ابن أمية إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا رسول الله إني جئت على أهلي عشاء، فوجدت عندها رجلاً، فرأيت



بعيني، وسمعت بأذني، فهم رسول الله - ﷺ - أن يقيم عليه حدّ القذف، ويبطل شهادته في الناس، فأنزل الله - تعالى - على رسوله - ﷺ -: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ﴾... الآيات، فقال: «أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً»، وأجرى رسول الله - ﷺ - الملاعنة بينهما، وقضى ألا يدعى ولدها لأب، ولا يرمى ولدها، ومن رمى ولدها فعليه الحدّ، وقضى ألا نفقة لها عليه.

من الدروس المستفادة: ثانياً:

١ - اللعان إجراء خاص شرعه الله - تعالى - للأزواج بعد التيقن من أن زوجاتهم اقترفن الزنا، وليس هناك وسيلة إلى إثبات الجريمة بشهادة الشهود، وينتهي اللعان بالتفريق بين الزوجين، ومن حكمة الإسلام في التفريق أنه يراعي الاستقرار النفسي في بناء الأسرة، ودعم الحياة الزوجية، وحيث إنه لا استقرار للزوج بعد التأكد من الزنا فالتفريق هو الحل الحاسم، ومن الواجب مسايرة الحكمة في تشريع الإسلام إلى نهاية الشوط، وذلك بصيانة ولد المتلاعنين عن الإهانة والتجريح، تمشياً مع اتجاه الإسلام إلى حفظ الأعراض، ومع عدالته في ألا يؤاخذ البريء بذنب الآثم.

٢ - من موقف سعد بن عباد من حدّ القذف يتبين لنا أن صحابة رسول الله - ﷺ - كانوا يتلقون ما يأتيهم به الوحي من آيات الله - تعالى - بالتدبر الواعي، وكانوا يفقهون أحكامها، ويبحثون عن أسلوب تطبيقها، ولا يكتفون بفهمها فهماً سطحياً.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

ولولا إنعام الله - تعالى - عليكم، وإحسانه إليكم، ولطفه بكم فيما شرع لكم من العقوبات التي تطهر المجتمع من الخنا والفاحشة، وتقي الأعراض مغبة الكذب المفتري، وفيما سنّ لكم من أحكام اللعان التي

وضعت عنكم المشقة، وأعفتكم من الإشهاد الذي لا تستطيعون إليه سبيلاً لاستشرى فيكم الفساد، ودب إليكم الشر، ولكلفكم ما لا تطيقون، ولما نجا منكم واحد من حد القذف، ولساءت حال الأسرة، وانجلت عقدتها. وتفاقم الخلاف بين أفرادها، وتمزق كيائها شر ممزق ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾.

وفي هذا التشريع الحازم الذي يقطع دابر السوء، وهذا التيسير في الأحكام رحمة من الله - تعالى - بعباده، وحفظاً لهم من المهالك، وتوبة عليهم من الآثام، وإعفاء من التشديد الذي يعرضهم للضيق والبلاء، وهو - سبحانه - كثير التوبة، واسع الرحمة، ذو حكمة بالغة فيما شرع من الأحكام ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

من الدروس المستفادة:

- ١ - يتضمن تذكير الله - تعالى - عباده بفضله عليهم فيما أنزل إليهم من الأحكام القويمة، وما صاغ لهم من النظم المعصومة معينين: -
 - أ - أن يعلموا أنها صادرة من منبع الرحمة الحقيقي الذي لا منبع للرحمة سواه، وآتية من ساحة الفضل العظيم التي لا توجد للفضل ساحة غيرها؛ ولهذا فهي تتسم باليسر والمرونة والملاءمة لطبائع البشر، والبعد عن الجرح والمشقة، والقدرة على تزكية النفوس، وإصلاح حياة البشر.
 - ب - أن يقوى حرصهم على العمل بها، وأن يكون تطبيقهم إياها في حياتهم مظهراً من مظاهر طاعته، والشكر له على إحسانه بها.
- ٢ - في حذف جواب لولا الشرطية تعميم له؛ لتذهب النفس فيه كل مذهب، وليشمل كل ما يخطر على القلب من تصورات للعواقب المترتبة على فقدان هذا الشرط.



سُورَةُ النَّوَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآيَاتِكَ عَصَبَةٌ مِنْكُمْ لَا تُحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ
خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى
كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا
جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ
عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾
إِذْ تَقَوُّنَهُ بِالسِّنِّتِ كُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَتُحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا ابْتِهَانٌ عَظِيمٌ

(١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧)
 وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ
 يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)
 * يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ
 خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي
 مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ
 وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ
 الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)
 يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ



الْمُؤْمِنُ ۝ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ
 وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ
 مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿بِإِفْكَ﴾	بالكذب، والحديث المختلق.
﴿عَصَبَةٌ وَمَنْكُرٌ﴾	جماعة من المسلمين.
﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ﴾	لكل متحدث ممن تكلم بالإفك.
﴿كَبِيرٌ﴾	أكبر سهم منه، وأكثر نصيب فيه.
﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ﴾	هلا اعتقد المؤمنون الخير، والبراءة من الإثم في إخوانهم حين سمعوا الإفك.
﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾	في حكمه العادل، وميزانه السليم.
﴿أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾	أطلتم في حديث الإفك، وأسهبتم في تداوله.
﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾	تتناقلونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض.
﴿هَيْنًا﴾	أمرأ يسيراً لا تأثمون بالخوض فيه.
﴿سُبْحَانَكَ﴾	نزهك يا ربنا أن يحدث هذا من زوجة نبيك - ﷺ -.
﴿بِهَتْنٍ﴾	كذب واختلاق.
﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾	يتوقف عدم عودتكم إلى البهتان على إيمانكم بربكم.
﴿لِمَنْلِهِ﴾	للافتراء على أم المؤمنين، أو على غيرها من زوجات النبي - ﷺ -.
﴿تَشِيَعٌ﴾	نفسو وتنتشر.
﴿الْفَحِشَّةَ﴾	الفعلة المفرطة في القبح، والمراد: الزنا.
﴿فِي الدُّنْيَا﴾	بالحد.
﴿حُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾	طرقه ومسالكه.
﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ﴾	ولا يحلف أصحاب الغنى والإحسان.
﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾	ألا يعطوا.



الكلمة	تفسيرها
﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا﴾	بحدّهم، وإسقاط عدالتهم، وهجرهم، والإمساك عن القول الطيب فيهم.
﴿دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾	جزاءهم العادل، وعقابهم الثابت.
﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾	شرار النساء لشرار الرجال، أو الكلمات الخبيثات تكون للرجال الخبيثين.

قصة الإفك

١ - إلى بني المصطلق:

خرجت القرعة على أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -؛ لتخرج مع رسول الله - ﷺ - في غزوة بني المصطلق التي كانت في السنة الخامسة للهجرة، ولما كان الحجاب قد ضرب على أمهات المؤمنين فقد أعد لها هودج تقعد فيه، ثم يرفعه جماعة، ويضعونه في مكانه من الرحل.

٢ - المنافقون والغنيمة:

خف للخروج في هذه الغزوة كثير من المنافقين الذين كانوا يتخلفون عن نصره رسول الله - ﷺ - في الغزوات السابقة، وعلى رأسهم الناكص على عقبيه يوم أحد: عبد الله بن أبي بن سلول طمعاً في الغنيمة، لما رأوا اطراد النصر للمؤمنين.

٣ - فتنة تحبطها حكمة الرسول الكريم:

بعد أن تم النصر للمؤمنين في هذه الغزوة حدث ما كدر صفو الرسول - ﷺ -، وآلم نفسه الكريمة، وأحزن أصحابه - رضي الله عنهم - فقد تزاحم على ماء المريسيع غلام لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من قبيلة غفار، يقال له: جهجاه بن سعيد مع غلام حليف لبني عوف بن الخزرج، يقال له: سنان بن وبر الجهني، واقتتلا، واستصرخ جهجاه المهاجرين، واستنجد سنان بالأنصار، فاهتبل شيطان



المنافقين عبد الله بن أبي الحارث، وسعى لإشعال الفتنة في صفوف المسلمين محاولاً تمزيق وحدتهم، فقال وسط رهط من قومه: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في ديارنا، والله ما أعدنا وجلايب قريش - النزلاء المجتلبون - إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم اتجه إلى من حوله من أتباعه، وقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غيركم.

ومشى إلى رسول الله - ﷺ -: زيد بن أرقم بمقال شيطان المنافقين، وعنده عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فأشار عمر بأن يقوم عباد بن بشر بقتله، فقال رسول الله - ﷺ -: «كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟»، لا، ولكن أذن بالرحيل» فأذن عمر بالرحيل؛ ليقضي على الفتنة، ويخمد جذوتها، وكان الوقت غير مناسب للسير، فمشى المسلمون بقية نهارهم، وطول ليلتهم، وصدر يومهم حين أصبحوا حتى لفحتهم الشمس، وأدركهم الكلال، ومسهم التعب والإعياء، ثم أذن لهم الرسول - ﷺ -: أن يعسكروا فما كادوا يمسون الأرض حتى وقعوا نياماً.

٤ - على مشارف المدينة

في طريق العودة من الغزوة المظفرة، وقبل أن يبلغ المجاهدون مشارف المدينة، وعلى مرحلة واحدة منها أدركهم الليل، فانحازوا إلى مكان عسكروا فيه، وقضوا ليلتهم، وفي اليوم التالي صدر الإذن بالسير، فتأهب المسلمون لمغادرة المكان، وجاء القوم الذين يرحلون لرسول الله - ﷺ - فحملوا الرحل، ووضعوه على ظهر البعير كما تعودوا أن يفعلوا من قبل معتقدين أن أم المؤمنين بداخله.

٥ - حادث رتبه القدر:

لم تكن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - في رحلها حين وضعه القوم على ظهر البعير، ولكنها كانت بعيدة عن المعسكر إذ ذاك منهمكة في البحث عن عقدها الذي انفرط من عنقها، وهي في بعض شأنها، وقد حبسها ابتغاؤه، فلما وجدته عادت إلى رحلها، فلم تجد في مكانه داعياً ولا مجيباً، فتلفتت بجلبابها، ولزمت مكان رحلها آملة أن يعودوا إليها إذا افتقدوها.

٦ - شرف منخور:

و شاء الله - تعالى - أن يظفر بشرف نجدة أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - صحابي ميمون النقية، شهد يوم الفرقان؛ هو صفوان بن المعطل السلمي، وكان قد تأخر عن العسكر في بعض عمله، فلما مر بالمكان وجد أم المؤمنين - رضي الله عنها -، وكان يراها قبل فرض الحجاب على نساء النبي - ﷺ - فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ طعينة رسول الله - ﷺ -، وأناخ راحلته قريباً منها، ثم تنحى بعيداً حتى ركب، ثم أخذ برأس بعيره، يقوده إلى المدينة حتى بلغها، وكان القوم قد افتقدوا أم المؤمنين، ونشط بعضهم في البحث عنها.

٧ - بغاة الفتنة:

لم يكن في هذا الحادث شيء غريب، أو غير عادي، وخاصة في مجتمع المدينة الذي لم تشهد الدنيا مجتمعاً يضاهيه، أو يقاربه في قوته وسلامته، ويحكيه في طهارته ونظافته، وفوق هذا كانت المسلمة تهاجر من مكة إلى المدينة فراراً بدينها، فلا تعثر على رجل مسلم يدلها على الطريق، ويتولى حراستها فيه، فتلجأ إلى أحد المشركين لتهاجر في حمايته، وما شكت مسلمة ممن هاجرن على هذا النحو أنها لمست ما يريبها من الكافر الذي يرشدها إلى الطريق طوال مراحل السفر الكثيرة،



فكيف يكون ثمة ما يريب، والأمر لا يتعلق بمؤمنة عادية، ولكنه يتعلق بخير المؤمنات وإحدى زوجات النبي - ﷺ - اللاتي هن أزكى نساء العالمين قاطبة، ﴿يَسَاءَ إِلَيَّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؟، وهو لا يتعلق بالهجرة من مكة إلى المدينة التي تُضرب فيها أكباد الإبل عدة أيام، ولكنه يتعلق بمرحلة لا يستغرق قطعها بضع ساعات؟

ولكن رأس المنافقين ابن أبي ما كاد يسمع الخبر حتى تلقفه في لهفة؛ لينسج منه خيوط مؤامراته الخبيثة، وليشفي نفسه المريضة، ويداوي حقه الدنيء، وليعتاض بالفتنة الجديدة عن الفتنة التي طاش سهمها، بفضل الله - تعالى - وحكمة رسوله - ﷺ - وليشعل حرباً داخلية في صفوف المسلمين لعلها تكون القاضية على الإسلام الذي نحى عن مفرقه تاج الملك الذي كان يحلم به، ويتحرق شوقاً إليه؛ وهكذا يصدق الوحي الكريم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. ثم لعل مؤامراته تنفذ حياته؛ فقد كان على يقين من أن رسول الله - ﷺ - إذا عاد إلى المدينة سوف يحاسبه حساباً عسيراً ينتهي بإهدار دمه على قيله الذي رواه زيد بن أرقم، ونزل به الوحي الكريم في سورة المنافقون: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، حتى إن ابنه عبد الله - رضي الله عنه - قال لرسول الله - ﷺ - بلغني أنك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً، فمرني، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإنني أخشى أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال له رسول الله - ﷺ -: «بل تترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا».

لهذا أوماً ابن أبي إلى أتباعه بالريبة فارتابوا، وأمرهم أن يرجفوا

بها في المدينة فأرجفوا، وأوعز إليهم أن ينشروا الإفك حيثما اجتمع الناس ففعلوا.

٨ - صبر جميل:

وصل الحديث المفترى إلى سمع رسول الله - ﷺ - فأذى فؤاده الشريف لذعه، وثقل على نفسه الكريمة وقعه، ولكنه تلقاه بما شاء الله - تعالى - له من الصبر الجميل، والاحتساب العظيم، وظل شهراً كاملاً يتجرع غصته، ويدوق مرارته، ولو شاء أن تُحزّ فيه الرقاب لحزت، ولكنه أثر أن يحتمل في الله، وأن يفوض أمره إلى مولاه، وآثر الوحي الكريم أن يفسح صدره للمنافقين؛ حتى يفرغوا كل ما في جعبتهم من السهام، ويكشفوا عما في صدورهم من العلل والأسقام.

٩ - فيض من الرحمة:

وقد رحم الله - تعالى - أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -؛ فلم يبلغها شيء مما رَوَّجه الأفاكون، ولو سمعت بإفكهم لفتك بها الكمد، وقتلها الغم، فقد كانت تعاني من مرض شديد، استدعى أن تنتقل إلى بيت أبيها، وأن تشرف أمها على تمريضها، وقد تأذن الله - تعالى - ألا يصكّ الحديث المفترى سمعها إلا قبل أن يحمل الوحي الكريم براءتها بليلة واحدة؛ خرت على إثر سماعها به مغشياً عليها، فلما أفاقت قضت ليلتها باكية بكاء كاد ينشق منه كبدها، فلما أسفر الصبح، وحضر رسول الله - ﷺ - إلى منزل صاحبه جاءه جبريل - عليه السلام - يُقرئه عشر آيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ﴾... الآيات.

وسُري عن رسول الله - ﷺ - وهو يضحك، وكان أول ما تكلم به: «أبشري يا عائشة، أمّا الله فقد برأك»، ثم اجتمع الناس في المسجد وصعد رسول الله - ﷺ - المنبر، وتلا الآيات الكريمة على الناس.



١٠ - عقوبة القذف:

وعقب نزول الوحي الكريم ببراءة أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أقام رسول الله - ﷺ - حدَّ القذف على الذين جاهروا بالإفك، وأعلنوا تخرصهم بالباطل، وشهد عليهم الشهود بذلك، وهم: حسان بن ثابت من الأنصار، ومسطح بن أثاثه، وحمنة بنت جحش، وهما مهاجران.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

إن الذين اختلقوا الكذب، وافتروا الإفك، ولفقوا التهمة، وتناقلوا البهتان نفر منكم ينتمون إلى الجماعة المسلمة؛ بعضهم ليسوا منها في سلامة العقيدة، وصدق الإيمان، والبراءة من النفاق، ولكنهم منها بما تلوك ألسنتهم من شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وبما يتظاهرون به من القيام إلى الصلاة؛ كعبد الله بن أبي، وزيد بن رفاعه، وكلاهما ممن عُرف نفاقه، واشتهر به، وبعضهم من المسلمين الذين جرفهم تيار الحديث، فاندفعوا يرددونه دون أن يشعروا بالأصابع الخفية التي تحركه، ومن غير أن يفتنوا إلى النوايا الخبيثة، والأهداف الشريرة التي تتبناه؛ كحسان بن ثابت وأمثاله، وفي نسبة تدبير الحادث إلى العصبة دليل على اتساع دائرة المؤامرة، وكبر حجمها، وضخامة الكيد المبيت فيها ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ لا يدر بخلدكم، ولا يخطر ببالكم، ولا يجُل بحسبانكم أن حملتهم المسعورة على أشرف البيوت، وأزكى الأعراض، وأطهر الأعراق، وأعف الزوجات تهددكم بالخطر، أو يصيبكم منها ضرر، ولا تعتقدوا أن هذا الكيد الرخيص، والهجوم الدنيء الخسيس على كرامة صاحب الخلق العظيم سينال منها مأربه، أو يحقق هدفه. ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ﴾.

بل إن الله - تعالى - جعله عليكم نعمة، وبكم رحمة، ولكم خيراً؛

فهو خير لكم؛ لأنه أَمَاطَ اللثامَ عن العصابة الآثمة، والطائفة المجرمة التي تقولته ولفقته، وكشف النقاب عن كبيرها الذي تولى تدبيره ووضع خطته، وفضح الغايات التي يستهدفها، ويرمي إليها، وهو خير لكم؛ لأنه لفت أنظاركم، ونبه أذهانكم إلى المعسكرات التي تتبناه، وتوجه مسيرته، وتدير حركته، وترقب نتيجته، وأظهر سلاحاً من الأسلحة التي يستخدمها أعداء الإسلام في الكيد له، ومحاولة تدميره والقضاء عليه، وهو سلاح الافتراء على الشرفاء، وتلويث سمعة الأبرياء، وتشويه مسعى المخلصين الأطهار في كل الأعصار وهو خير لكم؛ لأن الله - تعالى - ردَّ الذين أفكوه بغيظهم، وأخرس ألسنتهم، ودفع باطلهم، وأحق الحق بكلماته.

وهو خير لكم؛ لأنه مَازَ هذه الصفوة المؤمنة الكريمة التي أنكره عقلها، ولم يقبله دينها، ولم يرضه إيمانها؛ فهذا أبو أيوب الأنصاري يحدث زوجته: ألا ترين ما يقال عن عائشة؟، فترد عليه متسائلة: لو كنت مكان صفوان أكنت تظن بزوجة رسول الله - ﷺ - سوءاً؟، فيقول: لا، فتقول: ولو كنت أنا مكان عائشة ما خنت رسول الله - ﷺ -، فعائشة خير مني، وصفوان خير منك.

وهو خير لكم؛ لأنه جلا معدن الحلم، وحقيقة الصبر، والأخذ بالعفو، وطرح الانتصار للنفس، والانتقام من الخصم في شيم رسول الله - ﷺ -. وهو خير لكم؛ لأنه أكَّد لكم أن الغيب كله لله - تعالى -، وأن رسوله لا يعلم منه شيئاً، فلو كان له به علم ما جفا زوجه، وما هجر اسمها لا يذكره، وما سأل عنها علماً، وأسامة، وأمّهات المؤمنين، وما استخبر جاريته، وما كانت به حاجة إلى أن يستوضحها هي ذاتها جليلة الأمر في نهاية المطاف.

وهو خير لكم، لأن الغمّة انكشفت عن دروس خالدة، وآداب عالية، وأحكام مفروضة حملها أمين الوحي إلى النبي - ﷺ - لتظل



للمؤمنين أبد الدهر نوراً هادياً يُريهم أن رمي المحصنات الغافلات جريمة خلقية وجناية اجتماعية عقوبتها ثمانون جلدة إن لم يأتوا عليها بأربعة شهداء.

وهو خير لكم؛ لأنه سوف يبرهن للأجيال المؤمنة من بعدكم على أن رسولهم كان في أصحابه كواحد منهم، وكان مأمون الجانب، لا يخشى أحد منه بادرة سوء، ولا يهب بطشه، فقد تحدث إليه المتحدثون عن اللغظ الذي حدث دون حرج وكاشفوه بما علموا آمين أن يلقاها بما يكرهون من حدة الغضب، ونُذِر الشر، ومجابهة بالتكذيب، وسحب للثقة، وصدق الله العظيم: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

أما الذين جاءوا بالإفك فلكل واحد منهم جزاء ما ارتكب من المعصية، واجترح من الخطيئة من العقاب الذي أوجبه الله - تعالى - على الذين يرمون عفيفات النساء الغافلات، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء. ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾.

وأما رأس المنافقين الذي نسج خيوط المؤامرة في دهاء وخبث، وأخرجها إلى حيّز التنفيذ في حيلة ومكر، وهمس بها في ملئه الذين يوالونه، ورشح لها الذين يستطيعون ترويحها في حيلة وحذر، وأخذ مكاناً قصياً يرقب منه النتيجة فله وحده عذاب عظيم، في نار الجحيم، يناسب دوره الكبير في الخطة الأثيمة، ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَبَرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

ما كان إبطال هذا الإفك، والقضاء عليه في مهده يتطلب منكم إلا أن يقيس المؤمن أخاه على نفسه، وأن تنظر المؤمنة إلى أختها نظرتها إلى نفسها، وأن يثق كل منهما في طهارة المؤمنين، ونقاء أعراضهم، وأن يحسن الظن بهم، ويعتقد فيهم الخير والاستقامة؛ فهلا رجع كل منكم إلى قلبه يستفتيه، وإلى ضميره يستوحيه، وإلى عقله يسترشده وإلى إيمانه يستشير، وإلى ربه يستهديه فيما أذيع من الإفك. إنه لو فعل هذا

لوجد الدليل في نفسه قائماً، والبرهان في وجدانه ماثلاً، ولأيقن أنه لا يمكن أن تحدث الفاحشة من إحدى النساء اللاتي أذهب الله - تعالى - عنهن الرجز، وطهرهن تطهيراً، ولا أن يظهر المنكر في بيت الرحمة المهداة بيت رسول الله - ﷺ -، ولا أن يفضح رب العالمين عرض نبيه، ويكشف ستره، ويخرج صدره الذي شرحه، ويضع ذكره الذي رفعه، ويثقل وزره الذي وضعه، ولا أن يُحبط جهاد رجل شهد بديراً، وحضر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، ولا أن يفجع الصديق في بنته، وقد آواه إليه، وجعله ثاني اثنين في الغار.

من الدروس المستفادة: أولاً:

- ١ - تحرم الآية الكريمة على المؤمنين لونا من الظن؛ وهو أن يظن المؤمنون الشر في أهل الصلاح والاستقامة من إخوانهم، أو أن يرجحوا سعيهم في الأرض بالفساد، وتفرض عليهم أن يحسنوا الظن بالمؤمنين، مصداقاً لقوله - تعالى - ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ﴾.
 - ٢ - تعيب الآية الكريمة على الجماعة المؤمنة الاندفاع في نقل الأخبار من غير تمحيص، وإهمال الثبوت من صحة الأحاديث التي تداع، وعدم التروي تجاه المسائل العظيمة، والأمور الهامة، وتدعوها إلى تدبر ما تسمع من الأقوال، وإلى إعمال الفكر فيما يلقي إليها من الكلام.
 - ٣ - وتوجه المؤمن إلى أن يكون حكمه على أخيه مبنياً على قياسه بنفسه، ومستمداً من حكمه على ذاته، حتى لا يجافيه الصواب.
- ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾.

وإذا كان المؤمنون قد فاتهم أن يستلهموا دليل البراءة من منطق الإيمان الذي يوجد التجانس بينهم، وغاب عنهم أن يستوحوه من صفاء



فطرتهم، ونقاء سريرتهم الذي يحتم على المؤمن أن يكون مرآة أخيه التي تعكس صورته، وتبين ملامحه، فهلا طلبوا الدليل من خارج كيانه، وأخذوا الأمر مأخذ الجد، ونزلوا على قانون العدل الذي شرعه الإسلام، وطلبوا إلى هؤلاء النفر الذين أرجفوا بالاتهام، وأذاعوا به، وتناقلوه أن يقدموا الدليل المادي، وأن يأتوا بأربعة شهداء على صحة ما زعموا. ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾.

وحين يعجزون عن إحضار أربعة شهداء يثبت كذبهم، ويفتضح بهتانهم، ويعرى إفكهم، وهم بلا شك عاجزون، فأنى لهم بالشهداء على شيء لم يشهده زمان ولا مكان، ولولا النفاق ما تحدث به اللسان، ولا سمعته الآذان، بل ما خطر ببال واحد من أرباب الإيمان، ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾، ولقد ثبت كذبهم في علم الله - تعالى - وكلماته التي لا مبدل لها. واستقر إفكهم في حكمه الذي لا مغير له، ولا رجعة فيه.

﴿لَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ رَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

كان على المؤمنين أن يحتكموا إلى وازع الإيمان فيما اختلقه الخراصون فلم يحتكموا إليه، وكان عليهم أن يطلبوا إلى الذين روجوا قالة السوء أن يأتوا بالبينة الشاهدة فلم يفعلوا، وتركوهم يطعنون الرسالة في قداستها، ورسول الله - ﷺ - في عصمته، وعرضه في صيانتها، وبيته في طهارته، وهذا التصرف إثم كبير يوجب العقاب الشديد، وجريمة نكراء تعرض أصحابها للعذاب الأليم، ولولا نعمة الله - تعالى - عليكم - أيها المؤمنون -، وما سبق في علمه من واسع رحمته بكم، ومزيد عفوه عنكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة لنزل بكم العقاب، وأخذكم العذاب، وأنتم مسترسلون في حديث الإفك؛ تلقون الكلام على عواهنه، وتفيضون فيه.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

ولو كان الله - تعالى - آخذكم بعذابه لما أمهلكم، ولأنزله بكم وأنتم خائضون في الإثم، وَالْغَوْنُ فِي الْإِفْكِ؛ تتناقله ألسنتكم، وتلقيه في خفة وطيش، وتقوله أفواهكم في عماية وجهل، وتتقاذفه شفاهكم بلا وعي ولا تعقل، وتتلقاه أذن عن فم من غير تروٍّ ولا تدبر؛ حالكم فيه حال من يرمي بما لا يعلم، وشأنكم شأن من يهرف بما لا يعرف. ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.

وتعتقدون في قرارة أنفسكم أن اتهام العفيفات الغافلات أمر يسير، وتظنون أن افتراء الكذب عليهن شيء هين، وتتناقلون الإفك دون اكتراث كأنه حدث لا أهمية له، ولا يمس سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، وليست له جذوره العميقة، ولا أبعاده الكبيرة، ولا أهدافه الخبيثة. ولا عصيته الأثيمة الماكرة، وتحسبون الاشتراك في نثه وبثه عملاً سهلاً؛ لا تبعة فيه، ولا معصية تترتب عليه ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾.

ولكنه في الواقع مؤامرة ضخمة، تستهدف النيل من الإسلام، وإحباط الدعوة إلى الله - تعالى -، وتعمل على التشهير بالداعي إليه، وزعزعة الثقة فيه، والحط من قدره، وتعتمد إيذاؤه في أهله، ورميه في عرضه، وحربه في أكبر صحابته وفض المؤمنين من حوله؛ ولهذا فهو في حكم الله العادل، وميزانه الدقيق جرم جسيم، وإثم عظيم ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.

لقد كان الأولى بكم، والأصلح لكم، والأجدى عليكم أن تردوا السهم إلى نحر راميهِ، وأن تضيق صدوركم بالحديث في أمر يمس



مقدساتكم، وأن تجدوا حرجاً في الخوض في شيء يتناول بالتجريح نبيكم، وأن تمسكوا بزمam ألسنتكم عن ترديده، وتكمموا أفواهكم عن قوله، وتكفوا أسماعكم عن الإصغاء إليه، وتقولوا: إنه كيد موجه من أعداء الله ورسوله إلى الله ورسوله، فحرام على شفاهنا أن تنبس به، وعلى ألسنتنا أن يجري عليها.

فهلا أدركتم لأول وهلة حين طرق أسماعكم خبر الإفك أنه قول «مفتري»، وبهتان عظيم، وزور كبير، وقلتم: لا يجوز لنا بأية حال أن نتحدث بهذا الخبر، ونعوذ بالله - تعالى - من أن يفضح بيت نبيه - ﷺ - وأن يحط من قدره وينقص من كرامته، ويعرضه للخرى، وقد اصطفاه وأرسله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ١٥ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

يترفق الوحي الكريم بالمؤمنين مع شناعة الجرم الذي ارتكبهوه، وفضاعة الذنب الذي اقترفوه؛ فيستبدل التحذير بالعظة، والإنذار بالنصح، ويخاطب المؤمنين: يدعوكم الله - تعالى - إلى الانتفاع بالتجربة التي عانيتموها، ويرشدكم إلى الاعتبار بالأخطاء التي وقعت فيها، ويأمركم أن تَعُوا الدروس التي تمخضت عنها، ويحذركم أن يستخف حُلُومُكم السفهاء، وأن يعبث بأقداركم المنافقون، وأن تنساقوا وراء الذين يمكرون بكم، ويكيدون لدعوة ربكم، وأن تعودوا مرة أخرى للمساس بالشرف الطاهر، والعرض النقي؛ شرف محمد - ﷺ -، إن كان لكم حظ من الإيمان، فأرباب الإيمان ينفعهم التذكير، ويزجرهم التحذير؛ لأن أسماعهم مُصغية، وقلوبهم واعية.

﴿وَبَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وفي حديث الإفك جلا لكم الوحي الكريم الحق، ودفع الباطل، وأحاطكم علماً بخفايا التحركات العدوانية، ونوايا المنافقين الخبيثة،

ونبهكم إلى المكيدة المدبرة، وساق إليكم العظات البالغة، وبَيَّن لكم رسوله في حلمه وصبره واحتسابه، ولفت أنظاركم إلى ما كان يمليه حقه عليكم، ووضح الأحكام التي تصون الأعراض، وتحفظ الحرمات، وعلى هذا النحو نكشف لكم الحقائق ونوضح الآيات، ونبين الأحكام، ونسوق الأدلة، ونقدم البراهين. ﴿وَبَيَّنَ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾.

والله - تعالى - قد أحاط بكل شيء علماً؛ يعلم ما في السموات وما في الأرض، ويعلم ما تبدون وما تكتمون، وبحكمته البالغة يدبر شؤون ملكه، ويعالج أمور خلقه في دقة وإتقان، وقوة وإحكام. ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

انتشار الفاحشة في المجتمع المؤمن يسلبه الإيمان بما حرم الله - تعالى - من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ويقضي على استمساكه بالفضائل التي تصون وجوده، وتحمي حياته وفشوها فيه يمزق كيانه، ويدمر سعادته، ويبذر فيه بذرة الفساد الخبيثة، ويلحقه بعالم الحيوان الذي لاحظ له من الكرامة، ولا نصيب له من الطهارة، ولا رصيد له من العفة، ولا سهم له من الحياء، والذين يتحللون من آداب الحديث، ويطرحون ما فرضه الإسلام على الألسنة من القيود، ولا يلزمون أنفسهم القول السديد، والكلم الطيب الذي يرفعه الله - تعالى - إليه، ويقبله، ويعودون الجماعة المؤمنة الحديث عن الرذيلة، ورمي المحصنات الغافلات، ويدربونها على الإصغاء إلى الخنا، ويحولون نشاطها إلى الاشتغال بالمنكر، وينزعون من أنفس أفرادها النفور من الإثم، والإجفال من القبيح، ويحاولون إقناعهم بأن ممارسة الفاحشة شيء عادي، وأمر مألوف مأنوس، يزاوله الجميع بلا استحياء ولا تورع، ويغشاه الكل من غير فرق بين وضيع ورفيع، هؤلاء الذين يسلكون هذا الاتجاه يعملون على أن تسقط هيبة الفاحشة من النفوس؛ ليسهل



ارتكابها، وأن يزول خوف الله - تعالى - من القلوب، لتُعلن مجاهرته بالمعاصي، ومحاربته بالذنوب، ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وأن يُعيدوهم إلى سوءات الجاهلية ومفاسدها، وأن يهبطوا بهم إلى درك الحيوان، ويودون لهم العنت، ولا يألونهم خبالاً، .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .

لهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا بإقامة حد الله - تعالى - إن قذفوا أو زنوا، ولهم عذاب السعير في الآخرة إن ماتوا على غير التوبة .
﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ .

وإذا كان المنافقون يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا محبة تنعقد عليها قلوبهم، وتنطوي عليها صدورهم، وتسترها ضمائرهم، ولا يعلم عنها المؤمنون شيئاً، فإنها لا تخفى على الله - تعالى - الذي يعلم السر وأخفى، ويطلع على ما تموج به النفوس من الرغبات، وما يستقر في القلوب من النيات، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السموات ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

من الدروس المستفادة: ثانياً:

١ - تقرر الآية الكريمة أن منهج الإسلام في تربية أتباعه يعتبر محبة شيوع الفاحشة في المجتمع المؤمن مأثماً موجباً للعذاب الأليم في الدنيا والآخرة .

٢ - ويحرم هذا المنهج الحديث عن الفاحشة، ويراها خطوة أولى في الطريق الموصلة إليها، وينذر بالعقاب الذين يُصَرِّون عليه، وهو حين يحرم هذا الحديث يرسم أسلوب اتقائها، ويقطع الطريق على فعلها .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

لقد اقترفتُم الخطيئة العجيبة، واجترحتُم الذنب الكبير حين

اجترأتم على قذف أم المؤمنين، ورمي بيت النبوة الكريم، ولولا ما خصَّكم الله - تعالى - به من فضله، وما كتب لكم من رحمته، وما سبقت به مشيئته ألا يعذبكم وفيكم رسوله ما نجوتم من الهلاك، وما سلمتم من الانتقام، وهو - سبحانه - عظيم الرأفة بالذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، واسع الرحمة بالذين ينتهون عن معصيته، ويتوبون من مخالفته، ويسارعون إلى مرضاته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

إن الذين دبروا مكيدة الإفاك منافقون استحوذ عليهم الشيطان، وحبب إليهم الفساد، وزين لهم الكفر والفسوق والعصيان، وأضلهم ضلالاً بعيداً، فيا أيها المؤمنون الذي أخرجهم إيمانهم من الظلمات إلى النور، وأسلموا وجوههم لله رب العالمين، واستمسكوا بالعروة الوثقى، اعلموا أن الشيطان خصمكم العنيد، وعدوكم اللدود، وقد جاهركم بعداوته، وأعلن عليكم حربته، وحلف بعزة خالقه أن يصدكم عن الإيمان، ويبعدكم عن الحق، ويصرفكم عن الصراط المستقيم؛ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، وأقسم أن يغويكم أجمعين، وألا يدع سلاحاً من أسلحة الباطل إلا حاربكم به، وأن يأتيكم من قبل الآخرة مشككاً فيها، محرضاً على إنكارها، ومن قبل الدنيا مزيناً لشهواتها، مرغباً في طلبها، أمراً بحبها، ومن قبل الحق صاداً عنه، مخوفاً من الدعوة إليه، ملبساً له ثوب الباطل، ومن قبل الضلال مُحسِّناً إياه، حاثاً عليه. ﴿ثُمَّ لَا يَأْتِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَخَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، فلا تجعلوه وليكم من دون الله - تعالى -، فتكونوا من الكافرين ﴿يَتَّبِعِيْ ءَادَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰنَهُمَا إِنَّهُ



يَرْبِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوَاهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿[الأعراف: ٢٧]﴾، ولا تتخذوه رائدكم؛ تقتفون أثره، وتتبعون خطوه، وتسلكون طريقه، فإن طريقه مشؤوم ينتهي بسالكه في الدنيا إلى الخسران والبوار، ويفضي به في الآخرة إلى جهنم وبئس القرار، واحذروا أن تستجيبوا لوسوسته وإغوائه، وأن تطيعوا أمره؛ فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر، واذكروا أن حديث الإفك نموذج من الكيد الذي يكيده، وصورة من صور نشاطه المدمر، ورمز لمسعا الخبيث ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾،

ولولا ما نلتهم من فضل ربكم، وما أصابكم من رحمته ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، وما تعهدكم به من عنايته، وما أفاض عليكم من عفوه ومغفرته، وما أرادكم من قبول التوبة، وما قدرته حكمته من أن تذهب الحسنات السيئات، وما ردَّ عنكم من كيد الشيطان، وما أحبط من سعيه، وما كشف من مكره، لولا هذا ما طهرت نفس امرئ من دنس العصيان، ولا زكت من خطيئة البهتان.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾.

ولكن الله - تعالى - يطهر أرواح أوليائه بالإيمان، وقلوبهم باليقين، ونفوسهم بالطاعة، وعقولهم بالعلم والحكمة، وعملهم بالسداد والإخلاص، وأبدانهم بالمطعم الطيب والكسب الحلال، وحياتهم بالهدى والتوفيق ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾.

ومشيئة ربكم مبصرة؛ تميز الخبيث من الطيب، عادلة لا تظلم الناس شيئاً، فهو - سبحانه - يسمع كل حديث، ويعلم الباعث عليه، ويطلع على ما في القلوب من خير، فيوفق أصحابها إليه، ويظهرهم به، ويحيط علمه بما في الصدور من شر، فيقبض عن أصحابها رحمته،

وَيُمْسِكْ عَنْهُمْ فَضْلَهُ، وَيَحْرَمَهُمْ تَوْفِيقَهُ، وَلَا يَنْظُرْ إِلَيْهِمْ وَلَا يَزْكِيَهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

حين رمى الصديق - رضي الله تعالى عنه - في عرض ابنته وخزه الألم وخزاً شديداً وفاض به الحزن، حتى أثر عنه قوله: «والله ما رمينا بهذا في جاهلية، أفنرضى به في الإسلام؟»، ولما ضمد الوحي الكريم جراحه، ومسح الأسى عن فؤاده، ونزل ببراءة عائشة - رضي الله عنها -، وسَلِمَ لأبي بكر عرضه الذي لم يثلم في الجاهلية ولا في الإسلام حلف أن يقطع عطاءه عن ابن خالته المهاجر مسطح بن أثاثه الذي شهد بدرًا، وألا ينفعه بنافعة أبداً، عقاباً له على خوضه في الحديث المفترى مع الخائضين، فهبط الوحي الكريم على رسول الله - ﷺ - بهذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ...﴾.

وفيها ينهى الله - تعالى - أرباب البر والإحسان، وأصحاب البذل والمعروف من الموسرين الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم عن قطيعة ذوي الأرحام، وحرمان المساكين، وفقراء المهاجرين عطاءهم الذي أجروه عليهم، ورتبوه لهم، وألا يقابلوا الإساءة بمثليها، والذنب بالقطيعة، والخطأ بالانتقام؛ فقد كان الضالعون في الإفك أهلاً للعذاب العظيم، والانتقام الشديد، ولكن الله - تعالى - عفا عنهم، وعَفِرَ لهم، وهو - سبحانه - يحب لعباده أن يتجملوا بالحلم، ويتحلوا بالصفح والمغفرة، ويأخذوا بالعفو الذي أمر به رسوله - ﷺ - ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وأن يعاملوا إخوانهم بما يحبون أن يعاملهم الله - تعالى - به وأن تكون صفاته القدسية حبيبة إلى قلوبهم، أثيرة عندهم، يتخلقون بها، ولا يبغون عنها حولاً. وهو



- سبحانه - يغفر الزلات، ويقلل العثرات، ويتجاوز عن السيئات لمن غفروا لإخوانهم زلاتهم، وأقالوا للمؤمنين عثراتهم، وتجاوزوا عن إساءة المسيئين، وهو لا يضيع أجر المحسنين.

ولما نزلت هذه الآية الكريمة ما كاد يسمعها أبو بكر - رضي الله عنه - حتى قال: «بلى والله، إني لأحب أن يغفر الله - تعالى - لي، ثم حلف: والله لا أنزعها منه أبدا».

١ - وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن جريمة القذف لا تحبط الأعمال، ولا تبطل ثوابها، فقد وصفت بعض المشتركين في الإفك بالهجرة في سبيل الله - تعالى -.

٢ - ومنها يؤخذ الحكم الفقهي بأنه من حلف على شيء لا يفعله، ثم رأى أن فعله أفضل من تركه، فعليه أن يأتي الذي هو أفضل، وأن يكفر عن يمينه.

٣ - والآية الكريمة ترفع من منزلة أرباب الإحسان والبر، وتنعتهم بأنهم أولو الفضل وهو وصف يحمل أسمى معاني التشريف والتكريم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

إنما تصيب رحمة الله - تعالى -، وتمس مغفرته، ويستحق عفوه عباده الذين يتوبون من خطيئة رمي المحصنات، ويرجعون عن جريمة قذف المؤمنات العفيفات، ويرعوون عن الخوض في الأحاديث الفاجرة الداعرة، ولا يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين، ولكنها لا تصيب أرباب النوايا الحبيثة، ولا أصحاب الكيد الدنيء الذين يصرون على تشويه سمعة المؤمنات اللاتي يعشن في حصن منيع، وسياج رفيع من نظافة العقيدة، وطهارة السلوك، وفضيلة العفاف، وعصمة الحياء، وصيانة الزوجية، وينطلقن في الحياة على سجيتهن البريئة الغافلة عن

الخطيئة، الناسية الشر، وهن نقيات النفوس، زكيات السرائر من التفكير في الريبة، والانتباه إليها، فلا يراودهن خيالها، ولا يمر خاطرن شبها، ولا يخشين - لبراءتهن - رميات الرامين بها.

إن الذين يرمون بالفاحشة هؤلاء المحصنات المؤمنات الغافلات تحيق بهم لعنة الله - تعالى -، ويصيبهم الطرد من رحمته، ويتعرضون في الدنيا لعقابه الشديد، وخزيه الأليم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم في إيلاهم وإهانتهم يناسب الآلام العظيمة، والإهانات الجسيمة التي ألحقوها بالطاهرات العفيفات، وأرهقوا بها حياتهن، وأثقلوا بها كواهلهم.

التعبير: ﴿يَرْمُونَ﴾ يُجَسِّم جريمة الإفك، فيخلع عليها ثوب الرمي الحسِّي الذي يوجهه الرامي إلى الجسم، أو يصوبه إلى أحد مقاتله، وهو بهذا يلفت الانتباه إلى الأثر الذي يحدثه الافتراء باللسان عن طريق الالتفات إلى الأثر الذي يحدثه الرمي باليد.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وإذا كان هؤلاء الفسقة الذين يقذفون المحصنات الغافلات المؤمنات قد استغلوا ألسنتهم في الدنيا للتخرص بالباطل، وسخروا أفواههم للإفك والبهتان، وجندوا جوارحهم للبغي والعدوان فإن القادر الذي لا يعجزه شيء في الوجود سوف يسخرها للصدق حين ينفخ في الصور، فيخرج الناس من أجدانهم سراعاً، وينصبها عليهم شهوداً عدولاً، لا تعرف إلا الحق، وعندئذ تتحدث ألسنتهم بما افترت وتكلم أيديهم بما اعتدت، وتشهد أرجلهم بما كسبت، وتنطق أسماعهم وأبصارهم، وجلودهم بما كانوا يعملون، ﴿وَقَالُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢١، ٢٣].



﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

فإذا شهدت عليهم جوارحهم، ونطقت جلودهم بما كانوا يفعلون حاسبهم الله - تعالى - حساباً عسيراً، ووفاهم جزاءهم العادل ولم يظلمهم نقيراً، وحينئذ يفيقون من ظلمات الضلال التي لفتهم، ويصحون من السكر التي ألتهتهم، وتسقط عن أعينهم حجب الأوهام التي أعمتتهم، ويدركون الحقيقة التي غابت عنهم، ويقولون: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُتَوَلَّوْنَ قَدَ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، ويعلمون علم اليقين صحة ما جاءهم به الوحي، وصدق ما حدثهم به الرسول من أن الله - تعالى - هو الحق المبين، ولكنه علم لا يغني عنهم من العذاب شيئاً حين يستغيثون: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ أَخْشَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٨].

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

من عدل الله - تعالى - في نظامه الذي أقره في الفطرة، وركبه في النفس، وغرسه في الطبع، وأودعه في الروح أن يتحقق الائتلاف بين الأشباه، ويتم الائتنام بين النظائر، ويحدث الامتزاج، وفي الأثر: «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»، وقالوا: شبيه الشيء منجذب إليه؛ فالنساء ذوات النفوس الخبيثة اللاتي تكشف طباعهن السيئة، وسلوكهن المعيب عن معادنهن الرديئة، وعناصرهن الفاسدة، من المشركات الزانيات يتجانسن مع أمثالهن من الرجال الذين يكونون على شاكلتهن، والرجال المهيوئون للسلوك الفاجر، والانحراف الداعر ينجذبون نفسياً إلى شبيهاتهم من النساء اللاتي يتفقن معهم في المزاج والمزاج، ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾.

والنساء الخيرات ذوات المعادن الجيدة، والعناصر الكريمة،
والبيئة الصالحة، والنشأة الطيبة في حضن الإيمان والعفة يلتئمن مع
نظائرهن من الرجال الذين يحاكونهن في كرم العنصر، وطهارة المنبت،
وصحة الإيمان، وسلامة الفطرة، وذووا الإيمان والاستقامة من الرجال
يمتزجون باللاتي يَكُنَّ على غرارهم من الصالحات القانتات الحافظات
للغيب بما حفظ الله - تعالى - بهذه الحقيقة الواضحة جرت حكمة الله
- تعالى -، وسارت سنته في عالم الاجتماع، وما كان لأطهر
الخلق - ﷺ -، وأعفهم عفأً، وأزكاهم خلقاً أن تلتقي نفسه، ويتفق
مزاجه، وتختلط حياته الزوجية بغير مَنْ هُنَّ على شاكلته من العفيفات
الطاهرات المؤمنات القانتات الحافظات للغيب بما حفظ الله - تعالى -
﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

أولئك الطيبون والطيبات منزهون بفطرتهم، مبرؤون بطبيعتهم مما
يتقوله عليهم الطاعنون في الشرف، الخائضون في الأعراض، المفترون
على العفيفات البهتان، ولهم عند الله - تعالى - بما يصيبهم من إيذاء
وابتلاء، وما يلحقهم من ظلم وافتراء أن يتجاوز عن سيئاتهم، ويغفر
لهم خطاياهم، وأن يوفيهم أجورهم - جزاء ما صبروا - بغير حساب،
وأن يرزقهم رزقاً كريماً يدل على كرامتهم عند ربهم ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا
يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ثالثاً:

- ١ - حديث الإفك مثل من المؤامرات التي تحاك ضد الإسلام، وضد
رجالها الذين يجاهدون في سبيل إحقاق الحق، وإبطال الباطل،
فقد روجه المنافقون بغرض بليلة الخواطر، وزعزعة الثقة في بيت
النبوة الطاهر، والنيل من نفس الرسول - ﷺ - حتى تشغل عن
الدعوة إلى الله - تعالى - [الآية : ١١].



٢ - ينبغي للمؤمن أن يكون فطناً ذكياً، وفطنته سند لإيمانه وسلوكه السوي؛ فلا ينساق في رواية الأخبار التي يرددها المغرضون، والذين في قلوبهم مرض من المنافقين، وأن يقف من الأخبار التي يسمعاها موقف الفاحص ما تنطوي عليه من الحقائق، المفكر في بواعثها وعواقبها؛ ليعرف مدى ما فيها من الصدق والزيف، وبذلك لا يقع في الحرج مع سلامة صدره [الآية: ١١].

٣ - قد ينتج الشر ألواناً من الخير كما تنتج مرارة الدواء السلامة والعافية، والبر من العلل؛ وحادث الإفك على شناعته تمخض عن خير كثير أَراده الله - تعالى - للإسلام والمسلمين:

أ - فقد كشف عن عصابة المنافقين الذين يكيّدون للإسلام، وفضح بعض أساليبهم.

ب - جلّى الكثير من صفات النبي الكريم - ﷺ - في سناها الوضاء؛ فهو - ﷺ - مثال الحلم والصبر واللين.

ج - أظهر بعض الحقائق التي ينبغي للمؤمنين أن يعلموها، فالرسول - ﷺ - لا يعلم الغيب؛ لأن الغيب كله لله - تعالى -.

د - أوضح موقف أصحاب الورع من المؤمنين الذين كفوا ألسنتهم عن الخوض في الباطل، والاشتراك في الإفك [الآية: ١١].

٤ - من صفات المؤمن الثقة في أخيه المؤمن؛ فوصف الإيمان يجمع بين المؤمنين، والإيمان لا يثمر إلا خيراً، ومن الخير أن تكون الثقة متبادلة بين المؤمنين؛ فإذا سمع المؤمن ما لا يليق بأهل الإيمان أن يفعلوه رده انطلافاً من منطق الإيمان ورابطة الأخوة فيه [الآية: ١٢].

٥ - يربي الإسلام المؤمنين على أن يطهروا ألسنتهم من قالة السوء،

وَأَلَّا يَرُدُّدُوا الشَّائِعَاتِ دُونَ عِلْمٍ، وَأَنْ يَتَّصِدُوا لِمَرْجِي أَقْوَالِ
السُّوءِ بِالِاسْتِنْكَارِ؛ حَتَّى يَسْهَمُوا فِي إِغْلَاقِ الْأَبْوَابِ أَمَامِ الْاِفْتِرَاءَاتِ
الَّتِي تَسِيءُ إِلَى كِرَامَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَتُحْدِثُ الْفِتْنَ، وَتُفْسِدُ
فِي الْمَجْتَمَعِ [الآيتان: ١٥، ١٦].

٦ - من صفات المؤمنين أن يتعظوا بالأحداث، ويفيدوا من الأخطاء،
وينتفعوا بالتجارب، فإذا زلّوا فإنهم يحذرون أن تتكرر زلاتهم،
وأن يلدغوا من جحر مرتين. [الآية: ١٧].

٧ - الإسلام يقطع الطريق على شيوخ الفاحشة في المجتمع، وإلصاق
التهم بالمؤمنين؛ لأن ذلك من عوامل هدم المجتمع، وإثارة
الفتن، وزعزعة الثقة في البيوت، ومن أجل ذلك توعد من يشيع
الفاحشة في المؤمنين بالعذاب العظيم [الآية: ١٩].

٨ - يحذر الله - تعالى - المؤمنين من اتباع وسوسة الشيطان إليهم
بإقرار الإثم، وقد كان حديث الإفك نموذجاً لما يوسوس به
الشيطان إلى أوليائه، كما يدعوهم إلى التوبة إذا أزلهم الشيطان،
فوقعوا تحت إغرائه ودسوسته [الآية: ١٢].

٩ - رغب الله - تعالى - في مقابلة الإساءة بالصفح والعفو والإحسان،
وخاصة مع ذوي القربى والمساكين ومن لهم سابقة خير في
الإسلام، ووعد من يستجيب لداعي العفو والإحسان بالمغفرة
والرحمة [الآية: ٢٢].

١٠ - حذر الله - تعالى - المؤمنين تحذيراً شديداً من قذف العفيفات
البريات اللاتي يبعد عن مخيلتهن شبح الرذيلة، وتوعد الذين
يفعلون هذا بالطرد من رحمته، وصور لهم أن قذف المحصنات
باللسان كإصابة مقاتلهن بالأحجار، وفي هذا التصوير إيحاء بأن
تلويث الشرف والعرض كاغتصاب الحياة [الآية: ٢٣].



١١ - ينبه القرآن الكريم المؤمنين إلى حقيقة هامة معروفة في طبائع الناس، هي أن الشبيه منجذب إلى شبيهه؛ فالطيبات للطيبين، والخبيثات للخبيثين، وغير معقول أن يقترن الرسول - ﷺ - بزوجة يُشار خلقها بعيب أو ريبة، ومع تقرير هذه الحقيقة المألوفة يكون الدفاع عن عرض الرسول الكريم - ﷺ - من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى تفكير عميق، وإذا فردُّ الاتهام الكاذب لا يفتقر إلى تنبيه من خارج النفس، فالناس يعلمون أن الطيبات للطيبين. [الآية: ٢٦].

سُورَةُ النُّبُوِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ
 حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ
 لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا
 أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ
 لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
 فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾
 قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ
 ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ
 لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
 زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ
 وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ



ءَابَاءُ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءُ بُعُولَتِهِنَّ
 أَوْ إِخْوَانُ هُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءِيَهُنَّ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ أَوِ التَّبِيعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ
 الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ
 وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا
 إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾
 وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ
 يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
 وَلَيْسَتَعَفِيفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
 عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا
 تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ حَصْنًا لِلْبَنَاتِ اعْرِضُوا الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
 ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا
 مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿يُوتَا﴾	مساكن أعدت للميت بخلاف الفنادق والمحال العامة.
﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا﴾	إلا بعد أن تستأذنوا في أدب يؤنس أهل البيوت ويتألفهم، وتسلموا عليهم.
﴿ذَلِكَ غَيْرَ لَكُمْ﴾	الاستئذان والتسليم أنفع لكم، وأحفظ لحرمانكم، وأصون لعوراتكم.
﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾	لعلكم تذكرون حقوق إخوانكم فتحافظوا على أدائها.
﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾	الرجوع عند عدم الإذن أظهر سلوك لكم.
﴿بِمَا تَعْمَلُونَ عَلَيْهِ﴾	يعلم أعمال الجوارح، ويطلع على خفايا السرائر، وهو الرقيب.
﴿يَقْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾	يُحولوا أبصارهم، ويصرفوها عما حرم الله - تعالى - رؤيته.
﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾	ويعفوا عن الفاحشة.
﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ﴾	غض الأبصار، وحفظ الفروج أظهر للمشاعر، وأبعد للنفوس من الشهوات، وأصون للأعراض والحرمان.
﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾	ولا يظهرن ما يتحلين به من ألوان الزينة التي أباحها الإسلام لهن.
﴿مُخْمَرِينَ﴾	الخمار: غطاء الرأس والنحر والصدر من المرأة.
﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾	من الإماء لا من العبيد.
﴿غَيْرِ أَزْوَاجٍ إِلَّا زِينَةً﴾	غير أصحاب الرغبة في النساء من الطاعنين في السن من الصالحين.
﴿لِيُعَلِّمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾	ليكشف وسواس الحلي المستور منه، وينم عنه.
﴿الْأَيْمَنِ﴾	الذين لا زوجات لهم، واللاتي لا أزواج لهن.
﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾	والمؤمنين من الأرقاء والرقائق.



الكلمة	تفسيرها
﴿يَتَّبِعُونَ الْكُنُوبَ﴾	يطلبون إليكم أن تعتقوهم في مقابل قدر معلوم من المال.
﴿مَالِ اللَّهِ﴾	الزكاة.
﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيْنَكُمْ﴾	لا تجبروا إماءكم على الفاحشة.
﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾	إن أردن التعفف أو لم يردنه.

التأويل والبيان:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

سبب نزول الآية الكريمة:

روى الطبري وغيره عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد، فيأتي الأب فيدخل عليّ، وإنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا... الآية.

فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن، فأنزل الله - تعالى -: ﴿أَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾.

الإسلام منهج للتربية الكريمة الفاضلة، ودستور للسلوك السوي الأمثل، لهذا لا يكتفى بالحدود الزاجرة، والعقوبات التأديبية في القضاء على الجرائم، وتقويم الانحراف، ولكنه تكريماً للإنسان يجعل الحدود والعقوبات آخر المراحل في علاج العلل النفسية، وشفاء الأمراض الاجتماعية، ومحاربة الآفات الخلقية، ويرسم قبل العقوبات طرق الوقاية من الانحراف، ويضع وسائل الحماية من الجرائم، ويسد منافذ الغواية، ويقضي على بواغث الإثارة، وأسباب الفتنة، ويجعل دون المعصية منطقة أشبه ما تكون بالمنطقة الحرام التي يحظر الاقتراب منها. والآيات الكريمة التي تناولها هذا الدرس توضح هذا الاتجاه في



نهج التربية الإسلامية؛ فهي تحرم اجتياز عتبات البيوت إلا بعد إذن أربابها، وتأمّر كل مؤمن ومؤمنة أن يغض بصره، ويعف عن الفاحشة، وتفرض على النساء أن يخفين زينتهن إلا على أزواجهن أو محارمهن، وألا يضربن بأرجلهن في أثناء سيرهن، حتى لا تحدث خلاخلهن أصواتاً ملفتة للانتباه، مثيرة للمشاعر، وتدعو الآيات الكريمة إلى تيسير الزواج للعاجزين عن تكاليفه توفيراً للإحصان، وتأمّر الذين لا يجدون مخرجاً من الأزمات المادية أن يحصنوا بالعفة، وتحرم إكراه الرقيقات على ارتكاب الفاحشة.

والآية السابقة تنادي الذين اطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، واستجابوا لله ولرسوله لتحرم عليهم أن يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم إلا بعد أن يستأذنوا أهلها؛ لأن الله - تعالى - جعل البيوت ملاذاً للناس وسكناً: وحصناً لهم وأمناً، ومثوى للراحة، ومأوى للخلوة، وملجأ للسكينة والهدوء، وموطناً للتحرر من القيود التي تفرضها قواعد السلوك، وآداب الاجتماع، والتخلي عن كثير من التحفظات التي تملئها نظم الاختلاط، ومن هنا كان للبيوت احترام وحرّمات، ولأهلها حريات وعورات، أقرها الإسلام، وفرض على الذين يتأدّبون بأدابه أن يأخذوا بها، وأن ينتهوا عن اقتحام البيوت دون أن يتلفظوا في الاستئذان تليظاً يبعث أثره في أهلها، ويحدث فيهم روح الإيناس والاطمئنان، ويخلع عليهم جواً من الارتياح للزائرين، ويفتح صدورهم لاستقبالهم بأشّين مرحبين، ويترك لهم فرصة يهيئون فيها للقائهم، ويستعدون للإذن لهم حتى لا تخرجهم المفاجأة، وتضايقهم المباغته، ويؤذيهم انكشاف عورات الطعام، والملابس والأجسام، والأثاث والمنام؛ فقد يكونون في حال لا تسمح بزيارتهم، أو في أمر لا ينبغي أن يطلع عليه غيرهم، وربما كانوا غير راغبين في لقاء هؤلاء القادمين، وربما كان صاحب الإذن غير موجود، ومن هنا جرى العرف بالاتفاق على الزيارة، وتحديد موعدها، عن طريق الهاتف، أو أية وسيلة أخرى، وهو عرف سليم، ينبغي التزامه

والسير عليه، فإذا أذن أهل البيوت لزائريهم بالدخول بدؤوهم بالسلام، وألقوا عليهم تحية الإسلام، والاستئذان واجب على المؤمن في دخول كل بيت غير بيته، ولو كان البيت لمحرّم من محارمه؛ فعن عطاء بن يسار: أن رجلاً قال للنبي - ﷺ -: «أستأذن على أمي؟»، قال: «نعم»، قال: «إنها ليس لها خادم غيري، أفأستأذن عليها كلما دخلت؟»، قال: «أتحب أن تراها عريانة؟» قال: لا، قال: «فأستأذن عليها».

ويسقط الاستئذان في الضرورات الطارئة كأن يتعرض بيت لحريق، أو حادث آخر يستدعي الإسراع لنجدة أصحابه ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾.

ذلكم الأدب الإلهي الذي أدبكم به ربكم؛ أدب الاستئذان على البيوت، والتسليم على أهلها أنفع لكم، وأصلح لحالككم، وأحفظ لأسراركم، لأنه يحقق لكم الحرية، ويكفل صيانة الخلوة، ويستر العورة، ويقطع الطريق على النظرات المحرمة، والعلاقات الآثمة ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. عسى أن تتذكروا العمل بما فيه خيركم، فتصونوا الحرمات، وترعوا الكرامات، وتتقوا الشبهات، وتسدوا مسارب الشهوات، ومنافذ الشيطان؛ فتكونوا من المفلحين ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

١ - والإسلام لا يقر اختلاط الرجال الأجانب بالنساء داخل البيوت كما لا يقره خارجها؛ فهذا اللون من التزاور الذي يجمع الرجال والنساء في مجلس واحد لم يشرعه الإسلام؛ اتقاء لما ينجم عنه من المفساد، وسعياً وراء الحدّ من النظرات الجائعة، واللقاءات المثيرة، والعلاقات المريبة، ورغبة في الحيلولة دون وسوسات النفس، وإغراء الشيطان.

٢ - ومما حرمه الإسلام على الزائر أن يُسرّح طرفه في داخل البيت المفتوح قبل أن يؤذن له بدخوله، فإذا دخل البصر أثم صاحبه، وسقط الإذن، وفي الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال: «لو أن



امراً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك جناح»، وحكم السمع كحكم البصر، فالتجسس بالسمع كالتلصص بالبصر.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

فإن كانت البيوت خالية من أهلها بقيت لها حرمانها، ولم تسقط، ولم يحل دخولها من غير استئذان أهلها، فإن أذنوا بدخولها، وهم خارجها جاز دخولها عند غيبتهم، وخلوها منهم. ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ والاستئذان في دخول البيوت لا يعطي الزائر الحق في الحصول على الموافقة، ولا يلزم أهل البيوت إعطاء الإذن، ولا يحرم عليهم الزائر، ولا يسلبهم الحق في أن يأذنوا، أو لا يأذنوا، ولا يجردهم من الحرية في أن يوافقوا أو يرفضوا؛ فإن قالوا للمستأنسين: ارجعوا وجب عليهم أن يرجعوا من غير تلكؤ أو تباطؤ، ودون أن يجدوا في عدم الإذن غضاضة، أو يحسوا في أنفسهم منه مرارة، أو يعتقدوا أن فيه إهانة ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا﴾.

فالاستئذان في الدخول، والتسليم عند الإذن به، والرجوع عند عدم الإذن أظهر لسركم وعلايتكم، وأصلح لأعمالكم، وأنظف لعلاقاتكم، وأنمى لأجوركم وأزكى لكم من الدخول دون استئذان، ومن الانتظار والمرابطة ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ والله - تعالى - يعلم أعمالكم، ويراقب سلوككم، ويحصي حركاتكم وسكناتكم، ويطلع على خفايا صدوركم، ولا يخفي عليه ما يتحرك في نفوسكم من بواعث، وما يثور فيها من الانفعالات، وما يأسرها من الشهوات، وسوف يجزيكم بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

فأما الأماكن العامة التي يرتادها جميع الناس، والتي أعدت للاستقبال، وتقديم الخدمات؛ كالفنادق، وبيوت الضيافة المنفصلة عن المساكن فلا حرج في دخولها بغير استئذان دفعاً للحرج، ورفعاً للمشقة؛ ولأن الباعث على أدب الاستئذان غير موجود ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾. وليس المعول عليه تنفيذ هذه الإجراءات تنفيذاً ألياً، وأداء هذه الواجبات أداءً شكلياً، والقيام بهذه الآداب قياماً عادياً، وإنما المعول عليه أن تستشعر قلوبكم رقابة الله - تعالى - عليكم، وإطلاعه على سركم وعلايتكم، وانكشاف سائر أموركم له، كي تثمر هذه الأحكام ثمراتها، وتؤتي هذه الآداب آثارها، وتغرس في النفوس طاعة ربها، وتربي القلوب على مراقبة خالقها، وتعلم كل نفس أن الله - تعالى - محاسبها ومجازيها على ما تبدي من الأعمال، وما تكتُم من النيات، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

من الدروس المستفادة:

الإسلام يدعو إلى صيانة حرمة البيوت، وستر عورات أهلها، ويضع مبادئ خلقية - وأدباً اجتماعية؛ لضمان العفة بستر العورات عن فضول النظر والسمع؛ لأن ذلك يقطع الطريق على مباشرة الفاحشة، والوقوع فيها، ومن ذلك:

- ١ - أنه سنّ الاستئذان قبل الدخول إلى بيوت الآخرين، حتى لا يطلع الناس على عورات إخوانهم، وكيلا تتعرض حرمتهم للنظر الفاجر.
- ٢ - شرع الإسلام التحية عند القدوم والانصراف؛ لما تحمل من معاني المودة الكريمة والصفاء النفسي، ولما تتضمن من الدعاء بالخير.
- ٣ - منع الاختلاط بالأجانب، فليس في الاختلاط التزام بما أمر الله - تعالى - من غض البصر.



٤ - حرم على المؤمن عند زيارته أخاه المؤمن أن يسرح طرفه داخل البيت، أو يتلصص بسمعه، ففي هذا عدوان على الحرمات، وهجوم على العورات.

٥ - الاستئذان قبل الدخول لا يعطي صاحبه الحق في الدخول إذا لم يؤذن له، ولا يسلب رب البيت حقه في رفض الإذن، وعلى الزائر إذا لم يؤذن له أن ينصرف دون شعور بالإساءة.

٦ - الأماكن العامة؛ كال فنادق، والمؤسسات، والمنشآت التجارية لا حرج في دخولها دون استئذان؛ لأنها ليست أماكن خاصة يخشى فيها ما يخشى على البيوت من كشف العورات، وهتك الحرمات.

٧ - هذه القواعد الخلقية ينبغي أن تنفذ تنفيذاً واعياً باستشعار خشية الله، واستحضار أن هذه الآداب من وضعه وقانونه؛ فإذا نفذت تنفيذاً شكلياً لم تحقق أهدافها، ولم يكن لها ثبات واستقرار؛ إذ لا تنطبع بها النفس إلا في ظل الشعور بقداستها.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

إن الله - تعالى - لا يهب عباده النعم؛ ليتركهم حائرين في استخدامها، عاجزين عن الانتفاع بها، أو لتكون أداة لإفساد حياتهم، وإهدار وجودهم، وتدمير كيانهم، أو لبيدلوها كفراً، ويتخذوها وسيلة لحربه، ولكنه - عزَّ سلطانه - يسبغ عليهم نعمة ظاهرة وباطنة، ويرسم لهم أمثل الطرق للإفادة منها في معاشهم ومعادهم؛ فقد رزقهم البيوت، وجعلها مأوى لهم. ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠]، ووضع لهم النظام الذي يهيئها للأمن والسكنى، فمنع دخولها بغير إذنهم.

وأنشأ لهم الأبصار فيما أنشأ، وأمرهم أن يقلبوها في آفاق الوجود، ليرتادوا دلائل قدرته، وليروا شواهد وحدانيته ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وليعرفوا دقة صنعه، ويتبينوا إحكام خلقه، ويدركوا عظمة تدبيره؛ فيبصروا طريق الإيمان، ولا يضلوا سبيل الهدى، ولا تلفهم ظلمات الضلال. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ۝ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبَصَّرْهُ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٥ - ٨]، وليعلموا خلق صنعه من الخلل، وسلامتها من النقص، وبراءتها من العيب، ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، وقد أوصى الله - تعالى - نبيه أن يكون صمته فكراً، ونطقه ذكراً، ونظره عبرة، ويقص الله - تعالى - علينا في محكم التنزيل عاقبة الذين لم ينتفعوا بحواسهم؛ لنعتبر بمصيرهم، فيقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقد وضع الوحي الكريم اللبنة الأولى في بناء صرح الفضيلة، وخطا خطواته الرائدة في سبيل نظافة المجتمع وحمايته من الرذيلة عندما شرع أدب الاستئذان، فحذّر من أخطار المفاجأة، وكفّ أضرار المباغطة، وطهر إحساس المؤمن، ونمّى مشاعر الخير في نفسه، وحفظه من عوارض الفتنة، ووقاه أسباب الغواية، وفي إثر هذا انتقل إلى إغلاق باب آخر من أبواب الشر والفساد، فأمر المؤمنين أن يحولوا أبصارهم عن التطلع إلى مفاتن النساء الأجنبية، وأن يكفوا عن النظر إلى غير زوجاتهم ومحارمهم، وأن يغلقوا أعينهم عن النظرة الجائعة الظامئة التي تثير في النفس الشهوات الكامنة، وتهيج ما فيها من بواعث الشر الساكنة؛ فإن أكثر العيون خائنة، تغرم بالوجوه



الصُّباح، وتستهوئها القدود الملاح، وتجذبها الحركة المثيرة، وتفتنها المشية الخليعة - وتأسرها الزينة المتبرجة، وتصيدها اللحوم العارية، فتكب على النظر، وتطيل التحديق، وتعكف على استطلاع المحاسن، واجتلاء المفاتن، والرغبة بين الذكر والأنثى متبادلة، وميل كل منهما إلى الآخر أصيل في الفطرة، وقد هيا الإسلام لإشباع هذه الرغبة، وتغذية هذا الميل الجو النظيف، والوسيلة المشروعة؛ فهو لا يمت هذه الرغبة، ولا يكبت ذلك الميل، ولكنه يضع لهما النظام السليم، والأسلوب الكريم، ويحمي العلاقة بين النوعين من الفوضى، ويصونها من الإهدار. والحديث الشريف يصور النظرة المحمومة التي تتسم بالشراهة، وتنم عن الجوع الجنسي سهماً مَسْمُوماً من سهام إبليس - لعنه الله، فيقول: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس - لعنه الله - من تركها خوفاً من الله - عز وجل - رزقه إيماناً يجد حلاوته في قلبه»، كما يسميها زنا العينين، فيقول: «العينان تزنيان وزناهما النظر» وعن طريق النظرة الدنيئة الساقطة التي لا يكبح جماحها ينشأ الحديث المشترك، ويتم التعارف المريب، وتنشأ المداعبة الفاجرة، ويكون الاختلاط المحظور، والخروج على الأعراف الدينية والخلقية، وتذبح الفضيلة على مذبح التحلل والإباحية، وتهوى الرذيلة بآدمية الإنسان وكرامته في مكان سحيق.

وشهوة النظر المستديم لا تفضي بصاحبها إلى المجانة والفسوق فحسب، ولكنها تسلمه إلى اضطراب النفس، وسُعار الجنس، وشرود الفكر، وشتات العقل، واختلال الأعصاب.

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يُقلِّبها في أعين الغيد موقوف على الخطر
وأمر المؤمنين بالغض من أبصارهم لا يعني إغماض الطرف، وإغلاق العين، وإنما يعني تحويل البصر عما لا يحل النظر إليه، فإن

الله - تعالى - يقول: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، فوجود ﴿مِنْ﴾ يدلُّ على إرادة النظرات المحرمة.

- وفضول النظر إلى صور النساء ورسومهن يأخذ حكم النظر إلى أشخاصهن وذواتهن.

- وكما أنه لا يحل للمسلم أن ينظر إلى امرأة غير زوجته، ومحارمه فإنه لا يحل له أن ينظر إلى العورة المغلظة أو المخففة لواحد من الرجال، فقد روى مسلم وأحمد أن النبي - ﷺ - قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة».

والنظرة المفاجئة إلى الأمور المحظورة التي لا يتوفر فيها القصد إليها معفو عنها. ففي الحديث الشريف: «يا علي، لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة»^(١).

ويستثنى من النظرة المحرمة نظرة الخاطب إلى من يخطبها، فإنها مشروعة بقوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهَا﴾ وبما جاء في السنة الشريفة: «إذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر إليها إذا كان إنما ينظر إليها للخطبة»^(٢).

ويستثنى منها نظرة الطبيب إلى المرأة التي يعالجها، ومسّ موطن العلة إذا توقفت سلامة تشخيص الداء على ذلك.

والغض من البصر سلوك يأخذ به المؤمنون أنفسهم، ليتقوا ما فيها من نوازع الشر، وليغلقوا أول نافذة من نوافذ الخطيئة والإثم، وليتيسر لهم أن يحفظوا فروجهم إلا على حلائلهم ويفهم من قوله - تعالى -: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أمران: -

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) رواه أحمد.



أَوْ إِخْوَنَهُنَّ أَوْ بَنَىٰ إِخْوَنَهُنَّ أَوْ بَنَىٰ أَخَوَاتَهُنَّ أَوْ نِسَاءَهُنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ
أَوْ التَّيْبِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلَ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى
عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضُرُّنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُؤْبَأُ إِلَى اللَّهِ
جَمِيعًا إِنَّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٥٤﴾

أشارت الآية الكريمة السابقة إلى أن للرجال نظراتهم الآثمة التي
يجب أن يقلعوا عنها حتى لا تثير فيهم غريزة الحيوان، وتحرك عندهم
شهوة البهيم، وتهبط بحسّهم إلى درك العجماوات التي تنطلق فيها
الشهوة على طبيعتها، ولا تستطيع التحكم في غريزتها، ولا فرض
إرادتها على شهوتها، ولا تقوم حياتها على منهج ينظمها، ولا تدرك من
الأشياء إلا ما تراه أعينها.

وهذه الآية الكريمة تشير إلى أن للنساء نظراتهن المحرمة؛ وهي
التي تكون لغير بعولتهن أو محارمهن، فإن للرجال وسامتهم التي تفتن
الأنثى، وجمالهم الذي يأسر قلبها، وحسنهم الذي يسلبها شعورها،
ويطلق لسانها بالهتاف المفزع الذي هتفت به تلك المرأة اللاهية
العابثة.

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل من سبيل إلى نصر بن حجاج
هذا الهتاف الذي أزعج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما
سمعه، وجعله يرسل في طلب نصر بن حجاج، ويشخصه بين يديه،
وينظر إليه، فإذا هو أحسن الناس شعراً، وأصبحهم وجهاً، فيعطيه مالا،
ويرسله إلى البصرة ليشغل فيها بالتجارة، ويقول: «لا يسكن معي رجل
تهتف به العوانس في خدورهن».

والقرآن الكريم أصدق شاهد، وأبلغ دليل؛ فقد قص علينا ما سببه
الاختلاط الذي لا مجال فيه للاحتياط، ودوام النظر الذي لا سياج له
من الحذر، من فتنة امرأة العزيز بفتاها، ومراودته عن نفسه، وما كان
لها من ردّ على النسوة اللاتي لاكت ألسنتهن قصتها، وتناقلن فضيحتها،



وشهر بفعلتها تشهيراً ماكرأ، فقد أعدت لهن متكأ، وآت كل واحدة منهن سكيناً، وقالت: أخرج عليهن، فلما رأيته أكبرنه، وقطعن أيديهن، وقلن حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم.

لقد أفقدتهن النظرة الملتهمة شعورهن، وأثمرت تقطيع أيديهن، وجعلتهن يجردن الفتى من ثوب البشرية، ويخلعن عليه سَمَت الملائكة، حينما امتلأت نفوسهن إكبار الحسنة، وإعظاماً لجماله، وهكذا تقلب النظرة الجائعة حقائق الأشياء، وتنسى صاحبها ما يجب عليه أن يذكره، ولقد استأذن على رسول الله - ﷺ - عبد الله بن أم مكتوم، وعنده أم سلمة وميمونة - رضي الله عنهما -، فلما أذن له أمرهما بالحجاب، فقالت أم سلمة: يا رسول الله، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أعمياوان أنتما أولستما تبصرانه؟»^(١).

لكن الإسلام لا يحظر على النساء أن تقع أعينهن على الرجال، وأن ينظرن إليهم نظراً عادياً في الطرق والأسواق والبيوت عند الحاجة الماسة، وأن يشاهدنهم وهم يمارسون رياضتهم، ويقدمون لونا من ألعاب الفتوة، إذا لم يترتب على النظر إليهم إثم، وكانت ملابسهم غير مفسدة للجسم؛ فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - جعل ينظر إلى الأحباش، وهم يلعبون بحرابهم في المسجد يوم العيد، وعائشة - رضي الله عنها - تنظر إليهم من ورائه، وهو يسترها منهم حتى انصرفت ورجعت، وذلك سنة سبع من الهجرة.

وتقييد حرية البصر، وحصر نشاطه في دائرة الخير، وكفه عن أسباب الغواية، ومثيرات الفتنة يثمر العفة والصيانة، وينتج الحياء والإحصان، ويبقي المؤمنات مزالق الانحراف، ويحميهم من أن يجرفهن تيار الرذيلة، وأن يقعن فريسة للفساد، وضحية للجريمة، وهذا هو

(١) رواه الترمذي.

الترتيب الطبيعي الذي جعل الأمر بالغض من البصر يسبق الأمر بحفظ الفروج. ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَقْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ ولما كانت الأنثى شديدة الحرص على أن تبدو في مظهر جميل جذاب، وأن تحظى بانتباه الرجل، وتنال إعجابه حجب إليها أن تتزين بالملابس، وأن تتحلى بالمعادن الثمينة، والأحجار الكريمة، وأن تزيد في أنوثتها بالأصباغ والمساحيق، وقد أباح لها الإسلام من ألوان الزينة ما لم يبحه للرجل مسaire لفطرتها، وإبقاء لأنوثتها شريطة ألا تتخذ أداة للفتنة، ووسيلة إلى الغواية. وإظهاره لغير زوجها أو محارمها، ولهذا تضيف الآية الكريمة بعد الأمرين السابقين نهى المؤمنات عن محاولة اجتذاب الأنظار، ولفت الأبصار بتعرية ما يمكن ستره، وكشف ما يسهل تغطيته من الأساور، والقلائد، والخلاخل، والأقراط، ولا يخفى أن النهي عن إبداء هذه الزينة الكسبية المصنوعة يتناول مواضعها من المعاصم، والأعناق، والسيقان، والآذان، بل إن هذه المواضع أولى بالإخفاء؛ لأنها زينة خلقية يكمن فيها السحر والجمال، والأنوثة والجادبية.

ولا إثم عليهن في إظهار ما يكون في الأصابع من الخواتم، والأكف من الحناء، والعيون من الكحل إذا لم يكن في إظهارها إثارة لفضول النظر، وبث لبواعث الفتنة ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾. أما إذا ظن الإثارة منها فواجبهن الستر ولا تجوز إظهارها، تسكيناً لشهوات الحاضرين أو لإغراء المرجفين.

ومن الواجب على المؤمنات أن يطرحن أغطية رؤوسهن، ويسدلن على فتحات ثيابهن التي تلي أعناقهن، ليخفين أجسادهن، ونحوهن، وحليهن ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾.

وللنساء أن يبدین زینتهن لأزواجهن، لأنه يحل لهن أن يروا أجسامهن كلها، وأن يبدینها لسبعة من محارمهن، وأربعة آخرين من غيرهم.



أما المحارم فهم: آباؤهن، وآباء أزواجهن، وأبناؤهن، وأبناء أزواجهن، وإخوتهن، وأبناء إخوتهن، وأبناء أخواتهن.

وأما الأربعة الآخرون فهم:

١ - النساء المؤمنات الأمينات اللاتي يتورعن عن أن يصفن لأزواجهن ومحارمهن المفاتن التي يرينها من النساء، ويتأسين بما جاء في الصحيحين: «لا تبأشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه يراها».

٢ - ما ملكت أيمانهن من الإماء دون العبيد.

٣ - التابعون من الخدم والأعوان الذين انقطعت رغبتهم في النساء، وأمنت فتنتهن بهن، لكبر سنهم، واشتغالهم بصلاتهم.

٤ - الأطفال الذين لم يدخلوا مرحلة الإدراك والتمييز، ولا تشور مشاعرهم الجنسية عند رؤية جسم المرأة.

﴿وَلَا يَدِينُ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيْنَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَعَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْوَلَدِ الذِّيْكَ لَمْ يَبْظَهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾.

والخبير البصير - جل جلاله - يعلم أن من عباده أناساً خياليين يفتنهم رنين الحلى ويشير غريزتهم صليله، ويغويهم وسواسه؛ ولهذا ينهى المؤمنات عن التنزي في المشي واصطناع الحركة التي تضيع سر الزينة المستورة، وتنم عن الحلية المخبوءة، ويحرم عليهن أن يضربن الأرض بأقدامهن قاصدات أن تحدث خلاخلهن رنيناً يلفت الانتباه، ويجذب الغواة، ولا شك أن تحريك الأيدي؛ ليسمع صوت ما فيها من الأساور يأخذ حكم الضرب بالأرجل على الأرض ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يَدِينُ زِينَتَهُنَّ﴾.

وارجعوا جميعاً - أيها المؤمنون والمؤمنات - عن الإصرار على ارتكاب صفائر الذنوب، وتوبوا عن المعاصي كلها توبة ترفع أعمالكم إلى أبواب القبول، وتطهر نفوسكم من خواطر السوء ووسوسة الشيطان، وتزكيكم من السيئات التي أوقعكم فيها جهلكم، وتبدلها حسنات، فإن الله - تعالى - يحب التوابين، ويحب المتطهرين، ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ عسى أن تنالوا رضا الله - تعالى -، وتكونوا أهلاً لرحمته في الدنيا والآخرة، ويتحقق لكم الفلاح الذي تنشدونه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾. ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُم وَإِمَائِكُم إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْزِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

سبقت الإشارة إلى أن الإسلام قبل أن يسن قانون العقوبات، ويضع الحدود والكفارات أقام الحواجز والسدود في طريق الانحراف، وشرع وسائل الوقاية من الجرائم، ومن ذلك أنه:

أ - ربي النفوس والضمائر على فضيلة الإخلاص لله - تعالى - في الطاعة، والخوف منه ومراقبته.

ب - هدد الذين يطلقون ألسنتهم بقالة السوء، ولا يرفعون عن رمي المحصنات الغافلات، ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

ج - شرع أدب الاستئذان على البيوت، وحرم دخولها من غير إذن أهلها.

د - أوجب على المؤمنين والمؤمنات أن يغيضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم.

هـ - نهى المؤمنات عن إبداء زينتهن إلا لطائفة معينة لا تخشى عليها الفتنة.

ولما فرغت السورة الكريمة من تقرير هذه الآداب النفسية والاجتماعية انتقلت إلى وضع الحل العملي لمشكلة الانحراف، وبيان وسيلة الوقاية الفعلية منه؛ فدعت المهتمين بأمر المؤمنين إلى



إزالة جميع العراقيل من طريق الحياة الزوجية الطيبة؛ لأن الزواج هو الوسيلة المشروعة لاختلاط الذكر بالأنثى، والطريق النظيف لإشباع الميل الفطري في الإنسان، والإجراء السليم للحفاظ على بقاء النوع الإنساني، وأمرتهم أن يعملوا على تزويج الفقراء الذين بلغوا النكاح، وأن يمدوهم بالمال الذي يمكنهم من تأسيس الأسر، وبناء البيوت، وأن يسرعوا إلى إحصانهم بالزواج، حتى يحيوا حياة صالحة، وأن يبادروا إلى تزويج من يكون تحت أيديهم من الرقيق المسلمين والإماء المسلمات؛ ليتيسر لهؤلاء وأولئك السلوك العفيف الحلال.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُم وَإِمَائِكُم إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولا تخافوا الفقر، ولا تخشوا العيلة من إنكاح الفقراء؛ فإن الله - تعالى - واسع الفضل، كفيل بالرزق، لا تنفذ خزائنه، ولا ينقص ما عنده، وهو العليم بأساليب الوقاية من الفساد الخبير بطريق العلاج ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبُلُّغُونَ أَلْكَلَبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيْنَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبُلْغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أما المعسرون الذين تضيق قدرتهم المادية عن بلوغ مآربهم في الزواج، وتعجز مواردهم المالية عن تحمل نفقاته، والقيام بتكاليفه والتزاماته، وهم يرجون الفرج القريب، ويتنظرون العون من ولي الأمر، فعليهم أن يتحصنوا بالأدب النفسي، وأن يلودوا بحمى العفة، وأن يحتموا بسياج الفضيلة، حتى يرزقهم الله - تعالى - من فضله، ويمنّ عليهم بما يحقق بغيتهم في تكوين الأسرة، وبناء بيت الزوجية، ويجعل لهم بعد العسر يسرا.

﴿وَلَيْسَتَغْنِيَنَّ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

ولما كان أعداء الإسلام يسترقون أسرى المسلمين الذين يقعون في قبضتهم كان لزاماً على المسلمين أن يعاملوا أسراهم بالمثل؛ حتى لا يظفر أعداء الله - تعالى - بالحرية والأمن، والسلامة والعافية، ولا يظفر بها أولياؤه، ويحقيق بهم الخطر، ويلحقهم الخزي، ويرضون لأنفسهم الدنية؛ ولكي يحافظ الإسلام على كرامة الإنسان، ويحمي المستوى الخلقي الرفيع في الوسط المؤمن وضع منهجاً رائداً لتحرير الرقيق؛ ومن هذا المنهج نظام المكاتب، وهو أن يسترد الرقيق حريته بمقدار من المال يتعهد لسيده بأدائه، فإن رغب الرقيق في ذلك، وكان مسلماً، وعلم في سيده القدرة على الكسب من طريقه المشروع أبرم معه عقد المكاتب الذي يصبح بمقتضاه أهلاً لامتلاك كسبه، وفي هذه الحال ينبغي إعانته بدفع الزكاة إليه بعد أن صار مصرفاً من مصارفها ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾، والآية الكريمة تأمر الأغنياء أن يعطوا المكاتبين جزءاً من زكاة أموالهم مساعدة لهم على نيل حريتهم ﴿وَالَّذِينَ يَبْنُونَ الْكُتُبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾.

وكان الرجل في الجاهلية لا يلقي إنكاراً، ولا يجد حرجاً في جمع المال من طريق البغاء، فكان يرسل أمته للسفاح، ويفرض عليها جعلاً تدفعه له، وربما أعد لها ماخوراً تمارس فيه هذه الجريمة النكراء تحت سوط الإكراه؛ كما كان يصنع عبد الله بن أبي زعيم المنافقين، فقد كان عنده ست فتيات كان يكرههن على البغاء طمعاً في الثراء الخبيث، واستكثاراً من نسلهن الرقيق، وقد هدى الله - تعالى - واحدة من إماءه تدعى: معاذة إلى الإسلام، وأرادت التوبة، فلم يجبها إلى رغبتها، فشكته إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، فحمل شكواها إلى النبي - ﷺ -، فأمره أن يبقيا عنده، فصاح عبد الله بن أبي في الناس: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا؟ فنزل: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ...﴾ الآية.



وفيها ينهى الله - تعالى - المؤمنين عما درج عليه الجاهليون من إكراه إمائهم على البغاء، وإجبارهم على ممارسة هذه الجريمة النكراء، ويحرم عليهم تعريض فتياتهم الرقيقات للفاحشة سواء أردن العفة أم لم يردنها، وينص على تحريم هذا اللون من البغاء بصفة خاصة، ويندد بما وراء هذا الإكراه من طمع في الكسب الخبيث، وابتغاء عرض الدنيا من وجه خسيس ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ مُحْصَنًا لِّبَتْلَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .

ويرفق الوحي الكريم بهؤلاء العواني الأسيرات اللواتي سلبهن سادتهن الإرادة، وأكرههن مواليهن على الفاحشة، فيعفيهن من المسؤولية، ويعدهن أن يغفر الله - تعالى - لهن ما أجبرن عليه من الإثم، وأن يشملهن برحمته ﴿وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ عُفُوٌّ رَجِيمٌ﴾ .

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

تؤكد الآية الكريمة أربع خصائص لكلام الله - تعالى - :

أ - أنه كلام منزل من عند الله - تعالى - نزل به الروح الأمين على قلب عبده، ليكون من المنذرين به ومن المبشرين، وفي تأكيد إنزاله منه - سبحانه - رد على التكذيب العنيد الذي درج عليه المشركون، وواجهوا به تنزيل رب العالمين، ولم يكن لهم حظ سواه ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ، وإلى هذه الخاصية الإشارة بقوله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ .

ب - وأنه آيات ترشد إلى الهدى، وتدعو إلى الحق، وتبين الأحكام الشرعية بياناً لا يشوبه لبس ولا خفاء، وتوضح منهج الإسلام توضيحاً لا يتطرق إليه غموض ولا إبهام، وتضع النظام السليم، وتقرر السلوك القويم، وتعلم الأدب الرفيع وإلى هذه الخاصية الإشارة بقوله - تعالى - ﴿آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ .

ج - وأن الله - تعالى - الذي يقول الحق ضرب في تنزيله أمثلة حقيقية، ونماذج واقعية من حياة الأمم الخالية، وقص علينا أبناء الذين عتوا عن أمر ربهم، وعصوا رسله، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، وحكى ما كان من مصارعهم؛ لنعتبر بحالهم، ونتعظ بمآلهم، وإلى هذه الخاصة يشير قوله - تعالى - : ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ﴾ .

د - وأن الله - تعالى - جعل آياته تذكيراً للمؤمنين، وموعظة للذين يخشون ربهم بالغيب، ويحذرون غضبه، ويخافون عقابه، ويجعلون بينهم وبين معصيته حائلاً يقيهم سخطه، وينجيهم من عذابه، وإلى هذه الخاصة يشير قوله - تعالى - : ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .



سُورَةُ النُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ
 كَمِشْكَوَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ
 كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
 لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
 نُورُ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ
 لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ
 وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمَهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾
 رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
 الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾
 لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ

مَن يَشَاءُ يُغَيِّرِ حِسَابَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٍ
 بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
 وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ دُفُوفَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾
 أَوْ كُظِّلِمَتْ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ
 فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلِمَتْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ
 يَكْدِرْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾



التأويل والبيان:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الله - تعالى - مبعث كل نور حسي يغمر آفاق الكون، وينتشر في أرجاء الوجود، ويملاً أقطار السماوات والأرض، وهو - سبحانه - منبع كل نور معنوي تحمله الدلائل الشاخصة في الآفاق والأنفس؛ فيسري في قلوب المؤمنين، ويضيء جوانب أنفسهم، وتشرق به بصائرهم، أو يحمله جبريل - عليه السلام - وحيا إلى عباده، ونوراً يستبينون به طريق الهدى، ويرشدهم إلى طريق الحق والخير، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِلَّهِ اللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ٤٢]، أو يتمثل في خاتم رسله محمد - ﷺ - نوراً للحائرين، وهدى للضالين. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] وقد أدرك بعض العلماء أخيراً أن النور قوام هذا الوجود، ودعامة نظامه، وأساس بنائه، ولاحت لهم إحدى الآيات التي وعد رب العالمين في كتابه العزيز أن يكشف لهم عنها ﴿سَتُرِيهِمْ عَيْنِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، وذلك بعد أن وصل العلم المعاصر إلى حطم الذرة، وتحويل المادة إلى إشعاعات من نور.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وهذا النور المتفجر الغامر، الذي عمّ الدنيا بأسرها، وشمل العالم سناه الباهر، وبدد ظلام العدم وأشرقت به الظلمات، وعجزت عقول البشر عن إدراك آماده، والأفهام عن معرفة حدوده، والخيالات عن تصور أبعاده، والحواس عن الإحاطة به، هذا النور العظيم الذي لا يعلم مداه إلا خالقه - سبحانه - تقربه الآية الكريمة في صورة مصغرة، وتضرب له مثلاً يوضحه.

أ - فهو على وجه التقريب كمثل مصباح وُضع في كوة غير نافذة؛ كي تجمع نوره من التفرق والتبدد، وتحفظ ضيائه من التشتت والضياح ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْكُوْرٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

ب - وقد جعل هذا المصباح داخل زجاجة لا نظير لها في السّنا والشفافية؛ فهي شديدة التآلق والالتماع، يتلألأ نورها كما يتلألأ نور الكوكب الدرّي، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري.

ج - والشجرة التي يتخذ منها المصباح مادة وقوده من أشجار الزيتون التي يكثر خيرها، ويعظم نفعها، وهي مع ذلك فريدة في نوعها؛ فهي لا تنبت في شرق ولا غرب، ولا شمال ولا جنوب، ولا مكان لها على وجه الأرض، وإنما ضربت مثلاً لمجرد التقريب. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُّبْرَكٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾.

د - والزيت الذي يعتصر من الشجرة المباركة؛ ليتغذى منه المصباح له خاصية لا وجود لها في غيره؛ فهو في شدة صفائه، وكمال نقائه، وقوة بياضه يكاد النور يتفجر منه، ويوشك الضياء أن يفصل عنه دون إشعال.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.



هـ - وهو نور تتنوع مصادره، وتتعدد منابعه، ويجتمع فيه مع نور المصباح نور الزجاجاة التي تحكي الكوكب الدّريّ مع نور الزيت الذي يكاد يضيء، ولو لم تمسه نار.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

إنه النور الذي انجابت به الظلمات الحسية، والظلمات النفسية والعقلية، وأشرقت به السموات والأرض، وإنه النور الذي لاسبيل إلى إدراك حقيقته ولا وسيلة إلى الإحاطة به، وتصور مداه، ولكن القلوب السليمة دائماً مستعدة لاستقبال سناه؛ لتحيا به، ولتجد فيه هداها فلا تضل ولا تشقى.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

والله - تعالى - وحده يعلم مقدار عجز البشر عن إدراك آياته، ويعلم ضعفهم عن أن يقدروه حق قدره، ويعلم تطلعاتهم إلى استشفاف غيبه، وهو - سبحانه - خبير بضرب الأمثال، عليم بما لها من الآثار؛ ولهذا فهو يسوق لعباده في آياته أمثلة تدلهم على قدرته القاهرة، ورحمته الواسعة، وعلمه الذي أحصى كل شيء عدداً برهاناً على ألوهيته، وشاهداً على وجدانيته، حتى لا يضلوا سبيلهم إليه ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

من الدروس المستفادة:

١ - إشارة إلى شرف النور وأهميته جعله الله - تعالى - اسماً من أسمائه، وصفة من صفاته، وكمالاً من كمالاته، فما أسعد القلوب التي تتفتح لنور ربها، وتكون دائماً مستعدة لاستقباله، والسير على هداها.

٢ - يتفضل الله - تعالى - على عباده بضرب الأمثال، ويبين لهم قيمتها، ليتلقوها بالقبول، ويقابلوها بما تستحق من العناية والاهتمام، وليتأملوا دلالاتها، ويعرفوا أهدافها، وينتفعوا بما فيها من العظات.

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا لُئْلِهِمْ بَحْزٌ وَلَا بَعْجٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَاقَامُوا الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝﴾.

والذين هداهم الله - تعالى - لنوره، فآمنوا به، وصدقوا برسوله، واتبعوا النور الذي أنزل معه يستقبلون إسرافات هذا النور الدائمة، ويتلقون فيوضاته الغامرة في المساجد التي تستضيء القلوب فيها بنور الإيمان، وسنا التوحيد، وقبس الهداية، والتي أوجب الله - تعالى - تعظيمها، وتخصيصها لعبادته ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، وحث الإسلام على نظافتها وطهارتها، ورغب في عمارتها بالصلاة والقراءة، والاستغفار، وسن الاعتكاف فيها وأمر أن تكون أبنيتها عالية، وأماكنها مرتفعة، ليتناسب ارتفاعها الحسي مع طبيعة النور العلوي، ولتتهياً بهذا العلو والرفعة لأن يذكر فيها أرفع الأسماء اسم الله - تعالى - ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ۝﴾.

وإلى هذه البيوت تهوي أفئدة المؤمنين الصادقين، وفيها مجتمع أصحاب النفوس الوضيئة، والبصائر المستنيرة، الذين لا تغفل قلوبهم لحظة عن استشعار عظمة خالقهم، واستحضار جلاله، ولا تفتقر ألسنتهم عن حمده، ولا تصرفهم مطالب حياتهم عن تسبيحه، ولا تشغلهم أموالهم وأولادهم عن الوقوف بين يديه ومناجاته، ولا يبلخون بما آتاهم الله - تعالى - من فضله، ولا يحملهم حب المال على منع زكاته ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا لُئْلِهِمْ بَحْزٌ وَلَا بَعْجٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَاقَامُوا الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ ۝﴾.



ومن صفات هؤلاء المسبحين في الصباح والمساء أنهم يخافون يوماً كان شره مستطيراً، وبلاؤه كبيراً، يوماً عبوساً قمططيراً، شديد الهول والطول، لا تستقر القلوب فيه على حال من الهلع، ولا تسكن الأبصار من شدة الفزع.

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

من الدروس المستفادة:

- ١ - الحديث عن المساجد عقب التمثيل للنور الذي عم الوجود سنّاه يتضمن الإشارة إلى أن المساجد أشبه ما تكون بالمشكاة، وأن قلوب المؤمنين المشرقة بالتوحيد تحكي المصباح.
 - ٢ - ينبه الوحي الكريم إلى أن المساجد محط النور الذي يفيض على الأرواح، ومنطلق إشراقات الهدى، وأنها بيوت الله - تعالى - في الأرض، ومن هنا تدعو المؤمنين إلى أن يعمروها بذكر الله - تعالى -، ويجعلوها مهوى أفئدتهم، ويهتموا بها تشييداً وإعلاء.
 - ٣ - وبهذا التنبيه يرشد الوحي الكريم إلى أهمية رسالة المسجد، وعظيم أثره في إصلاح حياة الناس من جميع جوانبها، كما يرشدنا إلى دور الدين في قيادة ركب الحضارة.
 - ٤ - يفهم من الآية الكريمة أن التجارة وهي من المعاملات التي أحلها الله - تعالى - لعباده إذا ألهمت عن ذكر الله - تعالى - كانت مائماً، وكذلك كل شيء من أمور الدنيا يشغل الناس عن أداء حق ربهم.
- ﴿لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وإذا كان هؤلاء الرجال الذين لا تشغلهم أعراض دنياهم عن ذكر

ربهم، وعمارة بيوته يخشون حسابها، ويحذرون عذابه، ويخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، فإنهم مع هذا الخوف يرجون رحمته، ويطمعون في مغفرته، وينتظرون عفوهم عن سيئاتهم، ويأملون أن يتقبل منهم أحسن ما عملوا، ويتطلعون إلى أن يجزل ثوابهم عليه، ويضاعف أجورهم أضعاف كثيرة، ويزيد في عطائهم فضلاً منه وكرماً ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾.

وأملهم في فضل ربهم لن يخيب، ورجاؤهم منه لن يضيع؛ فإن له - سبحانه - خزائن السموات والأرض، وهو يرزق من اقتضت حكمته أن يرزقه بغير حساب، وأن يعطي من يشاء بغير حد ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَمَرِجٍ يَّفِيعَةٍ يَّحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَقَّعَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ، سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّر يَحْمِلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

الذين كفروا زينت لهم الحياة الدنيا بكل ما فيها من باطل وضلال، وزين لهم سوء أعمالهم فأراه حسناً، وزين لهم أن يسخروا من الذين آمنوا؛ وبهذا التزيين ختم الله - تعالى - على قلوبهم، فاستحال عليها أن تستقبل نور الهدى، وختم على سمعهم، فصاروا كمن لا يسمع إلا دعاء ونداء، وجعل على أبصارهم غشاوة، فعميت عن رؤية كل آية.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا



مُعْرِضُونَ ﴿يوسف: ١٠٥﴾، وهكذا كان استدراجهم في الدنيا إلى الضلال ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

أما استدراجهم في الآخرة إلى العذاب فإن أعمالهم الصالحة؛ من برّ الوالدين، ونهوض بتربية أولادهم، وصلة أقاربهم، وإحسان إلى الفقراء، وكدّ في سبيل الرزق، وبذل وتضحية في سبيل الوطن؛ هذه الأعمال وما شاكلها من أعمال الخير في الظاهر والتي لم تنبعث من عقيدة الإيمان تصير هباءً منثوراً، وتتمثل لهم يوم القيامة على مدّ البصر سراباً في أرض عراء مستوية يلمع لمعان الماء، ويتراءى رقراقاً كما تترأى صفحة النهر، وقد بلغ بهم الظمّ انتهاه، فيظنون ماء، ويندفعون إليه طامعين أن ينقضوا غُلَّتْهم، ويُطفئوا أوار ظمئهم، فإذا وصلوا إليه وقعت المفاجأة المذهلة التي لم تخطر على بالهم، ولم تكن في حسابهم، ووجدوا جزاء أعمالهم حاضراً فوقاهم الله - تعالى - حسابهم في أسرع وقت على أعمالهم التي كانوا يعولون عليها، ويعدّونها سفينة النجاة، وقد صارت سراباً خادعاً.

أما ظلام الكفر الذي سلخوا فيه أعمارهم، وقضوا حياتهم فيتحول في الآخرة ظلاماً حقيقياً، يرخي عليهم أستاره، ويسدل عليهم حجبه الكثيفة، وتطبق عليهم غياهبه، ويحيط بهم من كل جانب؛ كأنهم منه في خضم زاهر بالظلمات، تتراكم فوقهم أمواج كثيفة منها، وتعلوها أمواج أخرى كثيفة، ومن فوق هاتيك الأمواج سحب حالك؛ وبهذا تطبق عليهم ظلمات عدة، يجتمع بعضها فوق بعض، حتى إن أحدهم إذا جعل يده أمام عينيه استحال عليه أن يراها، وهذه الظلمات التي تشير إليها الآية الكريمة توحى بتعدد ألوان الضلال التي عاشوا فيها في الدنيا؛ ما بين زيغ في العقيدة، وانحراف في التفكير، وضلال في السعي.

ومن لم يعتصم بحبل الله - تعالى -، ويستقم على هدى كتابه،
وسنة رسوله أسلمه ربه لهواه، وتركه يهيم على وجهه في دياجير
الظلمات، يتخبط في عشواء الكفر وظلام الجهل، وعمى البصيرة،
وعباداة الشهوات، وأضلّ مسعاها، ولم يكن له هادياً يهديه من بعد الله
- تعالى - ﴿وَمَنْ لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾.



سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ
 كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي
 سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
 خِلَالِهِ، وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ
 وَيَصْرِفُهُ، عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سُنْبُرُ قَهْ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٣﴾
 يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾
 وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ
 يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ
 وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿أَلَمْ تَرَ﴾	علمت علماً راسخاً يستوي في رسوخه بالعلم الناشئ عن الرؤية البصرية.
﴿يَسْجُدْ لَهُ﴾	يصلي له، ويعظمه، وينزهه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.
﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾	من الأفلاك والأملأك.
﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	من الإنس والجان، والجماد والحيوان.
﴿وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ﴾	والطير مصطفات الأجنحة والأرجل.
﴿يُزْجَىٰ سَحَابًا﴾	يسوقه، ويوليه حيث يشاء.
﴿ثُمَّ يُؤَفَّفُ بَيْنَهُمْ﴾	ثم يكتفه، ويصل بعضه ببعض.
﴿رُكَّامًا﴾	مجتمعاً في طبقات متراكبة.
﴿الْوَدَقِ﴾	البرق والقطر.
﴿وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾	وينزل من السحاب.
﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾	بعض جبال، برد فيها.
﴿سَنًا بَرْدِيَّةً﴾	لمعان ضوئه.
﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾	يسلب العيون قدرتها على الرؤية.
﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾	يجعلهما يتعاقبان، ويخلف أحدهما الآخر، ويتعاوران الزيادة والنقصان.
﴿لَا بُرَّةَ إِلَّا لِلَّذِينَ الْأَبْصَرِ﴾	لعظة ترشد أصحاب البصائر إلى أن الأمر كله لله - تعالى -.
﴿كُلٌّ دَابَّةٌ﴾	كل كائن متحرك على وجه الأرض من العقلاء وغيرهم.
﴿مِنْ مَّاءٍ﴾	الماء عنصر أساسي في خلقه.
﴿أَيَّاتٍ مُبِينَاتٍ﴾	أحاديث تبين الحق، وتسِّن الأحكام، وتوضح الحلال والحرام.



التأويل والبيان:

﴿أَلَمْ نَرِ أَنْ اللَّهَ يُمْسِكُ لَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

من فضل الله - تعالى - على عباده، وسابغ رحمته بهم أن القرآن الكريم يوقظهم من غفلتهم، ويلفت انتباههم في كثير من آياته إلى أن كل الكائنات في هذا الوجود خاضع لخالقه طوعاً أو كرهاً، وهذه إحدى الآيات التي تمثل هذا الاتجاه، وهي تقرر: علمت - يا محمد - علماً لا يرقى إليه شك؛ لأنه بمنزلة العلم الناجم عن المشاهدة بالعين، وعلم كل من آمن بك واتبعك أن الله - تعالى - يسبح بحمده، ويهتف بمجده، ويشيد بجلاله، ويقر بعظمة صنعه، ودقة إبداعه جميع خلقه؛ سواء منهم من يستقر في الملاء الأعلى من الأملاك والأفلاك، ومن يوجد على الأرض؛ من الإنس والجان، والشجر والدواب، حتى إن الطير لتصف أرجلها وأجنحتها، وهي محلقة في الجو في هيئة توحى بقدرة الخلاق العظيم، وتلهم اللسان التسبيح. ﴿أَلَمْ نَرِ أَنْ اللَّهَ يُمْسِكُ لَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ﴾. وأن كل شيء في هذا الوجود يعبده، ويصلي له بطريقته التي يعرفها، ويسبح بحمده بالأسلوب الذي هداه الله - تعالى - إليه، وسخره له، ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ﴾.

وهو - سبحانه - العليم بما يصدر عن العوالم جمعاء من الحمد والثناء، والعبادة والتسبيح، والمحيط علمه بما يفعل خلقه، وما يكسب عباده. ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي

الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ [يونس: ٦١]. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

من الدروس المستفادة:

١ - إذا كان المؤمنون يسبحون بحمد ربهم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فساحة التسبيح بعظمة الله - تعالى - أوسع من الأماكن الخاصة بالعبادة؛ إنها الكون الواسع، فكل من في السموات من خلق، ومن في الأرض من عوالم متباينة يسبح بحمد مولده، وهو - سبحانه - يعلم صلاته وعبادته، وقد كان رسول الله - ﷺ - إذا مشى سمع تسبيح الحصى تحت قدميه، وكان داود - عليه السلام - يرتل مزاميره، فتؤوب الجبال معه والطير.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَہُ الْحَدِيدُ﴾ [سبأ: ١٠].

٢ - الإخبار بأن الله - تعالى - عليم بما تفعله الخلائق يتضمن إعلام المكلفين بأنهم محاسبون على ما يعملون، مجزيون بما يكسبون. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

والمخلوقات كلها في قبضة رب العزة - سبحانه - خاضعة لسلطان قهره، وهو وحده المتصرف في شؤون ملكه بما شاءت حكمته، واقتضت إرادته بلا شريك، وإليه ترجع الخلائق بالبعث، وتقف بين يديه في فصل القضاء، ويومئذ ينبتهم بما عملوا، ويجزيهم بما كانوا يفعلون.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَرٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾.

يهيب الوحي الكريم بالعقل البشري أن ينشط من عقاله، وبالفطرة الجامدة أن تنفض عنها ركام الجمود، وبالنفس اللاهية أن تفيق من



سكرتها، وبالقلب الغافل أن يطرح عنه حجب الغفلة، فيُقدم للإنسان شاهداً على ما ذكرته الآية السابقة من أن ملك السموات والأرض لله - تعالى - وحده، يتصرف فيه قدرته بما يشاء، وهذا الشاهد يتجلى للرائي في السحاب المسخر بين السماء والأرض؛ الذي ينشئه الله - تعالى - من الأبخرة التي تتصاعد إلى طبقات الجو العليا بفعل الحرارة، وتتجمع، ويتراكم بعضها على بعض، ويسطه - سبحانه - في السماء كيف يشاء، ثم تسوقه الرياح سوقاً بصيراً، وتزجيه يد الرحمة إلى الأرض الهامدة؛ ليسكب عليها ماء، ويغيث ثراها الصادي، وينشر في تربتها الخصب، ويبعث في مواتها الحياة، وتخرج بإذن ربها خضرا، وتنبت حباً متراكبا، وتطلع ثمرات مختلفا ألوانها.

فإذا أراد الله - تعالى - بقوم سوءاً، وقدر أن يصيبهم ببعض ذنوبهم هاجت الرياح ملبية إرادته، وثارَت العواصف ممثلة مشيئته، فاصطدمت جبال السحب بعضها ببعض، وتساقطت ثلوجها خبات متناثرة من البرد، تقتل النبات، وتفتك بالزرع، وتصيب الثمار بالآفات، وتهلك الحُرث والنسل.

ويكشف الله - تعالى - السوء عمن يشاء من عباده بفضلِهِ ورحمته، ويصرف عنهم البلاء، فلا يتلف زرعهم، ولا يهلك ضرعهم ﴿وَيَصْرِفُهُمْ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ وعلى إثر ارتطام السحب بعضها ببعض تحدث فيها عمليات تفريغ للشحنات الكهربائية، وتنطلق منها أشعة ضوئية شديدة البريق تخطف الأبصار وتوشك أن تذهب بقدرتها على الإبصار. ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾.

من الدروس المستفادة:

هذه الآية الكريمة تلفت انتباه العقول البشرية إلى آية كونية تحمل في طياتها عدة مظاهر، كل مظهر منها يمثل آية مستقلة، ومعجزة قائمة بذاتها:

- فإزجاء السحاب، وسوقه إلى وجهته، وتسييره إلى غاية آية ناطقة بالقدرة.
- وتكثيف الأبخرة، وتحويلها إلى قطرات مائية، ملتئمة الشمل غير متناثرة آية أخرى.
- وجعل السحاب طبقات متراكبة، يعلو بعضها بعضاً آية ثالثة.
- ونزوله على هيئة حبات من البرد لإهلاك حرث قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وأسرفوا عليها بالإثم آية رابعة.
- وإغائته الأرض المجدبة، واهتزازها به، وتُموّ زرعها وثمرها آية خامسة.
- وحدث ظاهرة البرق الذي يخطف الأبصار آية سادسة.

فكيف يخفى الحق، ويغيب الهدى، ويخبو نور الإيمان في كون زاهر بالآيات حافل بالمعجزات، ناطق بقدرة الواحد القهار، وصدق الله العظيم: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾؟.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

وبقدرته - سبحانه - تسبح الأرض في فلكها، وتدور دورتها اليومية أمام الشمس في نظام ثابت لا يختل، تنشأ عنه ظاهرة الليل والنهار، وتعاقب النور والظلام، وانتظام مسيرتهما، وتعاورهما الطول والقصر، ولا تقف معجزة تقلب الليل والنهار عند هذا الحد الملموس المشاهد، بل إنها تمضي إلى أبعد من هذا حيث تتدخل في توزيع النبات على سطح الأرض، فإن توزيعه يتم تبعاً لتوزيع النور والظلام، والحرارة والبرودة، والجفاف والرطوبة على وجه المعمورة، وقد أثبت العلم المعاصر أن انتظام مسيرة الليل والنهار، واختلافهما طولاً وقصراً هو العامل الأساسي في توزيع النبات على وجه البسيطة، فإن لكل نبات



زهرة، والزهرة تتكون في الظلام لا في النور، وكل زهرة تحتاج إلى فترة معينة من الظلام حتى تطلع؛ فإذا نقلنا نباتاً يحتاج إلى اثنتي عشرة ساعة من الظلمة ليزهر، وغرسناه في جهة لا يتجاوز ليلاً عشر ساعات، فإنه قد ينبت، ولكنه لا يزهر، ومن ثم لا يصل إلى الإثمار.

وبالإضافة إلى هذا، فإن عملية: «التمثيل الضوئي» التي تحول (طاقة) الشمس إلى مادة إنما تحدث نهاراً، فتبارك الله رب العالمين ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وأنه لا ينتفع بهذه المعجزة القائمة، ولا يفيد من تلك الآيات الدائمة إلا الذين ينظرون إلى ما خلق الله - تعالى - بعين البصيرة والاعتبار، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ولا يكونون من الذين يمرون على آيات الله - تعالى - وهم عنها معرضون ﴿وَلِإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، وهؤلاء الغافلون هم الذين لم يكن صمتهم فكراً، ولا نظرهم عبرة، ولا منطقهم ذكراً. ﴿لَا تَكُن فِي ذَلِكَ لَئِبَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومعجزة نشأة الحياة من أصل واحد، هو الماء أعظم المعجزات الجديرة بالفهم والتأمل بعد معجزة خلق الوجود من العدم. ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١]؟

والقرآن الكريم ما يفتأ يذكر بهاتين المعجزتين، ويلفت النظر إليهما المرة تلو المرة؛ لما لهما من أهمية بالغة في إيقاظ الوجدان، ومطاردة الغفلة والنسيان، وهداية الإنسان ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَآتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

فالله - تعالى - هو الذي أوجد الحياة على جميع مستوياتها، واختلاف درجاتها، وتعدد صورها من أصل واحد هو الماء، وهذا

الإيجاد آية الآيات على أنه - سبحانه - واحد بلا شريك، وأنه رب العالمين، وأن المساواة بينه وبين من لا يستطيع خلقاً باطلاً. ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ﴾. وهذه الكائنات التي برأها الله - تعالى - من حقيقة مائية واحدة يختلف شكل كل منها، وتنوع خصائصه؛ فمنها:

أ - ما ينتقل من مكان إلى آخر، ويتحرك على الأرض زحفاً على بطنه كالحيات والديدان.

ب - وما يسعى على قدمين، ويمشي على رجلين، كالإنسان والطير.

ج - وما يسير على أربع أرجل؛ كالأنعام، وبقية أنواع الحيوان بل إن الحياة في الحيوان الواحد لتتعدد صورها، وتختلف أهميتها؛ فحياة القلب والرأس أرقى من حياة الأطراف، وحياة الأطراف أهم من حياة الشعر والأظافر، وللمخلوق الحي يضم كيانه مجموعة من الأجهزة التي يختلف كل منها عن الآخر في طبيعته ووظيفته؛ كالحواس، وأجهزة التنفس، والهضم، والتناسل، وكل منها يسجل معجزة باهرة ناطقة بقدرة الصانع المختار، فإن هذا التنوع لم يأت عفواً، وهذا الاختلاف لم يحدث مصادفة، ولكنه نشأ عن إرادة مدبرة، وحكمة مبصرة، وقدرة مهيمنة، فالله - تعالى - يوجد ما يريد إيجاده، ويخلق ما يشاء خلقه، بلا سلطان على إرادته، ولا قيد على مشيئته، وهو على ما يشاء قدير.

﴿فَمَنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ويعود السياق ليقرر أن ما نزل في هذه السورة الكريمة إنما هو آيات تبين منهج الله - تعالى - الذي وضعه لأوليائه، وتوضح الآداب



التي شرعها للمؤمنين من عباده، وتهدي من اتبعها لأقوم السلوك، وأرشد الأخلاق، وأعدل الأحكام. والله - تعالى - يعلم ما تنطوي عليه صدور الخلق من خير أو شر، وما يتحرك في نفوسهم من بواعث الإصلاح أو الإفساد، وهو يهدي إلى نوره العظيم، ودينه القويم، وصراطه المستقيم من ترى مشيئته أنه أهل للهداية، ومن يعلم أن في قلبه خيراً.

سُورَةُ النُّبُؤِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
 لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ
 يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٥٩﴾ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ
 أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾
 إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
 أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ
 يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ
 ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ
 لَا تَقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ يَمَاتَعُمُونَ ﴿٥٣﴾



قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَمَا عَلَيَّ مَا حُمِّلَ
 وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
 إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ
 وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
 شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
 تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
 وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿يَتَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ﴾	يرجع جماعة منهم عن الإيمان، ويعرضون عن الطاعة.
﴿لِيَعْلَمَ بَيْنَهُمْ﴾	ليفصل فيما حدث بينهم من خصومة، ويفض الخلاف فيهم.
﴿مُضْرِبُونَ﴾	رافضون، منصرفون.
﴿مُذْعِبِينَ﴾	طائعين ممثلين.
﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾	ما في قلوبهم إلا النفاق والتكذيب، والاستفهام للتقرير والتبويخ.
﴿أَرَأَيْتُمْ أَتَابُوا﴾	بل حدث لهم شك في صدق النبوة، وصحة الرسالة.
﴿أَن يَصِفَ﴾	أن يظلم ويجور.
﴿الظَّالِمُونَ﴾	الكافرون الجاحدون.
﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾	إلى كتاب الله - تعالى -، وحكم رسوله - ﷺ -.
﴿وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقَهُ﴾	ويخف عذاب الله - تعالى -، ويحذر غضبه.
﴿الْفَائِزُونَ﴾	الذين ينجون من عذاب النار، ويفوزون بنعيم الجنة.
﴿جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾	كل ما في طاقتهم، وقدر استطاعتهم.
﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾	لئن طلبت إليهم الخروج للجهاد ليجيبن طلبك.
﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾	طاعتكم بالقول وحده، فهي واضحة لا تخفى.
﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾	أخلصوا في إيمانكم، وأصدقوا في طاعتكم، ولا تنافقوا.
﴿مَاحِلٌ﴾	ما كلف من التبليغ.
﴿مَاحِلَتُهُ﴾	ما كلفتم من الانقياد والامثال.
﴿لَيْسَتُنْظِفُهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾	ليثبتن حكمهم فيها، وليجعلنهم قاداتها وساداتها.



الكلمة	تفسيرها
﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ﴾	ول يظهرن الإسلام على غيره من الأديان .
﴿مُعْجِزِينَ﴾	مفلتين من العقاب ، ناجين .

التأويل والبيان

﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

تحدثت السورة الكريمة في صدرها عن عصابة المنافقين الذين جاءوا بالإفك، وها هي ذي تعود إلى الحديث عنهم؛ لتدفع باطلهم، وتبرهن على نفاقهم بظاهرة سلوكية تحدث منهم؛ فهم يعلنون الإيمان والطاعة، ويقولون بالسنتهم: آمنا بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وصدقنا أن ما جاءنا به هو الحق من ربنا، وأعطيناه عهدنا وموathيقنا على السمع والطاعة، والخضوع والامتثال، ويكتفي فريق بهذا الإعلان، ويعرض عن الطاعة والإذعان، ويتولى عن الانقياد والاتباع، وهذا ليس شأن المؤمنين الصادقين؛ لأن الإيمان لم يكن في وقت من الأوقات قولاً عارياً عن العمل، ولا إقراراً باللسان لا تشهد بصدقه الجوارح والأركان، ولا عقيدة منفصلة عن السلوك، معزولة عن واقع الحياة؛ فطبيعة الإيمان تأبى الجمود، وترفض التعطل، ولا ترضى أن يسكن حنايا الصدور ليقبع فيها بعيداً عن أنشطة الحياة وحركتها، متفرجاً على ما فيها من اللهو واللعب، ساكتاً عما يصيبها من الشر والفساد. إن الإيمان الصحيح حين تخالط بشاشته القلوب سرعان ما يعلن عن نفسه، ويكشف عن وجوده، ويظهر للعيان حركة إيجابية، ونشاطاً بناءً، وسلوكاً رشيداً.

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

وهذا مؤمن آل فرعون يسمع طاعتهم يقول: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾،



فَيَأْبَىٰ عَلَيْهِ إِيمَانُهُ الَّذِي يَكْتُمُهُ أَنْ يَكُونَ سَلْبِيًّا، فَيَهْتَفُ قَائِلًا: ﴿أَنَقَتُلُوْنَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؟، فهؤلاء الذين يقولون ولا يفعلون ليسوا مؤمنين.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

وإذا دعاهم الرسول - ﷺ - إلى الحق الذي يطهر حياتهم من الباطل، وأرشدهم إلى الهدى الذي يعصمهم من الانغماس في الضلالة، وأمرهم بالعدل الذي ينجيهم من عاقبة الظلم الوحشية، وجههم إلى الاحتكام إلى شرع الله - تعالى - الذي يقطع دابر الفساد، ويقضي على البغي، ويداوي علل النفوس، ويُبْرِئ من أدواء الطباع خافوا أن تقطع أيمانهم حين يسرقون، وأن تجلد ظهورهم عندما يزنون أو يسكرون، وأن ترد شهادتهم وتسقط عدالتهم إذ يرمون المحصنات الغافلات ولا يتورعون وتولوا عن الحق وهم له كارهون، واحتكموا إلى الطاغوت فيما شجر بينهم من الخلاف، ورفضوا النزول على حكم الله - تعالى - الذي جاءهم به رسوله - ﷺ -.

من الدروس المستفادة:

١ - توجب الآية الكريمة على المسلم أن يمثل أمر الحاكم العادل الذي يقيم شرع الله - تعالى - وينفذ حدوده، ويقضي بكتابه، وسنة رسوله - ﷺ - وأن يلبي دعوته بالحضور إذا دعاه، وألا يتخلف عن إجابته، والآية الكريمة التالية تذم الذين يرفضون النزول على ما جاء في الكتاب والسنة من الأحكام، وتصفهم بثلاثة أوصاف خبيثة: هي النفاق، والشك، واتهام الله - تعالى - ورسوله بالظلم.

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿١٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِفَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وإذا تعرضوا للظلم، ووقع عليهم البغي، وأصابهم سهم العدوان،

وسلبت حقوقهم، وكانوا مكسوري الشوكة، مهيزي الجناح، مغلوبين على أمرهم كرهوا الاحتكام إلى الطاغوت الذي لا يقيم للحق وزناً، ولا يعرف للعدل معنى، وخافوا أن يتآمر على حقهم، فيغتصبه منهم، ويضيعه عليهم، وأقبلوا خاضعين إلى حكم الله - تعالى - ورسوله الذي يتحرى العدل، ويحكم بالقسط؛ ليقضي بينهم بالحق، وهم بهذا يكرهون العدل إن كانوا ظالمين، ويحبونه إن كانوا مظلومين، ويسعون وراء مكاسب الدنيا إن وجدوها في النفاق نافقوا، وإن حسبوها في الكفر كفروا، وما أولئك بالمؤمنين.

﴿وَإِنَّ يَكُنْ هُمْ الْغَافِقُونَ يُتَوَاتَرًا إِلَىٰ مُدْعِيْنٍ﴾.

إن رفض حكم الله - تعالى - وإرادة التحاكم إلى غير قانونه يناقض مدلول الإيمان الذي يقوم على التصديق بربوبيته، والتسليم لأمره، والرضا بحكمه، والتعهد بإقامة دينه، واتباع تعاليم كتابه، واعتبار أن كل ما يأمر به حق واجب الطاعة، وأن كل ما ينهى عنه طاغوت واجب الترك، والعليم بذات الصدور - جل جلاله - البصير بما يعمل العباد يشخص داءهم، ويحدد علتهم، ويقرر أن قلوبهم برّح بها مرض النفاق، وافترستها جرثومتها الخبيثة، وسكنتها علتها المزمنة. فهم يتاجرون بكلمة الإيمان. ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾؟

بل إن الشك يخالجهم في صدق النبوة، وصحة الرسالة، وتعتريهم الريبة في أن حكم الله - تعالى - هو الحكم الذي لا تعقيب عليه، وأن قضاءه هو القضاء الذي لا بديل له، وأن قوله الفصل الذي لا مزية فيه. ﴿أَمْ أَرْقَابُكُمْ﴾.

وإنها لجريمة نكراء، وإشراك بالله - تعالى -، أن يوجسوا في أنفسهم خيفة من أن يجور عليهم شرع الله - تعالى -، ويظلمهم دستوره، ويغبنهم رسوله، وليست لله - تعالى -، ولا لرسوله - ﷺ - أية مصلحة في إلحاق الضرر بهم، وإنزال الحيف عليهم، ولولا أراد ذلك ما عصمهم منه عاصم. ﴿أَمْ يَحْتَابُونَ أَنْ يَحْيِيَّ اللَّهُ عَلَيْهِم وَرَسُولُهُ﴾.



والذين يتبعون هذا النهج، ويسلكون هذا السلوك يظلمون حكم الله - تعالى - بالارتباب فيه دون شبهة، والخوف منه من غير مبرر، والإعراض عنه بلا سبب، ويظلمون أنفسهم بتضييع حقوقهم، والتعرض لسخط خالقهم، ويظلمون غيرهم بما ينشرون فيهم من سنة سيئة، وقدوة فاسدة، ودعوة إلى الاحتكام إلى الطاغوت ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ

وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ .

نفث الآيات الكريمة السابقة الإيمان عن الذين يُعرضون عن حكم الله - تعالى - ورسوله . وما أولئك بالمؤمنين، ودفعتهم بجريمة الشرك الذي هو أقبح ألوان الظلم .

﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

وهذه الآية الكريمة تبين الموقف الذي يفرضه الإيمان الحق على أصحابه، إذا دعاهم الداعي إلى الاحتكام إلى منهج الله - تعالى -، وتقرر في أسلوب يفيد التخصيص والحصص - بإنما - أن المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فليس لهم إلا سلوك واحد لا يتحولون عنه، يكشف عنه قولهم: فهمنا ووعينا، وامثلنا وخضعنا؛ لأنهم يثقون في عدالة ربهم، ويطمئنون إلى سداد حكمه، وهم لهذا لا يترددون في الاستجابة له، ولا يتطلعون إلى غيره .

وهؤلاء هم الذين يفلحون في دنياهم حين يحلون قضاياهم على أفضل وجه، ويسوون مشكلاتهم على خير أسلوب، ويصوغون حياتهم على أرقى نظام، ويحمون مصالحهم بأقوم طريقة، ويننون مستقبلهم على أقوى دعامة، وأصلح خطة ويفلحون في آخرتهم عندما يُرجعون إلى ربهم، فيسبغ عليهم رضوانه، ويكرم مثواهم، ويسكنهم الجنة مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم؛ لأنهم أطاعوه، وأسلموا وجوههم له، ووكلوا أمورهم إليه .

والذين يمثلون ما أمرهم الله - تعالى - به، ويجتنبون ما نهاهم عنه، ويحافظون على الحدود التي رسمها لهم، ولا يخرجون عن منهج الإسلام الذي رضىه لهم ولا يرغبون عن تحكيمه فيما يعرض لهم من الخلاف، ويجيبون الرسول - ﷺ - إذا دعاهم لما يحييهم، ويتبعون النور الذي أنزل معه، ويشفقون من الحساب، ويخافون سوء العذاب، ولا يأمنون مكر الله - تعالى - ويجعلون بينهم وبين ما يغضبه عليهم وقاية تحميهم من سخطه، ويؤدون حقه من التوقير لوجهه الكريم، والإجلال لقدره العظيم، ويشعرون رقابته عليهم، ويستحيون منه حق الحياء؛ فيحفظون البطن وما حوى، والرأس وما وعى، ويذكرون الموت والبلى، فأولئك هم الفائزون في الدنيا بتوفيقه وهدايته إلى ما يصلح حالهم، ويعالج خللهم، ويكفل سعادتهم، ويحقق أمنهم وهم الفائزون في الآخرة بالنجاة من عذاب النار، ودخول جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن شهدت الآيات الكريمة للمؤمنين بالسمع والطاعة، وبشرتهم بالفلاح، وقارنت بين طاعتهم الصادقة، وطاعة المنافقين الزائفة عاد السياق ليسط الحديث عن المنافقين، وليسجل عليهم ظاهرة الكذب التي تلازمهم في كل المواقف، والقرآن الكريم يفضح كذبهم في عدة مواضع منه؛ فيذكر أنهم يشهدون أن محمداً رسول الله، وهم الكاذبون في شهادتهم، ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾. ويقرر أنهم يتخلفون عن الجهاد دون عذر مشروع، ويقولون: ﴿شَغَلْنَا أَزْوَاجَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وأنهم يتخذون أيمانهم الكاذبة جنة لستر نفاقهم، وتغطية خداعهم. ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا



كَلِمَةً الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَيْمَانُ لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوَلَوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ [التوبة: ٧٤].

والكذب رضيع النفاق الذي يناقض الإيمان، ولا يلتقي معه في قلب إنسان، فالإيمان ينهض على التصديق الكامل، ويقوم على اليقين الراسخ، ويعتمد على الإخلاص الذي يهدي إلى البر، ويوجه إلى الخير، ويعين على الإحسان، ويثمر الاستقامة على منهج الحق، والمنافقون لا يعرفون الصدق، ولا يدينون به، فهم لهذا بعيدون من الإيمان.

والآية الكريمة تصرح بأنهم يحلفون بالله - تعالى - قدر طاقتهم، ويقسمون أكبر قسم لئن عناهم الرسول - ﷺ - بالأمر، ودعاهم دعوة صريحة إلى الخروج في سرايا الجهاد، ومرافقته في الغزو لخرجوا معه، ولما قعدوا خلفه ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾.

قل لهم - يا محمد - قولاً ساخراً متهمكماً: لا تجهدوا أنفسكم بالإيمان، ووفروا عليها عناء القسم، ولا تحلفوا، فإن امثالكم مكشوف للعيان، وطاعتكم معروفة مقررة في الأذهان، لا يستطيع أحد أن ينكرها؛ لأن سجلاتكم شاهدة عليها، وصفحاتكم ناطقة بها، وموافقتكم متحدة عنها؛ أما تذكرون يوم أحد حين نكصتم على أعقابكم، ورجعتم بعد خروجكم تتبعون زعيمكم الذي هتف فيكم قائلاً: عصاني وأطاع الولدان، ومن لا رأي له من الشبان، وما ندري علام نقتل أنفسنا؟ وأحدثت عودتكم فتنة في صفوف كادت تقضي على وحدتهم، وتمزق شملهم. ثم أما تذكرون يوم جاء أولوا الطول منكم يستأذنون رسول الله - ﷺ -، أن يكونوا من القاعدين. ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ رَضُوا

يَأْنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٥٨﴾ . ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ . ولم تقسمون؟ ، أتنبئون الله - تعالى - بما لا يعلم من حالكم ، أم تخبرونه بما لا يدري من أمركم ، وهو المطلع على ما يعتمل في صدوركم ، وما يدور بخلدكم ، وهو الرقيب على أعمالكم ، والخبير بأفعالكم؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْأَمِينُ﴾ .

قل - أيها الرسول - لهؤلاء المنافقين: خير لكم ، وأطهر لقلوبكم ، وأزكى لأعمالكم عند ربكم ، وأصلح لحياتكم ، وأسعد لكم في معادكم أن تفيئوا إلى رحاب الإيمان الصادق الذي يدفعكم إلى الطاعة والامتثال ، وأن تفروا إلى ساحة الخير بما تعملون ، وأن تلوذوا بحمي تقواه ، وأن تمتثلوا أحكام شرعه ، وأن تدينوا لرسوله بالسمع والطاعة . ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ .

فإن أعرضوا عن الخضوع لما يأمرهم به الله - تعالى - ورفضوا الإذعان لطاعة رسوله - ﷺ - ، وتخلفوا عن داعي الجهاد ، وأبوا إلا الخداع والمراوغة ، فلن يضرروا الله شيئاً ، ولن يستطيعوا الإساءة إليه ، وما يهلكون إلا أنفسهم ؛ فقد جاءهم النذير ، وبلغهم رسالة ربه ، وأبرأ ذمته ، وأخلى ساحته من مسؤوليته ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ .

وعليكم أن تؤمنوا بربكم إيماناً يحملكم على السمع والطاعة ، ويلزمكم بنصرة رسوله ، والجهاد في سبيله بأنفسكم وأموالكم ، وابتغاء وجهه في كل ما تعملون وهذه هي مسؤوليتكم ، وتلك هي تبعتكم . ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ .

واعلموا أنكم إن أطعتم الرسول ، واتبعتم النور الذي أنزل معه فقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم ، وسلكتم سبيل المنهج القويم ،



ووفقتم إلى الفوز بالنعيم المقيم وإن خالفتم عن أمره فقد ضللتكم سواء السبيل، وكنتم من الخاسرين. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾.

وليس على الرسول تبعة إغراضكم عن الحق، ولا مسؤولية توليكم عن الهدى، فما من واجبه أن يجبركم على الإيمان بربكم، وأن يسلبكم اختياركم، وأن يكرهكم على طاعة مولاكم، وإنما واجبه الإبلاغ الذي يوضح معالم الهدى، ويكشف مسالك الضلال ومن شاء بعد فليؤمن ومن شاء فليكفر. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمِيثُ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

هذه الآية الكريمة تحمل وعداً صريحاً صادقاً من الله - تعالى - الذي يملك الوفاء، ولا يخلف وعده، وكان وعده مأثياً، وهو وعد ليست وراءه مصلحة سوى مصلحة العباد، ولا غاية غير تركيتهم، وإصلاح شأنهم، وتحقيق الخير لهم في دنياهم والسعادة في آخرهم؛ فالله - تعالى - يعد الذين يغزوا الإيمان قلوبهم؛ فيملؤها بنوره، ويأسرها بجلاله، ويسيطر عليها بكماله، ويزينها بجماله، ويجعلها خالصة لربها، ولا يدع فيها مكاناً لغيره، ويعمرها بحبه الذي يمحو منها كل ظلمة من ظلمات الشك والباطل، ولا يترك فيها شائبة من شوائب الزيف والضلal، ويشغلها بذكره، ويصرفها عن التعلق بغيره، ويحملها على مراقبته في السر والعلانية، والثقة بوعده، والطمع في رحمته، والرغبة إليه، والخشية من عذابه، والصبر على بلائه، والشكر لآلائه، والرضاء بقضائه، والشوق إلى لقائه، والرفق بالمؤمنين، والعزة على الكافرين.

هذا الإيمان الذي يطهر نفوسهم من حب الدنيا، والإقبال عليها، والتهالك على حطامها، والإسراف في شهواتها، والتفاني في تحصيلها،

ويقيها الطمع والشح، وينأى بها عن الضعة والدناءة، ويشفيها من العجز والجبن، ويبرئها من الكسل والتواكل.

هذا الإيمان الذي يجعلهم ربانيين ليست لهم إرادة تنافي إرادة ربهم، ولا تدبير يعارض تدبيره، ولا حكم يناقض حكمه؛ فلا يتهاونون في حق من حقوقه، ولا يقصرون في واجب من الواجبات التي كلفهم بها، ولا يؤادون من حادَّ الله ورسوله، ولا يركنون إلى الذين ظلموا.

هذا الإيمان الذي يحملهم على أن يتأسوا برسولهم - ﷺ -، ويقتفوا أثره، ولا يرغبوا عن سنته؛ فيحفظوا العهد، ويؤدوا الأمانة، ويكظموا الغيظ، ويعدلوا في الرضا والغضب، ويصدقوا في المنشط والمكره، ويعفوا إذا قدروا، ويعفوا عن الحرام في اليسر والعسر، ويتوبوا إذا غفلوا، ويتسغفروا إذا ذكروا، ويحرقوا الدنيا حرثها، ويتزودوا للآخرة زادها، ويجاهدوا في سبيل الله ولا يخافوا لومة لائم.

وعد الله - تعالى - أصحاب هذا الإيمان الذي ظهر أثره في سلوكهم الكريم، وعملهم الصالح واستقامتهم على طريق الحق أن يمنّ عليهم في الدنيا بثلاث نعم:

أ - أن يمدّهم بروح منه، ويرزقهم تأييده، ويكتب لهم النصر والغلبة، ويكفل لهم العزة والهيبة، ويثبت دعائم سلطانهم في الأرض، ويعقد لهم لواء السيادة على أهلها، ويجعل لهم السيطرة على مقدراتها، والقدرة على قيادتها إلى الخير، ويوفقهم إلى الإصلاح فيها، وإقامة صرح العدل، ونشر الأمن، كما أمّد المؤمنين الذين سبقوهم بروح منه، وآتاهم الملك والسلطان، وثبت بالحق أقدامهم، وأعز بالعدل شأنهم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.



ب - وأن يرسى قواعد إيمانهم، ويثبت جذور دينهم الذي أكمله، وارتضاه لهم، وأتم به نعمته عليهم، وأن يمكن لأثره في نفوسهم وسلوكهم، وأن يوفقهم لاتخاذهم دستورهم في سياسة أمورهم، وتدبير شؤون حياتهم، وأن يعينهم على إظهاره على الدين كله، وجعله في حصن منيع لا يرام. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

ج - وأن يقلّ حدّ أعدائهم، ويكسر شوكتهم، ويكفّ بأسهم، ويدمر باطلهم، ويتبرّ ظلمهم، ويثّل عروشهم؛ فلا يخافون جورهم، ولا يرهبون بطشهم، ويظفرون براحة الاطمئنان، ويحسون برد الأمن، ويجدون نعمة العافية ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

فهم يعبدون ربهم مخلصين، ويقصدون وجهه الكريم منيبين، ويحبونه صادقين ويصلون له قانتين، ويجعلون له تسكهم ومحياهم ومماتهم مختبين، ولا يشركون به شيئاً ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا﴾. ومن انسلخ عن هذا الإيمان، أو أدخل فيه ما ليس منه، وشابه بالبدع، وشوّهه بالأهواء، أو عزله عن الحياة التي جاء ليصلح شأنها، ويحكم نظامها وجعله جسماً بلا روح، فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، وفسق عن أمر ربه، وكان من الظالمين ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ومن ألزم الواجبات على الذين يرجون أن يكون لهم كفل من رحمة ربهم في الدنيا والآخرة، ويريدون أن يتحقق لهم وعده بالاستخلاف في الأرض، والتمكين للدين، والأمن من بعد الخوف؛ من ألزم واجباتهم أن يبتغوا الوسيلة إلى ما يرجون، وأن يتخذوا العدة إلى ما يريدون؛ وذلك بأن يحرصوا على إقامة الصلاة التي تحدد صلتهم بخالقهم، وتمحض عبوديتهم لجلال وجهه، وخضوعهم لعظمة سلطانه،

ومذلتهم لعزة شأنه، وخشوعهم بين يديه وحده، وتطهر قلوبهم بصدق القصد إليه، وتذيقهم حلاوة مناجاته، وتعودهم الاعتماد عليه، والاستعانة به، وتزكي أعمالهم، وتنهائهم عن الفحشاء والمنكر، وتكون لهم نوراً على الصراط يوم القيامة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

وأن يسهموا في تفريج كربات البائسين، وتخفيف ويلات المساكين، ويدفعوا عن الفقراء غائلة المسغبة، ويقوا البؤساء مذلة الحاجة، فيعطوهم الزكاة، ويجعلوا لهم حقاً معلوماً في مال الله الذي آتاهم، منشحة بالعطاء صدورهم، طيبة بالبذل نفوسهم، راغبين أن يطهروا قلوبهم من الشح والطمع، وأن يحصنوا أموالهم بالزكاة. ﴿وَأَثَرُوا الزَّكَاةَ﴾.

وأن يطيعوا الرسول - ﷺ - الذي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، وأن ينصروه ويؤازروه، ويتبعوا النور الذي جاءهم به، ويجعلوه دستور حياتهم. ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾. عسى ربكم أن يرحمكم، ويهلك أعداءكم، ويعقد لكم راية القيادة والسيادة في الأرض، ويمكّن لكم دينكم الذي ارتضى لكم، ويرزقكم من بعد الخوف سكينه وأمناً. ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾.

الذين كفروا، وصدوا عن سبيل الله عجزوا عما هو في مقدورهم؛ من مقاومة أهوائهم، وكبح جماح شهواتهم، والتخلص من أطماعهم، وتهذيب سلوكهم، وتحصيل الخير لأنفسهم، والفوز بالإيمان، واغتنام التوحيد الذي يطهر قلوبهم، ويزكي أعمالهم، ويقيم حياتهم على أفضل الأساليب، وأقوم المناهج، ويحميهم من غضب الله - تعالى -، ويجعلهم أهلاً لفضله ورحمته، وهم أشد عجزاً عن حماية أنفسهم من بطش الله - تعالى - وانتقامه؛ فليس في مقدورهم أن يفوتوا عليه العقاب



إذا أراد أن يعاقبهم، ولا أن يفلتوا من قبضته إذا حُمَّ قضاؤه فيهم وهو
أخذ بنواصيهم، فلا تحسبنهم في الدنيا بمفازة من عذابه، ومنجاة من
عقابه، واعلم أن مآلهم في الآخرة إلى النار، ومصيرهم إلى الجحيم،
وما أسوأ هذا المآل وما أشأم هذا المصير.

سُورَةُ النَّبَاِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ
 أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ
 مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ
 وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
 وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى
 بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا أَسْتَعِذْنَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ
 نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ



عَرِّمْتُكُمْ حَتَّىٰ بَرِيئَةً وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ
 سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ
 حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا
 مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ
 أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
 أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ
 أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحُهُ
 أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا
 جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ
 تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَاةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ
 يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ
 عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ
 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ

لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمْ
 اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ
 لِيُنْذِرَكُمْ كَدُوعًا بَعْضُكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ
 يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذٍ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ
 أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ
 مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
 يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿لَيْسْتَ بِذِي نَجْمٍ﴾	علموهم أن يطلبوا إليكم الإذن لهم .
﴿لَمْ يَلْمُوكُمُ الْهَيْمَةَ﴾	لم يصلوا إلى سن الاحتلام والتكلم .
﴿لَمْ يَلْمُوكُمُ الْهَيْمَةَ﴾	هذه الأوقات الثلاثة تمثل ثلاث عورات لكم .
﴿وَالْفَوَاحِشُ﴾	والعجائز اللاتي لزمهن القعود في بيوتهن ، وضعفن عن التصرف .
﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾	انقطعت رغبة الرجال فيهن ، ولم يبق لهن مأرب في الزواج .
﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾	أن يتخففن من ثيابهن الخارجية ، ويخلعنها في داخل بيوتهن .
﴿عَنْ مَتَرٍ حَذِي بِرِيسَةٍ﴾	غير كاشفات زينتهن ، ولا لابسات ثياباً تشف عن أجسامهن .
﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾	وأن يتركن خلع ثيابهن طلباً للفة .
﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾	ولا عليكم أيها المؤمنون .
﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾	من بيوت أبنائكم التي هي بمنزلة بيوتكم .
﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاحِهُهُ﴾	أو ما كنتم خزنته ، والوكلاء بحمل مفاتحه .
﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾	أو من يضيفكم مودته ، ويخلص لكم .
﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾	مجتمعين أو فرادى .
﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾	فإذا دخلتم بيوت الله - تعالى - أو بيوتاً غيرها .
﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾	فحيوا إخوانكم الذين هم بمنزلة أنفسكم .
﴿مُبْرَكَةً طَيِّبَةً﴾	ذات نفع كثير .
﴿عَلَى أَتْرَاجِمٍ﴾	في شأن هام ، ومصلحة عامة .

الكلمة	تفسيرها
﴿دُعَاةَ الرَّسُولِ﴾	مناداته .
﴿كَدُّعَاءٍ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾	كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه، بل قولوا: يا رسول الله .
﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾	يخرجون مستخفين؛ يستتر أحدهم بالآخر .
﴿يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾	يعرضون عن طاعة أمره .
﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾	أن تحلّ به مصيبة من مصائب الدنيا .



التأويل والبيان

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَھُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

شرع الله - تعالى - أدب الاستئذان، فحفظ للبيت حرمة، وصان للإنسان كرامته، وكفل له حرية، وحقق له راحته، وضمن أمنه، وطهر مشاعره من التطلع إلى الحرمات، وتتبع العورات، وحمى نفسه من الفتنة والغواية، وأعفى من هذا الاستئذان الأطفال المميزين الذين لم يصلوا إلى سن التكليف، كما أعفى الأرقاء، ومن في حكمهم من الأعوان والخدم رفعا للحرص، ودفعاً للمشقة.

وهذه الآية الكريمة تشرع أدب الاستئذان في أوقات معينة لهؤلاء الذين يعيشون في داخل البيوت، وتطلب إلى أوليائهم أن يعلموهم هذا الأدب، ويعودوهم أن يلتزموا به، وألا يسمحوا لهم بالدخول عليهم في غرفهم الخاصة بهم التي لا غلق لها دون إذن منهم في ثلاثة أوقات:

أ - من قبل صلاة الفجر حيث يكونون غالباً نائمين، أو يخلعون ثياب النوم.

ب - وعندما يضعون ملابسهم في وقت الظهيرة للاسترواح.

ج - وحين يأوون إلى فراشهم من بعد صلاة العشاء.

وهذه الأوقات الثلاثة أوقات خلوة، وتحرر من القيود، وانصراف عن الاحتياط والتحفظ، وإخلاد إلى الراحة، وما أجمل تعبير القرآن

الكريم عن التجرد من الثياب، والتبذل عن شدة الحرّ بقوله: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾. والآية الكريمة تصرّح بأن هذه الأوقات ثلاث عورات، ومن ثمّ يجب سترها عن الأعين، وصيانتها من الظهور، ووقايتها من الانكشاف؛ حتى لا تذهب الهيبة من نفوس الأبناء لأبائهم؛ ويضعف في قلوبهم سلطان توقييرهم، ولكيلا ترسب في نفوسهم بعض التصورات التي تؤثر على براءتها، وتجني على سلامتها، وترهقها، أو تنشئ فيها بعض نوازع الشر.

وفيما عدا هذه الأوقات الثلاثة ينتهي الحجر على هذه الطائفة، ويرفع عنها هذا القيد، ويدخل أفرادها دون استئذان، حيث لا عورة يجب سترها، ويخشى انكشافها وهذه الآداب التي يطالب الله - تعالى - بها المؤمنين هي شريعته ومنهجه، وهو يبينها لهم، ويلزمهم بها؛ لأنه العليم بأمراض النفوس، وأدواء الطباع، وعلل القلوب، وبالدواء الذي يطيبها ويبرئها، وهو الحكيم فيما يربي عليه عباده، وينصح لهم به.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ويظل الأرقاء، ومن في حكمهم من الخدم والأعوان يستأذنون كلما أرادوا الدخول في وقت من هذه الأوقات على أوليائهم وسادتهم، ويلتزمون بهذا الأدب الذي سنّه الله - تعالى - لعباده المؤمنين.

أما الأطفال فإذا صاروا مكلفين، ووصلوا إلى سنّ الاحتلام فإنهم يستأذنون دائماً، ويأخذون بأدب الاستئذان في كل الأوقات، كما يستأذن الغرباء الذين خاطبهم الله - تعالى - بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تُدْرِكُونَ﴾.

وعلى هذا الأسلوب من التربية يبين الله - تعالى - تشريعه، ويوضح منهجه، وهو العليم بمسارب الشيطان، ومنافذ الشر، الذي أحاط علمه بكل شيء، وانكشف له الداء، واختارت حكمته أنجع دواء.



﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ويجوز للنساء العجائز اللواتي بلغن أرذل العمر، وذهبت أنوثتهن، وودَّعن الإغراء، وفقدن رغبة الرجال في البناء بهن، ويُدل الإعجاب بهن تعجباً من حالهن، واعتباراً بما صرن إليه، يجوز لهؤلاء القواعد في بيوتهن أن يتخففن من ثيابهن الخارجية، وأن يكتفين بما تحتها من ملابس كاسية ساترة شريطة أن يخفين زينتهن، وألا تكون ملابسهن الباقية شفافة تُفسر أجسامهن.

وخير لهن أن يتنازلن عن هذه الرخصة، ولا يأخذن بها، ويسلكن سبيل التحفظ، ويظللن لابسات ثيابهن الخارجية؛ فإن هذا أقرب للفضيلة، وأبعد من الرذيلة وأقطع لكل عوامل الإثارة، وأدل على طلب العفة، والتشبث بالحياء. والله - تعالى - رقيب على عباده، مطلع على جميع أمورهم، لا يخفى عليه شيء من شؤونهم وهو السميع لما يقولون، العليم بما يفعلون، الذي يوفي كل نفس جزاء ما عملت.

كان أصحاب رسول الله - ﷺ - إذا أمرهم القرآن الكريم بمعروف ائتمروا به، وإذا نهاهم عن منكر انتهوا عنه، فلما نزل قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ امتنع الأقارب الذين كانوا يأكلون من بيوت أقاربهم من غير إذن أن يأكلوا منها إلا أن يأذنوا لهم، ورفض أصحاب الأعداء الفقراء ممن أصابهم العمى أو العرج أو المرض الذين كانوا يرافقون الأقارب إلى بيوت أقاربهم دون دعوة أن يذهبوا معهم إلا بدعوة، فنزلت الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾... ترخص لصاحب العذر الفقير أن يأكل من بيت غيره، وتجزير للقريب أن يطعم من بيت قريبه، إذا كان لا يكره ذلك، ولا يتأذى به، لأنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس.

فلا إثم على الأعمى ولا على الأعرج ولا على المريض إن كانوا فقراء أن يذهبوا غير مدعويين مع الأقارب والأصدقاء الذين يجوز لهم أن يأكلوا من بيوت أقاربهم وأصدقائهم من غير استئذان. ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

وليس محظوراً على الأب أن يأكل من بيت ابنه دون إذنه؛ لأنه بيته، ولا محرماً على الابن أن يأكل من بيت أبيه، أو بيت أمه، أو بيت أخيه، أو بيت أخته، أو بيت عمه، أو بيت عمته، أو بيت خاله، أو بيت خالته ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾.

وللخازن الذي يأتئمه المالك على ماله ومفاتيح طعامه أن يأكل من الطعام الذي يمسك مفاتيحه أكلاً بالمعروف من غير زيادة على حاجة طعامه، وللصديق أن يأكل من بيت صديقه الذي يمنحه مودته، ويخلص له في محبته. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

ولما كان الأقارب وذوو الأعذار يجدون حرجاً شديداً في أن يأكلوا منفردين، وكانوا لا يأكلون إلا إذا شاركهم أصحاب البيوت في الطعام، وأكلوا معهم، فقد أجاز لهم الدين أن يطعموا جماعات وفرداً.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

وشرعت الآية الكريمة لهؤلاء الأضياف إذا دخلوا تلك البيوت المذكورة أن يبدءوا من فيها بالسلام، توثيقاً لأخوة الإيمان، وتمكيناً لرابطة المودة بين أفراد الجماعة المسلمة، وجعلت المؤمن الذي يسلم على قريبه أو صديقه إنما يسلم على نفسه، وجعلت التحية نفحة قدسية من عند الله - تعالى - مُحَمَّلة بالخير، مملوءة بالبركة، زكية الأريج، طيبة العبير، فواحة العطر.



﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾.

وبمثل هذا البيان المعجز يرسم الله - تعالى - لكم منهجه، ويصوغ تشريعه، ويوضح آدابه، رجاء أن تدركوا مراميه، وتفقهوا أسرارها، وتأخذوا به، وتحرصوا على تطبيقه. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إنما يصدق مدلول الإيمان على الذين يمثلون أمر الله - تعالى -، ويعملون بما أنزل عليهم من الأحكام، ويتبعون ما سنه لهم من نظام، ويطيعون رسوله - ﷺ -، ويحيون سنته، ولا يعرضون عن شريعته، ولن يتحقق لهم هذا السلوك إلا إذا استقرت عقيدة التوحيد الخالص في قلوبهم، وأصلحت شأنها، وفرضت عليهم سلطانها، ولم يصدر عنهم فعل إلا بوحى منها؛ فإن الإيمان بالله - تعالى - إذا حلَّ في القلب سيطر على نشاط صاحبه، وحكم تصرفاته. ووجه حركته في الحياة إلى الخير، وعصم سعيه كله من الشر، وليس المؤمنون من يقولون كلمة التوحيد عارية عن السمع، مجردة من الطاعة؛ يقولونها بأفواههم، وتخالفها أعمالهم، والقرآن الكريم يعدّ هذا السلوك لونا من المخادعة لله - تعالى - ولأوليائه. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَسْعَوْنَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩، ١٠].

ومن ملامح الإيمان الصادق أن أربابه يدينون بتوقيع الرسول - ﷺ -

- الذي أخرجهم الله - تعالى - به من الظلمات إلى النور، ويحرصون على الالتفاف حوله إذا اجتمعوا معه على مدارس أمر هام، وبحث شأن عام من شؤون المؤمنين، يتعلق بالحرب أو السلم أو حركة الدعوة إلى الله - تعالى -، ولا ينفضون من حوله مؤثرين مصلحتهم الخاصة على مصلحة الجماعة، راغبين بأنفسهم عن نفسه ولا ينصرفون عند الضرورة القصوى إلا إذا اتبعوا النظام السليم، والأدب الكريم، فأدلوإ إليه بعذرهم، وسألوه أن يأذن لهم، فسمح لهم أن ينصرفوا والآية الكريمة تؤكد أن الذين يأخذون بأدب الاستئذان، ويقرون النظام، ولا ينصرفون من الأمر الجامع إلا بعد أن يؤذن لهم هم الذين يؤمنون بالله - تعالى - إيماناً صحيحاً، ويعتقدون أنهم إلى ربهم راجعون، وأنهم مبعوثون ليوم عظيم، حيث توفى كل نفس ما كسبت، وتلقى جزاء ما عملت، وهم لا يظلمون. والوحي الكريم لا يلزم الرسول - ﷺ - بالإذن لمن استأذنه، ولكنه يترك له مطلق الحرية في أن يعطي الإذن أو لا يعطيه، ويكل الأمر لمشيئته الخاصة، فإن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن؛ ويفوض إليه أن يرى رأيه، وأن يتخذ في كل حالة القرار الذي يناسبها.

والانصراف من الأمر الجامع مهما كانت الأسباب الداعية إليه، والضرورة الباعثة عليه أمر يكرهه الله - تعالى -؛ لأنه يؤذي رسوله - ﷺ -، ويجعل مصلحة الجماعة في المرتبة الأخيرة، وينبئ عن إثارة المصلحة الخاصة، والاستجابة لضغطها؛ ولهذا يصدر الوحي الكريم أمره للرسول - ﷺ - أن يسامحهم، ويتنازل عن حقه قبلهم، ويعلن رضاه عنهم، ويطلب لهم المغفرة من الله - تعالى -، فإنه عظيم المغفرة واسع الرحمة.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.



الطعام في يده أن يتناول من الطعام بالمعروف، وأباحته للصديق أن يأكل من بيت صديقه. وتعاليم الإسلام في هذا الصدد مبنية على العرف المأنوس الذي يتفق مع الطبائع السليمة، وتألفه الأذواق الشريفة، وهي تفترض كذلك توثيق العرا، وتمادج النفوس، وتلاحم العواطف.

٦ - من مبادئ الإسلام توقير أهل الخير والبر، وتكريم أصحاب العلم والفضل. وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، وتقديم أعمال الآخرة على مكاسب الدنيا، وكل هذا مفهوم من دعوة المؤمنين إلى طاعة رسول الله - ﷺ - وتوقيره ومناداته بما يليق بمقامه، والاستئذان منه عند إرادة الانصراف.

٧ - ينبغي أن يستقر في وجدان المؤمن هيبة الله - تعالى - وخشيته؛ فهو مالك الملك، وله الأمر كله، وهو العليم بما تكسب النفوس من خير، وما تكتسب من شر، وهو أسرع الحاسبين.

سورة عبس

ترتيب نزولها وآياتها:

سورة عبس سورة مكية، سبقها في النزول ثلاث وعشرون سورة، هي: المزل، والمدثر، والفاتحة، والنجم، وتسع عشرة سورة من جزء عم. وآياتها اثنتان وأربعون آية، وتبدأ بالفعل عبس الذي جعلته اسمها.

نظرة مجملة:

تشتمل السورة الكريمة على ثلاث لمسات، تتسم بقوة الموقع، وشدة التأثير؛ وقمة الإعجاز.

تبدأ أولى اللمسات مع الآية الأولى، وتنتهي بقوله - تعالى - : ﴿كَرِيمٌ بَرُّوهُ﴾.

أ - وفيها يعاتب رب العالمين - عز وجهه - رسوله محمداً - ﷺ - على انفعاله الغاضب الذي انعكست آثاره على وجهه الشريف تقطيباً وعبوساً، وعلى سلوكه السويّ إعراضاً وتولياً عن هذا المؤمن الذي استحث الإيمان خطاه؛ فأقبل إليه يسعى، والخشية ملء إهابه، يبغي الاعتراف من منبع الوحي الصافي، والارتواء من معينه الطاهر، والتفقه في دين الله - تعالى - [١ - ٤].

ب - ويشد أسلوب العتاب، وتقوى لهجته، ويأخذ طابع التعجيب من احتفاء الرسول - ﷺ - بالمشركين، وانصرافه إليهم، وإقباله عليهم وشدة تعلقه بهدايتهم، وقوة حرصه على إسلامهم، وهو غير



مسؤول عن كفرهم، وغير مطالب بإخراجهم من الظلمات إلى النور [٥ - ١٠].

ج - ثم يذكره ربه - سبحانه - بأنه لا يُسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين، ولا يهدي العمي عن ضلالتهم إذا أعرضوا مستكبرين، وأن مهمته التذكير، وأن الله - تعالى - يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب [١١، ١٢].

د - وتشيد السورة الكريمة بفضل القرآن المجيد، وعظيم شرفه، وكرامة الصحف المسطورة فيها آياته عند الله - تعالى -، وعلو قدرها، وطهارتها، وتكليف الملائكة الأخيار أن ينسخوها من اللوح المحفوظ، وأن يحملها أمين الوحي إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ - [١٣ - ١٦].

وتبدأ اللمسة الثانية من قوله - تعالى -: ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ إلى قوله - تعالى -: ﴿مَنْعًا لَّكُمْ وَلَآتِفِيمِكُمْ﴾.

أ - وفيها يسجل الله - تعالى - لعنته على الإنسان الجاحد الذي يتعامى عن نور الحق ويتجاهل الآيات الواضحة، ويظلم نفسه، ويتمادى في عناده وكفره؛ فينكر نعمة الله - تعالى - عليه بخلقه من العدم، ويتغافل عن القدرة التي أنشأته من ماء مهين وأبدعته من نقطة مذرة، وأحسن صنعه، وسوت أعضائه، ونظمت كيانه، ورسمت وظائف أجهزته، وأخرجته بشراً سوياً، وهدته النجدين، وسلكت به السبيل إما شاكراً وإما كفوراً، وأمدته بالقدرة على السعي حفظاً لحياته، وحماية لبقائه، وقبضته عند انتهاء أجله، وسوف تبعثه يوم النشور، ليلقى جزاء عمله.

ب - وتستقل بالإنسان من التأمل في نشأته، والتفكر في الحياة التي لبسته إلى تأمل قدرة الله - تعالى - في تدبير رزقه، وتهيئة معاشه، وإعداد غذائه الذي يكفل له استمرار حياته إلى الأجل المسمى،

وإخراجه من الأرض التي خلقه الله - تعالى - من ترابها، فإذا أنزل الله - تعالى - عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴿مَنَّاعًا لَّكُمْ وَالْآفَاقِمْكُمْ﴾.

وتبدأ اللمسة الأخيرة من قوله - تعالى - : ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ إلى آخر السورة وفيها يجري الحديث عن صيحة البعث الشديدة التي تصم الآذان، وتحيي الموتى فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا... يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين، وعندئذ يفر الكافر من أقرب الناس إليه نسباً، وأشدّهم التصاقاً به في الدنيا، فلكل كافر يومئذ خطب يشغله، وكرب يذهله، وهم يثقله، وهول يلاقيه، وبلاء يعانيه ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] والناس يومئذ فريقان:

١ - الفائزون، وهم الذين آمنوا، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ولم يخالط عملهم الرياء؛ وهؤلاء تتهلل وجوههم سروراً، وتمتلئ نفوسهم بشراً، وتفتر ثغورهم عن بسمه الفرح.

٢ - الخاسرون، وهم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وأشركوا بالله - تعالى - ما لم ينزل به سلطاناً، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، واتخذوا آيات ربهم ورسله هزواً، وقالوا لرسولهم: إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا. وهؤلاء تعلو وجوههم كدرة وكآبة، وتخيم عليها ظلمة ويجلّلها السواد.

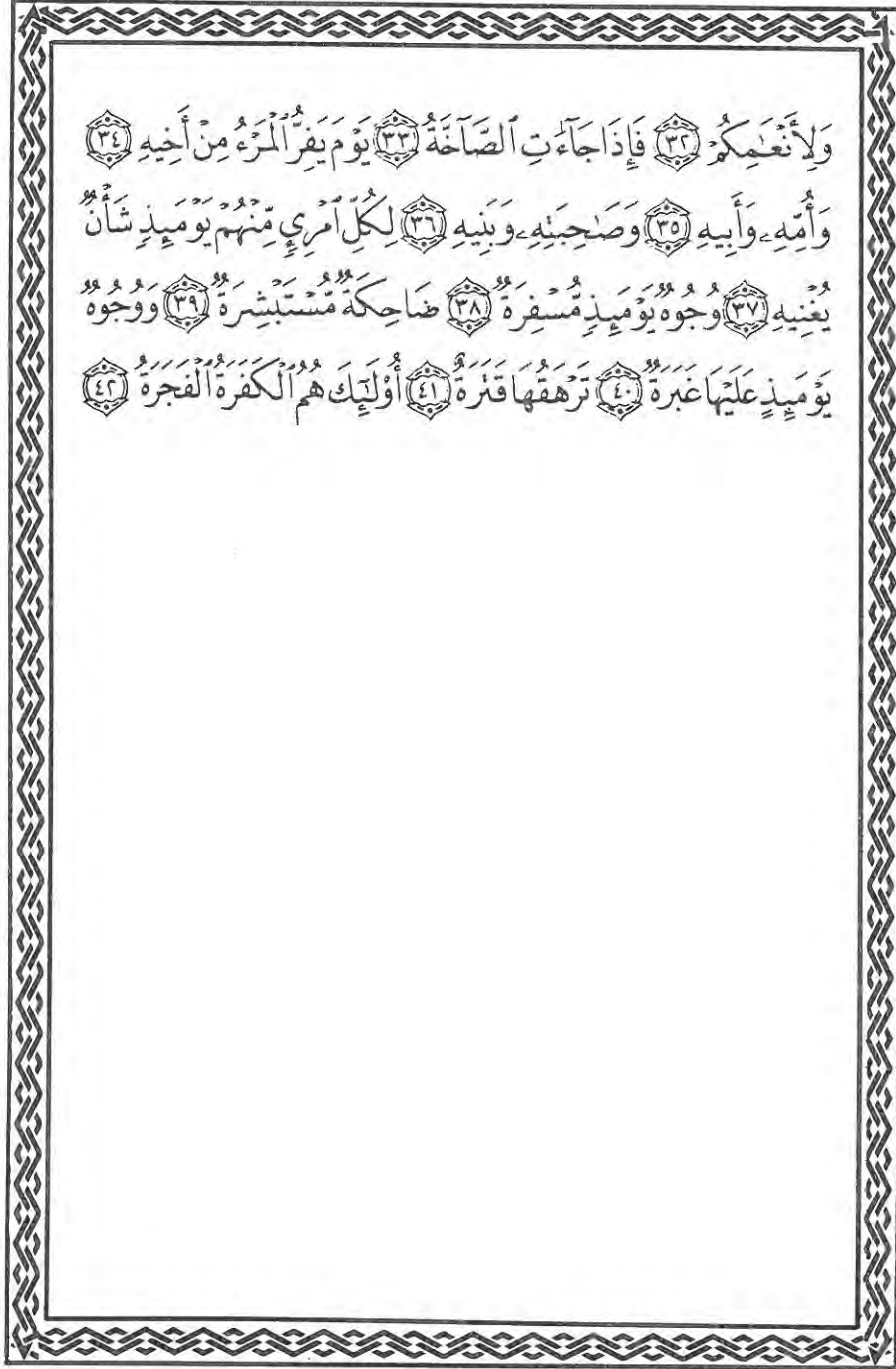


سُورَةُ عَبَسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِي ۝٣ وَ
 يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ۝٤ أَمْ أَمِنَ اسْتَعْنَى ۝٥ فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝٦
 وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِي ۝٧ وَأَمِنَ جَاءَكَ يَسْعَى ۝٨ وَهُوَ يَخْشَى ۝٩ فَانْتَ
 عَنْهُ لَهْفَى ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ ۝١١ لِمَنْ شَاءَ ذِكْرُهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ
 ۝١٣ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦ قُلْ لِلْإِنْسَانِ
 مَا أَكْفَرُهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۝١٩ ثُمَّ
 السَّبِيلَ يَسْرُهُ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَانَهُ وَأَقْبَرَهُ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أُنْشِرَهُ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا
 يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ۝٢٣ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا
 ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ۝٢٨
 وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَيْكِهِمُ وَابًّا ۝٣١ مَتَّعَلِكُمْ

وَلَا تَعْمَكُمُ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾
وَأُمِّهِ وَأَيِّهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُعْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾



تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿عَبَسَ﴾	قطب وجهه غضباً .
﴿أَن جَاءَهُ الْآخِذُ﴾	لأن جاءه ابن أم مكتوم .
﴿يَرْثُ﴾	يتطهر من الجهل والإثم .
﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾	أو ينتصح ويتعظ .
﴿أَسْتَغْنَى﴾	صار كثير المال .
﴿تَصَدَّقَ﴾	تقبل عليه مهتماً به .
﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكُ﴾	وما يضريك في شيء أن يظل في كفره .
﴿نَلْفَن﴾	تعرض وتشغل .
﴿كَلَّا﴾	لا تعد لمثل هذا مرة أخرى .
﴿نَذْكُرُ﴾	إن آيات القرآن موعظة .
﴿ذَكَّرُ﴾	تذكر كتاب الله - تعالى - .
﴿مُكْرَمَرُ﴾	عظيمة عند الله - تعالى - .
﴿تَرْفُوعَرُ﴾	عالية القدر والمنزلة .
﴿فَعَدَرُ﴾	فسوى شكله وعدل أعضائه .
﴿السَّيْلَ يَسْرُرُ﴾	بين له الحلال والحرام .
﴿لَمَّا بَقِضَ مَا أَمَرُ﴾	لم يطع خالقه فيما أمره به .
﴿ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ﴾	ثم جعلنا النبات يشقها .
﴿وَقَضَبَا﴾	ونباتاً يقطع ويؤكل طرياً .
﴿وَحَدَّائِنَ عَلْبَا﴾	وبساتين كثيرة الأشجار .

الكلمة	تفسيرها
﴿وَأَيُّ﴾	ومرعى للدواب .
﴿الصَّائِتُ﴾	صيحة البعث التي تصم الأذان .
﴿شأن يغنيه﴾	خطب يكفيه ويلهيه عن غيره .
﴿مُسْفِرٌ﴾	وضيئة متهللة .
﴿عَلَيْهَا غَبْرَةٌ﴾	تعلوها كدرة .
﴿تَرْفَعُهَا قَفَرَةٌ﴾	تعلوها ظلمة وسواد .
﴿الْفَجْرَةُ﴾	الخارجون عن أحكام الشرع .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التأويل والبيان

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّكَ بُرْءٌ ﴿٣﴾ أَوْ يَذْكُرُ ﴿٤﴾ فَنَنْفَعُهُ الذِّكْرَى ﴿٥﴾﴾

تغيرت أسارير وجه الرسول - ﷺ - تغيراً ينبئ عن كراهته تصرف
الفقير الأعمى: عبد الله بن أم مكتوم، والغضب من مسلكه، فأهمله،
وانصرف عنه، ولم يصغ إلى سؤاله الذي أخذ يكرره: يا رسول الله،
علمني مما علمك الله، مقاطعاً حديث الرسول - ﷺ - مع النفر الذين
يجلسون إليه من زعماء قريش.

- وهذا العتاب يدل على ثقل وزن النفس المؤمنة في ميزان الله
- تعالى - ومبلغ كرامتها عنده، كما يدل على هوان النفس المشركة
على خالقها، وحقارتها عنده؛ لأن العبوس في وجه الأعمى لا
يضيره، ولا يخرج صدره، إذ لا يراه، ولكنه يضير ميزان الله
- تعالى - الذي يزن العباد ببواطنهم، وينظر إلى قلوبهم وأعمالهم،
ولا ينظر إلى صورهم وأموالهم.

وقد أثر لطف الله - تعالى - بنبيه - ﷺ - أن يعدل عن مواجهته
بالخطاب، ومجاوبته بالعتاب إلى أسلوب الحكاية، وحديث
الغياب رفقاً به، وعطفاً عليه، وإيناساً له، وتكريماً لقدره،
وتخفيفاً من وطأة العتاب، وقسوته على نفسه الشريفة.

وقد يتبادر إلى بعض الأذهان أن الرسول الكريم - ﷺ - أخطأ الصواب في موقفه من هذا الصحابي البارّ، فجاءه العتاب الحبيب من ربه الجليل إنصافاً للأعمى، ولكن الحقيقة التي تفهم من الآيات الكريمة أن النبي - ﷺ - حين جاءه ابن أم مكتوم كان يتحدث إلى: عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأمّية بن خلف، وأبي جهل، والعباس بن عبد المطلب في أمر الإسلام الذي قدموا إليه من أجله، فأقبل ابن أم مكتوم، وأخذ يقطع الحديث بسؤاله، ويلح فيه ويكرره، حتى برم به الرسول - ﷺ - وكره إلحافه، وتغير وجهه الشريف، وأعرض عنه، ولم يلتفت إلى سؤاله، ولم يجبه عنه، ولم ينهره على صنيعه، ولم يزرجه على فعلته سماحة منه وحلماً.

ولو كان العتاب على خطأ في أدب السلوك العام لكان الأولى به الصحابي الذي قاطع حديث الرسول - ﷺ - عدة مرات، وفرض سؤاله عليه، ولم يصطبر حتى يتم كلامه مع الذين جاءوه في أمر من أمور الدعوة إلى الله - تعالى -، كما حدث مثل هذا في نهى المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوتيه، والجهر له بالقول: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، ومقاطعة الدعوة إلى الله - تعالى - أشد مما نهت عنه هذه الآية الكريمة ولكن العتاب كان على شيء آخر كشفت عنه هذه الحادثة الفردية العادية، كان العتاب على ما وقر في نفس الرسول - ﷺ - واعتمل في صدره الشريف من رغبة ملحة، وحرص شديد على أن يظفر الإسلام بهؤلاء الزعماء، ويكسبهم إلى جانبه، ويتحقق له بإسلامهم ربح ومغنم، ويكون له من سلطانهم في قومهم سلطان، ومن كلمتهم كلمة، ويكسر القيود المفروضة عليه من هؤلاء الجبارين المستكبرين، ويتسع صدر مكة - بلد الله الحرام - للإسلام، ويضيء نوره الجزيرة كلها، ومن ثمّ يشع ضياؤه على العالم بأسره، ثم تخف عن المؤمنين وطأة تعذيب الكافرين، وشراستهم في



إيذائهم، وفتنتهم إياهم في دينهم، ومن مكمن هذه الرغبة كان اهتمام الرسول - ﷺ - بسادة قريش، وإقباله عليهم، وعبوسه وإعراضه عن الأعمى، وهي رغبة بشرية تسير مع أعراف الناس، وتتأثر بما تواضعوا عليه من سيادة الطبقة، والاعتراف بنفوذها، والإقرار بسطوتها، وتفترض على دين الله أن يجاملها، وأن يصانعها، فيغير موازينه، ويتنازل عن مقاييسه، ويقلب منهجه، فلا يزن العباد بما في قلوبهم من تقوى، ولكن يزنهم بما في جيوبهم من مال، ولا يقيسهم بمدى استعدادهم للخير، واستجابتهم للحق، وسلامة فطرتهم، ولكن تقيسهم بوجاهة النسب، وعراقة الحسب، ولا يخضعهم لسلطانه، ويدخلهم في ظله، ولكن يخضع لهم، ويأوي إلى ظلهم وهي بهذا تُملي على دين الله - تعالى - أن يطأطي رأسه، وينحني لأهواء العباد، ويقبل شروطهم حين يجعلون أنفسهم أوصياء عليه، فيجتبون الأغنياء، وينبذون الفقراء وهي رغبة تتعب الرسول - ﷺ - وتستنفد جهده، وتبدد طاقته، وتعنته وتشقيه، وما جاء، الوحي الكريم ليشقيه: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۖ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

ولهذا رفض الوحي الكريم هذه الرغبة في حزم شديد، وصادر الاتجاه المترتب عليها في قوة، ليقيم سلطان الله - تعالى - على البشر، ويقيم ميزانه في الأرض، ويعز الناس بالإيمان. ولقد وعى رسول الله - ﷺ - عن ربه - تبارك وتعالى - هذا الميزان العادل الذي يزن الناس بدينهم لا بدنياهم، ولفت إليه نظر أصحابه، ولقنه أتباعه من بعدهم حين مرَّ على مجلسه رجل تبدو عليه آثار النعمة، فقال لأصحابه: «ما تقولون في هذا؟ قالوا: هذا حري إن خطب أن يزوج، وإن أمر أن يطاع، وإن قال أن يسمع له، ثم مرَّ آخر في بزة تنبئ عن الفاقة، فقال لهم: «ما تقولون في هذا؟ قالوا: هذا حري إن خطب ألا يزوج، وإن أمر ألا يطاع، وإن قال ألا يسمع له، فقال - ﷺ - : «هذا خير من ملء الأرض من ذاك».

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴿٤﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٥﴾﴾

إنه لا يعلم من في السماوات ومن في الأرض الغيب إلا الله، فما يدريك في حاضرك ومستقبلك بمن يصلحه الإسلام، ويظهر نفسه، ويزكي أعماله، ومن يصلح للإسلام، ويستمع للوحي الكريم، فيعي ما يُتلى عليه، وينتفع بما وعى، وتطيب نفسه، وتعمر التقوى قلبه، وتصفو سريرته، ويذكر ربه ولا ينساه، ويطيعه في مُصباحه ومَمسَاه، ويتزود لآخرته من دنياه.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴿٥﴾ فَأَن تَكُ تَصَدَّقَ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي ﴿٧﴾﴾

أما من أضله الشيطان وأغواه، وأعماه الهوى وأشقاه، وخدعته الشهوات، وغرته الحياة الدنيا، وسولت له نفسه أنه غير محتاج إلى خالقه، وأنه غنى عن دعوتك بجاهه في قبيلته؛ وشرفه فيهم، وسلطانهم، وكبر عليه أن يتخلى عن زعامته الفارغة، وعز عليه أن يتنازل عن جاهه الموهوم، وطغى وتجبر، وأدبر واستكبر، فأنت - يا محمد - تقبل عليه، وتوليه اهتمامك، وتتجه إليه رغبتك، وتطمع في إسلامه، وتظنه مغنماً، وليس عليك مسؤولية إذا تركته عاكفاً على باطله، سادراً في ضلاله، لاهياً في غوايته، مسارعاً في الكفر، مؤمناً بالطاغوت؛ يتمرغ في أوحال الدنس والنجاسة، ويتقلب في حمأة الرجس والخبائث، ويهيم على وجهه في ظلمات الشرك المطبقة، ودياجير العماية الحالكة.

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَن تَكُ تَلَقَى ﴿١٠﴾﴾

وأما من صحت نيته، وصدقت عزيمته، وطابت سريرته، واستقرت خشيته، واستحث الإيمان خطاه، فأقبل إليك ساعياً، وجاءك طائعاً مهتدياً، يطلب ما لديك من العلم والحكمة، ويؤثر ما أولاكه ربك من الطهارة والنور، والخير والفضل، وهو مشفق من مخافة ربه مصدق بوحيه موقن بلفائه، فأنت عنه تنصرف، وبغيره تتشاغل وتلهي.



وقد حفظ الله - تعالى - رسوله - ﷺ - قبل الرسالة، وعصمه بعدها من كل ضروب اللهو، وحماه من أن يسلك أسلوب التلهي، ولكن جهده الضائع، ومسعاه الذي لا يثمر مع الذين أصمهم الله - تعالى -، وأعمى أبصارهم يسميه الوحي الكريم تلهياً؛ لينفر الرسول - ﷺ - منه، ويذكره بما أنزله إليه - ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرْهُ ۝ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ (١٣) تَرْفَعُهُمْ مُّطَهَّرَةٍ ۝ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝﴾.

لا تعد لمثلها من الاشتغال بما لا خير فيه، ولا جدوى منه عن الإقبال على المؤمنين، والحفاوة بهم، وإيثارهم على السادة العظماء، فإن آيات القرآن المجيد تذكرة للبشر بالحق، وإيقاظ للناس من الغفلة، وتنبيه للعباد من النسيان؛ لتسقط حجتهم، وتبطل فعلتهم، ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

وقد جعلها الله - تعالى - نوراً يهدي به من يشاء من خلقه، وموعظة للمتقين، وشفاء ورحمة للمؤمنين؛ فإذا أراد الله - تعالى - بعبد خيراً أعانه على حفظها وتذكرها، ووفقه إلى العمل بها، واتباع أوامرها، واجتناب نواهيها.

وهي مسطورة في اللوح المحفوظ، في صحف عظيمة القدر، كريمة المنزلة، رفيعة الشأن عند الله - تعالى -، وهي خالية من الشر، بعيدة من الإثم، نقيّة من السوء، بريئة من الفساد، طاهرة من الباطل، مطهرة من الميل والانحراف، موكل بكتابتها، والقيام بتبليغها ملائكة كرام أخيار، دينهم الطاعة والإحسان.

﴿قِيلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ۝ (٧) مِن أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝ (٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۝ (٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ۝ (١٠) ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝ (١١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۝ (١٢) كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ۝﴾.

حلت لعنة الله - تعالى -، وباء بالطرد من رحمته، وحق عقابه على من يكفر به، ويجحد ألوهيته، ويجعل له شركاء يعبدهم من دونه، ويصر على إنكار قدرة ربه الذي جعل النطفة طوراً من أطوار نشأته وتكوينه، وأتم خلقه، وسوى شكله، وأحسن صورته، وأكمل هيئته، وهده السبيل إما شاكراً وإما كفوراً، ورزقه القدرة على شق طريقه في الحياة ضالاً أو مهتدياً، وقهره بالموت عند انقضاء عمره، وأعادته إلى الأرض الذي أنبته منها، وواراه في باطنها تكريماً له على سائر الأحياء، وجعل قبره إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ووعد - ووعد الحق - أن يبعثه مع جميع خلقه ليوفيههم جزاء أعمالهم.

فليتردع الكافر، وليزدجر الفاسق الذي أضاع عمره في الإثم، وأنفق حياته في العصيان ولما يستجب لربه، ويتبع رسوله، وينقذ لأمره.

﴿لَيَنْظُرَ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (١٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (١٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (١٦) فَأَبْيْنَا فِيهَا حَبًّا (١٧) وَعَبْنَا وَقَضَبًا (١٨) وَزَيْتُونًا تَحْلًا (١٩) وَحَدَائِقَ غُلَبًا (٢٠) وَفَكْهَةً وَأَبًّا (٢١) مَنَّاعًا لَّكُمُ وَلَآئِكُمُ﴾.

فليتأمل الكافر بربه قدرة الخلاق العليم التي هيأت له الغذاء الذي يحفظ حياته، ويضمن بقاءه، وليتدبر الطريقة التي تمكنه من الحصول على قوته الذي يقيم صلبه، ويرد عنه غائلة، ولينظر بعين الاعتبار إلى رحمة الله - تعالى - التي تسخر الرياح لتتنقل سحاباً ثقالاً، وتسوقها إلى الأرض التي بذر الزراع فيها الحب، وأعدوها للإنبات، فتسكب عليها ماءها، وتطفئ ظمأها، وتسقيها، وتبعث الحياة فيها؛ فينجم النبات؛ نبات كل شيء مما يطعم الناس، وتأكل الأنعام، ويرعى الحيوان، ويشق أديم الأرض، وينفرج عنه وجهها، ثم ينمو، ويستوي على سوقه، ثم يدركه الحصاد إذا أينع، فيؤتي أطيب الثمرات ويتخذ منه الإنسان حباً لغذائه، وعنباً لفاكهته، وقضباً لأكله طرياً، وزيتوناً لإدامه، ونخلًا للانتفاع بتمره، والإفادة من سعفه وليفه وسوقه، وبساتين كثيرة الأشجار ومراعي متنوعة للدواب والأنعام.



﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاحَةُ ۖ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْغَرَّةُ مِنْ أَخِيهِ ۖ (٣٤) وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ ۖ (٣٥) وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ ۖ (٣٦) لِكُلِّ أَرْبَةٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَانٌ يُغْنِيهِ ۖ﴾ .

فإذا كان يوم القيامة نقر في الناقور، ونفخ في الصور، فانطلقت صيحة البعث مدوية، تصم الآذان، وتشيب الولدان، وخرج الموتى من أجدانهم سراعاً، فإذا هم قيام ينظرون، كأنهم إلى نصب يوفضون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قلوبهم واجفة، وأبصارهم خاشعة، وقال الكافرون: يا ويلنا هذا يوم الدين، وقد أحاط بهم الهول العظيم، وغشيم الكرب الجسيم، وعراهم الفزع الأكبر، ورأى المجرمون النار، وأيقنوا أنهم مواقعوها، ولم يجدوا عنها مصرفاً ودهمهم الخطب، واشتد بهم الكرب الذي يذهب المرء عن الأخذ بناصر أخيه، ومؤازرة أمه وأبيه، وإنقاذ زوجته، وإغاثة بنيه، فإذا لقيهم لم يطق رؤيتهم، ولم يصنع إلى استغاثتهم، ولاذ بالفرار، يبغي النجاة لنفسه التي لا يعنيه إلا أمرها، ولا يشغله إلا مصيرها، لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴿يُصْرَوْنَ ۖ يُودُّ الْمُجْرِمُ ۖ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنَبِيٍّ ۖ (١١) وَصَلْبَتِهِ وَأَخِيهِ ۖ (١٢) وَفَصْلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۖ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۖ﴾ [المعارج: الآيتان: ١١ - ٤١] ﴿كَلَّا ۖ﴾ .

﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ ۖ (٢٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ﴾ .

فأما الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا في حياتهم الدنيا، وكانوا من المهتدين، فإنهم في مأمن من الفزع الأكبر، يفيئون إلى ظل ظليل من رحمة ربهم التي كتبها لهم، وتتلقاهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، فتتهلل وجوههم بالبشرى، كأنها الصبح إذا أسفر، وتشرق بالنور، وتشع بالضياء .

﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلِيَّا غَرَّةٌ ۖ (٤١) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۖ (٤٢) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ۖ﴾ .

وأما الذين فسقوا عن أمر ربهم، وعصوا رسله، وكذبوا بآياته، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، وبغوا في الأرض بغير الحق، فوجوههم باسرة، أعارها الليل ظلمته، وأقرضها الدخان كدرته، وجللها السواد .

من الدروس المستفادة:

١ - هذا العتاب الذي تطالعنا به السورة الكريمة أحد الأدلة على أن هذا القرآن المجيد تنزيل من حكيم حميد؛ فلو كان مفترى على الله - تعالى - كما زعم المشركون الذين ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَتْهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ لما رأينا فيه مثل هذا العتاب الذي ينقد تصرفاً لخاتم الأنبياء - ﷺ - ويلومه عليه، وينهاه عن العودة لمثله بكلمة ﴿كَلَّا﴾.

فالإنسان يهوى الثناء مبرّزاً ومقصراً، ولا تستريح نفسه للنقد، ويراه لوناً من التوبيخ، بل إن الحكماء عدواً النصيح على ملأ من الناس إهانة، وطالبوا بأن يكون في خفاء:

تعهدني بنصحك في انفرادي وجئتني النصيحة في الجماعة
فإن النصيح بين الناس لون من التوبيخ لا أرضى استماعه
فمن المستبعد أن يشهر الإنسان بموقف من مواقفه لم يتصرف فيه التصرف الأمثل.

٢ - ذو الجلال والإكرام - سبحانه - رقيب على سلوك رسله؛ يرسم لهم أسلوب الدعوة إليه، ويحدد لهم كل صغيرة وكبيرة من خطواتها، ولا يتركهم يخرجون عما رسمه لهم قيد شعرة، ولا يدع لخطأه نفسية من خواطرهم أن تملي رأيها على منهجه، ولا يسمح لرغبة بشرية - مهما حسن الباعث عليها - أن تفرض وجودها معه.

٣ - مما يدل على أن العناية الإلهية ساهرة على رعاية سلوك صاحب الخلق العظيم - ﷺ - أنها لم ترض له أن يقطب وجهه ويعبس في وجه أعمى، لا يرى التقطيب والعبوس، عصمة لخلقه العظيم من أن تشوبه شائبة لا تتفق مع كماله ومثاليته، ولا تناسب سمو قدره وعظمته.



٤ - استعداد المرء للخير، وقبوله إياه، وتفاعله معه، وانتفاعه به في حاضره ومستقبله أمر من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله - تعالى - ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّكَ يَرْكَنُ﴾.

٥ - الإسلام غني بقيمه، كريم بمبادئه، عزيز بالله - تعالى - تأبى عزته، وترفض كرامته أن يكون صنعة أية قوة أرضية، وأن يكون ظهوره وانتصاره خاضعاً لمشيئة طبقة من الطبقات، وأن يبسط نفوذه وسلطانه في ظل القيم الأرضية، والأعراف البشرية.

٦ - الحقيقة التي تضمنتها الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ أَمَّا نَفْسُ فَآقَرُ﴾ لا ينكرها أحد؛ فجميع الناس يعرفون أن الموت حق، وأنه قضاء محتوم، ولكن الأهواء لعبت دورها في صد أكثرهم عن التصديق بالحقيقة التي تثبتها الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾. وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، وقد جهلوا أن الذي قدر على الخلق بادئ ذي بدء قادر على إعادته. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

٧ - الكافر يستحق الطرد من رحمة ربه، وهو أهل لأن تحل عليه لعنة الله - تعالى - في الدنيا والآخرة، وكفره يثير العجب، ويبعث الدهشة، لأنه لا يذكر نشأته من ماء مهين، ولا يعترف بالقدرة التي نظمت كيانه، وعدلت هيئته، وجعلته بشراً سوياً، وكفلت رزقه، ودبرت قوته، ووفرت طعامه.

٨ - أساس الصلة بين الله - تعالى - وعباده واحد؛ يستوي فيه البشر جميعاً، وهو أنه - سبحانه - خالقهم، ولا إله لهم غيره، ولكن إيمان المؤمنين يجعلهم أولياءه، ويثقل وزنهم في ميزانه، ويرفع درجتهم عنده، وكفر الكافرين يجعلهم أعداءه، ويسقط وزنهم، ويذهب بكرامة إنسانيتهم عنده؛ لأن عدالته لا تقبل التسوية بين المحسن والمسيء ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ؟﴾

٩ - اقتضت رحمة الله - تعالى - بعباده أن يكفل رزقهم، وأن يجعله نتيجة طبيعية لخلقهم؛ سواء منهم من آمن به ومن صد عنه، ولم يعاقب الكافر في الدنيا بحرمانه رزقه؛ ليمتعه متاعاً قليلاً إلى أجل مسمى، ثم يطرده من رحمته في الآخرة، ويضطره إلى عذاب النار.

١٠ - واقتضت رحمته - سبحانه - أن يكشف لنا حجب الغيب، وأن يقص علينا مشهداً من مشاهد يوم القيامة، يختلف فيه حال الخلق، لنرى حال السعداء فنرغب فيها، ونعمل لها، وحال الأشقياء لنرهبها، ونعمل على اتقائها.



سورة الغاشية

ترتيب نزولها وآياتها:

نزلت سورة الغاشية في أواخر العهد المكي، وترتيب نزولها الثامن واليستون، وآياتها ست وعشرون آية.

موضوعها:

- أ - ترتاد النفس البشرية عالم الغيب الذي سبق عالم الشهادة، وطواه حرفاً في سجله، واحتواه نقطة في كتابه، وضمه قطرة في محيطه، وسيبقى بإذن ربنا بعد فنائه.
- ب - وتجوب بالقلب الإنساني عالم الشهادة الذي يشده الحس، ويبهر النفس، ويأسر الوجدان بما ينبث في سمائه وأرضه من دلائل القدرة، وما يموج فيه من آيات الوجدانية.
- ج - وتخلص من رحلتها في هذين العالمين الضخمين إلى تقرير مهمة الرسول - ﷺ - في التذكير والتبليغ.
- د - وتختتم موضوعها بتأكيد البعث والأوبة إلى الله - تعالى - وحتمية الحساب.

عالم الغيب:

الحقائق التي تتصل بعالم الغيب لا يعلمها إلا الله - تعالى - وليست لدى الإنسان وسيلة تكشف له خفايا هذا العالم المشحون



بالعجائب، الحافل بالغرائب إلا ما يحكيه له كتاب الله - تعالى -،
وينقله إليه الوحي الكريم.

وحين زعم أناس أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة طالبهم
القرآن المجيد بإبراز العهد الذي أبرموه مع الله - تعالى - في هذا
الشأن، وإلا كانوا جهلاء، ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً
قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

قيمة الحديث عن عالم الغيب:

الحديث عن عالم الغيب في الكتاب العزيز يحتل جانباً كبيراً منه،
ويمثل ناحية هامة من نواحي الإعجاز فيه، فالكتاب العزيز هو المصدر
الوحيد الذي يقص على الناس أنباء الغيب، ويحدثهم عن بدء الخليقة،
وعن الزمن الذي استغرقه خلق السموات والأرض، ويروي لهم أحداث
الغابرين ومصارعهم، وهو المنبع الذي تستقي منه أحداث الساعة التي
تبدأ بانتهاء الحياة على هذا الكوكب الأرضي، وما يتخللها من صيحة
البعث التي تلبس الناس ثوب الحياة الأخرى، وما يكون للخلق فيها من
أحوال، تختلف باختلاف جرائمهم، وتتنوع بتنوع خطيئاتهم:

١ - فالذين ينكرون قدرة الله - تعالى - على البعث يحشرون مع
شياطينهم الذين زينوا لهم ما كانوا يعملون ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ
وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨].

٢ - والذين يعتزون بغير خالقهم، ويجعلون معه إلهاً آخر يحشرون
خاشعين من الذل، ليس لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله
﴿وَنَرَنَّهُمْ يَعْزُضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ [الشورى: ٤٥].

٣ - والذين يفترون على الله الكذب تسود وجوههم يوم القيامة ﴿وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ

مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾، وعلى هذا النحو يحشر الذين كفروا بعد إيمانهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

٤ - والذين يعرضون عن آيات الله - تعالى -، ويهجرون كتابه يحشرون كالدواب المثقلة بالأحمال، تنوء ظهورهم بما يحملون من أوزار ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ١٠٠].

وعلى شاكلتهم يحشر الذين يزعمون أنها أساطير الأولين ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿[النحل: ٢٣، ٢٤].

٥ - والذين يجمعون بين إنكار البعث والتكذيب بالوحي، ويقترعون أن يرسل الله - تعالى - إليهم الملائكة يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبِكْماً وَصْماً مَا وَنَّهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

٦ - والذين أحاطت بهم خطيئاتهم ترتسم جرائمهم على جباههم، وتنطبع آثارها على وجوههم ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ سِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

٧ - والذين كفروا بربهم وأجرموا يحشرون زرقاً ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].



سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌُ يُومِدُ خَشِيعَةً ﴿٢﴾
 عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ ﴿٥﴾
 لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾
 وَجُوهٌُ يُومِدُ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾
 لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾
 وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَارٍ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾
 أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
 رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
 سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ
 بِمُصَيِّطٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
 الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

تفسير الكلمات والتراكيب

الكلمة	تفسيرها
﴿الْفَاشِيَةِ﴾	القيامة التي تصيب أهوالها الخلق، وتغشاهم.
﴿وَجُودٌ يُؤْمِدُ خَشِيعَةً﴾	جماعة من الناس مُهانة ذليلة.
﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾	عملت في الدنيا، وتعبت.
﴿تَصَلَّى﴾	تذوق وتعذب.
﴿عَيْنٌ آتِيَةٌ﴾	ينبوع ماء شديد الغليان.
﴿ضَرَبَ﴾	نبات شائك رديء.
﴿رَاحِمَةٌ﴾	سعيدة بما أسبغ الله - تعالى - عليها من النعم.
﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ﴾	بجزاء أعمالها فرحة مغتبطة.
﴿لَغِيَّةٌ﴾	عبارة لا فائدة فيها، ولا خير من ورائها.
﴿وَمَارِقٌ﴾	وسائد.
﴿وَزَرَائِي مَبْنُوءَةٌ﴾	طنافس لها خَمَل مفروشة.
﴿ثُبَّتْ﴾	ثُبَّتْ، وأقيمت.
﴿سُطِحَتْ﴾	سويت وفرشت.
﴿يُمَصِّطِرُ﴾	بمتسلط.
﴿مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾	الذي أعرض، وكفر بما جاءه.
﴿الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾	عذاب الآخرة.
﴿إِيَّاهُمْ﴾	مرجعهم، وعودتهم.
﴿حِسَابِهِمْ﴾	جزاءهم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التأويل والبيان

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْفَاشِيَةِ﴾.

هذا البدء نموذج لمنهج القرآن الكريم الفريد في تذكير الناس بربهم، وطريقته المثلى في إقناعهم بقدرته ووحدانيته، وأسلوبه المعجز في دعوتهم إلى طاعته، وابتغاء مرضاته، واتباع عذابه، وهذا الافتتاح يحرك في الإنسان مشاعر الإيمان، ويخاطب وجدانه، ويتحدث إلى قلبه، ويناجي ضميره، ويستحث خطواته بالإقرار بالربوبية، ويحدد مسيرته إلى نور الهداية، ويوقظ نفسه، ويرهف لموحيات الإيمان حسّه، ويجذب انتباهه، ويأسر لبه بهذا السؤال الذي يحمل معاني كثيرة، وينطوي على إحياءات عدة:

- ١ - فهو ينطوي على تشريف رب العالمين للإنسان، وتكريمه بخطابه، وجعله أهلاً لأن يوجه إليه سؤاله، وأن تكون له إجابة عنه.
- ٢ - وينطوي على إيجاد رابطة من التجاوب بين الخالق وعبده، ومد خيط من الاتصال بين الغني عن خلقه - سبحانه - وبين الفقير الذي لا يستغني إلا بموالاه، فحين يفقه المؤمن هذا السؤال فإنه لا يتركه يمرّ دون إجابة، ولكنه يقتدي بنبيه - ﷺ - فيقول: «نعم قد جاءني».
- ٣ - وينطوي على تقرير المسؤول عنه، وإثباته، وأن مجيء الساعة صار أمراً مقررّاً، وقضية مسلمة لا جدال فيها، وحقيقة قائمة لا

خلاف فيها؛ فإن معناه: قد أتاك حديث وقوع الغاشية، وجاءك نبأ الداهية التي تغطي أهوالها جميع الخلق، وتعم أفزاعها الناس، ووصل إلى علمك خبر الطامة التي تغشى شوائدها أهل المحشر ويصيبهم بلاؤها.

٤ - وينطوي على تفخيم أحداث القيامة، وتعظيم أهوالها ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ عَاطِيَةٍ﴾ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ﴿لَا يُسْنُّ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْجُوعِ﴾ [الغاشية: ٢ - ٧].

فريق من الناس لم تخشع قلوبهم في الدنيا لجلال ربهم، ولم تعن وجوههم لعظمته، ولم تشفق نفوسهم من رهبته، ولم تقشعر جلودهم لذكر هيئته، وهؤلاء يحشرون يوم القيامة في حال تنم عن الخزي والمذلة، وهيئة تنبئ بالصغار والمهانة؛ يخيم الحزن على وجوههم، وترتسم الكآبة على جباههم، وتملأ الحسرة قلوبهم، ويعتصر الندم نفوسهم، ويذهل الكرب عقولهم.

فقد نشطوا في حياتهم الدنيا وتعبوا، وكدوا في عمارة الفانية ونصبوا، وحققوا تقدماً مادياً، وأحرزوا سبقاً علمياً، وشادوا صرحاً عمرانياً، وبرهنوا على عبقرية الإنسان في مجال البحث والكشف، وميدان الإبداع والاختراع، وشاركوا في أوجه الخير وأسهموا في ألوان من البر، فوصلوا الأرحام، ورحموا اليتامى، ومسحوا دموع الثكالى، ولكن كفرهم برب العالمين أحبط أعمالهم، واستكبارهم في الأرض بغير الحق أبطل سعيهم، واختيارهم العمى على الهدى أفسد جهودهم، وصدهم عن سبيل الله - تعالى - أضاع ثوابهم، واعتمادهم على خير خالقهم خيب آمالهم، وما مثلهم في فجيعتهم وخسارتهم، وسوء مآلهم إلا كمثّل قوم ظالمين حرثوا أرضاً وزرعوها، وبذلوا جهودهم في رعايتها، وسهروا على العناية بها، فلما حان وقت الحصاد اشتعلت فيها النار، فلم تبق فيها شيئاً.



﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾
[آل عمران: ١١٧]، وما مثل أعمالهم التي يتباهون بها، في الدنيا،
ويدقون لها الطبول حين يحصدنها منجل شقاوتهم، وينسفها بركان
تعاستهم إلا كمثل حفنة من التراب عصفت بها السافيات فلم تدع لها أثراً
﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ
لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وهؤلاء الذين لم تنشرح صدورهم للهدى، ولم يطهر الإيمان
قلوبهم ولم يُزك الإسلام أعمالهم يحل عليهم غضب الله - تعالى -
ويجزيه في الحياة الدنيا، ولهم في الآخرة نار شديدة الحرارة، وقودها
الناس والحجارة، يذوقون عذابها، ويصلون سعيها. ويظلمون في
العذاب خالدين لا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم منه،
ويمكثون في سموم وحميم، وظل من يحموم؛ تلتهب بطونهم من شدة
الظما، فلا مناص لهم من أن يطفئوا غلتهم بماء من حميم، وأن يقبلوا
عليه إقبال الإبل الهيم، وكلما استغاثوا من الصدى أغثوا بماء كالمهل،
وسقوا من عين شديدة الحرارة تقطع أمعاءهم. ولهم بالجوع عذاب
آخر، يجدون لذعه في بطونهم، ويحسون وخذه في أمعائهم، فإذا برموا
به، واشتد ألمهم منه، ولم يستطيعوا عليه صبراً، استغاثوا، فقدم إليهم
نبات شائك أَمَرٌّ من الحنظل، وأشد حرارة من لهيب النار، وأعظم
إيلاماً من السم الناقع، وأنكى من الطوى، لا ينبت اللحم، ولا ينمي
الجسم، ولا يربي العافية، ولا يرد غائلة السغب.

﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمٌ ﴿٨﴾ لِّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ
فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾
وَنَارٌ مَّقْشُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَأٌ مَّنبُوتَةٌ﴾.

وطائفة من الناس خلق الله - تعالى - على وجوههم حسناً وبهاء،

وكساها نضرة وملاحة، وجعلها أنصع بياضاً من اللبن، وأبهر نوراً من القمر، ينعم أصحابها بالأمن من العذاب، ويفرحون بالزاد الذي تزودوه، ويسعدون بقبول العمل الصالح الذي قدموه، ويغتبطون بالشواب العظيم الذي وجدوه؛ يناديهم ذو الجلال والإكرام: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمُ الْمُحَبَّرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨، ٧٠].

فهم في جنة لها من علو الدرجة والمكان في الحسن والعيان ما يهفو إليه كل خاطر، ويعشقه كل وجدان؛ فالعلو محبوب ومطلوب، ولها من سمو النعم، وخلوه من التنغيص، ورفعة الشأن، وشرف المقام، وعلو المكانة ما لا يخطر على قلب بشر، ولا يمر ب فكره.

ولهم في الجنة متاع نفسي، ترتاح إليه مشاعرهم، وتطمئن به قلوبهم، وتحبه أسماعهم، فلا يتعرضون في دار النعيم لأن تهتك حجاب آذانهم كلمة بذينة نائية، أو عبارة مبتذلة باطلة، أو قولة مفحشة، أو حديث فارغ عابث، أو منطق لاغ تافه، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (٧٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وكما نالت أسماع المقربين حظها من النعيم في الطيب من القول ها هي ذي عيونهم تجد متعتها، ونواظرهم تكتحل بمسرتها، وأبصارهم تجد سعادتها، وأحداقهم ترنو إلى الماء المسكوب ينساب من ينابيعه العذبة رقراقاً، وفي الماء سر من أسرار الحياة، وله في نفس الإنسان سحر وتأثير، وله مع قلبه حديث ومناجاة، وفي حركته نبض وحيوية، وفي موجاته سطور فنية، وفي خريره ألحان شجية، وفي صفحته مرآة مسقولة صافية.

ولهم في الجنة أسرة مرفوعة، وفي ارتفاع الأسرة في الجنة العالية ما يوفر لها كل مظاهر الجمال، ويحقق لها صفات الكمال،



ويكفل لها تمام النظافة، وخالص الطهارة، ويهيئ للمتكئين عليها أن تملئ عيونهم محاسن ما أفاء عليهم ربهم من فضله، وأن يشرفوا على ما أعده الله - تعالى - في الفردوس من نعيم، وتضيف آيات القرآن المجيد إلى هذه الرفعة أنها سرور مصفوفة في نظام، وأن فرشها سميك، مضاعف النسيج، وأنها مرصعة باللؤلؤ والمرجان، وأن أصحابها يتكئون عليها متقابلين ﴿عَلَىٰ شُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿[الواقعة: ١٥ - ١٦].

وفي الجنة أكواب فضية مترعة من رحيق مختوم ختامه مسك، وكؤوس خمر من معين لا ينضب، وأنها من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، والأكواب قريبة دانية، مهيئة معدة، لا تحتاج إلى طلب.

وفي الجنة وسائل مرصوفة في صفوف مستقيمة وفي نظام متناسق بديع تهییء للسعداء راحتهم وتمم متعتهم. وأرض الجنة تربتها طيبة، وهي مفروشة بالبسط ذات الخمل، وهذه البسط موزعة في شتى الأنحاء مفرقة في سائر الجهات، مبثوثة في كل مكان، وهي إحدى وسائل الراحة والنعيم.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

أعميت أبصار المشركين، وطُمت بصائرهم؛ فهي لا ترى ما في خلق الإبل من آثار قدرة الله - تعالى - ومظاهر رحمته، ودلائل تدبيره، وبديع صنعته، فهي:

أ - بما أودع الله - تعالى - فيها من قوة، وبما هيأ لها من الضخامة والعلو معدة لحمل الأثقال التي لا يستطيع غيرها من الدواب أن يحملها، وقادرة على بلوغ المكان الذي يشق على الناس بلوغه.

ب - وقد خلقها الله - تعالى - مستعدة للبروك، وجعل قوائمها صالحة للأنشاء تحتها، حتى يلتصق كلكلها بالأرض، وعندئذ تصير

- أخفض الدواب الحَمولة، وأدناها إلى الأرض، ليريحلها الإنسان،
ويوفر ظهرها بأثقاله.
- ج - وهي مذلة معبدة، يقودها الصغير فتنقاد، وينيخها فتستنيخ،
ويعقلها فتظل معقولة.
- د - وهي صبورة على الجوع والظما؛ تكتفي بالغذاء الخشن، وترعى
النبات الشائك الذي لا يرعاه غيرها.
- هـ - ولها منافع كثيرة؛ فهي تعمل في الحمل والحرث والسقي، ومن
لحومها وألبانها وأوبارها طعام ومتاع وأثاث.
- و - وهي مختلفة الخصائص فمنها ذو السنام، وذو السنامين، ومنها
الخفيف السريع الذي يسبق الخيل.
- ز - وهي متعددة الألوان؛ فمنها الصفرة، ومنها البيض، ومنها الحمر
وهي أفضل الأنواع عند العرب.
- أعموا فهم لا يرون أهم الحيوانات عندهم، وأنفعها لهم، كيف
خلقها الله - تعالى - موحية بتدبيره، شاهدة بقدرته، ناطقة بوحدانيته،
دالة على رحمته؟ إن تدبر خلقها لا يعسر على الإنسان، ولا يكلفه
مشقة، ولا يتوقف على حظه من العلم، ولا درجته من الثقافة، ولا
يتطلب منه أكثر من أن يسأل نفسه: من خلقها؟ ومن زودها بخصائصها؟
- ﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾.

وسماء الصحراء صافية مجلوة، تظل العربي في مغداه ومراحه،
وتطالعه في ليله ونهاره، وهو يرى الشمس حين تشرق وحين تغرب
قرصاً متوهجاً كأنها الدينار المضروب، ويبصر النجوم تتشر في صفحتها
ليلاً كأنها المصابيح المعلقة، وبها يهتدي في مسراه، وما أولاه وهو
يجيل فيها بصره أن يتدبر أمرها، ويتأمل أسرارها، وما أحراها أن تحرك
في نفسه تساؤلات كثيرة، واستفسارات عدة تهتف به: من بناها



فأعلاها، ورفع سمكها فسواها؟، ومن أحكم صنعها، وصقل صفحتها وجعلها مستوية لا تفاوت فيها، ولا خلل في بنائها، ولا شقوق في أرجائها، ولا صدوع في سقفها؟، وأية قدرة تمسكها حتى لا تقع على الأرض.

وإذا العقل يقرر أنها لم تخلق نفسها، ويعترف بأن أحداً من الناس لم ينشئها، ولا يجوز أن تكون قد وجدت تلقائياً من غير موجد؛ لأن العدم لا يخلق وجوداً فلا مناص من التصديق بأن الله الذي خلق كل شيء وخلقها.

﴿وَالِىَ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾.

ومن الآيات الدالة على عظمة الخالق - جل وعلا - وإعجاز قدرته، الميسورة لكل راء، القريبة من كل مبصر هذه الجبال الراسيات الشامخات، القائمة على الأرض، المنصوبة فوقها، الغائصة جذورها في أعماقها؛ لتضبط توازنها، وهي حافلة بالمعجزات؛ فمن خلال صخورها الصماء تتفجر الأنهار، وتنبع العيون، وتسيل المياه عذبة سائغة، وفيها كهوف ومغارات يتخذها الناس أكناناً، وفيها طرائق بيض، وحممر مختلف ألوانها، وغرايب سود، ومنها تقطع الأحجار لإقامة الحصون المنيعة، وتشيد القلاع الضخمة، وبناء البيوت الآهلة، ومنها تستخرج أنواع من المعادن، وعليها مسحة من المهابة والصمت تبعث في النفس رهبة وخشوعاً وفي حضنها الساكن يخلد العقل إلى التفكير والتدبر، ويحسب الإنسان بضعفه وضالته.

﴿وَالِىَ الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

وليس ثمة أقرب إلى حس الإنسان من الأرض التي يعيش فوق ظهرها، ويضرب في شعابها، ويمشي في مناكبها، وقد بسطها الله - تعالى - توفيراً لراحته في العمل والسعي والارتحال وفرشها تمهيداً لحراثتها وزراعتها، ودحائها للتمكين من عمارتها، والانتفاع بخيراتها، واستنباط ثرواتها، ومن ترابها خلق الإنسان، وإليه يعود، ومنه يخرج تارة أخرى،

ومن تربتها ذراً الله - تعالى - كل نبات مختلف الألوان، دبّت كل دابة .
﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾.

فذكر بروحي الله - تعالى - وآياته، وذكر بقدرته الشاخصة للعيان في السموات والأرض، وما بث فيهما من دابة، وذكر بالآخرة والأولى، فإن مهمتك أن تذكر الغافلين لينتبهوا، والناسين ليفيقوا، واللاهين ليذكروا، والعاملين ليجدّوا، وأصحاب الإيمان ليتزودوا، وأصحاب القلوب ليعتبروا.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾.

ليس لك على قلوب البشر سيطرة ولا سلطان، ولا على نفوسهم قهر، ولا على عقولهم حَجْر، ولا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً، وما أمرهم إليك، ولا حسابهم عليك، ولا هدايتهم منك، ولا توفيقهم بك.

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۖ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾.

لكن من انصرف عن الحق، وأعرض عن دعوة ربه، وكذب بما جاءه من الوحي، واستكبر عن اتباع رسول الله - ﷺ - فالله - تعالى - يذيقه عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ثم يرده إليه، فيعذبه العذاب الأكبر، في نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾.

ما لهم من عودة إلا إلينا، وما لهم من أوبة إلا إلى ساحة عدالتنا، وما لهم من ملجأ من دوننا، وما لهم من محيص، وإن بعثهم كان حتماً مقضياً، وإن مردهم إلينا كان وعداً مأتياً وعلينا أن نضع الموازين القسط، وأن نقفهم للسؤال، وأن نحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة فعلوها، وأن نوفيهم جزاءهم العادل، ودينهم الحق، ولا يظلمون فتيلًا .



من الدروس المستفادة:

هذه السورة الكريمة تلخص أسلوب القرآن الذي نزل في مكة، وتبين منهجه في دعوة الخلق إلى ربهم، بالحديث عن البعث، وتصوير أحوال الناس يوم الفزع الأكبر، ولفت الانتباه إلى آثار القدرة الإلهية في الآفاق، وتوضيح وظيفة الرسول - ﷺ - فهي:

١ - تبدأ بالتخويف من أفزع القيامة، وأهوالها التي تخشى الناس؛ لتوقظهم من سباتهم، وتذكرهم بربهم، وتستحث خطاهم إلى الإيمان به، والتصديق بالنشور، والأخذ بالسلوك الذي ينجيهم من غضبه، ويعتق رقابهم من عذابه.

٢ - وتتبع هذا التخويف بما يقرر أثره في النفس، وما يُعمق وقعه في الحس، فتصور مشهد الفئة الخاسرة التي تحشر يوم القيامة ذليلة، حبطت أعمالها، وبارت تجارتها، فصليت العذاب، وشقيت بالضريع طعاماً، وبالماء الحارّ شراباً.

٣ - وتنتقل من مشهد الترهيب الذي يملأ القلوب وجللاً ووجيفاً إلى المشهد الآخر الذي يقابله، لتبذر في النفس بذور الرجاء، وتنعشها بنسمات الأمل، وتدفعها إلى البحث عن الوسيلة التي تجعلها في مأمن من هذه النهاية الأليمة؛ فتصور حال الجماعة الناعمة التي امتلأت نفسها رضاً بمسعاها الذي تكلل بالنجاح، وفاءت إلى ظل ظليل من رحمة الله - تعالى - وفازت بالنعيم المقيم.

٤ - وهي بهذه المقابلة تشير إلى أن الخشوع الذي يقوم سلوك صاحبه في الدنيا، ويطبعه على الفضيلة يحقق له الأمن والعزة في الآخرة، وأن الذين لا تخشع في الدنيا قلوبهم لجلال الله - تعالى - ولا تعنو وجوههم لعظمته يخشعون في الآخرة خشوع مذلة من شدة غضبه وهول عذابه، فقد اقتضت رحمته - سبحانه - ألا يجمع

على عبده خوفين، ولا يجمع له أمنين، فمن خافه في الدنيا أَمَّنْهُ يوم القيامة، ومن أَمَّنْهُ في الدنيا أخافه يوم القيامة.

٥ - وقد ذُكِّرَتْ سورة عبس بقدره الله - تعالى - في خلق الإنسان، وتدبير طعامه، وهذه السورة تذكّر بقدرته في الخلق الأكبر، ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وتوجه القلب إلى إدراك جمال صنعته، واستشعار عظمة تدبيره في خلق الإبل، وتزويدها بخصائصها، ورفع السماء بغير عمد، وكثر النجوم في أرجائها، ونصب الجبال، وخلع الجلال عليها، وسطح الأرض، وتذليل مناكبها، كي يذعن هذا القلب لسلطان خالقه، ويصدق بألوهيته، ويطمئن إلى وحدانيته، ويقود صاحبه إلى سبل السلام.

٦ - ولما كان جهاد الكافرين والمنافقين لم يشرع في العهد المكي، فقد بينت السورة الكريمة. أن مهمة الرسول - ﷺ - مقصورة على أن يذكر الناس بربهم، وأن يبلغهم ما جاءه من الوحي، وأن يبشر المؤمنين، وينذر الكافرين.

٧ - وسميت السورة سورة الغاشية؛ لأنها بدئت بتقرير الغاشية، وتناولت أحوال الخلق فيها، واستدلّت على ثبوتها بما ساقّت من شواهد قدرة الله - تعالى - في العالم المشهود، وأمرت الرسول - ﷺ - أن يذكر بها، وختمت بتأكيد الرجوع إلى الله - تعالى -، وحقيقة البعث، وضرورة الحساب والجزاء، وهو ما بدئت به، وبهذا أصبح الحديث فيها خالصاً لموضوع الغاشية.



فَهْرَسُ مَحْتَوَيَاتِ الْكِتَابِ

٥	 المقدمة
٩	 تقرّظ الكتاب/ الدكتور محمد عبد العزيز داود
١٣	 تقرّظ الكتاب/ الدكتور علي محمد شريف

القرآن الكريم

١٧	 ١ - مفهومه
١٧	 ٢ - القرآن والكتب السماوية السابقة
١٨	 ٣ - كيفية نزول القرآن
١٩	 ٤ - لماذا نزل القرآن منجماً
٢١	 عناية النبي والمسلمين بالقرآن
٢٣	 القرآن بين مكة والمدينة
٢٧	 خصائص الاسلوب المكي والمدني في القرآن
٣٤ - ٣١	 الأحرف السبعة
٣٩ - ٣٥	 رسم المصحف
٤١	 إعجاز القرآن الكريم
٤٥	 وجوه إعجاز القرآن
٤٧	 القرآن الكريم بين مزاعم المستشرقين والرد عليهم

سورة النساء

٥١	 سبب التسمية
٥١	 ترتيب نزولها
٥١	 وقت نزولها
٥٢	 طابع السور المكية
٥٣	 طابع السور المدنية
٥٤	 هدفها وغايتها



٥٥	 خصائصها وسماتها
٥٥	 من خصائص هذا المنهج
٥٧	 عرض عام لموضوعات السورة الكريمة
٥٨	 العقيدة السليمة
٦١	 النهوض بمستوى الأسرة
٦٢	 فريضة الجهاد
٦٦	 من جرائم أهل الكتاب
٧٠	 فضح المنافقين وكشف أساليبهم
٧٢	 السياسة المالية الرشيدة
٧٧	 من مظاهر التيسير في الإسلام
٧٨	 فضائل وآداب

الدرس الأول

٨٠	 سورة النساء
٨١	 تفسير الكلمات والتراكيب
٨٢	 التأويل والبيان
٨٣	 الدروس المستفادة
٨٩	 تعدد زوجات الرسول ﷺ

الدرس الثاني

٩٣	 سورة النساء
٩٥	 تفسير الكلمات والتراكيب
٩٧	 التأويل والبيان
٩٨	 الدروس المستفادة
١٠١	 سبب النزول

الدرس الثالث

١٠٨	 سورة النساء
١١٠	 تفسير الكلمات والتراكيب
١١١	 التأويل والبيان
١١٨	 من الدروس المستفادة

الدرس الرابع

١١٩	 سورة النساء
١٢١	 تفسير الكلمات والتراكيب
١٢٢	 التأويل والبيان
١٢٣	 من الدروس المستفادة

الدرس الخامس

١٣٦	 سورة النساء
١٣٩	 تفسير الكلمات والتراكيب
١٤١	 التأويل والبيان
١٤٦	 من الدروس المستفادة

الدرس السادس

١٥٨	 سورة النساء
١٦٠	 تفسير الكلمات والتراكيب
١٦٢	 التأويل والبيان
١٦٥	 من الدروس المستفادة

الدرس السابع

١٨٢	 سورة النساء
١٨٤	 تفسير الكلمات والتراكيب
١٨٥	 التأويل والبيان
١٩٠	 من الدروس المستفادة

الدرس الثامن

٢٠٧	 سورة النساء
٢٠٩	 تفسير الكلمات والتراكيب
٢١٠	 التأويل والبيان
٢١٤	 من الدروس المستفادة

الدرس التاسع

٢٢٨	 سورة النساء
٢٣٠	 تفسير الكلمات والتراكيب
٢٣٢	 التأويل والبيان



٢٣٣	 من الدروس المستفادة
-----	---------------------------

الدرس العاشر

٢٥٢	 سورة النساء
٢٥٤	 تفسير الكلمات والتراكيب
٢٥٦	 التأويل والبيان
٢٥٨	 من الدروس المستفادة
٢٦١	 مناسبة نزول الآية الكريمة

الدرس الحادي عشر

٢٦٦	 سورة النساء
٢٦٨	 تفسير الكلمات والتراكيب
٢٧٠	 التأويل والبيان
٢٧١	 من الدروس المستفادة

الدرس الثاني عشر

٢٩١	 سورة النساء
٢٩٣	 تفسير الكلمات والتراكيب
٢٩٥	 التأويل والبيان
٢٩٩	 من الدروس المستفادة

الدرس الثالث عشر

٣١٦	 سورة النساء
٣١٨	 تفسير الكلمات والتراكيب
٣١٩	 التأويل والبيان
٣٢٠	 من الدروس المستفادة

الدرس الرابع عشر

٣٢٨	 سورة النساء
٣٣٠	 تفسير الكلمات والتراكيب
٣٣١	 التأويل والبيان
٣٣٤	 من الدروس المستفادة

٣٣٧	 مناسبة النزول
٣٣٩	 من الدروس المستفادة

الدرس الخامس عشر

٣٤٢	 سورة النساء
٣٤٤	 تفسير الكلمات والتراكيب
٣٤٦	 التأويل والبيان
٣٤٩	 مناسبة النزول
٣٥٠	 من الدروس المستفادة

الدرس السادس عشر

٣٥٩	 سورة النساء
٣٦١	 تفسير الكلمات والتراكيب
٣٦٣	 التأويل والبيان
٣٦٣	 سبب النزول
٣٦٥	 من الدروس المستفادة

الدرس السابع عشر

٣٧٣	 سورة النساء
٣٧٥	 تفسير الكلمات والتراكيب
٣٧٧	 التأويل والبيان
٣٧٩	 من الدروس المستفادة

الدرس الثامن عشر

٣٩١	 سورة النساء
٣٩٣	 تفسير الكلمات والتراكيب
٣٩٥	 التأويل والبيان
٣٩٩	 من الدروس المستفادة

الدرس التاسع عشر

٤٠٧	 سورة النساء
٤١٠	 تفسير الكلمات والتراكيب
٤١٢	 التأويل والبيان
٤١٦	 من الدروس المستفادة



الدرس العشرون

٤٣٠	 سورة النساء
٤٣١	 تفسير الكلمات والتراكيب
٤٣٢	 التأويل والبيان
٤٣٣	 من الدروس المستفادة

الدرس الحادي والعشرون

٤٣٦	 سورة النساء
٤٣٨	 تفسير الكلمات والتراكيب
٤٤٠	 التأويل والبيان
٤٤٣	 من الدروس المستفادة

الدرس الثاني والعشرون

٤٥٤	 سورة النساء
٤٥٦	 تفسير الكلمات والتراكيب
٤٥٨	 التأويل والبيان
٤٦٣	 من الدروس المستفادة

الدرس الثالث والعشرون

٤٦٤	 سورة النساء
٤٦٥	 تفسير الكلمات والتراكيب
٤٦٦	 التأويل والبيان
٤٦٩	 مناسبة النزول
٤٧١	 من الدروس المستفادة

الدرس الرابع والعشرون

٤٧٢	 سورة النساء
٤٧٣	 تفسير الكلمات والتراكيب
٤٧٤	 التأويل والبيان
٤٧٥	 من الدروس المستفادة

سورة النور

٤٧٧ عرض عام لموضوعات السورة

الدرس الأول

٤٨٨ سورة النور
 ٤٩٠ تفسير الكلمات والتراكيب
 ٤٩١ التأويل والبيان
 ٤٩٥ من الدروس المستفادة
 ٥٠١ سبب نزول الآيات

الدرس الثاني

٥٠٤ سورة النور
 ٥٠٧ تفسير الكلمات والتراكيب
 ٥٠٩ قصة الإفك
 ٥١٧ من الدروس المستفادة

الدرس الثالث

٥٣٣ سورة النور
 ٥٣٥ تفسير الكلمات والتراكيب
 ٥٣٧ التأويل والبيان
 ٥٣٧ سبب نزول الآية الكريمة
 ٥٤١ من الدروس المستفادة

الدرس الرابع

٥٥٦ سورة النور
 ٥٥٨ تفسير الكلمات والتراكيب
 ٥٦٠ التأويل والبيان
 ٥٦٢ من الدروس المستفادة

الدرس الخامس

٥٦٨ سورة النور
 ٥٦٩ تفسير الكلمات والتراكيب
 ٥٧٠ التأويل والبيان
 ٥٧١ من الدروس المستفادة



هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة

www.alukah.net